

إنجي خالد أحمد

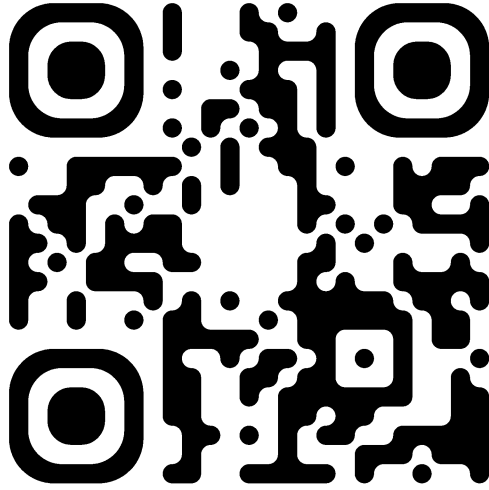
مكتبة

t.me/soramnqraa

اليوتوبيا والديستوبيا في رواية

أحمد خالد توفيق

العربي
للنشر والتوزيع



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة

SCAN QR

اليوتوبيا والديستوبيا

فى رواية أحمد خالد توفيق

اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق

إنجي خالد أحمد

الطبعة الاولى: 2024

الغلاف: بلال محمد

مكتبة

t.me/soramnqraa

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة

ت: +20 2 27921943 - +20 2 27954529 فاكس: +20 227947566

www.alarabipublishing.com.eg



رقم الإيداع: 2023/16178

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 319-8749

بطاقة فهرسة

أحمد، انجي خالد

اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق / تأليف إنجي خالد أحمد -. القاهرة:

العربي للنشر والتوزيع، 2023 - ص: سم.

تدمك: 978 - 977 - 319-8749

1 - القصص العربية - تاريخ ونقد

2 - توفيق، أحمد خالد، 1962-2018

813.009

العنوان



اليوتوبيا والديستوبيا
فى رواية أحمد خالد توفيق

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنجي خالد أحمد

إهداء

أهدي هذا الكتاب، وهو أول كتاب لي، إلى أسرتي الصغيرة،

إلى أبي رحمة الله عليه...

إلى أمي، رفيقة الكفاح...

إلى أخي الأكبر أحمد، قدوتي وسندي

إلى أخي الأصغر محمد، وجهي الجميل الذي أفتقده...

أهديها إلى أستاذتي الحبيبة، الأستاذة الدكتور علياء سرايا، كانتُ دليلي ورفيقتي منذ اختيار موضوع الكتاب الذي كان بالأساس أطروحتي لإتمام متطلبات برنامج الماجستير في العلوم السياسية، وحتى هذه اللحظة...لولاها ولولا إشرافها المتميز المراعي لظروفي كافة، ما خرجتُ الأطروحة أولاً، ولا الكتاب ثانياً....

أخيراً، أهديها إلى دكتور أحمد خالد توفيق، أشكرك يا عَرَّاب الشباب، لم تكن كاتباً تقليدياً، كُنْتُ مُعلماً سواء في مهنتك الأكاديمية أو في كتابتك الأدبية، أشكرك لأنك كُنْتُ مختلفاً ولك غاية في عالم تموّهت فيه السُّبل في وجوهنا وكنت تسعى لتصير منارةً تهديناً ولو قليلاً... أشكرك!

المقدمة

منذ بدء الخليقة، وقد عرف الإنسان ظلم أخيه الإنسان، بل لقد تمتّ أولى جرائم القتل في تاريخ البشرية بين ابني آدم (قابيل وهابيل). ومن هنا، عكف المرء على الحلم بمدينة نموذجية يعمُ فيها العدلُ والمساواة؛ ويحصلُ فيها كل فرد على حقه ويوفى بواجباته تجاه الآخرين؛ وتكونُ خاليةً من الفقر والجوع. في هذه المدينة المثالية -بناءً على ما يأمله الآملون- يبلغُ الإنسان سعادته الحقيقية: التي لا يشوبها ألمٌ والتي يستطيع الخلق فيها العودة إلى فطرتهم السليمة. وأوّل من جسّد هذه التخيّلات على هيئة مشروع كان الفيلسوف اليوناني أفلاطون، والذي آمنَ بقابلية تحقيقه قبل أن يلحق أفكاره بتنقيح ومراجعة. وذلك في كتابه "الجمهورية" الذي سرد فيه أركانَ مشروعه الأهم: المدينة الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة ويسودها العدل، لحقه في ذلك الفيلسوف المسلم والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي في مخطوطته "آراء أهل المدينة الفاضلة" عامداً إلى تخيل شكل هذه المدينة التي يعيش فيها الجميع بقيمهم المثلى.

وفي عام 1516، كتب الفيلسوف الإنجليزي طوماس مور روايته "يوتوبيا" مطلقاً هذا المسمى -للمرة الأولى- على فكرة "المدينة المثالية الفاضلة". وقد اشتقّ هذا اللفظ من اللغة الإغريقية؛ الذي ينقسمُ إلى مقطعين: "يو" أو "U" (والذي يعني باللغة الإنجليزية "لا")، و"طوبوس" أو "Topos" (والذي يعني باللغة الإنجليزية "مكان"). وبالفعل، لقد عرّفه

مور -إذ لديه السبقُ في التسمية- على أنه المكان غير الموجود، إذ تتحقق رغبات الناس المكبوتة في السلام والمثالية، سواء كانت هذه الرغبات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. ثم أعقب مور -في حديثه عن اليوتوبيا- الفيلسوف الإيطالي توماس كامبانيللا عام 1623؛ وذلك في مؤلفه "مدينة الشمس". وفي عام 1627، شارك فرنسيس بيكون في هذا الفكر اليوتوبي بمؤلفه "أطلنطس الجديدة"، والحق أنَّ هذا المفهوم قد تعدَّى مراحل "المدن الخيالية" الموصوفة على نحو أدبي خالص؛ وأصبح يتبع المشروعات السياسية التي تسعى إلى تحقيق "النظام السياسي الأمثل" إذ تستقيم علاقة الحاكمين بمحكوميهم وتستتب. إذن؛ فمن الواضح أنَّ أحلام الإنسان الأولى - التي نسجها على هيئة روايات ومشروعات- كانت تجنحُ إلى المثالية والكمال؛ بل وكانت تراهنُ على الصلاحِ الإنساني⁽¹⁾.

إلا أنه مع بداية القرن التاسع عشر، خرجت دعواتٌ تنددُ بالمشروعات اليوتوبية؛ باعتبارها قصورًا في الهواء لا سبيل إلى تجسيدها على أرض الواقع. وهنا، تولّد مفهومٌ آخر نقيضُ "اليوتوبيا" والوجه المعاكس لها، وهو مفهوم "الديستوبيا". ويقالُ إنَّ هذا المفهوم خرجُ للوجود من أحد خطابات جون ستيوارت ميل البرلمانية عام 1868؛ منذًا بالسياسات الحكومية وتعاملها مع الأراضي الأيرلندية. وهذا اللفظ - بدوره - مستقى من اللغة الإغريقية، إذ ينقسمُ إلى شقين؛ فأما الشق الأول - وهو "ديس" أو "Dys" -، فيعني "سيئ"؛ وأما الشق الثاني - وهو "طوبوس" "Topos" -، فيعني "المكان". ويمكن إطلاق هذا المسمى على الوضع، إذ يمكن تحقيق كل شيء على نحو أفضع وأسوأ. وأخذًا في الاعتبار أنه مفهومٌ يقع على الطرف المقابل للفظة "اليوتوبيا"، فهو يعني "المدينة الفاسدة". وجاء هذا المفهوم ليوصف المدينة التي طغى عليها الفساد، وتجلّت فيها المخاوف المجتمعية الكبرى؛ الجرائم غير المكبوحه؛ والظلم؛ والفتن؛ والقهر؛ والاستبداد؛ والعنف؛ والتعاسة المخيمة. لقد برزَ ليلخُص هيئات النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية الأسوأ والأكثر فسادًا وطغيانًا. ولعل من أبرز الأعمال الأدبية التي صنفتُ أنها أعمالٌ ديستوبية عن جدارة: روايات هــجـويلز (على غرار روايته "آلة الزمن" الصادرة عام 1895 مثلًا)؛ وروايات جورج أوريل (على غرار روايته "1984" و"حديقة الحيوان")؛ ومسرحيات الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (على غرار مسرحية

(1) فرهاد ديوسالار، "اليوتوبيا في شعر نازك الملائكة"، منبر حر للثقافة والفكر والأدب، 2 نوفمبر 2006، تم الوصول إليه في 24 مارس 2020، الساعة 23:00، متاح على: <https://www.diwanalarab.com/>؛ لايمان تاور سارجنت، اليوتوبية: مقدمة قصيرة جدًا، ضياء وُرَاد (مترجم)، (القاهرة: مؤسسة هنداوي 2016)؛ محمد قنفودي، "مركزية المعرفة في مدينة الشمس: قراءة في يوتوبيا الفيلسوف الإيطالي توماسو كامبنيللا"، مجلة مؤمنون بلا حدود: قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، يوليو 2016.

"الأبواب المغلقة")؛ وفي الشعر العربي يمكن تسليط بؤرة الضوء على أشعار نازك الملائكة التشاؤمية (على غرار قصيدة "اليوتوبيا الضائعة")⁽¹⁾.

وليس من العسير -بالنظر إلى مدى الانتشار وحجم المبيعات- الجزم بأنّ الأدب الديستوبي السياسي قد دمغ بصمته وحقق نجاحاً منقطع النظير في الغرب. ولم تكن هذه هي نهاية الرحلة، فبسبب هذا التفوق، انتقل الاهتمام بالأدب الديستوبي إلى العديد من الكتاب في المنطقة العربية؛ والذين - أيضاً - حصدوا تقييمات إيجابية لدى النقاد والجمهور. على سبيل المثال؛ فهناك بعض النقاد الذين تبينوا ملامح الديستوبيا في روايات وقصص "نجيب محفوظ" و"يوسف إدريس" و"عبد الرحمن الشرقاوي"، بل وقد رأى بعضهم أنّ العصر الحديث -خاصةً في أعقاب الثورات العربية التي بدأت أولى شعلاتها في عام 2010- قد شهد صعوداً للأدب الديستوبي في الروايات العربية، فهناك رواية "عطارد" للكاتب المصري محمد ربيع علي، والتي نجحت في بلوغ قائمة جائزة "البوكر" في عام 2016؛ تصفُ حال العالم العربي في عام 2025. هذا غير رواية "2084.. حكاية العربي الأخير" للكاتب الجزائري واسيني الأعرج؛ المستلهمة من رواية جورج أوريل "1984"؛ ورواية "الانحناء على جثة عمّان" للروائي أحمد الزعتر، ولا بد من تأكيد أن هذه الأعمال مجرد أمثلة على الطفرة الديستوبية؛ وليست على سبيل الحصر. إذن يتضح - في هذا الشأن - ذبوع صيت الأدب الديستوبي سواء في الفكر الغربي أو في الفكر العربي على حساب الأدب اليوتوبي أيضاً، سواء في الفكر الغربي أو في الفكر العربي⁽²⁾.

وقد وقع اختيار الكتاب على أعمال الروائي أحمد خالد توفيق الأدبية بوصفها نموذجاً لهذه الحالة حيث اختلال توازن الأدب اليوتوبي نتيجة لازدياد سطوة الأدب الديستوبي. بدأ توفيق طريقه الأدبي في تسعينيات القرن العشرين من خلال سلاسل للخيال العلمي ولل фантаزيا التي خاطب القراء المراهقين والشباب المحبّين للمغامرة والغوص في غياهب الرعب. وفي عام 2008، أصدر أولى رواياته الأدبية التي تستهدف الجمهور البالغ، وهي رواية "يوتوبيا"، وألحقها بأربع روايات أخرى في أعوام متفرقة حتى مماته، وهي "السنجة"، و"مثل إيكاروس" و"في

(1) أسماء خيري، " (1984) وسنوات أخرى: 8 روايات من أدب الديستوبيا"، إضاءات، 26 نوفمبر 2016، تم الوصول إليه في 24 مارس 2020. الساعة 22:00، متاح على: <https://www.ida2at.com/dystopia-novels-1984-and-other-years/>؛ فرهاد بوسالار، مرجع سبق ذكره؛

Houman Nazemian, "Dystopia in Khaled Tawfik Utopia", People: International Journal of Social Sciences, Vol. 5, issue 3, 2019, pp. 251-261, pp. 251, 252

(2) حنان عقيل، "أدب المدن الفاسدة يحتاج الرواية العربية: الأدب العربي من قنطرة الواقع إلى خراب الديستوبيا"، جريدة العرب، العدد 10531، 2 فبراير 2017، تم الوصول إليها في 6 أغسطس 2020، الساعة 20:00، متاح على: <https://i.alarab.co.uk/pdf/2017/02/02-02/p1000.pdf>، ص 15.

ممر الفئران"، و"شآبيب". وفي كل من هذه الروايات الأربع، ويُقصد روايات "يوتوبيا" و"مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران" و"شآبيب"، فإنَّ السمة الطاغية على الحبكة هي ثنائية "اليوتوبيا" و"الديستوبيا"، فالروايات جمعاء تبدأ بمساعي الأبطال الرئيسيين لليوتوبيا، قبل أن يقعوا في شرك "أشرس أشكال الديستوبيا"، ففي رواية "يوتوبيا"، كتب "توفيق" عن مساعي الحكومة المصرية لخلق المدينة الفاضلة في الساحل الشمالي مطلقين عليها اسم يوتوبيا، لكن الحق -وهو ما يقوله توفيق صراحة- أنَّ هذه المدينة خلقتُ أسوأ أشكال الديستوبيا؛ إذ اصطنعتُ برزخًا بين الأثرياء والمعدمين مع إلغاء الطبقة الوسطى تمامًا.

وخلال عام 2015، أصدرَ رواية "مثل إيكاروس". في هذه الرواية، فإنَّ البطل "محمود السمودي" ناجى السحر والشعوذة لبلوغ أخبار المستقبل، ظانًا أنَّ قوته وسعاده ويوتوبياه سوف تتحقق عبر رجم الغيب. لكن أنى ذلك -على خلاف آماله- إلى انسلاخه عن جلد إنسانيته ليصير مسحًا؛ وتعرَّف على أفسى أنواع الديستوبيا في المستقبل. هذا غير ما لقيه في واقعه الذي كان يدورُ عام 2020 من مطارداتٍ من جهاتٍ محلية مستبدة أو دولية لمعرفة ما يعرف، بل إنَّ الرواية تبدأ بأنه -السمودي- قد تمَّ قتله قتلًا مروِّعًا والتمثيل بجثته تمثيلًا شنيعًا.

وفي عام 2016، أصدرَ روايته "في ممر الفئران" لتتضمَّن الثنائية ذاتها حيث رغبة البطل "الشرقاوي" في الوصول إلى اليوتوبيا الضائعة؛ فدخل في غيبوبته ليحلُم بممر الفئران؛ وهو المسمَّى الذي أطلقه توفيق على أكثر الديستوبيا ضراوة، إذ وجد الشرقاوي أنَّ النور -وهو من أساسيات المعيشة- قد أضحى حكرًا على فئة الأثرياء وحدهم. وعادتُ هذه الرواية لتستعرض استقطابًا مشابهًا للاستقطاب الدائر في رواية "يوتوبيا"، ولكن على نحو عالمي أكثر درامية. ومع روايته الأخيرة "شآبيب" إذ توقَّف تدفق إبداعاته نتيجة لموته المفاجئ، الصادرة عام 2018، فإنَّ البروفيسور "مكرم" - أستاذ العلوم السياسية القاطن بالولايات المتحدة- قرَّر اتباع آليات اليهود في قيام دولتهم إسرائيل؛ من أجل تأسيس أركان دولة "عرب الشتات"، وهذا بعد أن أدَّت الشعبية والعنصرية تجاه العرب إلى استحالة عيشهم في هذا العالم الأجنبي. ومن هنا، رأى الجميع أنَّ "شآبيب" - وهي التي ستُقام على جزيرة "بابوا غينيا الجديدة المدانية لأستراليا- هي هذه الدولة وأملوا أن تكونَ اليوتوبيا. لكن ينتهي الأمرُ بديستوبيا حقيقية؛ وانهارتُ الدولة كليا مع انفجار بركانٍ ظل خامدا لمئات السنين، وبذلك، أبيضتُ "شآبيب" ليعود العرب إلى تشتتهم من جديد.

الغريب أنَّ على الرغم من الصيغة التشاؤمية الديستوبية الغالبة على هذه الروايات، فقد كان توفيق روائيًّا محبوبًا من قرائه وبالأخص الشباب الذين همُ عصب المجتمعات والذين من المفترض

أن يكونوا في المرحلة الأزهى من أعمارهم بحيث لا يتقربون سوى ممن يعطيهم الأمل لا من يذكرهم بأوجاعهم. فعقب وفاته المفاجئة في 2 إبريل 2018، عن عمر يناهز الخامسة والخمسين عاماً، كانت جنازته مهيبة أغلب السائرون بها من قرائه هؤلاء، وحُفِرَ على قبره عبارة "جعل الشباب يقرأون"، وحفنتها قصاصات عديدة من القراء أعربوا فيها عن امتنانهم له إما لأن كتاباته حوت قراءات ما كانوا ليتطرقوا إليها لولا؛ أو لأنه غرس بداخلهم مبادئ؛ أو لأنه قوم من أساليبهم اللغوية. ولم يكن الوضع محصوراً على الشباب المصري؛ فقد وجدت قصاصة من شاب من غزة، وأخرى من جبال لبنان، وأخرى من السودان. وكانت الرسائل مفعمة بالمشاعر الصادقة، فذكر أحدهم: "أحببتك فوق قدرتي على الكلام وعلى البوح؛ لولاك ما قرأت ولا تعلمت ولا كتبت، فكم أدين لك بالفضل، وداعاً إلى حين قريب". وبسبب محبة القراء له، فقد أعلن محافظ الغربية بعد يوم واحد من وفاة توفيق، أنه سوف يعنون الشارع الذي كان يعيش فيه توفيق باسمه. وكتب عنه آخرون أنه أثر على ضمير جيل كامل، وتأثيره بحاجة للدراسة. كما فسّر البعض أن ضخامة شعبيته من الشباب تدل على إشكالية الجمهور المصري الناشئ من تجاهل النخب والأدباء رفيعي المستوى لهم. فشعبيته تغلبت على الكثير من الروائيين الذين صعدوا على يدي المؤسسات الثقافية والمجاملات والشلل؛ واحتلت كتاباته مكانة متميزة لدى هؤلاء القراء الناشئين والبالغين على حد سواء للواقع الذي تعكسه بصدق أكبر مما تفعله النخب الأكاديمية والمؤسسات الثقافية والإعلامية المعترف بها. فمثلاً بعد انطلاق روايته "يوتوبيا" بفترة قصيرة - قرابة السنتين -، اندلعت الثورات العربية المنادية بتحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة الطبقة الوسطى⁽²⁾.

وقد ذكرت حنان عقيل في مقالتها "أدب المدينة الفاسدة يجتاح الرواية العربية،"" لا يمكن الحديث عن الأجناس الأدبية بمعزل عن السياق التاريخي والاجتماعي الذي ولد فيه العمل الأدبي وترعرع...⁽³⁾، ويبدو أن ذلك منطقي بالنظر إلى أن انتشار الفكر اليوتوبيو سيادته في

(1) كان توفيق مدخناً شرفاً وأصيب بنوبتين قلبيةتين عامي 2011 وعام 2015 زُرع له عقبيهما جهاز يراقب نبضه ويطلق صدمات كهربائية تعيد الحياة للقلب في حالة الاضطرابات. وتوفي في مستشفى الدمرداش بالعاصمة "القاهرة"، وذلك بعد عملية "كي القلب" أجراها لداوادة "أزمة الرجفان" إذ لم يتحمل قلبه (المصدر:)، "عاجل .. وفاة الروائي أحمد خالد توفيق"، جريدة الدستور، 2 إبريل 2018، تم الوصول إليه في 25 مارس 2020 الساعة 8:30، متاح على: <https://www.dostor.org/2114975>.

____، "وفاة الروائي المصري أحمد خالد توفيق عن 56 عاماً"، العين الإخبارية، 3 إبريل 2018، تم الوصول إليه في 25 مارس 2020 الساعة 9:00، متاح على: <https://al-ain.com/article/egyptian-novelist-ahmed-khaled-tawfik-56-years-old>؛

بلال رمضان، "أسرة أحمد خالد توفيق تكشف لليوم السابع تفاصيل الساعات الأخيرة"، صحيفة اليوم السابع، 6 إبريل 2018، تم الوصول إليه في 25 مارس 2020 الساعة 10:00، متاح على: <https://www.youm7.com/story/2018/4/6/3732776>؛

(2) رامي أبو شهاب، "لماذا تفوقت شعبية أحمد خالد توفيق على كثيرين"، البناء، 18 إبريل 2018، تم الوصول إليه في 5 أكتوبر 2020 الساعة 10:00 صباحاً، متاح على: <https://www.al-binaa.com/archives/article/187584>؛

(3) حنان عقيل، مرجع سبق ذكره، ص 15

العصر النهضوي قد نجمَ عن مجموعة من العوامل السياقية أهمها: التطورات اللاحقة على الاكتشافات الجغرافية، والعثور على قارات جديدة وسواحل مجهولة؛ والإنجازات العلمية الخارقة؛ والتقدم في الجوانب الفنيّة، هذا بالإضافة إلى الثراء الذي تمتعَت به بعض المدن الأوروبية عقب ازدهار التجارة؛ وبزوغ نجم النزعة القومية من جانب؛ وظهور مفهوم الليبرالية الأول: "الفردية الإنسانية"⁽¹⁾. وعلى الجانب الآخر، فقد عزی العديد ظهور "الديستوبيا" في الحضارة الأوروبية على وجه الخصوص إلى سيادة عدم العدالة والمساواة اللاحقة على انتشار الرأسمالية المادية وتردّي الأوضاع الاقتصادية للعَمال، كما زَادَ الوضعُ بشاعةً في أعقابِ الحربِ العالميتين⁽²⁾، إذنْ فإنَّ السياق الاجتماعي والتاريخي -بناءً على هذا الرأي- يؤدي دورًا كبيرًا في عجن وتشكيل الفكر اليوتوبي والديستوبي.

إنّ؛ فمن هذه المقدمة -المسهبة- حول مفهومي اليوتوبيا والديستوبيا؛ وكيف استطاعَ المفهومُ الثاني سحب البساط من المفهوم الأول مع مرور الزمن؛ واكتساح الألب الديستوبي للرواية العربية، ومن ضمنها روايات أحمد خالد توفيق؛ يمكن توضيح أركان لغز الكتاب. يهتم الكتاب بالنظر في الأسباب التي دفعتُ مفهوم الديستوبيا للزحف رويدًا حتى طغى على مفهوم اليوتوبيا بصورة كبيرة في روايات أحمد خالد توفيق. يحلل الكتاب ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق التي تبدأ بطموحات الأبطال في اليوتوبيا، قبل أن تنقلب الأوضاع ليتوازى مع هذه اليوتوبيا ديستوبيا شديدة القسوة تكادُ تطغى عليها وتخنق أحلام الأبطال الوردية تمامًا.

وفيمحاولة الإجابة عن هذا اللغز البحثي، وبالإطلاع على العديد من الأدبيات المتعلقة بمفهومي اليوتوبيا والديسوبيا سواء في الفكر الغربي أو في الفكر العربي، فقد وجدتُ الكاتبة أنّ أحد الأسباب المحتملة المفسرة لهذا الوضع هو "السياق الاجتماعي التاريخي". وفي ذلك تعني أنّ السياق الاجتماعي التاريخي الذي عاشه أحمد خالد توفيق والأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك المؤثرات الثقافية التي تعرّض لها هو وجيله؛ هو ما أرسى حدود كتابته عن ثنائية اليوتوبية والديستوبية. في هذا الشأن، يمكن للباحثة الاستعانة بمفهوم "الخيال المجتمعي" للمفكر "س. رايت ميلز" في مؤلفه الملقب بالاسم ذاته والصادر عام 1959؛ من أجل التدليل على منطقية أطروحتها البحثية. يقومُ هذا المفهوم على فكرة رئيسية مؤداها أنّ في بعض الأحيان، يمتلك الإنسان المقدرة على التفكير بعيدًا عن الروتين المألوف للحياة اليومية؛ وتأمّل الوجود الخارجي بأعين نقدية. لمزيد من التوضيح، فحينما يتمتع الفرد

(1) محمد قنقودي، مرجع سبق ذكره، ص 16

(2) Houman Nazemian, Op. Cit., pp. 251, 252

بالخيال؛ فإنه يتمكن من التفكير خارج الموقف الموضوع به؛ وتقديم وجهات نظر بديلة. وبناءً على تعريف ميلز -نفسه- للمفهوم، فذكر أنهوعي الفرد المتعمق للعلاقة بين تجربته الشخصية وبين المجتمع الأوسع. وفي ذلك، فإنه يقصد أن تجارب الفرد ورؤيته للعالم نتاج للسياق الاجتماعي التاريخي الذي يعيشه مجتمعه؛ وللبيئة المباشرة التي يوجد فيها هذا الفرد. ومن ثم، فقد شدد ميلز على ضرورة دراسة الهيكل الاجتماعي التاريخي لنيل درجة أعلى من الفهم لتجربة المرء. ومن هنا، فالخيال المجتمعي يقصد أن الإنسان في بعض الأحيان يمتلك خيالاً خارجاً عن حدود الواقع الاجتماعي؛ لكنه يظل متأثراً بالموجودات الاجتماعية حوله. أي إن الخيال والمجتمع عاملان يؤثران في بعضهما بعضاً بصورة تبادلية⁽¹⁾، أيضاً ذكر "ريتشارد هوجارت" -في معرض حديثه عن علاقة الخيال المجتمعي بالخيال الأدبي- أن الأدب ليس مرآة عاكسة لحيثيات المجتمع فحسب؛ بل إنه أيضاً نتاج لهذا المجتمع. وفي ذلك جادل أن الأديب لا يكون مُنبئ الصلة عن واقعه الاجتماعي⁽²⁾، وهناك آراء تؤكد أن الأدب الديستوبي في حد ذاته يكون ناجماً عن علاقة الفرد الداخلية مع الحقائق الاجتماعية التاريخية المحيطة به⁽³⁾.

وبذلك، يحاول الكتاب النظر في مدى تأثير السياق السياسي والاقتصادي-الاجتماعي على معالجة أحمد خالد توفيق لثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في رواياته. وقد اعتمد الكتاب على المنهج "البنويي التكويني" باعتباره الأنسب في تحليل نصوص روايات أحمد خالد توفيق بصورة نقدية. فهو منهج جدلي يدرس الظواهر الأدبية من خلال تسليط الضوء على علاقتها بالواقع الاجتماعي. لذا، فهو يؤمن بوجود علاقة بين النصوص الأدبية وبين الواقع المنعكس فيها⁽⁴⁾.

وقد جاء هذا المنهج بدايةً من "المنهج الجدلي الماركسي" لجورج لوكانش، فالأخير -الذي اعتقد في الشيوعية- ربط أشكال الأدب جميعها بالبنية الاقتصادية، وبحث عن العلاقة الجدلية بين البنية الفوقية والبنية التحتية. فبناءً على ما ذكره دكتور أحمد سالم في كتابه

(1) Ashley Crossman, "Definition of the Sociological Imagination and Overview of the Book", ThoughtCo., October 25th, 2019, accessed on April 14th, 2020, at 22:30, available at:

<https://www.thoughtco.com/sociological-imagination-3026756>; C. Wright Mills, The Sociological Imagination, (New York: Oxford University Press, 1959);

عمار علي حسن، الخيال السياسي، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2017)، ص 213

(2) Richard Hoggart, "Literary Imagination and Sociological Imagination", in Speaking to Each other, Vol. 2 About Literature, (London: Chatto & Windus), 1970, pp. 260-274

(3) Sean Seeger, Daniel Davison-Vecchione, "Dystopian Literature and the Sociological Imagination", These Eleven, Vol. 155, no. 1, November 2019, pp. 45-63

(4) مريم مهدي، "جماليات المكان في رواية البيت الأندلسي لواسيني الأخرج: دراسة بنيوية تكوينية"، رسالة ماجستير في الأدب الجزائري، (جامعة المسيلة: كلية الآداب واللغات، 2014)، ص.8.

"البنوية التكوينية والنقد العربي الحديث": "يرى لوكاتش أنَّ الأديب يجب ألا يقتصر دوره في تمثيل الحياة على تصوير التجارب الحسية، وإنما ينبغي أن يكون هناك نوع من ربط تلك الحياة بالجوهر المطلق، والقيم الكلية، وهذه القيم الكلية هي المَجْمَع الذي تلتقي فيه الأعمال الأدبية الكبرى لتكون بنية دالة تمتاز بدرجة عليا من التناسق والوعي"⁽¹⁾.

وأسهـم لوسيان جولدمان في البنوية التكوينية تلك من خلال تأكيده على تأثير الحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبي؛ أي إنَّ هناك طابعاً اجتماعياً للإبداع الفكري والأدبي خاصة. وتقوم نظريته النقدية للأعمال الأدبية على تحليل سوسيو بنائي (Socio-Structural) يظهر في مرحلتين: المرحلة الأولى هي مرحلة "التحليل البنوي للوحدات الداخلية للعمل الأدبي". وخلال هذه المرحلة، يتم التوصل إلى دلالات هذه الوحدات والقانون الذي يحكمها، والنسق الذي يهيمن عليها. والمرحلة الثانية هي مرحلة "ربط البنات الصغرى المكونة للعمل الأدبي بالبنية الكبرى". هذه البنية الكبرى تحتوي على أعمال أدبية أخرى ذات رؤية متناسقة للعالم سواء أنتجها أديب واحد أو مجموعة من الأدباء. في هذه المرحلة أيضاً يتم ربط هذه الرؤية بالبنية الأوسع في المجتمع من خلال "التناظر البنائي" و"الترابط الجدلي"⁽²⁾.

من هنا، ينطلق الكتاب من أنَّ روايات أحمد خالد توفيق لم تتولَّد من الفراغ؛ بل إنَّها موصولة بالواقع الذي عاشه أحمد خالد توفيق خلال مرحلة كتابته. ومن ثمَّ، فهذا يصب في اعتقادات جولدمان حول "الطابع الاجتماعي للإبداع الفكري والأدبي". من هنا، فالكتاب سوف يعملُ على فحص السياق الاجتماعي/السياسي/الاقتصادي/الفكري (الوطني والعالمي)/الأدبي الذي يحيط بفترة كتابة أحمد خالد توفيق لهذه الروايات. ثمَّ قراءة دقيقة لنصوص رواياته من أجل فهم القوانين التي تحكم هذه النصوص (يتفترض الكتاب أنَّ القانون الأكبر لهذه النصوص هو "توازي اليوتوبيا مع ديستوبيا). بعد ذلك تأتي المرحلة الثانية، وهي محاولة تحديد علاقة كل نص من هذه النصوص الأدبية (باعتبارها بنى صغرى) ببعضها مع بعض ومع بعض أعمال توفيق الأخرى أيضاً قدر الإمكان، ومع أعمال أدباء مصريين آخرين لهم رؤية عالم متسقة مع رؤيته توفيق (باعتبارها البنية الكبرى).

(1) د. أحمد سالم ولد أباه، البنوية التكوينية والنقد العربي الحديث: دراسة لفاعلية التهجين، (الإسكندرية: المكتبة المصرية للطباعة والنشر

والتوزيع، 2005)، ص 41.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 49.

الفصل الأول

نشأة أحمد خالد توفيق
ودراسته واهتماماته وكتابه



يحاول هذا الفصل الكشف عن كل ما يخص حياة أحمد خالد توفيق من حيث نشأته ودراسته، وما كان يقتنص اهتمامه خلال حياته قبل التوجه إلى ذكر كل أعماله الأدبية بجانب رواياته المعنية في الدراسة، وأخيرًا يدرس السمات المميزة لأسلوب كتاباته الأدبية.

أولاً: النشأة والدراسة

إنه "أحمد خالد توفيق فَرَّاج"، وُلِدَ في العاشر من يونيو عام 1962 ووافته المنية في الثاني من أبريل عام 2018، وقد كانت مدينة "طنطا" بمحافظة الغربية مسقطاً لرأسه ولم يغادرها طيلة عمره إلى حين وفاته؛ حيث التحق بالمدرسة الابتدائية فيها ثم تخرج من "كلية الطب جامعة طنطا" عام 1985؛ وحصل على شهادة الدكتوراة في تخصص "طب المناطق الحارة" (Tropical) في عام 1997 منضمًا إلى هيئة تدريس الكلية، وبات بعد أعوام أستاذًا بالكلية. وقد بدأ الخوض في معترك "أدب الرعب" منذ صغره لسبب أكد عليه في إحدى المقابلات وهو أن لغته الإنجليزية لم تكن مُتقنة بحيث تمكنه من قراءة أدب الرعب العالمي، لذا فكّر في أن يكتب فيه بنفسه، خاصة وأنه يشعر أنه بالكتابة يحافظ على استقراره العقلي، وعندما قطع أنه يرغب في نشر أعماله ورقياً، فقد جاء الأمر وهو في الثانية والثلاثين من عمره بعد أن اكتفى من كتابته السرية لنفسه طوال الوقت، وقال إنه وصل "لنقطة الاكتفاء" بعدما أدرك أنه يتقدم في العمر وعليه أن يواجه المجتمع، رافضاً أن يكفى بأصدقائه المقربين الذين يعرف أنهم سيقولون له أنه عبقرى ويمدحون أعماله دائماً، وفكر أنه لو لم يتخذ هذه الخطوة في هذا الوقت، فلن يتخذها أبداً، ووصف الأمر أن "البقرة ينبغي حلبها وإلا فلبئها سوف ينضب"⁽¹⁾.

وهكذا، وفي عام 1992، قصد "المؤسسة العربية الحديثة" بروايته "أسطورة مصاص الدماء"، والتي قابلها الناشرون بالنفور لكون "أدب الرعب" مستحدثاً عليهم آنذاك، ونصحوا البعض بهجر هذا النوع الأدبي والتوجه إلى "الأدب البوليسي" على غرار كتابات نبيل فاروق ومحمود سالم، وكاد توفيق - وهو ما سرده في أغلب لقاءاته - أن يسلم وجهه لجرعة الإحباط ويهجر الكتابة كلية، لولا أن انفجرت الأزمة بإصرار أحمد المقدم -وهو أحد مسؤولي المؤسسة- على أن يقابل توفيق مدير المؤسسة، الأستاذ حمدي مصطفى، والذي تشبّث بالرواية وأعاد عرضها على لجنة أخرى والتي

(1) Tahira Yaqoob, "Ahmed Khaled Towfik, Egypt's Doctor of escapism", The National: Arts and Culture, March 16, 2012, accessed on March 25th, 2020 at 11:00, available at: <https://www.thenational.ae/arts-culture/books/ahmed-khaled-towfik-egypt-s-doctor-of-escapism-1.391594>

أعلنت إعجابها بها وأكوا وجود بذور الإبداع فيها ووصفوها بأنها ذات أسلوب ممتاز وبها حبكة روائية مثيرة. هنا عرف توفيق أن نبيل فاروق هو الذي أنصف الرواية في هذه اللجنة أمام الآخرين مما خلق علاقة ود بين الأدبيين؛ بل في جميع اللقاءات مع توفيق، فإنه يذكر امتنانه لنبيل فاروق الذي لولاه لنبد التأليف ولما وصل قلمه إلى أي أحد⁽¹⁾.

المطلع على سيرة أحمد خالد توفيق يجد أنه كان شديد الالتصاق بمدينة التي ولد ونشأ بها، طنطا في محافظة الغربية، فلم يكن ساعياً للانتقال إلى القاهرة، والتي لم يكن يحبها بصورة شخصية، فكان يتحدث الجميع بأنه سوف ينجح دون الخروج إلى العالم. وعندما طلب بعض الصحفيين غير المصريين لقاءه؛ فقد جاءوه في طنطا والتقطوا له الصور بجانب مسجد "السيد البدوي" كرمز للمدينة. مع ذلك، ورغم عدم انخراطه مع العاصمة، فقد كان منتشراً بين جمهور العاصمة من خلال مقالاته التي عمل على نشرها بصورة دورية في العديد من الجهات، فكانت له مثلاً مجموعة مقالات نشرها على شبكة الإنترنت تحت عنوان "قصصات قابلة للحرق"⁽²⁾؛ بالإضافة إلى مقال أسبوعي في جريدة "الدستور" المصرية؛ وآخر في جريدة "التحرير" المصرية؛ وآخر في موقع "بُصْ وطلُ"⁽³⁾؛ وآخر في جريدة "الاتحاد الإماراتية". وفي جميع هذه المقالات اتسم بالأسلوب السردي المتمع مع الغوص في مجالات غير مطروقة بكثرة⁽⁴⁾. ولهذا فإنه ذكر في أحد لقاءاته: "أي إنني نجحت في الإتيان بالقاهرة إلي وأنا فخور بهذا الأمر"⁽³⁾، ولعل محبته لطنطا تنبع من ميله الطبيعي إلى العزلة والرجوع إلى مشاهدة المحيطين له؛ إذ أقر أنه هرب من القاهرة، لأنه كلما سعى للاندماج مع الأجواء الصاخبة هناك، وجد أن هذا يأتي على حساب كتابته، كما كان يرى "القاهريين" عصبين ويضيعون أغلب أوقاتهم في الذهاب من مكان لآخر نتيجة للزحام الشديد والسدة المرورية. هذا بينما يعتقد أنه مهما ازدحمت "طنطا"، فستبقى تمنح الفرد فرصة الاختلاء بنفسه⁽⁴⁾. بل في حوار آخر، ذكر أنه يشارك "محمد أنور

(1) _____، "من هو أحمد خالد توفيق؟"، Arageek، تم الوصول إليه في 3 أكتوبر 2020، الساعة 3:00 صباحاً، متاح على:

<https://www.arageek.com/bio/ahmed-khaled-tawfiq>

(2) محمود الشورى، "أحمد خالد توفيق.. كيف تميز عن غيره؟"، فُرَبَة، 2 أبريل 2020، تم الوصول إليه في 18 سبتمبر 2020، الساعة

5:30 عصرًا، متاح على: <http://www.qurbah.com/2020/04/distinguished-ahmed-khaled-tawfiq/>؛ محمد عبد الحنان،

"المجتمع المصري في رواية يوتوبيا للدكتور أحمد خالد توفيق"، أفلام الهند (مجلة إلكترونية محكمة)، العدد الرابع، ديسمبر 2017، متاح

على: <https://www.aqlamalhind.com/?p=849>

(3) "لقاء مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج ممكن"، CBC، مرجع سبق ذكره.

(4) _____، "لقاء مع د أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، 2010، تم الوصول إليه في 6 أكتوبر 2020، متاح على:

https://www.youtube.com/watch?v=39Tveor0Dzs&ab_channel=AhmedHussien؛ ولقد ذكر استعانتة بفتر لحفظ أفكاره من النسيان

في مقال له بعنوان "القصاص ما زالت في جيبى" (المصدر: أحمد خالد توفيق، الغز وراء السطور، (القاهرة: دار الشروق للنشر، 2017)، ص 33-39).

السادات" في كره "القاهرة"، وأنه ينزعج من ضوضائها وزحامها وعوادمها، ومن فكرة أن يضطر لتقضية "90%" من حياته في الشارع يحاول الرجوع لبيته، كأن يؤمن أن بقاءه بعيداً عن القاهرة نأى به عن الصراعات أيضاً، لعله كأن يعرف أن ضريبة البقاء في "طنطا" هي ألا يتم صنع أي فيلم أو مسلسل لأعماله؛ إذ إن الأمر يحتاج الإقامة في القاهرة وامتلاك علاقات جيدة مع المشتغلين بال مجال الفني، إلا أنه كأن راضياً بأن يضحي بكل شيء كي يعيش في مكان لا يستثير أعصابه⁽¹⁾.

ومن الأمور التي كأن لها وقعٌ على أحمد خالد توفيق، هو انتماؤه للطبقة الوسطى بحيثُ لاقى ذات المصاعب التي واجهها أغلب أبناء هذه الطبقة من الحاجة إلى تحقيق ذاته وكذلك تأمين لقمة عيشه، وهذا الأمر دفعه إلى السفر -كحال كثيرين من الشباب - إلى السعودية لفترة من الوقت للعمل واكتساب رزقه؛ فعملَ مديراً لنظم الحواسيب في إحدى الشركات⁽²⁾، وقد عاصرَ خلال شبابه في الكلية التيارين الشيوعي والإسلامي المتطرف؛ فذكر في لقائه بـ "مدحت العدل" عام 2015 بعدَ صدور روايته "مثل إيكاروس"، أنه كأن في كليته شخصاً منفتحاً يقابل الشيوعيين والإسلاميين، إذ كأن يحب أن يعاصرهم ويعرف المزيد عنهم، فأكد أنه "يوم السبت" كأن يحضرُ "جلسات شعر" لسيد قطب وهاشم الرفاعي، ويوم الأحد كأن يلتقى باليساريين والشيوعيين؛ ولهذا كأن واثقاً جداً في قدرته على أن يكتب عن كلا المجتمعين بأفكارهما وتقلباتهما، ولقد كأن مدرّكاً أن كلا التيارين ليسا سوى أداتين في يد السلطة السياسية في وقته، بحيث قال إنه إذا أراد النظام ضرب الموالين لجمال عبد الناصر، وطدوا من سلطة الإسلاميين في مواجهتهم، وإذا وجدوا سلطة الإسلاميين تزداد، كسروهم وأضعفهم واعتقلوهم؛ لهذا لم ينجرّف إلى أي منهما خاصة التيار الإسلامي، إلا أنه كأن "ناصرياً"؛ ومؤمناً بفكر "جمال عبد الناصر"⁽³⁾.

ولقد وصفه أحد القراء أن له لغة تقليدية لا تتجدد مقارنةً بلغة علاء الأسواني أو أحمد مراد أو محمد المنسي قنديل الذين بدأوا أغلبهم الكتابة بعدَ توفيق بسبب مكوثه الدائم في مدينة طنطا بعيداً عن رحاب التجربة والتجوال ولكونه محافظاً اجتماعياً. وقد رأى هذا

(1)؛ "لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج "مكن" CBC، 6 فبراير 2014، تم الوصول إليه في 7 أكتوبر 2020، متاحٌ عل:

https://www.youtube.com/watch?v=NvTaW6vaTUc&ab_channel=CBCEgypt

(2) ____، "لقاء مع أحمد خالد توفيق"، قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(3) أحمد خالد توفيق، اللغز وراء السطور، مرجع سبق ذكره، ص 63؛ ____، "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -

برنامج أنت حر"، CBC2، 17 فبراير 2015، تم الوصول إليه في 8 أكتوبر 2020، متاحٌ عل:

[https://www.youtube.com/watch?v=l2ulWlnnruk&ab_channel=CBCTrwo&fbclid=IwAR1gR3goAVo2R-](https://www.youtube.com/watch?v=l2ulWlnnruk&ab_channel=CBCTrwo&fbclid=IwAR1gR3goAVo2R-6MEJTWcNpE-tNswWRoU7mVtJmrf0gVoyToUTkpgmZmlY)

6MEJTWcNpE-tNswWRoU7mVtJmrf0gVoyToUTkpgmZmlY

القارئ أن توفيق كان يدعي المحافظة الاجتماعية بدليل أنه -توفيق- قد اعترف لسوزان شاندراف في كتابها "أدب التمرد" أنه يميل "للأدرية" أي التشكك في الدين وأن هذا ما لم يكن يستطيع الاعتراف به لقراءه. كما أنه مهووس بالثقافة الأمريكية بدليل كثرة اقتباساته من أفلام وروايات وأغاني تخص الحياة الأمريكية. والحق أن بعد نشر مقال هذا القارئ بساعات، فقد نفى أحد المقربين من توفيق صفة "اللاأدرية" مؤكداً أنه تواصل مع توفيق الذي أخبره أنه لم يقل هذا الأمر والأمر مردّه سوء الترجمة⁽¹⁾.

وبطبيعة الحال، فإن أحمد خالد توفيق قد تأثر تأثراً كبيراً بوظيفته "أستاذاً في كلية الطب بجامعة طنطا" في تخصص "طب المناطق الحارة"، فقد آمن أن الكتابة لا يمكن أن تصبح مهنة رئيسية للإنسان؛ فاستمر في وظيفته حتى بعدما صار عالماً من أعلام الأدب المصري المعاصر ودأب على الترقّي فيها حتى بلغ الأستاذية عام 2008، فكان يقول إن الطب أعطاه مصدراً للموضوع الذي يؤلفه إذ إنه يضطر لمقابلة الناس وهم في أضعف لحظاتهم مهما كانت مهنتهم، فيمكن أن يلتقي بوزير وهو يرتعد خوفاً من الموت⁽²⁾. وهذه المهنة أثّرت في طريقة كتابته وفي شخصيات رواياته وسلسله مثل شخصية رفعت إسماعيل في سلسلة "ما وراء الطبيعة" والتي كانت أول ما تقدّم به إلى الجمهور، كان رفعت طبيباً لأمراض الدم؛ عجوزاً أعزب يعاني الكثير من الأمراض يقصص ذكرياته مع أمور خارقة للطبيعة شاهدها ومرّ بها في شبابه؛ بل وكان أيضاً يسرد بعض الحكايات التي لم يشهدها وإنما وصلته في رسائل، هذا بالإضافة إلى كتابه -توفيق- الساخر "الطريف في طب الريف"؛ حيث تعرّض إلى فترة التكليف التي يقضيها الطبيب إذا كان في المناطق الريفية، هذا علاوة على سلسلة "سافاري" والتي كان بطؤها (دكتور علاء عبد العظيم) أيضاً طبيباً يشتغل في الكاميرون والتي تعد بؤرة للأمراض والأوبئة، ويتكثف فيها عمل طب المناطق الحارة، وفي هذه السلسلة ذكر توفيق تاريخ وأسباب الكثير من الأمراض وشعوب هذه المناطق، لدرجة أن بعض القارئات من خلفيات طبية أفادوا منها كثيراً، ولم يكتف فقط بالجانب الطبي من القارة السمراء، وإنما تعرّض أيضاً لأزمة التدخلات الأجنبية في القارة والسحر والشعوذة والديانات الغريبة، بل في روايته "مثل

(1) محمد جمال. "مثل إيكروس: أحمد خالد توفيق يحتاج إلى التحليق للأعلى دون أن ينظر ورائه"، إضاءات، 3 إبريل 2015، الساعة 11:00، متاح على:

(2) Tahira Yaqoob, Op. Cit.,

بل ولقد أُلحِد في أحد اللقاءات مع الإعلامي "خيري رمضان" عام 2011، أن الأدب كان الوسيلة التي من خلالها تغلّب على مآزق دراسته الطبية كالرسوب في بعض الأحيان وركود عمله في العيادة، ولقد اضطرّ إلى إغلاق عيادته لأنه رأى أن الكتابة والعمل في عيادة أمر شديد الصعوبة، وهكذا اكتفى بالعمل الأكاديمي. المصدر: "لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج ممكن" CBC، مرجع سبق ذكره.

إيكاروس"، كانَ سرد الرواية على لسانِ الطبيب "محمود" النفسي الذي كانَ يضيف بين الموضوع والآخر معلومات طبية عن الأمراض النفسية⁽¹⁾.

وفي أحد لقاءاته، تحدثَ عن سعادته حينما يتمكن بعض قرائه من الإجابة عن الأسئلة العلمية البحتة بالتعويل على كتاباته الخاصة⁽²⁾. ويمكن اقتباس عبارة ذكرها في أحد اللقاءات معه: "الأدب ليست واحة هروب للأطباء.. الأمر أن هناك البذرة الأدبية في الإنسان؛ ثم يعرضه الطب لتجربة إنسانية فريدة حيث يرى الموت والولادة وتوسل القضاة والوزراء للحياة.. أنت تستكشف التجربة الإنسانية في مشاهد لا تنسى.. فمثلاً لن أنسى مشهد الست الريفية التي تحملُ زوجها وتدخل به إلى المشفى.. هناك فتاة صغيرة ريفية خيطةُ لها جرحاً جاءتني في اليوم التالي بكوز درة.. فأعجبني ذلك حقاً لأنها أعطتني كل ما تملك!"⁽³⁾.

ثانياً: اهتمامات أحمد خالد توفيق

من الجدير بالذكر أنه كان لتوفيق مجموعة من الاهتمامات التي يمكن الزعم أنه كان لها دور قوي في كتاباته ومسيرته الأدبية الطويلة التي تخطتُ الستة والعشرين عاماً، وبالأساس كائنٌ:

1- الاطلاع على الأدب الكلاسيكي العالمي واشتغاله بالترجمة: بدأ أحمد خالد توفيق الكتابة في سنِّ العاشرة؛ حيثُ نسج قصصاً للمغامرة والإثارة، وفي ذلك، فقد أفادَ من المكتبة الكبيرة التي امتلكتها أسرته وبالأخص والده. في هذه المكتبة، فقد طالع منذ صغره الأدب الكلاسيكي البريطاني والأمريكي والروسي أمثال مارك توين وتشيكوف وتولستوي، وقد وجدَ أنَّ لغة هذه المؤلفات الكلاسيكية ساعدته على تمرين وتحسين نطقه للإنجليزية حيثُ مالَ إلى الحديث بهذه اللغة الكلاسيكية بدلاً من اللهجة الدارجة في الشارع. وعن مكتبته تلك، ذكر أنَّ أباه كانَ رجلاً مثقفاً بحيث كان يتم إنفاق أغلب دخل الأسرة في شراء الكتب⁽⁴⁾، وقد ظلَّ توفيق محباً لهذا الأدب العالمي والكلاسيكي، وتعرَّضَ لأغلبه أكثر مع

(1) "من هو أحمد خالد توفيق؟"، Arageek، مرجع سبق ذكره.

(2) مي فهمي، "أربعة أسباب جعلت كتابات أحمد خالد توفيق تعيد الشباب للقراءة"، في الفن، 3 أبريل 2018، تم الوصول إليها في 4 أكتوبر 2020، متاحٌ عن: <https://www.filfan.com/news/83405>

(3) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج "أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(4) Tahira Yaqoob, Op. Cit.,

عمله في "المؤسسة العربية الحديثة" مترجماً لسلسلة "روايات عالمية للجيب"⁽¹⁾، وحاول أن يستغل هذه المعرفة الأدبية الضخمة من خلال تقديم سلسلة "فانتازيا" التي بدأ إصدارها عام 1996؛ والتي تدور حبكة حول شخصية تُدعى عبير عبد الرحمن العاملة في إحدى المكتبات والعاشقة للأدب، فتتوه بين الآن والآخر في عالمٍ روائي لأحد الأدباء المشهورين، فبهذه السلسلة سعى ليقدم الأدب الكلاسيكي للقراء المصريين والعرب سواء المراهقين أو الشباب؛ معلّقاً على ذلك أن الشباب ينظرون إليه ليس بوصفه كاتباً بل معلماً، وهو ذاته فخور بتأدية هذا الدور في حياتهم، خاصة وأنه يشعر أنه مثل والدهم⁽²⁾.

وقد كان "استيفن كينج" من المؤلفين الغربيين الأحب إلى قلب توفيق، والذي استعار واستخدم بعض تقنياته السردية في كتاباته⁽³⁾. غير ذلك، فقد تأثر توفيق به في عدّة أوجه أخرى أهمها كيفية النظر إلى أدب الرعب، فتوفيق مؤمنٌ بمبدأ استيفن كينج أن ما يجذب القراء إلى أدب الرعب هو مبدأ "الإحلال"؛ أي إن هذا الأدب يستعرض أسوأ السيناريوهات التي يمكن أن تصل الأمور إليها، شرح هو ذاته الأمر أن المريض إذا شاهد الزومبي، فلسوف يطمئن أنه مهما ساءت أحواله الصحية فلن يتشوه وجهه مثلهم، بل أنه يرى جاذبية في الرعب أنه يجعل الإنسان يقترب من الموت دون أن يموت حقاً، مثل الاقتراب من "الدبة" في حديقة الحيوان دون أن يتم الإضرار به⁽⁴⁾، أيضاً من الأعلام الأدبية العالمية التي أثّرت في كتابة توفيق الأدبية هم الأدباء الروس مثل مكسيم جورجي، كما يحب مارك توين وبرنارد شو الكاتبين في الأدب الساخر وكذلك سومرست موم⁽⁵⁾، وقد كان واعياً إلى اختلاف نمط رواياته عن روايات "جي. كي. رولينج" -مؤلفة سلسلة روايات هاري بوتر، فلقد قرأ هذه السلسلة وتسلّى بها لولا أنه يؤمن أنها لم تكن لتنجح لو صدرت في مصر والوطن العربي لاحتياجها لقارئٍ لديه موروث "دسم" عن السحر والسحرة، ويرى استحالة أن

(1) وهذه السلسلة تسعى إلى تبسيط الأدب العالمي للقراء الناشئين، وقد أحب العمل بها؛ إذ رأى أن "الترجمة الحرفية للنص الأدبي تفيّد النقاد؛ لكن الشباب لا يقرأونها.. فأنا أحاول تبسيطه ليكون مقروءاً للشباب في سنّ السابعة عشرة؛ ولمن أراد الاستزادة كنت أضيف في العمل نفسه رابطاً للنص الأصلي": "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(2) Tahira Yaqoob, Op. Cit.,

(3) محمود عبد الحميد، "هكذا تكلم أحمد خالد توفيق: أسطورة رفعت إسماعيل"، إضاءات، 13 يونيو 2020، تم الوصول إليها في 16 سبتمبر 2020، الساعة 4:00 فجراً، متاح على: <https://www.ida2at.com/thus-spoke-ahmed-khaled-tawfiq-the-legend-of-rifaat-ismail>

(4) "لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج ممكن" CBC، 6 فبراير 2014، تم الوصول إليه في 7 أكتوبر 2020، متاح على: https://www.youtube.com/watch?v=NvTaW6vaTUc&ab_channel=CBCEgypt

(5) كريم الدجوي، "س و ج: أحمد خالد توفيق"، Nature، 30 نوفمبر 2014، تم الوصول إليه في 5 أكتوبر 2020، الساعة 12:00 ظهراً، متاح على: <https://arabicedition.nature.com/journal/2014/11/3628>

يصل هو أو غيره لشهرة كاتبة السلسلة "جي.كي. رولينج" لأسباب عدة منها الأمية المستفحلة وضعف الحالة الاقتصادية التي تصعبُ من إصدار كتب ضخمة بأسعار مرتفعة، مع ضمان الإقبال الشديد من القراء عليها. وفي رؤيته تلك، يمكن القول إنه يفهم طبيعة المجتمع المصري وأهم المشكلات الحياتية التي يعيشها وأهمها الفقر والامية وانعدام ثقافة القراءة⁽¹⁾، وقد تطرّق إلى مسألة نهمة في كتابة المراجع العلمية للمادة الأدبية التي يكتبها، وأكّد أنّه قد تأثّر في هذه الناحية بالمؤلف مايكل كرايتون⁽²⁾ والذي كان عاشقا للمراجع العلمية⁽³⁾.

2- الاهتمام بالأدب العربي والمصري: ولم يكف توفيق بمطالعة الأدب الكلاسيكي العالمي فحسب، بل كانَ للأدب العربي والمصري نصيبٌ من اهتمامه، ولعل من أهم هؤلاء الأدباء العرب والمصريين الذين يقر توفيق أنهم ألقوا بظلالهم على كتابته الأدبية هو الساخر محمد عفيفي الذي استقى منه توفيق الروح الساخرة، وكانَ على وشك إصدار عدد جديد تابع لسلسلة "فانتازيا" باسم "هكذا تكلم عفيفي"؛ لولا أنه تُوفي قبل أن يقوم به⁽⁴⁾، هذا غير نبيل فاروق "صاحب سلسلة رجل المستحيل" والذي سبقت الإشارة إلى دوره المصري في تقديم توفيق لعالم الأدب؛ وظل توفيق يعبر عن العرفان له في كل المناسبات الممكنة ويردد أن لولاه لتوقف عن الكتابة سريعاً، وقد عملَ في سلسلة "روايات عالية للجيب" التي بدأها نبيل فاروق حتى عددها السابع؛ وأكملها توفيق نظراً لانشغال الآخر في أعمال أخرى، هنا ترجمَ توفيق العديد من الأعمال أهمها "رحلة إلى مركز الأرض" لجون فيرن، و"جزيرة الدكتور مورو" لجورج ويلز، ورواية (1984) لجورج أوريل، ورواية "الدكتور جيكل والسيد هايد" للويس ستيفنسون، ورواية "أليس في بلاد العجائب" لتشارلز لوتويدج دودسون، و"موبي ديك لهيرمان ملفيل" و"الفك المفترس" لسبتر بينشلي⁽⁵⁾. أيضاً، تأثّر توفيق بيوسف إدريس "رائد القصة القصيرة الواقعية" ونجيب محفوظ، ويحيى حقي، فقد تربي على روايات نجيب محفوظ كـ"الثلاثية"،

(1) سماح عادل، "أحمد خالد توفيق.. مصدر أدب الرعب والفانتازيا للمجتمع المصري"، Kitabat، 7 أبريل 2018، تم الوصول إليه في 5 أكتوبر 2020، متاح على: <https://kitabab.com/cultural/>.

(2) مايكل كرايتون (Michael Crichton) كانَ مؤلفاً أمريكياً ومخرجاً يعد من أشهر من كتبوا في الخيال العلمي: وقد كانَ يشتهر بأسلوبه المفرط في توثيق الهوامش والمراجع العلمية. ما يجعل الرواية خليطاً من الفن والدراسة العلمية. بالإضافة إلى ذلك، كانَ لديه أسلوب خاص في الكتابة: إذ يكتبُ على هيئة فقرات. في الفقرة الأولى يسرد الحدث؛ والثانية يخصصها من أجل التفسير العلمي لهذا الحدث.

(3) "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة. مرجع سبق ذكره.

(4) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

(5) "من هو أحمد خالد توفيق؟"، Arageek، مرجع سبق ذكره.

ورواية "رحلات ابن فطومة"، ورواية "حديث الصباح والمساء"، ورواية "السراب"، والأخيرة تعلّم منها الغوص في التفاصيل الدقيقة للنفس البشرية دون تعقيد⁽¹⁾.

بالإضافة إلى ذلك، كان لدى توفيق وعي دائم بموقعه بين الأدباء العرب الآخرين. ومن ذلك، فإنه يفتن إلى المحاولات المصرية السابقة عليه في مجال أدب الرعب؛ ومن ثمّ فهو جاء لإضافة لبنة لهذا الصرح وليس للبدء فيه من الصفر، فذكر في أحد اللقاءات معه أنه لم يدع قط أنّ كتاباته "ستناطح" كتابات يوسف إدريس أو صنع الله إبراهيم، وإنّ كان يعتقد أنّ كتاباته ترقى عن كتابات أجاثا كريستي التابعة لأدب "البوب"، كما كان واعياً لوجود بذرات من أدب الرعب في الأدب العربي مثل رواية "العنكبوت" لمصطفى محمود، والتي يعدها مرعبةً في مناحٍ عديدة، وكذلك رواية "نداء المجهول" لمحمود تيمور، لكنه في الوقت ذاته يعرف أنها كتابات نادرة لأن الكتابات الواقعية هي التي تسيطر على الأدب العربي، ولأنّ أدب المغامرات وأدب الرعب وأدب الخيال العلمي قد وصلوا للعالم العربي متأخراً، ليقول عبارة مهمة في هذا الصدد وهي: "وهو ذات الأمر الذي ينطبق على كل نواحي الحياة لدينا، كل الأشياء تصل إلينا متأخرة.. الأدب.. الفنون.. الديمقراطية"⁽²⁾.

وتتضح من لغته سمة التشاؤم التي يتمتع بها في رؤيته للعالم وبالأخص العالم العربي ومركزه الهامشي بالنسبة إلى النظم الثقافية والأدبية وكذلك السياسية العالمية، وإنّ لديه نزعة إلى كتابة المغامرات في الأدب، لملاحظته أنّ رغم تنوع الأدب العربي، فهو "محدود القراء"، فقرر أنّ يصنع "خلطة" تمزج الأدب بالمغامرة فيما اسماه بمصطلح "تأديب المغامرة" أو "تغمير الأدب"، فكان هدفه الرئيسي في الكتابة؛ هو الموازنة بين ما يحب قراءته في كتاباته، وبين ما يرغب للقراء أن يجدوه في كتاباته؛ إذ يردد دوماً أنه يحاول للوصول للمعادلة الوسط وهي أنّ يكتب ما يريد هو أن يكتبه وما يريد الشباب أن يقرأوه، وفي الحديث عن علاقته بالأدباء، فقد وصلته تعليقات صنع الله إبراهيم أنّه قارئ نهم لكتاباته ويتمتع بها؛ ومثلما عقب توفيق، فهذا الأمر يكفيه عن ثرثرة النقاد⁽³⁾، والحقيقة أنّه لمح في معرض أحد لقاءاته أنّه قد تأثر بـ "صنع الله إبراهيم" فيما يخص كتابة المراجع العلمية للمادة الأدبية التي يكتبها⁽⁴⁾.

(1) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج "أنت حر"، مرجع سبق ذكره.

(2) سماح عادل، مرجع سبق ذكره؛ محمد هشام غيبه، "أحمد خالد توفيق: رواياتي أرقى من روايات أجاثا كريستي.. وأكثر تأثيراً من روايات نجيب محفوظ ودوستوفسكي"، ديوان العرب، 1 أكتوبر 2003، تم الوصول إليه في 17 مايو 2022 الساعة 16:00، متاح على: <https://www.diwanalarab.com/>

(3) سماح عادل، مرجع سبق ذكره.

(4) "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

وقد أكد في عدة مواضع أنه لا يتأثر بجماهيرية المؤلفين؛ ولا يقرأ لشهرة أحدهم؛ بل إن لديه لائحة بأسماء العديد من المؤلفين العرب والمصريين يحب القراءة لهم حتى لو لم يكونوا مشهورين. ومن أمثال هؤلاء: رجائي عlish⁽¹⁾ بمجموعتيه القصصيتين الوحيدتين "لا تكن قبيحاً" و"كلهم أعدائي"؛ وقصائد عبد الرحيم الديب؛ وأشرف الخميسي؛ ومحمد عبد القهار وروايته "سرايانامة". أمّا علاء الأسواني، فقد كان من أكثر المؤلفين المصريين الذين انبهرتوفيق بتجربتهم الأدبية، خاصة مع روايته "عمارة يعقوبيان" التي أحدثت نقلة في السوق الأدبية المصرية وأعادت الشباب للقراءة⁽²⁾. وفي هذا الصدد، يُذكر أن لتوفيق مقالاً كتبه قبيل وفاته عن رواية "جمهورية كأن" لعلاء الأسواني يجذل في مدحه لها ولفكرتها الجريئة، ومثلما سيرد في الكتاب، فإنه يدين لعلاء الأسواني بالفضل في تجديد شكل الأدب المصري والعربي بعد أن تعقّد تعقيداً⁽³⁾، وقد كان توفيق محباً للقصة القصيرة؛ وواعياً إلى صعوبته، وتأثر -في قواعد هذا الفن- بكتاب "رشاد رشدي"؛ بعنوان "فن القصة القصيرة" إلى حد أنه أفرّد مقالاً كاملاً في أحد كتبه بعنوان "فن القصة القصيرة" إذ راجع بعض هذه القواعد والتي استخرج منها أن هذا الفن شديد الإرهاق لأنه محدود؛ فذكر "تكثيف اللحظة شيء صعب"⁽⁴⁾.

3- شغفه بالسينما: كان توفيق من عشاق السينما؛ ولطالما نظر إليها باعتبارها أرقى الفنون وأفضلهم قيمة، ويبرر ذلك أن هناك بعض المشاهد والأصوات والانطباعات التي لا يستطيع أي قلم - مهما وصلت براعته - تجسيدها، بل لقد بلغ ولعه بالسينما إلى حد أن توقع انقراض الكتب بعد ثلاثين أو أربعين سنة، وأن السينما هي التطور الطبيعي للمؤلف الروائي. ومن ثم، فقد انتابته الرغبة في كتابة مسلسل يتناول أدب الرعب بصورة مختلفة؛ وكانت قراءاته للسيناريوهات أكثر من قراءاته الأدبية، لولا أنه كان على علم بأن هذه الرغبة لن تتحقق سوى من خلال منتج متحمس ومخرج ذي بصيرة جيدة، وظل

(1) الأديب محمد رجائي عlish: مؤلف مصري لم ينجز الكثير من الأعمال الأدبية؛ وهما المجموعتان القصصيتان "لا تولد قبيحاً" و"كلهم أعدائي"، وفي عام 1979 انتحز بعد أن أطلق الرصاص على رأسيه في سيارته بالقرب من شقته؛ ولم تكن الشرطة قادرة على تحديد أسباب هذا الانتحار إلى أن ظهرت رسالة انتحاره التي ذكرت: "عشت هذه السنين الطويلة وأنا أحلم بالانتقام من أفراد المجتمع الذين أفلحوا في أن يجعلوني أكثر بكل شيء"، وكان معروفاً بميله الاكتئابية ونظرتة القاتمة لنفسه وللمجتمع الذي لم يتقبل قباحته ودماثة وجهه... المصدر: شروق عبيد الله، "عن الأديب محمد رجائي عlish"، ساقية، 15 أبريل 2016، تم الوصول إليه في 7 أكتوبر 2020، متاح على: <http://www.saqya.com/>

(2) "حوار مع أحمد خالد توفيق وآخرين-برنامج وصفوا لي الصبر"، Ten TV، 30 مارس 2018، تم الوصول إليه في 6 أكتوبر 2020، متاح على: https://www.youtube.com/watch?v=bMvUGYiCqPQ&ab_channel=TeNTV

(3) أحمد خالد توفيق، "كانها جمهورية كأن"، إضاءات، 24 مارس 2018، تم الوصول إليه في 21 ديسمبر 2020، الساعة 11:30 ليلاً، متاح على: <https://www.ida2at.com/as-if-republic-novel-review/>

(4) أحمد خالد توفيق، اللغز وراء السطور، مرجع سبق ذكره، ص 63-66.

يردد أنه إذا لم "يغزُ" الدراما والسينما، فلن يعد نفسه قد حقق كل ما تمنى⁽¹⁾، بل لقد ألفَ سلسلة "أفلام الحافظة الزرقاء" التي تحتوي على معلومات وآرائه عن أفلام شاهدها في صغره وشبابه لكي يعرّفُ الشباب بها مقدما فيها نحو 100 فيلم، وهي التجربة التي وصفها بالماتعة له، كما كانت لديه تجربتان للسيناريو مكتوبتان ولكن لم يكن قد تم تحويلهما لفيلم بعد⁽²⁾.

ثالثاً: كتابات أحمد خالد توفيق

لم تكن "ما وراء الطبيعة" هي السلسلة الوحيدة التي ألفها؛ بل أيضاً كتبَ سلاسل ثلاث أخريات وهي "سلسلة فانتازيا" التي بدأ يصدرها في عام 1995، وسلسلة "سفاري" عام 1996؛ وسلسلة "WWW" عام 2006، ولكل من هذه السلاسل موضوعاً منفرداً تتخصص به أعداؤها ومختلفاً عن الأخرى، ويمكن القول إنَّ إجمالي عدد القصص التي نشرها ضمن هذه السلاسل وصلَ إلى 236 قصة⁽³⁾، والحق أنَّ هذه السلاسل الثلاث كانتْ شهيرة ومحبوبة بدرجة كبيرة من قبل القراء؛ وهناك مقالات متعددة عن ذكريات هؤلاء القراء الذين كانوا يدخرون مصروفاتهم لابتياح الأعداد. فمثلاً، في حالة سلسلة "ما وراء الطبيعة"، فقد وصلتْ إلى ثمانين عدداً قبل أنْ يقرر توفيق إماتة "رفعت إسماعيل" حتى لا يحدث أي طارئ قد يدفعه لعدم إكمال السلسلة، عندما أعلن عن موت هذه الشخصية، تشكلت منصات إلكترونية تسمي توفيق "حاصد الأرواح" مطالبين إياه بإعادته للحياة⁽⁴⁾، إلا أنه تمسك بموقفه إذ قال إنه أمات "رفعت إسماعيل" لتأكيد أنَّ السلسلة ليست تجارية يتحصل منها على قوت يومه ولأنَّه يدرك أنه على أعتاب فقدان قارئ هذه السلسلة بعد مُضيَّ قرابة العشرين سنةً على بداية كتابتها، كان قد قرر منذ عشر سنوات قبل هذه الخطوة أنْ يجعل لهذا البطل "نهاية كريمة" وليس أن "يرتد إلى أرذل العمر"، وقد كان واعياً لأسباب شعبية شخصياته بين الشباب والقراء، وبالأخص شخصية "رفعت إسماعيل"، لأنها -كما يرى- شخصيات مثل "المرايا" التي يرى فيها القراء أنفسهم لأنها شخصيات مليئة بالعيوب، شبههم بشخصية "دونالد داك" في "ميكي" الذي هو محبوب أكثر من "ميكي" ذاته لاتسامه بالمشاعر الإنسانية مثل الحب والكره والغيرة⁽⁵⁾.

(1) سماح عادل، مرجع سبق ذكره.

(2) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج "أنث حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(3) _____، "كتب أحمد خالد توفيق pdf"، مكتبة نور، تم الوصول إليها في 17 ديسمبر 2020، الساعة 2:30 صباحاً، متاح على:

<https://www.noor-book.com/tag/>

(4) مي فهمي، مرجع سبق ذكره.

(5) "لقاء مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج "ممكن"، CBC، مرجع سبق ذكره.

ولم يكتفِ "توفيق" بهذه السلاسل القصصية، بل خطا خطوته الأولى إلى عالم التأليف الروائي الناضج عام 2008 مع إصدار روايته الأولى "يوتوبيا" مع دار "ميريت" للنشر، والحق أنها أثارت الإعجاب وتمت ترجمتها إلى لغات متنوعة ولم تتوقف دار النشر عن طبعها لسنوات لاحقة عديدة، ونالت المرتبة الثانية في لائحة دار ميريت للأعلى مبيعاً، وقد كانت هذه الرواية -على وجه الخصوص- من أكثر رواياته التي استقبلها جمهوره بالترحاب والنقد كذلك، لكونها مرته الأولى التي يؤلف فيها رواية بالغة تمس قضية انعدام المساواة في المجتمع المصري، وقد ظلت هذه الرواية ملهمة لبعض محلي الأحوال الاقتصادية المعاصرة للبلاد مع اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء⁽¹⁾ لا سيما أن توفيق قد عوّل فيها على إحصائيات واقعية للفقير في مصر وعلى بحث عن الإدمان والعنف في المجتمع المصري⁽²⁾، هذا قبل أن يصدر رواياته التالية والتي لم تحقق الشهرة ذاتها، لكن ظلت ذات مكانة مميزة في قلوب قارئها وهي: رواية "السنجة" عام 2012، ورواية "مثل إيكاروس" عام 2015، ورواية "في ممر الفئران" عام 2016، ورواية "شأبيب" عام 2018⁽³⁾.

غير ذلك، فقد كانت له مجموعات قصصية عديدة وشديدة الثراء تدور في فلك أدب الرعب والخيال العلمي، ولعل من أهمها هي مجموعة "قوس قزح" الصادرة عام 2005 المكوّنة من سبع قصص كتبها بمشاركة تامر إبراهيم، ومجموعة "الآن نفتح الصندوق 1" التي صدرت عام 2007 تضمّ خمساً وعشرين قصةً الصادرة، ومجموعة "عقل بلا جسد" التي احتوت على اثنتين وعشرين قصةً عام 2008، ومجموعة "الغرفة رقم 207" ذات الإثنتي عشرة قصةً عام 2008 أيضاً. علاوةً على ذلك، فهناك مجموعة "حظك اليوم" القصصية والتي تشبّك في سياق درامي واحد التي صدرت كذلك عام 2008. وفي عام 2009، تابع إصدار مجموعته "الآن نفتح الصندوق 2" والتي تحتوي على 22 قصة؛ ومجموعة "الآن أفهم" المكوّنة من ثلاث عشرة قصةً، ومجموعة "E.S.P" القصصية ذات اثنتين وعشرين قصةً، ولم ينقطع سيل هذه المجموعات القصصية، ففي عام 2010، أصدر مجموعة "الآن نفتح الصندوق 3" وبها أربع عشرة قصةً. وفي عام 2012، أصدر مجموعة "لست وحدك" التي

(1)Nada Deyaa, "Is Ahmed Khaled Tawfik's Utopia coming true", Daily News Egypt, May 30th, 2016, accessed on March 25th, 2020, available at: <https://www.dailynewssegypt.com/2016/05/30/is-ahmed-khaled-tawfiks-utopia-coming-true/>.

(2)Sholto Byrnes, "Utopia, by Ahmed KhaledTawfik", The Independent. September 18th, 2011, accessed on March 25th, 2020, available at: <https://www.independent.co.uk/arts-entertainment/books/reviews/utopia-by-ahmed-khaled-towfik-6132395.html>.

(3)"كتب أحمد خالد توفيق pdf"، مرجع سبق ذكره.

ضُمَّتْ ثَمَانِي قِصَصٍ. وفي عام 2013، نشرَ مجموعته القصصية "أكواريل" وبها تسع قصص، ومجموعة "الهول" التي بها ثماني قصص عام 2014⁽¹⁾.

ولا يمكنُ أبداً التغاضي عن مساهماتِهِ في الكتابة الصحفية والتي بدأها عام 2004 مع مجلة "الشباب" الصادرة عن مؤسسة "الأهرام، بالإضافة إلى هذا، فقد كانَ لديه مقال أسبوعي (كل يوم ثلاثاء) في جريدة "الدستور" المصرية"، وآخر أسبوعي (كل يوم اثنين) في جريدة "التحرير"؛ وآخر أسبوعي في موقع "بُص وطلّ"؛ وآخر أسبوعي بعنوان "هلاوس" (كل يوم سبت) في جريدة "الاتحاد" الإماراتية. وفي هذا الصدد، يمكنُ التطرق إلى ما انتالَ من قِلمِهِ من مقالاتٍ تم جمعها في كتبٍ، فمن أهم هذه الكتب: كتاب "أنتَ لا تساوي كلب" عام 2006 الذي قامَ به بالاشتراك مع "محمد سامي وآخرين"؛ وكتاب "7 وجوه للحب" الذي شاطره مع دكتور "نبيل فاروق" ودكتور "تامر إبراهيم" وآخرين عام 2007؛ وكتاب "عشاق الأدرينالين" مع دكتور "تامر إبراهيم" و"سند راشد دخيل" عام 2008، وكتاب "دماغي كده" عام 2008 الذي تكوّن من 48 مقالاً انغمس خلالها في توضيح رؤاه فيما يخص الأوضاع العربية السياسية كالعراق ولبنان وغيرهما، وكذلك الصراع العربي-الإسرائيلي، هذا كله بالإضافة إلى كتاب "فقاقيع" المكوّن من خمسة وخمسين مقالاً عام 2009؛ و"الغث من القول" عام 2010، و"شاي بالنعناع" عام 2012، و"قهوة باليورانيوم" عام 2012، و"ضحكات كئيبة" والذي تكوّن من أربعين مقالاً ساخراً عام 2012، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل كانَ له كتاب "وساوس وهلاوس" عام 2014، و"شربة الحاج داوود" عام 2014 الذي تناولَ فيه موضوع العلم وأشباه العلماء، وكتاب "ولد قليل الأدب" الذي اشترك فيه مع "محمد سامي" و"محمد فتحي" عام 2015، وكتاب "الحافظة الزرقاء" وهو عبارة عن خمسة وثلاثين مقالاً خاض فيها بأمر حبّه الشديد للفن السينمائي وتحَدَّثَ عن أكثر الأفلام قرباً لقلبه، عارضاً أهم البيانات حولهم مثل فيلم "إنهم يطلقون الرصاص على الأحصنة، أليس كذلك؟!"⁽²⁾.

وكانَ لـ"توفيق" باعٌ في الموسوعات أيضاً، فجادَ بموسوعة "الظلام" ذات المائتين صفحة، المتخصصة في أدب "الرعب" وحده التي أنتجها بالاشتراك مع "سند راشد دخيل" عام 2006، وموسوعة "هادم الأساطير" ذات المائة والعشرين صفحة أيضاً بالاشتراك مع "سند راشد دخيل" سعى من خلالها إلى طرح مجموعة كبيرة من الأساطير وتفسيرها

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) المرجع السابق نفسه.

ودحضها. وفي الكتب، كانت له أيضًا تجاربٌ عدَّةٌ مثل كتاب "الحافة" الصادر عام 2008 الذي ناقش خلال صفحاته الحقائق الغريبة والمثيرة للاهتمام، وكتاب "تويات من العصور الوسطى" عام 2014 وهو عبارة عن مجموعة من الخواطر، ومن أهم ما طرحه هو كتاب "اللغز وراء السطور" والذي كان عبارة عن مقالات مغزولة في حبه للأدب الذي أوضح العديد من جوانب "توفيق" الأدبية، وكتبه كمساعدة للمقبلين على الكتابة لكن بأسلوب تشويقي غير تنظيري. هذا بالإضافة إلى كتابه "خواطر سطحية سخيفة" عام 2017 والتي تفلسف فيه عن البشر وعن الحياة⁽¹⁾.

كما أنَّ توفيق كان مشهورًا في عالم "الترجمة" كذلك، بل كان يستفيد منها لتخصيص خياله بالإضافة إلى موسوعة معلوماته، ومن أشهر ما ترجمه هو سلسلة "رجفة الخوف" -وهي روايات رعب مترجمة، ورواية "ديرمافوريا" للكاتب "كريج كليفنجر" عام 2010 ورواية "عداء الطائرة الورقية" لكاتب الأفغانستان "خالد الحسيني"؛ ورواية "451 فهرنهايت" للكاتب "راي برادبوري"، ورواية "1984" للكاتب "جورج أوريل، ورواية "كتاب المقابر" للكاتب "نيل جايمان" عام 2013، واستطاع أن يوفر الترجمة الوحيدة لرواية "نادي القتال" للكاتب "تشاك بولانيك" عام 2005، هذا غير ما ترجمه ضمن سلسلة "روايات عالمية للجيب"⁽²⁾.

رابعًا: موقفه من النقد الأدبي

ربما يكون مفيدًا في هذا الموضع إضافة موقف "توفيق" من النقد الأدبي، فقد كان ممن لا يشغفهم هذا الأمر بتاتا، بل كان يمتلك نظرة سلبية تجاه العديد من النقاد، فكان يذكر أنه يحمد الله أنهم يتجاهلونه لعلهم أنَّ بعضهم "ينام سعيدًا هانئًا" بعدما يعرف أنه أوصل كاتبًا للتوقف عن التأليف، كان يعتقد أنَّ النقاد العادلين المنصفين نادرون، وكفاه أنَّ أحد هؤلاء النقاد حينما سئل عن كتابات الشباب الحالية أجاب أنه لا يتابع هذه الكتابات من الأساس، وهكذا كان توفيق يرى قصورًا في قدرة هؤلاء النقاد على النقد في العموم ونقد رواياته وكتاباته بوجه خاص مثل روايته "أرض العضايا" - وهي إحدى قصص سلسلة "ما وراء الطبيعة" التي تنبأ فيها توفيق أنَّ العرب سينقرضون وسيقتصر وجودهم على المتاحف، فذكر في هذا الموضع: الرواية، وقد يبدو ذلك تشاؤمًا مني، تحكي ما قد يحدث للعرب بعد عشر سنوات أو ما يزيد بقليل، فبعد ستين عامًا من الآن سينفد

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) المرجع السابق نفسه.

مخزون البترول في الدول العربية، ولن يعود هناك أي فائدة منها من وجهة نظر العالم الغربي، ثم إن السياسة الحالية -والذي حدث في العراق نموذج لها - تقوم على أن يبتلع الثعبان العصفور ويقنعه بأن في ذلك حياة له! بعض من قرأ الرواية ظن أنها تمجيد في "بن لادن"، وأمثاله لأنها دعت إلى مقاومة الهيمنة بامتلاك الأسلحة المناسبة، ولكنها ليست كذلك على الإطلاق، فقط هي كما قال أبوالقاسم الشابي منذ سنين: (لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب)، وكالعادة نظر النقاد إلى الرواية بنظرة التعالي نفسها⁽¹⁾. غير ذلك، فلم يكن توفيق يؤمن بوجود معايير موحدة للأدب الروائي يمكن أن يستخدمها النقاد لتقييم أعماله؛ ومن ثم، فقد أكد أنه بات مع الوقت قادراً على التمييز بين أنواع النقد الذي يصله وأنه ينبغي أن يأخذه بجديه؛ وأنه ينبغي أن يأخذه بخفة، فكان مدركا لوجود "استقطاب" كبير في الآراء على أعماله، ورأى أن هذا يؤكد نظريته حول عدم القدرة -بعد- على إيجاد الأسس الموحدة لتقييم الأدب الروائي، ومن ثم يتبع "رضاه الخاص" عن القصة التي يؤلفها⁽²⁾.

خامساً: سمات كتابة أحمد خالد توفيق الأدبية

مثلاً قيل في بداية الفصل أن لكل أديب يبرز نجمه أسلوباً أدبياً يميزه عن غيره ويكون علة شهرته، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أحمد خالد توفيق الذي تعددت سمات أسلوبه إلى حد التعرف على كلماته ولو لم يُذكر اسمه عليها. وفي هذا الصدد، فإن أهم سمات كتابته الأدبية تتلخص في الآتي:

1- الكتابة باللغة العربية الفصحى وبساطة التعبير وعمق المعاني ومرونته الأدبية: كان أسلوبه عربياً فصيحاً، ولم يكن يضحي بذلك قط إلا في بعض المواضع التي يذكر فيها ألفاظ بلغة إنجليزية أو إغريقية لحساب النص أيضاً⁽³⁾. كما تتسم كتابته ببساطة التعبير، لكن عباراته تكون غائرة المعنى، بحيث يتمكن من إيصال مضمون ما يريده بأقل الكلمات الممكنة، فلم يكن يعتمد على السرد المطول؛ بل على الإيجاز⁽⁴⁾، وفي أحد لقاءاته أكد عدم رغبته في أن تكون الكتابة تعذيباً للقارئ أو إشعاره بالهزيمة⁽⁵⁾، بل

(1) سماح عادل، مرجع سبق ذكره.

(2) "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(3) Ibid., p.192

(4) آية محمد، "هل يحمو النسيم الرقيق آثار أقدام أحمد خالد توفيق"، قرية، 3 أبريل 2019، تم الوصول إليه في 28 سبتمبر 2020

الساعة 4:20 عصراً، متاح على: <http://www.qurbah.com/2019/04/ahmed-khaled-tawfik-3>

(5) مي فهمي، مرجع سبق ذكره.

وصفه بعض النقاد أنَّ له أسلوبًا سهلًا شيقًا ذا الإيقاع السريع الذي لا يجعلُ القارئ يملُّ وتنغرس الدروس المستفادة في رأسه⁽¹⁾. بالنسبة لمرونته الأدبية، فهذا لأنَّه استطاع التحول إلى أدب الرواية الخالص في عام 2008 مع رواية (يوتوبيا)، حينما أدرك أنَّ مجال القصص المسلسلة لن تتمكن من التعريف بآرائه السياسية وآرائه المتعلقة باللاهوت⁽²⁾.

2- تكرار العبارات وكثرة الاستشهادات: وفي رواياته جميعها، فقد كان يعتمد على أسلوب أدبي غريب نوعًا ما مثل تكرار بعض العبارات وبعض الفقرات الكاملة حينما يودُّ إعطاء الإيحاء للقارئ بأنَّ هذا الوضع يتكرر على نحوٍ مثيرٍ للملل؛ واللجوء المستمر للعبارات المقتبسة التي جمعها في رواية "يوتوبيا" تحت عنوان (أغاني الأورجازم)، أيضًا فإنه يستشهد في رواياته بالكثير من الأعمال السينمائية مثل فيلم "GangsofNewYork" و"Platoon" في رواية "يوتوبيا"؛ وأعمال مسرحية كأعمال "بريخت" الذي تأثَّر بأفكاره المسرحية كثيرًا، وكذلك لجأ إلى ذكر العديد من الحوادث في التاريخ الروماني والإغريقي⁽³⁾.

3- الواقعية: تعمَّد توفيق في أغلب إن لم يكن جميع - كتاباته الأدبية أن وصف أبطاله بأنَّهم غير خارقِي الوسامة، وأبدانهم ليست فتيةً، بل إنَّهم أشخاص عاديون يمكن لقاءهم في الشارع وعدم الالتفات إليهم بلا مميزات مبالغ فيها، وهذا على غرار شخصية (رفعت إسماعيل) الذي يراه الجميع مجرد أستاذ جامعي عجوز ضجر نحيل، صحته في تدهور مستمر، وكانت أولى مغامراته في سنِّ الخامسة والثلاثين بما يضاهي الخمسين بسبب ضعف بنيته وعدد الأمراض التي يعانيتها. وفي ذلك، فإن توفيق هدفَ إلى إبراز الجمال الذي يمكن العثور عليه في هذه الشخصيات الواقعية العادية. فعلى الرغم من أنَّ "رفعت إسماعيل" ما هو إلا أستاذ جامعي منفر خارجيًا، فمغامراته -التي عرضها توفيق بحرفية على مدار عقود- أظهرت جوانبه الجمالية الخفية، أيضًا في سلسلته "فانتازيا"، فالبطلة "عبر عبد الرحمن" كانت تعيش في منطقة شعبية ودميمة الشكل وغير مميزة في شيء سوى في خيالها⁽⁴⁾.

(1) محمد عبد الحنَّان، مرجع سبق ذكره.

(2) حسام فهمي، "أحمد خالد توفيق: من هو الرجل الذي يبكيه جيلٌ كاملٌ؟"، إضاءات، 3 أبريل 2018، تم الوصول إليه في 18 سبتمبر 2020، الساعة 4:00 فجراً، متاحٌ على: <https://www.ida2at.com/ahmed-khaled-tawfik-who-is-man-who-weep-> whole-generation /، "من هو أحمد خالد توفيق؟"، Arageek، مرجع سبق ذكره.

(3) Dinar RafisovichKhayrutdinov, Op. Cit., p.192

(4) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

بل وقد وصفَ هذه الظاهرة باسم نموذج الشخصيات المضادة للبطلية أو (Anti-Hero) أي الأبطال التي لا تجيدُ شيئاً خارقاً وقد اتبعها ليكسر الملل، وقد أُكِّدَ في عدَّة مواضع أنَّه على الرغم ممن يعتقدون أنَّه ابتكر هذا النمط الأدبي، فإنه لم يخترعه وإنما هو نمط مشهور في الأدب مثل شخصية "بوارو" في روايات أجاثا كريستي والمفتش كولومبو الذي وصفه توفيق أنَّه صاحب السيارة التي تسقط منه على الدوام. وقد علَّقَ على حيِّه لهذا النمط الأدبي بأنَّه "فهذا النوع من البطل له جاذبية وسحر خاص.. وهناك نقطة تماهي؛ أنني أستطيع تخيل نفسي مكانه.. لكن مثلاً لا أستطيع أن أتخيل نفسي مكان (جيمس بوند).. رفعت إسماعيل نقيض البطل؛ وأردتُ أن يكون هناك شقاً علمياً فجعلته أستاذ أمراض دم؛ وهذا لأنني أومنُ أنَّ هذا المجال بحاجة إلى مخ وتفكير" (1).

ولتكتمل الصورة الواقعية، لم يعمل توفيق على رسم عوالم مخيفة بمبالغة، حيثُ تقاذف الرصاص ورجال العصابات؛ وإنمَّا كانَ عالماً عادياً واقعيّاً استقاه من أحياء مصر المألوفة للجمهور المصري لولا ظهور بعض الأشباح. وعلى حدِّ رأي أحد القراء: "كان رفعت إسماعيل بطل طفولتي العجوز الذي يمكنني أن أقابله على ناصية شارعي، ولم يكن هناك هذا الحاجز الروائي أو السينمائي الذي يفصلنا عن الكثير من الأبطال الآخرين" (2)، لم يرسم عالمه في نيويورك أو الريف الأمريكي مثلما تتصور في شاشات السينما، إنمَّا جعلَ مصاصي الدماء يذرعون شارع الدقي وفي أزقة القاهرة المعهودة، وهذا يذكّر بعضهم بواقعية جابريال جارسيا ماركيز، وسلسلة هاري بوتر حيثُ تماهى العوالم الواقعية مع السحر والفانتازيا (3).

بل إنَّ بعضهم يرى أنَّه على الرغم من أنَّ كتابات أحمد خالد توفيق تنتسبُ إلى الخيال العلمي وأدب الرعب والفانتازيا، فإنه كانَ يسعى من خلال هذا النوع من الكتابة إلى تجسيد صورة الواقع بشكل شديد الدقة ليتفوقَ على الأساليب الروائية الواقعية التي لن تتمكن من تقديم تفسيرات عقلانية. من خلال أدب الرعب والخيال العلمي، فقد ارتفعَ عن مستوى الواقع المُعاش، واستطاعَ استعراض نماذج خيالية لكنها مرتبطة بالواقع ارتباطاً وثيقاً، واستغلَّ براح هذه الأنواع من الكتابة الروائية من أجل تجسيد أخطر المشكلات التي يعاني منها المجتمع المصري، وكذلك المجتمعات العربية على مستوى أعلى، وهذا أيضاً يعد

(1) كريم الدجوي، مرجع سبق ذكره؛ "لقاء مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج "ممكن"، CBC، مرجع سبق ذكره.

(2) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

(3) المرجع السابق نفسه.

نقطة تميز لتوفيق الذي أراد أن يضع بصمته في الكتابة العربية؛ باحثًا عن صيغ سردية جديدة عوضًا عن الرواية العربية التقليدية التي لا تقبل بالتجديد⁽¹⁾، أي إنَّ كتاباته الخيالية العلمية اقتربت من المجتمع المصري، وشخصت الآفات التي يعاني منها، فمثلًا مع رواية يوتوبيا، فقد كان يسعى إلى استعراض أحوال المجتمع المصري منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين (التحول إلى الاقتصاد الحر وبداية الاحتكارات)، وصولًا إلى بدايات القرن الواحد والعشرين (اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء بفعل احتكارات رجال الأعمال في عهد الرئيس مبارك الأسبق)⁽²⁾. وروايته "شآبيب" عملت على طرح مسألة "الإسلاموفوبيا" وما يمكن أن ينجم عنها إذا استمرت بصورة أكثر تطرفًا؛ والسلوكيات العربية الضعيفة التي سوف تجعل العرب متشرذمين كاليهود في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، ولأنهم ليسوا أذكاء مثل اليهود، فمحاولتهم لبناء كيانهم الخاص ودولتهم الخاصة لن تنجح. غير ذلك، فقد امتازَ توفيق في رواياته الأدبية بالغوص في تفاصيل واقعية قد تثير الجدل والاشمئزاز في بعض الأحيان تخص الحياة البشرية مثل "قضاء الحاجة"، ومثل "الدم"، و"غرائز الشهوة" وغيرها، كما أنه لم يعد يتورع في هذه الروايات أن يتطرق إلى "العلاقات الحميمة" بما يفيد النص دون الكثير من التفاصيل، وهذا على خلاف سلسله التي يحفظُ فيها براءة قلمه مثلما سيتقدم الذكر فيما بعد⁽³⁾.

4- التفكير النقدي.. ودقة المعلومات: أيضًا من الأمور التي يمتاز بها أسلوبه هو طرحه للأسئلة الجدلية التي تحفزُ الذهن على التفكير والانتقاد لا سيما فيما يخص بفلسفة الوجود والدين وكذلك السياسة⁽⁴⁾، أيضًا من الأمور المميزة له أنه كان يحرصُ على كتابة معلومات تاريخية وطبية وسياسية شديدة الصدق لقراءة بحيث يخرجون من رواياته وقصصه وهم مستفيدون بالكثير من المعارف، إنها ليست مؤلفات من أجل التسلية والتخيل فحسب؛ وإنما للتحقق، وهذا ما ذكره بعضهم مثلًا من عدد 36 لمجموعته (فانتازيا) بعنوان "حب في أغسطس" حيث تعمقُ توفيق في أحداث هيروشيما والقنبلة الذرية⁽⁵⁾، فمثلًا في عدد (أسطورة وحش البحيرة) من سلسلة ما وراء الطبيعة، أفسح مجالًا للنقاش حول أسماء الرجال في إسكتلندا حيث قال -على لسان رفعت إسماعيل -: (لا أدري

(1) رامي أبو شهاب، مرجع سبق ذكره.

(2) محمد عبد الحنان، مرجع سبق ذكره.

(3) Dinar RafisovichKhayrutdinov.Op. Cit., p. 192

(4) أحمد السعيد، "أحمد خالد توفيق وعالم ما وراء الطبيعة"، إضاءات، 30 ديسمبر 2019، تم الوصول إليه في 17 سبتمبر 2020 في 2:00

فجرًا، متاحٌ على: <https://www.ida2at.com/ahmed-khaled-tawfik-metaphysic-world>

(5) محمود الشورى، مرجع سبق ذكره.

لماذا تبدأ كل ألقاب الاسكتلنديين بـ"ماك" ولماذا يُدعى أكثر من نصف رجالهم باسم "أندرو"؟ ذكروني أن أسأل عن ذلك لو اتسع الوقت!)⁽¹⁾، وفي ذلك معلومة جديدة عن عالم لم يتسنَّ للكثير من القراء الرحيل إليه، وحينما سُئِلَ عن مصدر البيانات الذي يستقي منه هذا الغنى، أجابَ "دائماً ما أصف نفسي بأنني لست ذكياً أو مثقفاً بالمعنى الحرفي للكلمتين، ولكني «أمين مكتبة عقلية» يجيد عمله، فقد قرأت أكثر مما يتخيل أحد، ودائماً أستطيع التذكر أين أجد المعلومة، وفي أي كتاب قرأتها، وكيف أسترجعها، فقد كانت تلك المهارة مهمة للغاية قبل عصر الإنترنت، أن تحفظ مكتبك عن ظهر قلب، ومن ناحية أخرى.. أحرص دائماً على تدوين أفكارتي التي تعينني على الكتابة، وإضافة التفاصيل بشكل كبير، حتى إن أرشيف أفكاري قد تجاوز الآن 600 صفحة مكتوبة"⁽²⁾. فقد كانَ توفيق ذاته واعياً لتأثيره على الشباب لا سيما في مجال الطب، فتحدّثَ عن ذلك مرّةً عن أن بعض قراءه يخبرونه أنهم يذكرون من كتاباته مما حتمَّ عليه أن يجعل المعلومة موثقة لدرجة أن في بعض الأحيان تكون المعلومات بالرواية كثيرة⁽³⁾، بل ولقد علم فيما بعد أن هناك موقعا يحاول تجميع البيانات المكتوبة في رواياته وبالأخص سلسلة "سافاري" الطبية، وهو ما علّق عليه بقوله إنه أمر أربعه عندما عرفَ به⁽⁴⁾.

5- تحديد جمهوره: وبالنظر إلى أسلوبه الروائي، فقد رأى البعض أن توفيق قد أبى أن يكونَ ضمنَ النسق السائد، وإنما أرادَ التعبير عن العالم من منظور آخر أكثر فلسفية يمحس خلف الموجودات والبداهيات، وقد كانَ دقيقاً في انتقاء الجمهور الخاص به، فبدأ بالجمهور الناشئ الذي لم يتطبع بطباع المؤسسات المنتشرة بعد، قبل أن يكتب للأعمار والطبقات جميعها، أي إنه كانَ يختار ألفاظه ورسائله بناءً على طبيعة هذا الجمهور⁽⁵⁾، فمثلاً كَتَبَ سلسله لتستهدف فئة المراهقين صغار السن؛ فحرص على عدم اللجوء إلى ذكر العلاقات الحميمة أو مصطلحات سياسية معقدة، بل لقد ذكر في أحد اللقاءات معه أن على الآباء ألا يقلقوا على بناتهم اللاتي يقرأن كتبه لأنهنَّ مع "عمو أحمد خالد توفيق"، أي إنه كانَ حريصاً في سياق رسائله على نظافة عقول قرائه، بحيث لا ينقل إليهم خبرات قد تسوءهم تربوياً. أمّا مع رواياته (محل الكتاب)، فقد كانَ يفقه أنها موجهة لفئة البالغين

(1) أحمد خالد توفيق، أسطورة وحش البحيرة، (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة) ص10.

(2) كريم الدجوي، مرجع سبق ذكره.

(3) _____ "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(4) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(5) رامي أبو شهاب، مرجع سبق ذكره.

الراشدين؛ ومن هنا، أعطى لنفسه فسحةً أوسع في الحديث عن اللاهوت والعلاقات الحميمة وغرائر الفرد الشهوانية وكذلك السياسة، وهذا التلوث كان واضحاً في الروايات الخمس التي كتبها⁽¹⁾، وكذلك كان مدرّكاً لجرائته في رواياته حيثُ التطرق إلى العلاقات الحميمة فيما يخدم الحبكة الدرامية، فذكر أنه قد طلبَ إلى بعض القارئات ألا تقرأن رواية "يوتوبيا"؛ وقد وصلته ردود الفعل الغاضبة من جرائته في رواية "السنجة"، وقال: "لا أرفض الجرأة في الأدب، لكن ينبغي أن ننظر إلى الجمهور!"⁽²⁾.

أيضاً من الأمور الواضح تأثر توفيق بها مشكلات مجتمعه وقضايا الشباب على وجه الخصوص؛ فكان يفضلُ التعرض إلى أهم طموحاتهم والانكسارات التي يواجهونها، وفي العديد من المقالات والمناسبات ردّد أنّه يفتخر بالكتابة للشباب، وأنّ هذه الكتابة لن تكون فترة انتقالية في حياته؛ وإنما هي أساس كتابته، فقد آمن أنّ الشباب هم القادرون على خلق التأثير في المجتمع وليس العجائز والبالغين. ومن هنا، فيمكن للبعض تأكيد أنّ لتوفيق اتجاهات إصلاحية بصورة كثيرة والتي تفجّرت بصورة كبيرة في روايته (يوتوبيا) التي انتهت بالثورة على هذا الانقسام الحاد بين الأثرياء والفقراء⁽³⁾، وقد كانت علاقته بقرائه الشباب جيدة جداً وحرص على التقرب منهم فكرياً والتواصل الدائم معهم، فاستغلّ الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي وكذلك حفلات توقيع كتبه من أجل التقارب معهم نظراً إلى عدم رغبته في الظهور على محطات التلفزيون. ومن سمات توفيق التي أجمع عليها الكثير من القراء الذين تلاقوا معه وجهاً لوجه هو تواضعه الشديد؛ حيثُ يحبُّ التحدث للجميع، والاشتراك في أي حدث يقوم به أحد القراء، وكذلك كان يتقبلُ جميع أنواع الانتقاد لأعماله من أولئك الذين لا يؤمنون بأهمية نمط الخيال العلمي والديستوبيا والفانتازيا وأدب الرعب⁽⁴⁾، وقد اعتبر أنّ حشد رواياته بالمعلومات الطبية والفنية والسياسية والتاريخية الممتعة إنما هو التزام منه اتجاه قرائه الشباب الذين يرغب في أن يعرفوها ويدرك صعوبة أن يعثروا عليها بسهولة، نظراً إلى كونها متناثرة في كتب يتعسر عليهم قراءتها⁽⁵⁾.

(1) محمود الشورى، مرجع سبق ذكره.

(2) "لقاء مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج "ممكّن"، CBC، مرجع سبق ذكره.

(3) مي فهمي، مرجع سبق ذكره.

(4) Mohammed Saad, "Ahmed KhaledTawfik, the godfather of Egyptian horror fiction", Ahram Online, April 3rd, 2018, accessed on October 4th, 2020, at 3:00 a.m., available at:

<http://english.ahram.org.eg/NewsContent/18/0/294998/Books/Obituary--Ahmed-Khaled-Tawfik,-the-godfather-of-Egy.aspx>

(5) سماح عادل، مرجع سبق ذكره.

وفي أحد لقاءاته، كشف أنَّ الشباب كانوا المحطة الأساسية للكتابة، فأكدَّ أنه "متوجه" بالأساس لفئة الشباب التي تفعم بالحماس والتي ترأسه وتتفاعل معه وتهوى الكتابة وتغضب لما يحيطها، فإنه يرى هذه الفئة فعالة ينبغي توجيه "الخطاب" بدلاً من التوجه للكبار في السن الذي وصفهم بكلمة "قبور الموتى". وفي موضع آخر من الحديث ذاته أكدَّ أنه عندما قرَّر الكتابة، فكَّر فيما ينقص الشباب، ووجد أنَّ هناك بالفعل سلاسل الأبطال الذين ينقذون الكوكب، وسلاسل عن الجاسوسية كسلسلة "رجل المستحيل" التي كان د. نبيل فاروق يكتبها، ولهذا عرَّم على أنَّ يكتب في مجال أدب الرعب الذي يحبه لكي يضيف لهؤلاء الشباب شيئاً جديداً⁽¹⁾، وفي لقاء آخر عاد ليصفَّ الشباب أنهم "جنس حسَّاس نقي" مشاعرهم متقلبة بسرعة ويتأثرون بما يقرأون، لهذا فالتعامل معهم ليس بالضرورة سهلاً لكنَّه يراه ممتعاً، ويتعمَّد هو أنَّ يعاملهم باحترام وألا يخدعهم، بل إنَّ كثرة اقتباساته للروائيين الآخرين في رواياته لم تكن سوى محاولة منه لأنَّ يذكر هؤلاء الشباب أنه لا ينبغي أن يكونَ محطتهم الأخيرة وإنما أن يقرأوا بعده لغيره من المؤلفين والأدباء وأن يرتقوا بذوقهم الأدبي⁽²⁾.

6- النظرة السوداوية لرواياته الأدبية: فقد استطاع توفيق أن يختصَّ رواياته الأدبية بالنظرة سوداوية الطابع، وهو يجعلها تناقش الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها الشعب المصري، ويضع سيناريوهات شديدة الكآبة لما يشهده العالم العربي والمجتمع المصري في المستقبل القريب. وقد كان هو ذاته مفطناً إلى هذا الطابع السوداوي لرواياته؛ وتحدَّث عنه في أحد لقاءاته، فقال: "أنا بطبعي أميل للتشاؤم، هذه الشرارة وضعت في جو عام مناسب جداً لتتوهج وتشتعل، شخص متشاؤم في مناخ عام مُقبض منذر بكارثته، وفي فترة من أسوأ فترات مصر اقتصادياً وثقافياً وصحياً وتعليمياً، فماذا نتوقع أن يكتب؟"، ولقد رأى أنَّ وضع أدب الرعب في مصر ليس على ما يرام نظراً إلى أنَّ: "رعب الواقع أقوى بكثير، أعتقد أن أدب الرعب سيزدهر عندما نمر بمرحلة من الاستقرار، ثم أننا بحاجة لكاتب جديد يبتدع أنماطاً أدبية جديدة، حالياً الكل يقلدون الكل"⁽³⁾.

(1) _____، "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(2) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج "أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(3) سماح عادل، مرجع سبق ذكره.

7- **أسلوبه الساخر:** لتوفيق أسلوب يصفه بعضهم أنه وسط بين دوستوفسكي وأسلوبه الساخر؛ وكوميديا تشيكوف في المواقف والشخصيات⁽¹⁾. يرى البعض أن أسلوبه الساخر كان علامةً يتوسم بها من أجل إيصال رسائل شديدة الأهمية للأجيال الشابة التي يدرك مدى نفاد صبرها وجزعها، أي إنه كان يستخدم أسلوبه الهزلي الفكاهي -في بعض الأحيان- من أجل إضافة البهارات لمحتواه الأدبي العميق لكيلا يكون مجرد سفر واعظ، بل محتوى نقدي يطرح الأسئلة دون ادعاء المعرفة، فقد كان توفيق يستنكر جرأة من يدعي علمه الواسع بكل شيء، وفي أحد مقالاته التي يصدرها على صفحته (الآن نفتح الصندوق) ناقش هذه المسألة، فذكر بوضوح: "أنا أعتبر نفسي -بلا أي تواضع - شخصاً مملاً إلى حد يثير الغيظ! بالتأكيد لم أشارك في اغتيال (لنكولن) ولم أضع خطة هزيمة المغول في (عين جالوت).. لا أحتفظ بجثة في القبو أحاول تحريكها بالقوى الذهنية.. ولم ألتهم طفلاً منذ زمن بعيد.. ولطالما تساءلت عن تلك المعجزة التي تجعل إنساناً ما يشعر بالفخر أو الغرور.. ما الذي يعرفه هذا العبقري عن قوانين الميراث الشرعية؟ هل يمكنه أن يعيد -دون خطأ واحد- تجربة قطرة الزيت لميليكان؟ هل يمكنه أن يركب دائرة كهربية على التوازي؟ كم جزءاً يحفظ من القرآن؟ ما معلوماته عن قيادة الغواصات؟ هل يستطيع إعراب (قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل؟).. الخلاصة أننا محظوظون لأننا لم نمت خجلاً من زمن من فرط جهلنا وضعفنا!"⁽²⁾. ببساطة، استطاع توفيق خلق عوالم خيالية يجسّد بها الواقع بصورة رمزية، يتطرق من خلالها إلى جميع نواحي الحياة وانتقادها بأسلوب ساخر كئيب، النواحي السياسية (الأحزاب السياسية والقادة السياسيين ورجال الجيش) والتعليمية (أزمات التعليم) والثقافية والدينية (رجال الدين وأهم الأفكار الدينية السائدة) سواء في مصر بشكل خاص، أو في العالم أجمع، وقد أصدر ثلاث مجموعات قصصية في السخرية، وهي (زغازيغ)، و(ضحكات كئيبة) و(شاي بالنعناع)⁽³⁾.

8- **توظيف معارفه الحياتية:** مثلما تطرّق الفصل في أوله، فقد تعرّض توفيق للكثير من التجارب والمؤثرات أهمها وظيفته الطبية وقراءته للأساطير ومطالعه لكلاسيكيات الأدب والمسرح والفن، كذلك شغفه بالموسيقى والسينما، الجميل أنه استطاع توظيف المعارف التي استخلصها من هذه التجارب والمؤثرات في مؤلفاته، بل لقد رأى بعضهم أن

(1) أحمد السعيد، مرجع سبق ذكره.

(2) حسام فهمي، مرجع سبق ذكره.

(3) محمد عبد الحنان، مرجع سبق ذكره.

توفيق لم يلجأ إلى الكتابة إلا ليحشد هذه المعارف بحيث كان يجعل أبطاله تعبر عن رؤيته الشخصية للعالم الفعلي، أي إنها تأويل لأفكاره الخاصة⁽¹⁾. فمن ناحية أولى، فنظرًا لتخصصه العلمي البحت، فقد كان يسهل عليه استعراض مصطلحات خاصة بعلم النفس كما الفاشية والنجسية والسادية والماسوشية، والأكروفوبيا، الكلوستروفوبيا⁽²⁾، غير ذلك، فقد روى بعض الأحداث الطريفة التي جرت له شخصيًا مثل مقالته (الطريف في طب الريف) حيث قص مغامراته الشخصية في الوحدة الصحية الريفية التي اشتغل بها طبييًا لفترة من الوقت. وفي أحد المقالات التي كتبها، ناقش "متلازمة الأدب والطب" للإجابة عن سؤال بعضهم عن كيفية اقتطاعه لوقت عمله الطبي من أجل الكتابة، بل في سلسلته "ما وراء الطبيعة"، و"سافاري"، لجأ إلى شخصيات رئيسية تمتهن الطب من أجل ربط بعض المغامرات بمعلومات طبية. هذا بالإضافة إلى أن أغلب حكاياته الروائية تعتمد على أمراض نفسية أو جسدية سرد حداثتها وأعراضها بصورة دقيقة⁽³⁾، أي إنه يطوع المادة العلمية في البناء السردي الدرامي⁽⁴⁾.

من ناحية ثانية، فقد تركت الأساطير الإغريقية أثرها في أسلوبه الأدبي وبدا هذا واضحًا في تسميته لروايته "مثل إيكاروس" التي تقوم على أسطورة "إيكاروس" الذي صنع له أبوه جناحين من الشمع ونصحه ألا يطير عاليًا كيلا تذيب الشمس الجناحين، لكنه لم ينصت للنصيحة وطار أعلى من المستوى المعقول قبل أن تتلف الشمس جناحيه فسقط من ارتفاع شديد، وكذلك ظهرت هذه الأساطير في قصص سلسلة "ما وراء الطبيعة" إذ سرده لحكايات كما حكاية (بروميثيوس)، و(رأس ميدوسا)، إلا أنه بناءً على رأي أحد الباحثين، فقد كان يعمل من خلال شخصياته وبالأخص رفعت إسماعيل (بطل سلسلة "ما وراء الطبيعة") إلى هدم الأسطورة والخرافة وتأكيد أنها غير موجودة لمنع قرائه من التصديق فيها. وفي ولله بالكلاسيكيات، لم يكن يتورع عن الاستعانة بمسرحيات شكسبير⁽⁵⁾.

(1) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

(2) أحمد السعيد، مرجع سبق ذكره.

(3) ____، "أحمد خالد توفيق"، مؤسسة هندواي، تم الوصول إليه في 18 سبتمبر 2020، الساعة 5:15 عصرًا، متاح على:

<https://www.hindawi.org/contributors/75168471>

(4) محمد عبد الحنان، مرجع سبق ذكره.

(5) أحمد السعيد، مرجع سبق ذكره: ____، "لقاء مع أحمد خالد توفيق"، الجزيرة، مرجع سبق ذكره (اللقاء مع "محمد فتحي" وهو

باحث وأكاديمي بكلية الإعلام جامعة حلوان).

وبالنسبة للأدب العالمي والكلاسيكيات، فكانَ يسعى إلى الاستشهادِ بأفكارٍ ومقولاتٍ من كلاسيكيات الأدب سواء تولستوي وتشيكوف وفنانين معروفين مثل فان جوخ ومونيه⁽¹⁾، كما عرَّ عن حبه للموسيقى في كتابته، فذكر مقطوعاته المفضلة في بعض القصص كما أغنية (Eleanor Rigby) لفرقة (The Beatles) في إحدى قصصه فلأنَّ بهذه الأغنية باعتبارها الخلفية الغنائية للقصة، وهذا يعني أنَّ توظيف توفيق لموسيقاه المحببة لم يكن يأتي اعتباطياً، وإنَّما دقيق ومسدّد لخدمة عملهِ الروائي. غير ذلك، فمثلاً دُكر سابقاً فتوفيق كان عاشقاً للفن السينمائي، فلديه كتابٌ باسم (الذاكرة الزرقاء) فقد عمدَ إلى سرد بعض المعلومات الفنية والتقنية لأفلام يعدها الأحبُّ إلى قلبه، وفي إحدى قصصه (ما أمام الطبيعة) فإنه يذكرُ لجوءه لتقنيات هذا الفنِّ وكذلك تأثره بعمله في فنِّ القصص المصورة⁽²⁾. يرى مدحت العدل مثلاً أنَّ رواية "مثل إيكاروس" كانتُ أشبه بالفيلم المتكون من لقطات وقريب من روايات دان براون، ليعقَّب توفيق أنَّه اتبع في هذه الرواية أسلوباً أدبياً يُسمَّى "أبراج هانوي" أي تعرض الرواية جزءاً من الأحداث التي ترتبط بشخصية (أ) ثمَّ جزءاً من الأحداث التي تتعلق بشخصية (ب) ثمَّ جزءاً من الأحداث التي تخص شخصية (ج) قبل أن تذكر الرواية التحولات التي جرَّت لشخصية (أ) ثم شخصية (ب) ثمَّ شخصية (ج)، كما أكَّد أنه شخص "بصري" يتأثر بالمشاهدة أكثر من السمع⁽³⁾.

(1) حسام فهمي، مرجع سبق ذكره.

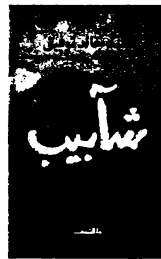
(2) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره: أحمد السعيد، مرجع سبق ذكره.

(3) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

الفصل الثاني

روايات أحمد خالد توفيق

بين الأدب المصري والعربي والعالمي



في هذا الفصل، فإنَّ الاهتمام الرئيسي ينصبُّ حول رسم خريطة مبسطة لأهم خصائص الأدب العربي والمصري الذي أحاطَ بكتابات توفيق، بالإضافة إلى أهم الاتجاهات الأدبية العالمية التي يمكنُ القول إنَّه تأثَّر بها بصورة أو بأخرى.

أولاً: خصائص الأدب المصري والعربي المؤثرة في روايات أحمد خالد توفيق

لعلَّ أهم ما يمكنُ ذكره في هذا الموضع هو أنَّ الأدب العربي والمصري قد تميَّز ببعض الخصائص التي انعكستُ وأثَّرتُ في كتابات توفيق وجماهيريتها بينَ القراء؛ وذلك مثل: ندرة أدب الرعب والخيال العلمي؛ ورتابة الأدب العربي وأستلته الرنَّانة؛ والتأليف من أجل الجماهيرية، وضعف أدب اليوتوبيا والديستوبيا في الأدب العربي.

1- ندرة أدب الخيال العلمي في مصر والوطن العربي: تجلَّت نماذج الخيال العلمي الأوليَّ في الأدب العربي منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر مع أعمال "ابن طفيل" و"ابن النفيس" و"زكريا القزويني" التي احتوتُ على بعض عناصر موضوعات الخيال العلمي المعروفة في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين⁽¹⁾. ولعلَّ البداية الحقيقية للخيال العلمي في الأدب المصري كانتُ ترجمة "رفاعة الطهطاوي" في منتصف القرن التاسع عشر لرواية "أسقف كومبريه" عن رحلة "تيليماك" المكتوبة عام 1699 إلى اللُّغة العربية⁽²⁾. وفي منتصف القرن العشرين، أعادت الثقافة العربية اكتشاف الخيال العلمي بالاعتماد على النفوذ الغربية مثل روايات (ويلز)، و(إيزاك أسيموف) وغيرهما، واحتلَّت مصر المرتبة الأولى بين الدول العربية من حيثُ عدد الأعمال المنتسبة للخيال العلمي المنشورة⁽³⁾، فكتب توفيق الحكيم مسرحيته "رحلة إلى الغد" عام 1957 ليبشر بطريقٍ ممتازٍ لمصر في هذا الجانب، وقد قدَّم "نهاد شريف" روايته "قاهر الزمن" عام 1972 والتي فازتُ بجائزة نادي القصة، واعتبرت أول رواية خيال علمي عربية متكاملة وجعلته رائداً لهذا الفن في مصر والعالم العربي، هذا غير محاولات بعض الأدباء البسيطة مثل مصطفى محمود وروايته "العنكبوت" ومقالاتيوسف عز الدين في جريدة الأهرام تحت عنوان "مع الفكر والخيال"⁽⁴⁾.

(1) Dinar Rafisovich Khayrutdinov, Op. Cit., p. 190

(2) رشا عبَّاس، "أدب الخيال العلمي العربي... مشروع مؤجل"، رصيف22، 12 يوليو 2016، تم الوصول إليه في 19 يناير 2022، الساعة التاسعة مساءً، متاح على: <https://raseef22.net/article/37541-science-fiction-in-arab-literature>

(3) Dinar Rafisovich Khayrutdinov, Op.Cit.,p.190.

(4) حسن حافظ، "أدب الخيال العلمي: رحل مع نهاد شريف"، الأخبار اليوم المسائي، 5 سبتمبر 2021، تم الوصول إليه في 19 يناير 2022 الساعة العاشرة مساءً، متاح على: <https://m.akhbarelalom.com/news/newdetails/3486810/1/>

مع ذلك، فهذه المحاولات العديدة لم تهين تقدمًا حقيقياً لهذا الأدب، وتعرض للكثير من النقد من الباحثين والصحفيين والقراء العاديين، وهذا عائد لأكثر من تفسير. فمن ناحية أولى، فإن مفهوم "الخيال العلمي" في اللغة العربية نفسه لم يكن يتطابق مع مفهوم (Sciencefiction) في اللغة الإنجليزية؛ فبناءً على ما قاله (جاري بوتز) في أطروحته حول الخيال العلمي العربي، فإن الباحثين العرب كثيراً ما خلطوا بين مصطلحي (الخيال العلمي) و(الفانتازيا)⁽¹⁾. وهذا الخلط، كما ذكر دكتور "حسام عقل" وهو أستاذ الأدب والنقد في جامعة عين شمس، أضعف إنتاج النماطين الأدبيين وتسبب في تراجع أدب الخيال العلمي في مصر والوطن العربي، ويرى د. حسام عقل أنه بينما بُني أدب "الفانتازيا" الغرائبي على التخيل المحض الذي قد يتحدى العلم والعقل أحياناً، فأدب "الخيال العلمي" يقوم على حقائق علمية صلبة لا يجوز التهاون فيها⁽²⁾.

ومن ناحية ثانية، فقد استقرت "الواقعية" بظلالها على الأدب العربي والمصري طويلاً حتى دفعت إلى تصنيفات غير عادلة للأدب بين "الجدي والهزلي" بحيث تم النظر إلى أدب "الخيال العلمي" أنه أدب "تجاري ترفيهي غير جاد وهزلي ومفتقر للوعي الاجتماعي"، لكونه لا يحمل بين طياته قضايا واقعية، وأنه لن ينال مباركة الأدباء الواقعيين، إلا عندما يتناول قضايا اجتماعية ورسائل أخلاقية قيمة؛ وهو ما نفّر العديدون منه.

ومن ناحية ثالثة، فبعضهم فسّر هذا الضعف بأنه نتيجة لضعف التطور التقني في الوطن العربي والذي يمكن أن يخلق خلفية لهذا الأدب، إلا أن البعض الآخر استغرب هذا السبب لكون أغلب كتاب الخيال العلمي عالمياً لم يأتوا من خلفيات علمية؛ بل إن هذا الضعف التقني كان لا بد أن يفتح الآفاق في البلدان العربية للتخيل كتوظيف فكرة رغبة البلدان العربية في اللحاق بالركب العلمي المتقدم في الغرب ما يدفع بعض العلماء إلى تجارب جنونية⁽³⁾.

ورغم أن فترة الخمسينيات من القرن العشرين قد شهدت انتعاشاً في كتابة الخيال العلمي في روسيا للاحتفال ببرنامج الفضاء السوفيتي "سبونتيك"، ما جعل الاتحاد يقلل من قيوده المفروضة على الأدب منذ ثلاثينيات القرن العشرين ويفتح البوابة لكتابة خيال علمي ممتزج بلون الواقعية الاشتراكية -أي إضافة نكهة الأخلاقيات الاشتراكية اليوتوبية بين الأسطر- فذلك

(1)Dinar Rafisovich Khayrutdinov, Op.Cit., p.190

(2)حسن حافظ، مرجع سبق ذكره.

(3)رشا عباس، مرجع سبق ذكره.

لم ينعكس على أدب الدول العربية الصديقة له كسوريا مثلاً التي لم تترجم إلا كتب دور نشر "مير" و"أورورا" الروسية، وربما أشهر من أنجبتهم سوريا في هذا النمط خلال هذه الحقبة هو دكتور طالب عمران صاحب الدكتوراة في الهندسة التفاضلية والفلك، والذي ألف العديد من الروايات والمجموعات القصصية وأعمال تلفزيونية ذات طابع خيال علمي على غرار برنامج "أفاق علمية"، و"قصص من الخيال العلمي"⁽¹⁾.

والمؤسف أن بعض النقاد يرون أنه رغم تشويق سلسلة "ملف المستحيل" لـ "نبيل فاروق" وسلسلة "فانتازيا" لـ "أحمد خالد توفيق" القائمة على أسس اختراع يحول الأحلام إلى حقيقة، فإنها ما زالت مندرجة ضمن أدب "التسالي" و"النشء" وهو أمر يضر بسمعة هذا الأدب. وحول ظاهرة "ركود أدب الخيال العلمي العربي"، أشار دكتور "حسام عقل" إلى أن للخيال العلمي في مصر تراثاً حيث كتب فيه وأصله "توفيق الحكيم، ومن بعده جاء "نهاد شريف" الذي يُعد "الأب الروحي لأدب الخيال العلمي في مصر"، ولكن -وفقاً لد.حسام عقل- هذا المسار لم يُكتب له الاستمرارية في النمو والازدهار لأنه - بصفته نمطاً أدبياً - يحتاج لتأهيل خاص للأدباء بحيث ينبغي على الأديب أن يكون ملماً بالنظريات العلمية الحديثة المعقدة على غرار "نظرية الانفجار الكبير" (Big Bang theory) أو "نظرية الأكوان المتعددة" أو "نظرية التطور" أو "نظرية الأوتار الفائقة" ذات الطابع الفيزيائي والكيميائي⁽²⁾.

والحق أن العصر الراهن قد شهد تغيراً في المزاج العام للقراءة والنشر، ليوكب طابع الحياة العصرية بتقدمها التكنولوجي وانتشار مواقع النشر الإلكتروني والمدونات الشخصية التي تسمح بأي تجربة تأليف والتفاعل المباشر مع القراء، ومن أبرز هذه المواقع موقع "السندباد" باللغة الإنجليزية لـ "ياسمين خان"؛ ورابطة "يتخيلون" للخيال العلمي ومؤسسها هُما ياسر بهجت وإبراهيم عباس التي بدأت تنشر كتابات في هذا النوع منذ عام 2013⁽³⁾. مع ذلك، فلدكتور حسام عقل رأيٌ مختلف نوعاً ما حول هذا الأمر، فيرى أن أدب الخيال العلمي يمر بمرحلة متأزمة فعلى الرغم من اجتهاد بعض الكتاب أمثال "محمد نجيب مطر" و"صلاح معاطي" فإن مجهودهم لا يزقي لصنع حركة أدبية يُقال عنها أنها حركة "أدب الخيال العلمي في مصر". بل بالنسبة إليه، أنه من أجل خلق

(1) نفس المرجع السابق.

(2) حسن حافظ، مرجع سبق ذكره.

(3) رشا عباس، مرجع سبق ذكره.

هذه الحركة، لا بُدَّ من أن يخلق العالم العربي مناخاً علمياً وفضاءً يناسب البحث العلمي يكون ماتعاً لاستقطاب الشباب ويكون "بيئة خصبة" لإنتاج أدباء لهذا النمط، خصوصاً أنه يلاحظ ميل معظم الشباب إلى هذا النوع الأدبي ويلاحظ أن بعض الأدباء نجحوا في تخصيص سلاسل فيه مثل "نبيل فاروق" و"أحمد خالد توفيق"، مشيراً إلى أن حالة الفراغ النسبية في كتابة الخيال العلمي في العالم العربي وفي مصر ينبغي معالجتها في أقرب وقت⁽¹⁾.

وفي هذا الصدد، فإنَّ النقاد الأوروبيين قد بدأوا يتقصون وراء هذا الانتشار المحدود لأدب الخيال العلمي في مصر والوطن العربي؛ فككَبَ "أدا باربارو" عام 2013 كتابه "الخيال العلمي في الأدب العربي" لدراسة هذا الأمر. والجدير بالذكر أن العديد من هذه الكتابات النقدية الأوروبية -رغم كل شيء- قد اعتبرت "أحمد خالد توفيق" أحد أهم الأدباء الذين ساعدوا على انبثاق هذه الموجة الجديدة للخيال العلمي مع روايته "يوتوبيا" وسلسله التابعة لنمط الفانتازيا⁽²⁾. وليس هذا فحسب، بل إنَّ العديد من النقاد أيضاً صنفوه رائداً في أدب "الرعب" في الساحة العربية التي لم تكن تعترف به على الإطلاق، لدرجة أن "المؤسسة العربية الحديثة -كما سلف الذكر- أوشكت على وأد محاولة نشره لسلسلته "ما وراء الطبيعة" لاختلافها الشديد مع المطروح في الأسواق. ففي بداية التسعينيات من القرن العشرين، اشتهرت السلاسل البوليسية على غرار سلسلة "رجل المستحيل" لدكتور نبيل فاروق، و"الشياطين الثلاثة عشر" للكاتب محمود سالم.

ولم تكن سلسله وحدها هي المصنفة باعتبارها أدب رعب، وإنما كذلك رواياته "كالسنجة" و(مثل إيكاروس) و(في ممر الفئران)، ففي كل منها وحشية تخيف القارئ وتجعله متأهباً لموقف شديد البشاعة، وإنَّ كان بعض النقاد أيضاً ينظرون إلى هذا الأدب على كونه أداة في يد الأديب الساعي لانتقاد واقعه واستخراج غضبه من بعض السلوكيات المجتمعية التي لا يستطيع انتقادها بصورة مباشرة واقعية⁽³⁾. وكما سبق القول، فلم يكتفِ توفيق بأدب الرعب ولكن اتجه للخيال العلمي المتجلى في سلسله "ما وراء الطبيعة" و"فانتازيا" و"سفاري" و"WWW". ففي الأولى، جعل بطلها أستاذاً جامعياً عجوزاً

(1) حسن حافظ، مرجع سبق ذكره.

(2) Dinar Rafisovich Khayrutdinov, Op.Cit., p.190

(3) محمد عادل، "أدب الرعب"، قُرْبَة، 9 أغسطس 2019، تم الوصول إليه في 5 أكتوبر 2020 الساعة 11:30 صباحاً، متاحٌ على:

<http://www.qurbah.com/2019/08/horror-literature>

اسمه "رفعت إسماعيل" يعيش حياة هادئة في ضاحية بالدقي في الجيزة، والذي قرر أن يقصص تجارب شبابه ومغامراته مع هذا العالم الغامض للشباب الصغار. في هذه التجارب، فقد طاف في عشرات المدن والقرى والبلدان ولاقى في أثنائها عشرات الأصدقاء من جنسيات شتى⁽¹⁾.

واستوحى بطله السلسلة الثانية "عبر عبد الرحمن" من فتاة حقيقية قابلها في حياته كانت تأوي إلى مكتبة قريبة من بيته في طنطا لا يشغلها إلا الخيال والأحلام، وبدأ هذه السلسلة في أواخر التسعينيات من القرن العشرين وحتى عام 2017. أما السلسلة الثالثة، فبطلها طبيب مصري "علاء" ارتحل لإفريقيا لمجابهة مخاطر الطبيعة المتعددة؛ وقد بدأها عام 2000 واستمرّ صدورها حتى عام 2018 مستقيماً روح الطبيب ويوميته من القصص التي سمعها توفيق ذاته من أصدقائه الأطباء الذين اضطروا إلى الهجرة عن الوطن لإفريقيا بعد أن قاسوا بؤساً في مصر. أما السلسلة الرابعة، فاستلهمها من التطورات التكنولوجية بحيث هدف من خلالها إلى الإطلاع على عالم الإنترنت جاعلاً بطل السلسلة (فيروس إلكتروني) يقصص بعضاً من المواجهات التي صادفها مع البشر. وفي ذلك، أوضح توفيق استنارته بهذا العالم الرقمي الذي أصبح كالوحش يفتس البشر⁽²⁾.

والغريب أن كانت هناك خصوصية للأكوان التي يخلقها لا تتداخل بعضهام بعض، وهكذا لكل كون سواء "ما وراء الطبيعة" أو "سفاري" أو "فانتازيا" أو "WWW" قوانين خاصة وتفاصيل وأسلوب سرد خاص جعلها متكاملة إلى أقصى الحدود دون أن يختلطوا، لعله تعمّد الخلط في بعض الأحيان مثل تقديمه العدد الخامس والثلاثين من سلسلة "فانتازيا" تحت عنوان "ما أمام الطبيعة" وفيه قابل دكتور "رفعت إسماعيل" الفتاة "عبر عبد الرحمن"⁽³⁾. إذن، فقد اعتزم توفيق على أن يسير ضد التيار السائد خلال فترة اتخاذه قرار النشر رافضاً الاندماج في القصة البوليسية، وتوجّه إلى أدب الرعب، ولولا إيمان دكتور "نبيل فاروق" به، لما ظهر مجهودُه للنور. ومن ثم، فأحد أهم الفروقات بين أحمد خالد توفيق وغيره من أدباء عصره هو تطرقه لنمط جديد في الأدب لم يسبقه إليه -

(1) محمود عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

(2) حسام فهمي، مرجع سبق ذكره.

(3) أحمد السعيد، مرجع سبق ذكره.

في مصر - أحدٌ وهو أدب الرعب، وقد وصفَ "الرعب" بأنه "أن تقارب الموت ولكن لا تموت.. نفس فكرة ألعاب الملاهي: السقوط من مكانٍ عالٍ لكنك لا ترتطم بالأرض!"⁽¹⁾.

وقد كانَ توفيق مدرِّكًا إلى أنَّ نوعي الخيال العلمي والرعب ليسا من المستسيغات في العالم العربي؛ وذلك باعتبار أنَّ العرب حديثو العهد - أصلاً - بفن الرواية بصورتها العامة، ومن ثمَّ فلم يكن مستغربًا ألا يقبلوا على الروايات المتخصصة، وقال: "قد تؤثر طبيعة المجتمعات على قبول فروع بعينها، مثل تأثير تأخر البحث العلمي في الوطن العربي على استساغة جمهور القراء للروايات التي تنتمي إلى هذا النوع من الكتابة". وبذلك، فقد كانَ مؤمنًا بأنَّ السياق المحيط بالفرد يؤثرُ في ذائقة الأدبية بصورة أو بأخرى⁽²⁾. ولطالما آمنَ توفيق أنَّ أدب الرعب في مصر لن يتحرك إلا بكل البطء وبكل الكسل الممكن؛ وذلك لأنَّ الواقع المصري -بالنسبة إليه- أكثر رعبًا من الخيال، فكانَ يرى أنَّ "الرعب الواقعي" يثير الاشمئزاز بينما "الرعب الخيالي" يمكن احتواؤه، فهناك مقالة ألفها في كتابه "دماغي كذا" بعنوان "الرعب في بلد مرعوب" وصفَ فيها إشاعة انتشرت عقب النكسة أنَّ جمال عبد الناصر يريد الحصول على دماء للجنود وأنَّ المسؤولين يتوجهون للمدارس يحصلون على دماء من بطون الأطفال، يتذكر هو ذاته أنَّ هذه الشائعة كانت شديدة الانتشار لدرجة أنَّ فرَّاش حضانتها خبأ الأطفال تحت السُّلم، وجاءت والدته تأخذه مرتعبة، لهذا كانَ يرى أنَّ والدته انتشلتة من حضانتها في أحد الأيام وهي مرعوبة، وفي هذا يقصد أنَّ "الرعب الحقيقي" (قبيح) وليس لعبة يمكن اللعب بها بينما الرعب الخيالي هادئ لا يثير أي تقزز⁽³⁾.

2- رتابة الأدب العربي وأسئلته الرئانة: ويمكن القول إنَّ هذه كانت خصائص الفترة الأدبية العربية -والمصرية- بعد عهد الأديب "نجيب محفوظ" وحتى إصدار رواية "عمارة يعقوبيان" للأديب علاء الأسواني عام 2002، يرى الروائي "عبد الرحمن المنيف" أنه كلما صدقت الرواية في تصوير الجو المحلي لبلد الأديب، اقتربت من أن تصير عالمية، ولذلك، كانَ نجيب محفوظ - في نظره - يستحق جائزة نوبل التي فاز بها عام 1989 وأن يصل إلى العالمية إذ إنَّ رواياته تنبُض بحياة الأحياء الشعبية في مدينة القاهرة وهو ما يسري أيضًا على باقي الأدباء العالميين الذين اهتموا بتجسيد واقع مُدُنهم البائس، فمثلاً

(1) محمود الشورى، مرجع سبق ذكره.

(2) كريم الدجوي، مرجع سبق ذكره.

(3) "لقاء مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج ممكن"، CBC، مرجع سبق ذكره؛ أحمد خالد توفيق، دماغي كذا، مرجع سبق ذكره.

روايات "الحرافيش" و"الثلاثية" و"حب تحت المطر" لنجيب محفوظ رغم معابنتها للطبقة البرجوازية المصرية، فهي ما زالت تسير ذات وتيرة روايات ديكنز وتولستوي. إلا أنَّ في المرحلة التالية عليه، تراجع اتجاه الواقعية في الأدب المصري لصالح تيارات حديثة أخرى تغوص في التعقيد وعلم النفس وكوايبس الإنسان وأحلامه⁽¹⁾، لقد وصم الكاتب الفلسطيني-الأردني رامي أبو شهاب الأدب العربي في مرحلة ما بعد نجيب محفوظ بأنه عانى من "تراتبية شاملة" وأنَّ الذائقة العربية قد كانت تقليدية تعمل دائماً على طرح عبارات رنانة وأفكار فلسفية كبرى للإجابة عن أسئلة الإنسان البسيطة اليومية، بالإضافة إلى استعانتها بنبرة الوصاية المتسلطة في عرض الرسائل الأخلاقية. لهذا، فقد حدث نوع من الانفصال بينَ القراء وبينَ الأدباء ووقع ركود فكري لا يتيح مساحة للتأمل والنقد، ولقد تماهى هذا الانفصال في آثاره السلبية مع عجز المؤسسات التعليمية العربية والمصرية عن توفير فسحة أمام الطلاب لكي يلقوا أسئلتهم الفلسفية حول طبيعتهم وحياتهم، بل وتمنعهم عن مساءلة البنى الموروثة⁽²⁾. وفي هذا الصدد، فقد ذكر توفيق نفسه وصفاً وجيزاً لهذه المرحلة بعد قصص يوسف إدريس وروايات نجيب محفوظ ويحيى حقي، فقال: "هؤلاء لم يكونوا يخافون من أن يكونوا ممتعين.. لكن بعدهم جاءت فترة حيث تطلب من الأدب أن يكون مملاً وسخيفاً ومنظراً.. هناك لحظة خشي الناس من الأدب! عندما كنت أعود إلى بيتي من الكلية، كنت أخفي الكتاب الأدبي في حقيبة كيلا يراني الآخرون فيعتقدون أنني معقد"⁽³⁾.

استمرَّ هذا الوضع إلى أن صدرت رواية "عمارة يعقوبيان" للدكتور علاء الأسواني عام 2002 لتعيد "الواقعية التسجيلية" من جديد ووضعت مدينة القاهرة تحت بؤرة الضوء وتطرقَّت إلى الكثير من الموضوعات الشائكة التي لم يألّفها القارئ العربي المصري من قبل، فوجّهت أصابع الاتهام للواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي في مصر بعد التحولات التالية على ثورة 1952 وانفتاح السبعينيات وما قبل حرب الخليج الثانية. فعلتها الرواية بلا خوف من رقابة سياسية أو مجتمعية آنذاك، وقد كان هذا هو سبب الاحتفاء الشديد بها وترجمتها إلى نحو 8 لغات عالمية كالفرنسية والإيطالية والألمانية

(1) عوني صبحي الفاعوري، "عمارة يعقوبيان: الرؤية والتشكيل"، مجلة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد 2، 2012، ص 109-137، متاح على: <http://www.damascusuniversity.edu.sy/mag/human/images/stories/2-2012/a/109-137.pdf> ص ص:

(2) رامي أبو شهاب، مرجع سبق ذكره.

(3) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

والنرويجية والروسية⁽¹⁾؛ فكتبَ الباحث "عوني صبحي الفاعوري" عنها أنَّ "علاء الأسواني" قدمها بتقنية عالية معيِّداً القراء إلى "تيار الواقعية التسجيلية" الذي سبق وانحصر بفعل تيارى "الحداثة" و"ما بعد الحداثة"، وبذلك كشفَ عالماً واقعياً فاسداً من جميع الأصعدة في القاهرة⁽²⁾. والواقع أنَّ هذا هو رأي توفيق كما سلف الذكر في الفصل السابق، بالإضافة إلى تأكيدِه في أحد لقاءاته أنَّ هذه الرواية قد كسرتْ ثيمة أنَّ على الرواية أن تكون معقدة لتكونَ جميلة وحبيبت الشباب في القراءة، خاصةً مع انتشار ظاهرة "المقاهي ذات المكتبات" و"حفلات التوقيع" وموقع "GoodReads"، وصرَّحَ توفيق أنه حاول المسير على خطاه وإسباغ سمة "المتعة" على أدبه مثله⁽³⁾. والحق أنَّ "رامي أبو شهاب" أكَّد أنَّ توفيق بالفعل قد أصدرَ شكلاً سردياً مختلفاً في روايته "يوتوبيا" عام 2008 شدَّ عن تقليدية الرواية العربية وهو أمر محمود⁽⁴⁾.

3- التأليف من أجل الجماهيرية والشهرة: بدأ الأمر منذ بداية الألفينيات ولا يزال مستمراً حتَّى بعد وفاة د/ أحمد خالد توفيق، وهو "التأليف من أجل الشهرة والجماهيرية"، فالساحة الثقافية أصبحت تشهد ظاهرة كتابة "المشاهير" على مواقع التواصل الاجتماعي وفي الأوساط الفنية للكتب والروايات بُغية زيادة أرصدهم وتوسيع نطاق محبة المتابعين لهم. وهكذا لم تعد كلمة "المؤلف" تطلق على من يستحقون اللقب، وإنما كذلك على أشخاص لا يمكن إدراجهم إلى هذه الحرفة إطلاقاً، إذ لا يستخدمونها إلا جسراً للشهرة والانتشار. إذن، فهناك حالة من السيولة الأدبية في السوق العربية والمصرية، وما يدعو للأسف أنَّ الكثير من هذه الأعمال المنشورة ضعيفة أدبياً، وهو ما يجعل المشهد الثقافي الأدبي في المنطقة يغلب عليه الطابع الكمِّي ومهتم بالأعداد وليس الطابع الكيفي المهتم بالمضامين. وفي هذا الشأن، تحدَّث محمد الشويعر - أستاذ علم التاريخ بجامعة "الإمام محمد بن سعود الإسلامية" وحائز على جائزة "كرسي الملك سلمان" لأبحاث الجزيرة- أنه ينبغي إطلاق كلمة "أعداد" على من يكتبون لمجرد الكتابة ولا يستحضرون فكرة أو شكلاً جديداً، وفي ذلك حفظ لقيمة المؤلفين الحقيقيين إذ إنَّ التأليف مهنة عسيرة بحاجة لمن استوفى الخبرة والدرجة المؤهلة لها. أمَّا الكاتب يوسف الملا، فرأى أنَّ "اختلاط الحابل بالنابل" وامتلاء المكتبات بكل من "الغث" و"السمين" وصيرورة تأليف الكتب

(1)عوني صبحي الفاعوري، مرجع سبق ذكره، ص112.

(2)المرجع السابق نفسه، ص136.

(3) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج "أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(4)رامي أبو شهاب، مرجع سبق ذكره.

لعمل يقوم به بعض المشاهير بعدما كانَ حكرًا على العلماء والمثقفين والباحثين والمبدعين، لهو شيء يثير الأسف والأسى. ومع ذلك، فقد كانَ مدرّكًا إلى وجود مشاهير مبدعين ومثقفين يقدمون خدماتٍ عظيمة للمجتمع بتأليفهم⁽¹⁾.

وسعى أحمد عبد الملك لتفسير هذه الأوضاع التي تكادُ تصل إلى الظاهرة أنها بسبب الرغبة في المباهاة والشهرة أولاً؛ وكذلك التسرع وكأنَّ الشباب يخوضون سباقًا زمنيًا لكي ينشروا أعمالاً قبل إتمام سن الثلاثين رغم أنَّ أعظم الأدباء لم ينشروا إلا بعد الخمسين والستين من أعمارهم. غير ذلك، فالكتّاب الجدد ليسوا متخصصين ويفتقرون للمفردات الأدبية وأساسيات كتابة الرواية والقصة وعاجزون عن الخيال؛ فذكر أنه قرأ روايتين لأحد الكتاب الشباب ليجدَ فيهما أخطاء نحوية ولغوية شنيعة ومتكررة، ويتوقع أنَّ تتكرر في عمله التالي لأنه لا يستمع للنصائح بعدَ إصدار الكتاب بل وتوهمه دار النشر أنه باتَ "كاتبًا" وقطب أحاديث الناس على وسائل التواصل، بل أنه يرى وجود "عشوائية تأليف" حيث يعمدُ بعضهم إلى جمع مقالاتهم ذات الموضوعات المختلفة والتي ينشرونها في الصحف ونشرها في كتبٍ من دون النظر إلى الوحدة الموضوعية. وهذا هو ذات ما أشار إليه خالد أبو العينين أنَّ على الكتّاب التأمُّن قبل إصدار كتبهم وألا يفعلوا إلا بعد أن يتحققوا من جودتها لإيصال ثماره للقراء، فقد استلزمته كتابة كتابه "باقية من التاريخ" نحو 12 عامًا ولم يصدره إلا بعدما عرضه على المختصين والمهتمين بالقراءة وبعدما أصلح كل ما به من الخطوب، وكذلك فعلَ في كتابه "الهزيمة" المنشور عام 2013⁽²⁾.

وقد وصفت الكاتبة زينب المحمود المشهد بأنه "فوضى إبداعية" ستقتل حضارة الأمة والتاريخ بخلقها فجوة بينَ مرحلتين تاريخيتين من تاريخ الأمة، بحيث تعجز برقيها الإبداعي في مرحلة ما قبل أنْ تخجل من المرحلة التالية، وذلك بالنظر إلى الأدب أنه مؤرخ لحياة الأمم. والحقيقة أنها قدّمت تفسيراً آخر لهذه الحالة وهي "النفاق" بحيث قلَّ القادرون على وصم العمل الأدبي بأنه هش ركيك راسب، ومن ثمَّ فالحل لديها هو في إيجاد معايير لقبول العمل الإبداعي تقوم على صحة اللغة ووضوح المعاني وأخيراً إحكام الحبكة.

(1) نوف العنزي، "ظاهرة تأليف الكتب": طريق المشاهير نحو الشهرة المفقودة"، جريدة اليوم، 31 يوليو 2018، تم الوصول إليه في 19

يناير 2022، متاح على: <https://www.alyaum.com/articles/6044598/>

(2) طه عبد الرحمن، "فوضى التأليف... خطر يهدد الإبداع"، الشرق، 8 ديسمبر 2019، تم الوصول إليه في 19 يناير 2022، متاح على:

<https://m.al-sharq.com/article/08/12/2019/>

أما "زكية مال الله ردتُ هذه الظاهرة إلى توافر الوسائل السهلة للنشر أمام الجميع بعد أن كانت الظروف شديدة التعسر في الماضي لنشر أي مؤلف، وهو الأمر الذي ترى أنه أدى لوجود عدد ضخم من الإصدارات بعضها ضعيف يحتاج للتدقيق، وقد طالبتُ بضرورة أن يترى من يرى في نفسه ملكة التأليف لحين نضوج تجربته. وقد تطرقتُ الكاتبة شعاع اليوسف إلى أن السبب وراء هذه الظاهرة هو تذرّع دور النشر بأنها تدعم الشباب وتمنحهم فرصاً لإخراج أعمالهم للنور، فتؤدي بذلك إلى بروز مؤلفات لا تستحق القراءة، فترى أنه بينما ينبغي تقديم فرص التشجيع للشباب، ففي الوقت ذاته لا ينبغي فتح الباب "على مصراعيه" بل لا بدّ أن يحرص الكاتب على مراجعة نفسه وكتابته ليبلغ مرحلة أفضل مع الوقت. ولهذا فقد أكّد الكاتب محمد بن محمد الجفيري أن على كل دار نشر توظيف متخصصي قراءة ذوي مطالعة واسعة في غالب التخصصات الأدبية ليتمكنوا من فرز الجيد من الرديء بين الكتاب. إنه يؤمن بضرورة عدم الحجر على من يحاول الكتابة إذ إن الكاتب لا يولد موهوباً وإنما موهبته تتولد بعد الكثير من المحاولات، ويتأمل أن الكاتب الرديء سوف يحين عليه وقت ويتدارى وينسحب تلقائياً إذا ما وجد الساحة الفكرية والأدبية تعجّ بالإنتاج الجيد⁽¹⁾.

وفي لقائه بالكاتب "عمر طاهر" ببرنامجه "وصفوا لي الصبر" في مارس 2018، ناقش "أحمد خالد توفيق" شكل السوق الأدبية المصرية المعاصرة، حيث بات العديد من المؤلفين يكتبون من أجل نيل جماهيرية وشهرة، وليس لتحقيق رسالة أدبية، والأمر زاد صعوبة مع الناشرين الذين أضحووا ينشرون للمؤلفين القادرين على تجميع عدد كبير من المتابعين على وسائل التواصل الاجتماعي، نابذين الأدباء الحقيقيين الذين لم يستطيعوا تكوين قاعدة جماهيرية بعد. وفي هذا الصدد، يمكن الحديث عن موقفه من الجماهيرية، فلم يكن ساعياً للجماهيرية وكان يكتب من أجل إرضاء نفسه⁽²⁾. في الواقع أنه لم يكن ممن يرون أنفسهم متميزين على الإطلاق وظلّ يكتب حول هذا الأمر في العديد من المقالات وتحدث عنه في بعض اللقاءات الصحفية. وعندما قرر الكتابة، لم يكن ذلك بغرض نيل إعجاب القراء؛ بل رأى الكتابة من أجل نيل إعجاب القراء كأنه صناعة "صنم" من "عجوة"، متى "جاع" صاحبه التهمه، فكان يحيا في ارتعاب تام بأن يجرفه التيار فيكتب ما يمليه عليه القراء بدلاً مما يمليه عليه ضميره وقريحته الأدبية، وكثيراً ما ردد مقولة (الأكثر مبيعاً ليس دليلاً

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) "حوار مع أحمد خالد توفيق وآخرين-برنامج "وصفوا لي الصبر"، مرجع سبق ذكره.

على الجودة). ولذلك، فلم يكن ليتوقع مطلقاً حجم جماهيريته التي وصلت إلى خارج مصر، ولطالما ذكر أن ذلك رغم أنه أسعده، لكنه أصبح عبئاً نفسياً حيث قيّد من حريته الشخصية وبات مراقباً على الدوام، ولم يكن يتقبل قط اللقب الذي نُسب إليه، "العراق"، باعتبار أنها ليست مكانته الحقيقية بل هو أقل من ذلك، وقد تسبب هذا اللقب والهالة الواسعة التي أحاطته بإزعاجه إذ إنها تعطيه انطباعاً بأنّ القراء يتوقعون منه ما هو أكبر من قدراته⁽¹⁾.

لقد كان يعد الكاتب الناجح هو الذي يحب الكتابة "لنفسه" كلما انفرد بذاته، وليس الذي يحب الكتابة من أجل القراء لأن هذا الأخير يدخل "دائرة الافتعال والابتذال"، بل ويرى أن الجماهيرية قادرة على إيذاء الكاتب في بعض الأحيان بأن تفرض عليه الكتابة بصورة معينة للحصول على محبة وإعجاب القراء، فلم يكن يكتب من أجل الجماهيرية، وإنما اكتسبها بعد الكتيب العاشر من سلسلة "ما وراء الطبيعة" أي بعد ست سنوات من الكتابة، فالتفكير في الجماهيرية -بالنسبة إليه- كان يكتفه وزرع الخوف من فشل الكتاب القادم؛ فالكاتب -كما قال سابقاً- تمثال عجوة يمكن للقارئ أن يدمره في أي لحظة، ولم يتبع قاعدة "النظر لاحتياجات السوق" إلا عند البداية حينما نحى حبه للواقعية الاشتراكية ومكسيم جورجي وتشيكوف وتوجه إلى الجمهور، لكنه لم يتبع هذه قاعدة "ما يطلبه المستمعون" بعدما اشتهر رغم علمه باحتياجاتهم وقدرته على كتابة المطلوب، كما أن السوق الأدبية المصرية أيضاً سادت بها سمة "مدح النقاد لروايات رديئة"، وهو ما أكد توفيق على مقابله لها في بعض الأحيان كرواية "لو أن مسافراً في ليلة شتاء" للمؤلف إيتالو كالفيينو، والتي لم تتل إعجابه رغم التعليقات الإيجابية حولها. مع ذلك، فقد أكد في موضع آخر أن الروايات الأكثر مبيعاً والأعلى جماهيرية ليست على الدوام سيئة، وهذا على غرار رواية "الطنطورية" لرضوى عاشور؛ و"عزازيل" لـيوسف زيدان⁽²⁾.

ولقد عدّ مزايا الجماهيرية في نظره أنها أولاً تعطيه لذة أن يخرج ما تضره نفسه على الورق ويراهم بعيون أخرى ثم يعود لها بعد أعوام ويشاهد الفارق بينها وبين كتاباته الجديدة. ثانيها أنه يفرح لمنشورات القراء الذين يحدثونه عن مدى إفادتهم من كتاباته مثلما فعل طالب طب استطاع حل امتحان الشفوي بامتياز بسبب المعلومات التي قرأها في سلسلة "سافاري". ثالث هذه المزايا هي الجوائز التي لم يسع لها قط وإنما تقدمت بها

(1) آية محمد، مرجع سبق ذكره.

(2) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج "أنت حر" CBC2، مرجع سبق ذكره.

دور النشر نيابةً عنه مثل دار "الشروق" التي قدّمت رواية "مثل إيكاروس" لإحدى المسابقات دون أن يعرفَ إذ إنّ طبيعته الخجلى تمنعه عن التقدم بذاته لعملية تقييم. رابع هذه المزايا هي الندوات التي يعقدها في معرض الكتاب ويراها ممثلة بالشباب، لكنّه في الوقت ذاته يخشى في الجماهيرية أن يأتي قارئ قاسٍ يدمر كل ما قام به. وظلّ لفترة طويلة يتذكر الصورة التي تم التقاطها له بصحبة أحمد مراد وهما في أحد المطاعم بإنجلترا حيث ظهرت زجاجات خمر في الخلفية وعلق بعض القراء عليها أنّ أحمد خالد توفيق ظهر على حقيقته وقد كان يخدع قراءه، كان "توفيق" مستغرباً من انعدام "حسن النية"، وموقناً من فكرته أنّ الكاتب بالنسبة للقارئ صنم يمكن تحطيمه بسهولة⁽¹⁾.

4- أدب الديستوبيا العربي: الحق أنّ التفسيرات تباينت حول وجود الروايات الديستوبية في الأدب العربي ما بين من يراها رد فعل على خيبات الواقع، ومن يراها محاكاة للنمط الديستوبي الغربي الناجح الذي بدأ مع "ويلز" وروايته "آلة الزمان" وتوهّج مع جورج أوريل وغيرهما، فقد أمست هذه الثيمة الديستوبية مفضلةً لدى الكثير من الأدباء من شتى بقاع الأراضي العربية لا سيّما أنّها حازت على إعجاب جماهيري ونفدي. ففي مصر مثلاً، هناك رواية "عطارد" للكاتب المصري "محمد ربيع" الصادرة عام 2014 والتي بلغت قائمة جائزة البوكر القصيرة لعام 2016 بمناقشتها للمستقبل المظلم المتوقع للمنطقة العربية؛ ورواية "روائي المدينة الأول" للكاتب "عُمر حازق". ولم يقتصر الأمر على مصر، بل اتسع ليشمل رقعاً أخرى كالأردن ورواية "الانحناء على جثة عمّان" للكاتب "أحمد الزعتري" والتي مُنعت من العرض، ورواية "2084: حكاية العربي الأخير" للكاتب الجزائري "واسيني الأعرج" المستوحاة من رواية "1984" لجورج أوريل، ورواية "حرب الكلب الثانية" للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله، ورواية "الطابور" لـ بسمه عبد العزيز.

وعن أسباب انتشار الرواية الديستوبية في الوطن العربي، فقد أعاد الناقد المصري يسري عبد الغني الأمر إلى أنّ الأدباء العرب قد شهدوا تحولات الإبداع الأدبي العالمية من الواقعية الصرفة إلى الخيال العلمي والسريالي، وذبوع "الواقعية السحرية" على يدي كتّاب أمريكا اللاتينية مثل جارسيا ماركيز وإيزابيل ليندي للإعراب عن ظروف القهر الواقعة تحته مجتمعاتهما. ولقد أشارَ إلى أنه على الرغم من وجود ملامح الديستوبيا في روايات

(1) "حوار مع أحمد خالد توفيق وآخرين-برنامج وصفوا لي الصبر"، مرجع سبق ذكره.

عربية كروايات لنجيب محفوظ وعبد الرحمن الشراقوي ويوسف إدريس، فهذه الملامح توضحَت أكثر كرد فعل على "الهزائم المتتالية" عقب فشل ثورات الربيع العربي⁽¹⁾.

أمّا الناقد الأردني عبد الرحيم مراشدة رآه لوناً أدبياً يحل في أوقات الصراعات والحروب وأنّ بدايته كانت مع أفلاطون ونظريته "المدينة الفاضلة" التي عبّرت عن الخوف من "مدينة فاسدة" موازية، ويذكر أنّ الآداب العربية عرّفت معنىً مشابهاً للديستوبيا وهو "المسكوت عنه" الذي يسكب اهتماماً على عذابات الإنسان المختلفة خاصة التي تتحدى التابو والمقدس من دين وسياسة وأخلاق، مثل كتاب "الجراحات والمدارات" للكاتب التونسي سليم دولة الصادر عام 1991 ليرصد الانتهاكات الفادحة التي ارتكبت في العصور الإسلامية من قتل لا إنساني؛ وكتاب "مَحَن الشعراء" للكاتب العراقي يحيى الجبوري الذي أيضاً كشف وسائل تعذيب لا أخلاقية استخدمت في هذه العصور. ويؤكد مراشدة أنّ روائياً، انعكس الأمر في أدب الديستوبيا الذي أُرّخه في الحضارة العربية مع رواية "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ التي انتقدت السلطات المتجبرة التي تأتي بالموبقات والجرائم.

وأخيراً اعتبر الناقد العراقي ناظم ناصر القرشي أنّ أدب الديستوبيا مستحدث على الأدب العربي، ولو أنه إضافة مهمة مثل رواية "سفينة نوح.. قبل وبعد الانهيار" للروائي العراقي "صادق الجمل" التي سعى بطلها لصنع سفينة فضائية لإنقاذ البشرية من صراع دولتين عظميين وجماعات إرهابية متطرفة. فهذا الأدب -وفقاً للقرشي- نجم في المنطقة من خوف الإنسان العربي من الواقع المرير حيث القتل والتشرد والتهميش الذي يعانيه وكذلك توجسه من التطورات التكنولوجية الهائلة التي تأخذ الإنسان من طبيعته البشرية⁽²⁾. وبالفعل شاركه الأديب "حميد المختار" أنّ للرواية العراقية مساراً طويلاً في أدب الديستوبيا بسبب المتغيرات الاجتماعية والسياسية التي خاضتها الدولة العراقية منذ حربها مع إيران واجتياحها للكويت واحتلال الولايات المتحدة لها؛ فعاش العراق تناقضاً بين سيادة الدكتاتور قبل أن تُفرض المؤسسات الديمقراطية والفساد السياسي عليهم، فبحث أدباؤه عن واقع بديل يهربون إليه.

(1) حنان عقل. مرجع سبق ذكره، ص 15، 16.

(2) المرجع السابق نفسه.

والحق أنه أكد أن "أحمد خالد توفيق" يعد من رواد أدب الديستوبيا في العالم العربي بتطبع رواياته بالكآبة التي يسودها الشر والفساد التام⁽¹⁾.

ثانيًا: الاتجاهات الفكرية العالمية المؤثرة في روايات أحمد خالد توفيق:

بصورة عامة، كان توفيق قارئًا ومطالعًا من طراز رفيع، من ثم، فيمكن القول إنه قد وقع تحت نفوذ بعض الاتجاهات الفكرية العالمية والتي وضعت لمستها الخاصة في كتاباته، وهذا على النحو الآتي:

1- **أدب الرعب القوطي:** إن "القوطية" أو "الأدب القوطي" هو أسلوب كتابة يتميز بالأوضاع المخيفة والعناصر الخارقة للطبيعة والغرائبية؛ إذ يؤلف أدباؤه قصصًا مرعبة مبنية على حالات مظلمة ومفزعة وتدخلات خارقة للطبيعة ولعنات عائلية قديمة ومناخ مهيم من الروع والغموض⁽²⁾، وقد عمد توفيق إلى تصنيف أعماله أنها تقع ضمن هذا النمط الأدبي الذي يذكر أنه أحد فروع "الرومانسية" الذي ظهر بالتزامن مع الثورة الصناعية؛ إذ هرب العديد من البشر غير القادرين على تحمل الحياة الخائفة إلى الخيال المرعب للتعبير عن شقائهم⁽³⁾. ولقد ذكر توفيق أنه بدأ الكتابة في أدب الرعب في صغره بصفته وسيلة لمجابهة مخاوفه الزائدة، فلقد كان طفلًا "خوفًا" للغاية -على حدّ قوله- وهو يعرف أنه كان واسع الخيال، لهذا فقد اكتشف أنه عندما يكتب عن الرعب، فلسوف يتخلص من هواجسه ومخاوفه⁽⁴⁾، بل ورد في لقاء آخر له مع "جريدة القاهرة" أنه لما لجأ لكتابة الرعب وهو صغير بعدما كان الخوف يملكه كثيرًا، وجد أنه يقف "خلف المدفع" لا "أمامه" وبدا الأمر غير مخيف، بل أنه تأثر بـ "ستيفن كينج" الذي سبق وقال إن كتابة الرعب تحاوط الكاتب بـ "دائرة سحرية" بحيث لا تقربهم المخاطر، وفي النهاية علم أن للأمر بعدا نفسيًا واضحًا وليس أكثر جعله مرتاحًا⁽⁵⁾.

(1) حميد المختار، "ديستوبيا"، الصباح، 7 يونيو 2020، تم الوصول إليه في 5 أكتوبر 2020 الساعة 11:00 صباحًا، متاح على: <https://alsabaah.iq/26150/>

(2) _____، "Gothicism in Literature"، Elif Notes، January 9th، 2022، accessed on January 20th، 2022، available at: <https://elifnotes.com/gothic-in-literature/>

(3) "لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج ممكن"، CBC، مرجع سبق ذكره.

(4) سارة محفوظ، "الموت يختار براءة.. أحمد خالد توفيق"، قرية، 8 أبريل 2018، تم الوصول إليه في 28 سبتمبر 2020، الساعة 4:35 عصرًا، متاح على: <http://www.qurbah.com/2018/04/ahmed-khaled-tawfik1>

(5) محمد عبد الحنان، مرجع سبق ذكره؛ _____ "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

2- التبعية النقدية في التنمية: تعد النظرية التبعية من النظريات الشهيرة في العلوم الاجتماعية لتفسير التنمية الاقتصادية بينَ الدول؛ والتي تطوّرت في أواخر خمسينيات القرن العشرين؛ وقد ارتبطت ببعض المفكرين الماركسيين المعروفين أمثال "أندريه جراندر فرانك" و"باول باران"، وبعض مفكري "النظام العالمي" مثل "إيمانويل فاليرشتاين". وتتميّز هذه النظرية بثلاث سمات رئيسية: أولها: إنّ النظام الدولي ليس إلا مجموع دول مقسمة إلى فئتين: المهيمنة والتابعة. ثانياً: تؤمّن هذه النظرية أنّ القوى الخارجية نقدية تجاه نشاط الدول التابعة الاقتصادية. وثالثاً: إنّ العلاقات بينَ الدول المهيمنة والتابعة - المنبثقة على ديناميكيات تاريخية قوية مثل تدويل الرأسمالية- هي عملية مستمرة من خلال التبادلات التي تتم بين هذه الدول التي توطّد الا مساواة بينهما، تقوم هذه النظرية على سؤال رئيسي وهو: "لماذا بعض الدول أصبحت غنية وأخرى ظلت فقيرة؟" لنتنقد النظرية الحداثيّة في التنمية التي اشتهرت لعقود طويلة في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. وترى النظرية التبعية أنّ الرفاهية الاقتصادية للدول المهيمنة أنتجت مشكلات عميقة للدول التابعة حيث اقتصادياً أدّت إلى حالة دائمة من تراجع التنمية، واجتماعياً فقد أحدثت عدم مساواة وصراع، وسياسياً قوّت الحكومة السلطوية⁽¹⁾.

ولا يمكن في هذا الجزء تجاهل إسهام سمير أمين الذي كان أحد مؤسسي هذه النظرية. فمن بين الخطوات التي قدمها هو التمييز بينَ عملية التراكم (النمو) في المركز وعملية التراكم (النمو) في الهامش (الأطراف). فالأولى تحدث عن طريق عملية "متمحورة على الذات" أي آلياتها تأتي من داخلها فتقام الصناعة والزراعة لتغطية احتياجات السوق الداخلية بحيث تفيد قطاعات الاقتصاد القطاعات الأخرى. أما في الثانية، فالتراكم (النمو) يكون تابعاً يتحدد بما يناسب احتياجات المركز من المواد الخام والمعادن والنفط والمنتجات الزراعية. وهذا نتج عنه التخصص الدولي بحسب مستوى التكلفة الذي يحدده الانتاجية والأجور. في المركز، تشكلت الرأسمالية مبكراً مما وسّم انتاجية العامل بتفوق شديد وهو ما أبقى تكاليف الانتاج قليلة فيه مما هي عليه في الأطراف حتى بعد أن زادت أجور العاملين. ولكن في الأطراف، فالانتاجية ضعيفة وهو ما يرفع تكلفة الانتاج بشدة ويعجزه عن التسبب في نمو². وقد بدا توفيق متأثراً بهذه النظرية وخاصة جزءها المحلي أي إنّ

(1) Scott Nicholas Romaniuk, "Dependency Theory", in Paul Joseph, The SAGE Encyclopedia of War: Social Science Perspectives, (Without a place for publication: SAGE publications, 2016), pp.482,483.

(2) عصام الخفاجي، "سمير أمين: في نقد حلم انكسر"، مجلة عمران، العدد 27، 2019، ص 7-24، ص 13، 14

مجتمع الدول التابعة ذات نفسه منقسم بين "مركز" وهم الأقلية المملوكة للثروة والمناصب، و"الهامش" وهم الأكثرية الفقيرة. أوضح في رواية (يوتوبيا) التطبيق الأكثر قتامة لهذه النظرية حينما يصبح هدف "المركز" هو افتراس واستغلال "الهامش" لمجرد المتعة وتمضية الوقت. بذلك، فإن (اليوتوبيا) -حيث المدينة الكاملة الفاضلة- تتحول إلى أبشع صور الديستوبيا⁽¹⁾.

3- اتجاه ما بعد الحداثة: على الرغم من أن مفهوم "ما بعد الحداثة" استُخدم لأول مرة في سبعينيات القرن التاسع عشر، فلم ينتشر إلا في أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين. يشير هذا المفهوم إلى فكرة أن الأفراد يمتلكون كلاً من الذكاء والحق ليقرروا لأنفسهم ماهية الحقيقة، فعلى عكس الماضي حيث كانت الحقيقة هي "الواقعة" المحددة بوضوح والمتوافق عليها بصورة عامة من قبل كل جيل، فإن ما بعد الحداثيين يرون أن تعريف الحقيقة ليس واضحاً. علاوة على ذلك، فما بعد الحداثة تقضي بأنه لكي يصل كل امرئ للحقيقة، فعليه أن يعول على بحثه الخاص وعلى تجاربه الذاتية وعلى علاقاته الشخصية بدلاً من الحقيقة المتوافق عليها من ناحية الآباء والحكومات والكنيسة. وأن هذا لا يعني أن ما بعد الحداثيين يكفرون بالحقيقة، إنهم فقد يحدون الحقيقة بمنظوراتهم وبأنفسهم. وقد سطع هذا الاتجاه بصفته تحولاً جذرياً عن الحداثة وأثبت موقعه في الأدب والفن والفلسفة والمعمار⁽²⁾.

يمكن القول إن هذا الاتجاه ما بعد الحداثي قد أضفى لمسته على كتابات توفيق خاصة روايته "يوتوبيا" المؤلفة من خمسة أجزاء؛ ثلاثة منها باسم (الصيد) أو (Predator) وهو شخصية علاء القادمة من عالم المدينة اليوتوبية الثرية؛ واثنان من هذه الأجزاء باسم (الفريسة) أو (Prey) يسردها جابر وهو من عالم الفقراء، هذا الانقسام متأثر بأدب ما بعد الحداثة الذي يعتمد على "الراوي غير الموثوق به"؛ أو (UnreliableNarratorTrope). ففي أغلب السرديات، هناك عنصر من الثقة أن "الراوي" الذي يخبر القارئ بالقصة، لهو شخص جدير بالثقة وينطق بالحق، لكن "الراوي غير الموثوق به" يكون حينما يتم هدم هذا المعتقد؛ فحقائق الراوي تتعارض

(1) رامي أبو شهاب، مرجع سبق ذكره.

(2) Ria Farhan, "Understanding Postmodernism: Philosophy and Culture of Post-modernism", International Journal Social Sciences and Education, Vol. 2, no. 4, October 2019, pp. 22-31, available at: [researchgate.net/publication/338139743_Understanding_Postmodernism_Philosophy_and_Culture_of_Postmodernism](https://www.researchgate.net/publication/338139743_Understanding_Postmodernism_Philosophy_and_Culture_of_Postmodernism), pp. 22, 24.

بعضها مع بعض، أي حينما يُطلَبُ إليه إعادة سرد الحكاية، فالأحداث ستنم بصورة مختلفة. وهنا، فالحقيقة كامنة في مكان ما، لكن على القارئ البحث عنها وسط جميع الأكاذيب والمغالطات وأنصاف الحقيقة. وهذا الأسلوب - حيثُ جمع توفيق بين سرد المفترس وسرد الفريسة في رواية واحدة وضاعَتْ حقيقة الراوي بينهما - يتبع الفكر (ما بعد الحداثي)⁽¹⁾. وهذا الأسلوب أبرز انعدام المساواة الاجتماعية من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد سمح لتوفيق نفسه بأن يحتفظ بموقع "الملاحظ المحايد". وتتجلى آثار "ما بعد الحداثة" - المشهورة في الأدب الوجودي ما بعد الحداثي الأوروبي - في ثنائية (العنف والشر الذي يجسده "علاء" من يوتوبيا) و(الموقف الأخلاقي الذي يمثل "جابر" من العامة) باعتبارها موروثاً في الطبيعة الإنسانية، هذا كله بالإضافة إلى أفكار (انحطاط المجتمع الاستهلاكي) و(اللامعنى للوجود الفردي في هذا المجتمع وتحوله البطيء إلى الحيوان)⁽²⁾.

4- الواقعية الاشتراكية: يسهل القول إنَّ "الواقعية الاشتراكية" منهج مبني على أسس تاريخية طبقية ومنذ بدايته وهو ملتصق بالأيديولوجية الاشتراكية الشيوعية ونظرتها للعلاقات الاجتماعية-الاقتصادية، وتجلى في العهد السوفييتي وهو ما فسّره الباحث "آ. إيغوروف" في قوله: "لا يصل الصراع الطبقي، في عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، إلى الحدة القصوى فحسب، بل وإلى أعلى درجات الوعي بالمقارنة مع المراحل الثورية في العصور الماضية، وتحتاج الممارسة الفنية بكل اتجاهاتها ومبادئها وأهدافها، في هذا العصر أيضاً إلى أقصى درجات الدقة والوضوح، خاصة وأن البروليتاريا الثورية وحزبها القائد يعلنان بصراحة عن الهوية الحزبية ولا يتحملان النقائص والغموض، في البرامج في التكتيك، في النظرية، وفي الفن"⁽³⁾. إذن، فيما احتكمت عليه "الواقعية الاشتراكية"، فإنَّ على العاملين في الفن أن يتوحدوا في رؤاهم وفهمهم لمشكلات حياتهم الأساسية ويتحزبوا للشيوعية بحيث يوحّدون رصيد الفلسفة الماركسية اللينينية وعواطفها الجمالية ببرنامجهما العملي، وهذا الاتحاد الفريد بين المنهج والعقيدة الشيوعية هو ما يميّز "الثقافة الروحية الاشتراكية"⁽⁴⁾.

(1) ____، "Unreliable Narrator". TV tropes, Accessed on October 3rd, 2020, at: 5:00 a.m., available at: <https://tvtropes.org/pmwiki/pmwiki.php/Main/UnreliableNarrator>.

(2) Dinar Rafisovich Khayrutdinov, Op. Cit., pp. 191, 192

(3) ي. غروموف، الواقعية الاشتراكية: المنهج والأسلوب، عدنان مدانات (مترجم)، ط1، (بيروت: دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع)، 1975، ص 9.8.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 9.

من المعروف أنَّ الاشتراكية تعد من المدارس الفكرية ذات الرؤية اليوتوبية الباحثة عن مدينتها الفاضلة في الشيوعية حيثُ انتهاء الفروقات الطبقيّة بين الأفراد. وقد تأثّر توفيق بهذا الاتجاه الفكري الأدبي بقراءته المكثفة للأدب الروسي في المراحل المبكرة في حياته وذكر بنفسه أنّه كانَ واقعاً تحت سطوة الأديب الروسي "مكسيم جورجي"⁽¹⁾، وواقعية قصصه الاشتراكية، ثمّ اهتدى على أثره مطولاً في كتاباته السابقة على أولى قصص سلسلة (ما وراء الطبيعة)، فبداية كتاباته كانت في فن القصة القصيرة محتدياً بأسلوب جورجي في التطرق إلى الفقر والبؤس⁽²⁾، لكن حينما رَفَضَتْ إحدى دور النشر أن تتولّى أعماله وهي بهذه الصورة، قرر الابتعاد عن الاتجاه ككل، خاصة وقد رأى المنافسة فيه على أشدها، واكتشف أدب الرعب وانبهَرَ به وكتبَ فيه بدايةً لدواعي المتعة الشخصية قبل أن يتوسّع وينشر فيه بعد أن اطمئنَّ إلى قلة إنتاج هذا النمط الأدبي في السوق المصري⁽³⁾. مع ذلك، فقد ظلَّ يتأثر بالأدباء الروس، وقال في أحد لقاءاته: "بدأتُ ككاتب قصة قصيرة وتأثرت جداً بتشيكوف وجوركي كما تأثرت في الرواية بدوستوفسكي"⁽⁴⁾.

5- الديستوبيا العالمية: تأثّر أحمد خالد توفيق بالديستوبيا واتجاهاتها العالمية خاصةً الأوروبية والأمريكية، فقد اتسقت روايته "يوتوبيا" (الصادرة عام 2008) مع الأدب الديستوبي الغربي المعروف كأعمال جورج أورويل وأول هكسلي وبرجيسوه. جـ ويلز وغيرهم، بل إنها تبعّت تعريف إيزاك أسيموف للديستوبيا باعتبارها (خيالاً علمياً اجتماعياً)، وهذا توضّح من سير القصة التي تتمّ في مصر في المستقبل القريب عام 2023. هذا السير حاكي به الخيال العلمي الاجتماعي للأدب الأمريكي والأوروبي المشهور في القرن العشرين وخلق - بجعل الأحداث في مصر في المستقبل القريب - ارتباطاً مع الواقع المحيط بالقارئ العربي الطبيعي. غير ذلك، فقد خرج عن قاعدته الرئيسية بتجنّب التعبيرات الحوارية العامة الدارجة لصالح اللّغة العربية الفصحى، من أجل مفاهيم مثل "اليوتوبيا"؛ وبذلك فهو يؤكّد فهمه لدولت هذا المفهوم؛ والتي ينتقدها بشدة من خلال استخدامها اسماً لمدينة تعتبر الشكل

(1) وهو أديبٌ وناشطٌ سياسي روسي؛ ذو توجهاتٍ ماركسية، بل لعله المؤسس الرئيسي للمدرسة الواقعية الاشتراكية التي تعمّد إلى تجسيد النظرة الماركسية للأدب. وترتكز هذه النظرة الماركسية على أنَّ الأدب مبني على النشاط الاقتصادي سواء في نشأته أو نموه أو تطوره؛ وأنّه يؤثّر في المجتمع؛ ومن ثمّ، فلا مفرّ من توظيفه بصورة جيّدة لخدمة هذا المجتمع. وقد كانَ مكسيم صديقاً لفلاديمير لينين؛ منذ عام 1905 (المصدر:

Alexandra Guzeva, "5 reasons why Soviet Writer Maxim Gorky is so great", Russia Beyond, March 28th, 2018, accessed on May 17th, 2022, available at: <https://www.rbth.com/arts/327885-why-soviet-writer-gorky-great>.

(2) حسام فهمي، مرجع سبق ذكره، _____ "لقاء مع د. أحمد خالد توفيق" قناة الجزيرة، مرجع سبق ذكره.

(3) كريم الدجوي، مرجع سبق ذكره.

(4) محمد عبد الحنّان، مرجع سبق ذكره.

الأسوأ للديستوبيا. بالإضافة إلى ذلك، فقد فاضت الرواية بالاقتراسات من أعمال أدبية وسينمائية أمريكية وأوروبية⁽¹⁾، كما أنه ردّد لفظة "حظيرة الحيوانات" وهو اسم رواية "أورويل" الديستوبية الأشهر، فقد قال في إحدى اللقاءات معه: "بالنسبة لرواية يوتوبيا، فأنا أرى أنّ المجتمع المصري يعيش في استقطاب شنيع بين الأغنياء والفقراء وهناك عنف بين الطبقتين.. ففكرتُ ماذا لو أخذت هذا المنحنى إلى أقصاه، علام نحصل؟ سنحصل على مجتمعات للأثرياء فحسب، محاطة بالحراسة.. وهناك مجتمعات للفقراء كحظيرة حيوانات"⁽²⁾. هذا غير أنّ توفيق كان أحد مترجمي سلسلة "الأدب العالمي للجب" والتي تعرّض فيها لروايات جورج أوريل وكذلك ترجم رواية "451 فهرنهايت" الديستوبية متحدثاً عن بلد قضى النظام السياسي أن يتم حرق الكتب جميعها كيلا يتتقف الشعب؛ ومن هنا يتحوّل الأفراد أنفسهم إلى كتب ذاتية، حيث يحفظون التفاصيل المكتوبة يستعيدونها معاً⁽³⁾.

ولعل هذه الاتجاه يعيدنا إلى نظرية جان بول سارتر حول "الأدب الملتمزم" التي بناءً عليها، فعلى الرواية أن تقدم إجراءات تصحيحية لحل المشكلات السياسية والاجتماعية الراهنة. ولقد استخرجها "سارتر" في ثلاثينيات القرن العشرين بعد أن وجد أنّ قلة قليلة هي الواعية لحقيقة أنّ بنية السلام العالمي تتآكل وأنهم يعيشون مرحلة ما قبل الحرب وليس ما بعد الحرب، بينما رأى أنّ الغالبية يعدون أنّ من الأسهل والأكثر متعة أن يعزلوا أنفسهم عن المشكلات الدائرة حولهم حتى تتجسد لهم الكارثة زائياً العين، وحتى في مواجهة منتقدي هذه النظرية، فقد أجاب مؤيدوها أنّ قائلين إنّ ("الالتزام" يقتل الأدب) مؤكداً قد تناسوا التاريخ الأدبي حيث روايات تشارلز ديكنز كانت تنادي بأي حل اجتماعي للمشكلات التي تجذرت في أوقاتها⁽⁴⁾. كان توفيق يسعى إلى نقل هذه الاتجاهات الأدبية والفلسفية مثل "ما بعد الحداثة" و"التبعية" و"الديستوبيا كخيال علمي اجتماعي" وتطويرها وفقاً للخلفية الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية المصرية والعربية ما يدل على الارتباط والالتزام الاجتماعي لأعماله الخيالية. فقد ذكر توفيق نفسه أنه تحصّل على فكرة روايته "يوتوبيا" من كتاب جلال أمين الاقتصادي بعنوان "ماذا حدث للمصريين" وقولها في صورة روائية⁽⁵⁾.

(1) Dinar RafisovichKhayrutdinov, Op. Cit., pp. 191, 192

(2) _____ لقاء مع د. أحمد خالد توفيق "قناة الجزيرة. مرجع سبق ذكره.

(3) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق-برنامج أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(4) Charles G. Whiting, "The Case for (Engaged) Literature", Yale French Studies, no.1, 1948. pp. 84-89, available at: <https://www.jstor.org/stable/2928863?origin=JSTOR-pdf>, p.84.

(5) Dinar RafisovichKhayrutdinov, Op. Cit., pp. 191, 192.

الفصل الثالث

السياق السياسي العالمي والإقليمي والمحلي



يعمل هذا الفصل على إيضاح السياق السياسي الذي عايشه أحمد خالد توفيق؛ الذي يبحث الكتاب عن مدى تأثيره على رواياته. ومن ثم، ففي هذا الفصل عرض لبعض المحطات السياسية في السياقات العالمية والإقليمية العربية والمحلية المصرية. وتسهيلاً لهذه الخطوات، يمكن تقسيم الفصل إلى السياق العالمي ثم الإقليمي العربي ثم المحلي المصري.

أولاً: السياق السياسي العالمي:

لعلّ من الأجدر تقسيم هذا الجزء إلى فتراتٍ كل منها اتسمت ببعض الملامح المميزة لها. وهذا التقسيم مبنيّ على اجتهادات الكاتبة، وإن كان يضاهي بعض التقسيمات المشهورة في مجال دراسة العلاقات الدولية. هذه الفترات هي فترة الحرب الباردة وفترة هيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي والفترة التي تبدأ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

1- الحرب الباردة: بالنظر إلى ولادة توفيق عام 1962، فقد استطاعت حياته أن تواكب جزءاً طويلاً من الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية ومعسكرها الغربي الليبرالي الرأسمالي وبين الاتحاد السوفيتي ومعسكره الشرقي الشيوعي. منذ 1962 مرّت هذه الحرب بالعديد من الأزمات والانفراجات⁽¹⁾؛ ولكن من أهم ما أثير في هذه الحرب خلال هذه الفترة ويمكن القول إنّ تأثيره كان واضحاً في الروايات الأربعة هو تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام عام 1964، التي دامت منذ هذا العام حتّى بداية سبعينيات القرن العشرين. أعلنت الولايات المتحدة أنّها تدخلت بها خوفاً من "أثر دومينو"⁽²⁾، وذلك بعد اقتناع الرئيس الأمريكي كينيدي عام 1961 أنّ عليه مناصرة الحكومة الوطنية الفيتنامية ضدّ فيتنام الشمالية وجبهة التحرير الوطنية الشيوعية التي تناصرها الصين الشيوعية والاتحاد السوفييتي. كانت مواجهة غير مباشرة ضمن إطار الحرب الباردة ولكنها أدت إلى رفع نبرة الانتقاد في الداخل الأمريكي بعد عشرة سنوات من بدايتها؛ مما ضغط على الحكومة الأمريكية ودفعها للانسحاب عن الفيتناميين الجنوبيين في يناير 1973. وقد انتهت هذه

(1) _____, "The Cold War (1945-1989)", The Centre Virtuel de la Connaissance sur l'Europe University of Luxembourg, October 2011, last updated July 2016, accessed on October 23rd, 2020 at: 1:00 a.m., available at: https://www.cvce.eu/content/publication/2011/11/21/6dfe06ed-4790-48a4-8968-855e90593185/publishable_en.pdf, p. 17.

(2) كانت نظرية "الدومينو" أحد إنتاجات الحرب الباردة وتفيد بأن وقوع دولة واحدة في يد الشيوعية سيسقط الدول المحيطة بالشرك ذاتها تبعاً، (المصدر:

Sara Ann Stratton, "The Ties That Bind: the domino theory in American Foreign Policy (1947-1968), Master Thesis, (McMaster University, 1989), available at:

<https://macsphere.mcmaster.ca/bitstream/11375/13832/1/fulltext.pdf>, pp. 2,3).

الحرب بفوز الفيتناميين الشماليين⁽¹⁾. وبعدَ تطوراتٍ أخرى، وقعتُ فضيحة (الخمسين رهينة) في طهران، والغزو السوفييتي لأفغانستان الذي قابلته الولايات المتحدة بفرض حصار على الحبوب إلى الاتحاد السوفييتي وتقديم الدعم المالي للمقاومة الأفغانية (المجاهدين)، وساعدتُ جميع الجماعات الإسلامية في أنحاء الشرق الأوسط للانضمام إليها. وصلَ رونالد ريغان الجمهوري لُسدة حُكم الولايات المتحدة، وقَدَّمَ "برنامج حرب النجوم" لحماية بلاده من الأسلحة السوفييتية النووية دافعاً الاتحاد السوفييتي لسباق تسلح أوصله إلى الانهيار الاقتصادي والمالي الذي بدأ في إنهاء طموح الاتحاد مع عام 1985⁽²⁾. ثُمَّ صارَ ميخائيل جورباتشوف رئيساً للاتحاد السوفييتي، وقَدَّمَ سياسات للإصلاح الداخلي ليضفي الطابع الديمقراطي على النظام السياسي. إلا أنَّ هذه السياسات فجَّرتُ مطالب أوروبا الشرقية بالحرية والديمقراطية، وأحيَت الأقليات في الدول المكونة للاتحاد وشجَّعتها على إحياء قومياتهم، والإضراب للحصول على إصلاحات اقتصادية وسياسية في حكومات بلادهم. ثُمَّ انهارَ جدار برلين في نوفمبر 1989 الفاصل بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية؛ واستطاعت الثورات الديمقراطية إسقاط حلف وارسو، وعجزَ الاتحاد عن كبح موجة الاستقلال الوطني لدول البلطيق. والمرحلة الأخيرة كانتُ عام 1991 مع فشل بعض الشيوعيين المحافظين في الانقلاب على جورباتشوف، وتوجَّه الدول التابعة للاتحاد سابقاً إلى الانضمام للغرب، وتبني مبادئ اقتصاد الحر بدلا من التخطيط المركزي⁽³⁾.

2- هيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي "1991-2001": وهكذا، وبانتهاء الحرب الباردة، شهدتُ الساحة الدولية سيادة "النظام الليبرالي الأمريكي" القائم على مفاهيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، واقتصاد الأسواق الحرة، وحُكم القانون والمجتمع المدني القوي، وأخيراً الإعلام الحر. بل ترسَّخَ الاعتقاد أنَّ الانتقال إلى الاقتصاد الحر سينشر الديمقراطية حتماً؛ ومن ثُمَّ بدأتُ موجة التحول الديمقراطي في دول أمريكا اللاتينية وآسيا وشرق أوروبا وإفريقيا. وفي الفترة (1997-2015)، ووفقاً لإحصائيات (فريدوم هاوس)، وصلَ عدد الحكومات الديمقراطية من 44 حكومة إلى 86 حكومة؛ أي 68% من الناتج القومي العالمي و40% من تعداد سكَّان العالم⁽⁴⁾. لكن مع نهايات تسعينيات القرن

(1) Ibid, pp. 19-21

(2) Ibid., pp. 22.23

(3) Rafal Nedzarek. "A Critical Evaluation of Mikhail Gorbachev's Role in Ending the Cold War". E-International Relations, July 2012, available at: <https://www.e-ir.info/pdf/24642>, pp. 1-5.

(4) Robin Niblett, "Liberalism in Retreat: the demise of a dream", Foreign Affairs, December 12, 2016, available at: <https://www.foreignaffairs.com/articles/2016-12-12/liberalism-retreat>; Joseph Nye. "Will the

العشرين، تجلّت مساوئ هذا النظام مع بروز مفهوم "التدخل الليبرالي"⁽¹⁾ ونشأة "المحكمة الجنائية الدولية" عام 1998 بناءً عليه لتتحدّى مبدأ "السيادة القومية"؛ ثمّ تدخل الحلف الأطلسي في كوزوفو عام 1999؛ وظهور مفهوم "مسئولية الحماية" عام 2005 على يديّ "الجمعية العامة للأمم المتحدة" ما يعطي الحكومات الأجنبية الحق في التدخل في شئون الدولة التي تفشل في منع الفوضى⁽²⁾. وفي هذه المرحلة، علّت الانتقادات والتساؤلات حول هذا النظام الليبرالي باعتباره دُعّم حكومات ديكتاتورية بعد الحرب العالمية الثانية؛ وفندوا الرأي الذي ذاع حول أنّ الولايات المتحدة كانت المهيمنة على العالم عسكرياً، وذلك لأنّ الاتحاد السوفييتي كان موجوباً خلال الحرب الباردة وكان مكافئاً لقوتها؛ وأخيراً انتقدوا إخفاق الولايات المتحدة وحلفائها بعد الحرب الباردة في منع الكثير من الكوارث الدولية⁽³⁾.

3- الفترة التي تبدأ بأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001: مع اصطدام طائرتين ببرجي منظمة التجارة الدولية في نيويورك يوم 11 سبتمبر 2001، انقلبت الساحة الدولية ووصف الأمريكيون الحادث بأنه الأكثر تدميراً للأرواح والممتلكات في وقت السلم، وقال عنه "جورج بوش الابن" أنّه إعلان حرب لن يمكنه من التمييز بين من قاموا به وبين من يأوي الجناة. قالها للعالم في لهجة متشددة "إما أن تكونوا معي أو ضدي" متلقياً دعم حلفائه في أوروبا الغربية وانقياد حلف (الناتو) ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة⁽⁴⁾. وهذا قبل أن يعلن "بوش" مفهوم "الحرب الدولية على الإرهاب" وينشئ لأجله ائتلاًفاً دولياً لمواجهة الإرهاب، ويوجه أصابع الاتهام إلى "أسامة بن لادن" وتنظيم "القاعدة" التابع له أنهما مرتكبا الاعتداء. وبذلك دفع المسلمون في أنحاء الولايات المتحدة والدول الغربية الثمن بالمعاملة غير الآدمية واعتقال بعضهم بلا تهمة واضحة وإلقائهم في ظلمات سجن "جوانتانامو" الكوبي⁽⁵⁾. وفي إطار هذه الحرب، تم التواصل مع الحكومة

Liberal Order Survive?: The History of an idea", Foreign Affairs, January/February 2017, available at: <https://www.foreignaffairs.com/articles/2016-12-12/will-liberal-order-survive>.

(1) مفهوم (التدخل الليبرالي) يقضي بأن الدولة التي تسعى معاملة شعوبها وتخلق اضطراباً لجيرانها، تفقد حقها السيادي على أرضها ويحق للدول الأخرى التدخل لمنعها وإيقافها عند حدّها.

(2) Robin Niblett, Op. Cit.

(3) Micheal Mazarr, "The Once and Future Order: What comes After Hegemony?", Foreign Affairs, January/February 2017, available at: <https://www.foreignaffairs.com/articles/2016-12-12/once-and-future-order>.

(4) فقد أصدر مجلس الأمن آنذاك قرار (1368) الذي يعترف بحق الدول في الدفاع عن نفسها فردياً أو جماعياً.

(5) Imrana Begum, "The War on Terrorism and NATO's role in Afghanistan". Journal of European Studies, Vol. 24, no. 2, July 2019, pp. 49-71, pp. 50.51.

الأفغانية (طالبان) لتسليم "بن لادن"، وهو ما رفضته الأخيرة لاحتياجها لدليل قاطع ضده وأكدت أنَّ محاكمة بن لادن -إذا ثبت تورطه- ستكون في أفغانستان. وهكذا في عام 2001، بدأت العمليات العسكرية الأمريكية والبريطانية ضدَّ طالبان لتسقط (كابول) في نوفمبر من العام ذاته وأذيع هروب أنصار "القاعدة" من كهوف "تورا بورا" التي نسفها الاحتلال. وبذلك، توقفت الحرب الأفغانية محققة أهدافها ظاهرياً⁽¹⁾؛ وإنَّ ظلَّ احتلال الغرب للدولة والتدخل الفج في أوضاعها الداخلية لأعوام عدَّة تعرضت فيها هذه القوى الغربية للهجمات المستمرة من البؤر الإرهابية التي تنامت هناك. وانتهى الأمر أنَّ باتَّ الوجود الأجنبي غير محبب وتزايدت الشكوك حول النية الأمريكية من هذا الاحتلال⁽²⁾ وانتشرت لهجة الاستياء في الدول الأوروبية بضرورة إعادة الجنود إلى بلادهم⁽³⁾.

4- الإسلاموفوبيا والشعبوية: لعلَّ "الإسلاموفوبيا" هي أهم تجليات "الحرب على الإرهاب" التي أعلنها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن خاصة بعد ارتفاع عدد المهاجرين المسلمين - سواء من المستعمرات الغربية السابقة بالذات في المغرب العربي أو العمَّال أو اللاجئين أو طالبي اللجوء - للقارة الأوربية وتشكيلهم لثاني أكبر جماعة دينية هنالك، وتعرضهم لأنماط عنصرية متعددة من الدول التي استضافتهم والتي لم ترحب بهم⁽⁴⁾. ظهر مفهوم "الإسلاموفوبيا" عام 1997⁽⁵⁾ ليعني كره الإسلام والمسلمين والخوف منهم؛ ويُستخدم للإشارة إلى السلوكيات العنصرية السلبية تجاه المسلمين بسبب خلفيتهم الدينية⁽⁶⁾. وتشتمل هذه السلوكيات على هجمات مادية على الرموز الإسلامية والعبارات المعادية التي ينعت بها السياسيون والإعلاميون الوجود الإسلامي، وتبرز في الحياة اليومية في المدارس والمكاتب العامة⁽⁷⁾. والحقيقة أنَّ هذه الظاهرة تنتشر في كبرى الدول الأوروبية الآوية للمسلمين وأهمها فرنسا وبريطانيا وهولندا والسويد؛ وجميع قوانينهم المنظمة

(1) فقد كانَّ الهدفان هما "إسقاط حكومة طالبان" و"تدمير الشبكة الإرهابية".

(2) أنَّها ليست من أجل القضاء على الإرهاب؛ وإنما من أجل إتمام النفاذ للبرول في آسيا الوسطى؛ وإما لتبعد روسيا عن المنطقة بعد احتلال العراق وأفغانستان؛ وإما لتضييق الخناق على إيران؛ وإما احتواء صعود الصين الضخمة.

(3) Ibid., pp. 52, 56-68

(4) Serdar Kaya, "Islamophobia in Western Europe: A comparative Multilevel Study", Journal of Muslim Minority Affairs, Vol. 35, no. 3, 2015, pp. 450-465, p. 451

(5) في تقرير صادر عن منظمة "رانييميد تراست" البريطانية التي تركّز على العلاقات العرقية والمساواة؛ وبعد أن أصبح التقرير شهيراً بين علماء السياسة المهتمين بشؤون المسلمين في الغرب؛ اتسع استخدام المفهوم.

(6) Ibid., p. 451.

(7) LacinIdilOztig et al., "The Strategic Logic of Islamophobic Populism", Government and Opposition, 2020, pp. 1-19, pp. 4, 5.

للحرية الدينية تحبط طموحات المسلمين هناك، كما يتعرض المسلمون فيها للتمييز في بيئة العمل، وفي معارضة مشروعات بناء المساجد، وغيرها. ثم تعقّد الوضع مع "أزمة اللاجئين السوريين" أثناء الحرب الأهلية السورية عام 2011 والرعب من الإرهاب الإسلامي وانعدام الأمن في الوظائف⁽¹⁾. فعلى سبيل المثال، كانت وسائل الإعلام الفرنسية تستغل الأحداث الإرهابية لإخافة المواطنين من المسلمين سواء بتذكيرهم أنّ أعدادهم تتزايد لتشكّل ما يفوق 10% من النسيج الفرنسي؛ أو أنّهم يحرقون قرابة الأربعين ألف سيارة كل عام؛ أو أنّهم وجدوا جهادهم بالإرهاب. وأعلنت جريدة "لافيجرو" عام 2011 عن محاربين فرنسيين يناصرون الجماعات الجهادية في سوريا، وفي 2015، روجّ بعض الإعلام الفرنسيين لضرورة تشجيع الحرب على الإرهاب في الشرق الأوسط وأنّ تتخذ الحكومة إجراءات متشددة ضد المهاجرين المسلمين والتجسس عليهم⁽²⁾.

وفي هذا السياق، عاودت "الشعبوية" البروز من جديد خاصة بعد انتشار فساد المسؤولين السياسيين المعتدلين في أوروبا وفشلهم في إدارة الكوارث الدولية؛ بالإضافة إلى الهجرة الزائدة من أنحاء العالم وبالأخص المسلمين؛ وتدفق طلبات اللجوء من الشرق الأوسط عقب اندلاع الحرب الأهلية السورية. وقد تثبّت هذا النجاح الشعبي بفوز عدد من الأحزاب اليمينية المتطرفة في الانتخابات التشريعية لبعض الدول الأوروبية وفي البرلمان التابع للاتحاد الأوروبي⁽³⁾. وتقوم هذه الأيديولوجية على نبذ هياكل السلطة السياسية التقليدية والنخب السياسية بزعم أنّهم لا يعبرون عن المواطن العادي؛ ولها سمات تعريفية أهمها هي أنّها ضد التعددية؛ وتخلق -دائماً- ثنائية (نحن/هم) من خلال وضع المواطنين العاديين في مواجهة النخب واللاجئين والأقليات العرقية والدينية. بالإضافة إلى ذلك، فإنّها براجماتية إذ تقدم حلولاً بسيطة للمشكلات المعقدة مثل إثارة مشاعر "الزيتوفوبيا" أي الرهاب من الغرباء. ومنذ سبتمبر 2001⁽⁴⁾، وهذه الأحزاب الشعبوية تعتمد إلى استعمال

(1) Engy Abdelkader, "A comparative Analysis of European Islamophobia: France, UK, Germany, Netherlands and Sweden", Journal of Islamic and Near Eastern Law, Vol. 16, no. 1, 2017 pp. 29-63, p. 63.

(2) Barry Grey, "The Media and the Paris terror attacks", World Socialist Web Site, November 18, 2015, retrieved from: <https://www.wsws.org/en/articles/2015/11/18/pers-n18.html>, on December 9, 2016.

(3) عل سبيل المثال في عام 2017، انضمّ "حزب الحرية" الهولندي إلى البرلمان؛ وكذا فعل حزب "الجبهة القومية" في فرنسا؛ وفي ألمانيا، نال حزب "بديل ألمانيا" 94 مقعداً في البوندستاج بعد أربع سنوات فقط من تأسيسه.

(4) فقبل هذه الأحداث؛ كانت الأحزاب المتطرفة تهاجم المهاجرين من غير الأوروبيين؛ بعدها باتت تصوّب عداها للمسلمين.

"الإسلاموفوبيا" في خطاباتها السياسية، وتزعم أنَّ المسلمين -بقيمهم الإسلامية- لن يتكيفون مع القيم الأوروبية ودعت إلى هدم المساجد وتحريم الحجاب⁽¹⁾.

ولا يصعب القول إنَّ هذه الأحزاب تستعمل هذا المفهوم بصفته استراتيجية للاستحواذ على المصوتين الراضين للإسلام، والتغلب على منافسيهم في الانتخابات من خلال وعود جذرية كمنع الوجبات الخالية من لحم الخنازير (التي هي حلال لدى المسلمين). بذلك، فالإسلاموفوبيا ظهرت بصفته عَرَضاً لأزمة الكيان الأوروبي الخائف على هويته القومية في إطار العولمة التي لخصتها هذه الأحزاب الشعبية في الإسلام لشرعنة أغراضهم الخاصة⁽²⁾. وتجلى ذلك في خطابات "مارين لو بان" (رئيسة الجبهة القومية الفرنسية) وحزب "البديل الألماني". ولكن في الوقت ذاته، فوجب التنويه إلى أنَّ هذه الأحزاب المتطرفة لم تبلغ القيادة السياسية بعد؛ وأنَّ -وفقاً لاستطلاعات بيو (Pew)- فهذه النظرة السلبية للإسلام ليست منتشرة بين الأوروبيين بالصورة المرعبة. والحقيقة أنَّ المشكلة تكمن في اضطرار بعض القادة المنافسين لهذه الأحزاب العنصرية للاستجابة لبعض الاستراتيجيات المعادية للإسلام للحفاظ على شعبيتهم؛ وإنَّ لم يتمادوا في ذلك وما زالوا يعدون أنَّ خطوات مثل "حظر هجرة المسلمين" و"غلق المساجد" ليست إلا زيفاً⁽³⁾.

ولكن مع ذلك، فينبغي في هذا الصدد الإشارة إلى أنَّ المسلمين في أوروبا لم يكن هذا حالهم في القرون السابقة وحتى منتصف القرن العشرين تقريباً، بل إنَّ الإسلاموفوبيا ظهرت بداياتها -قبل أن تتفاقم مع حادثة 11 سبتمبر 2001- في سبعينيات القرن العشرين مثلاً مع الاستراتيجيات التي انتهجتها جماعات "الإسلام السياسي" وخصوصاً التنظيم الدولي للإخوان المسلمين لاختراق المجتمعات الغربية. قامت هذه الاستراتيجيات عن طريق إقامة شبكة علاقات عملاقة داخل الكثير من الدول الأوروبية من خلال المساجد والمراكز الثقافية والجمعيات الخيرية التي تتخفى وراءها جماعات الإسلام السياسي للتغطية على تمويل العمليات الإرهابية التي تقوم بها فروعها المسلحة في دول عدة. بدا هذا

(1) وهذا على غرار ما قام به "حزب الشعب السويسري" -وهو أكبر الأحزاب السياسية السويسرية- عام 2007 إذ بادَرَ بحملة ضدَّ بناء المساجد باعتبارها رموز للغزو الإسلامي.

(2) LacinIdilOztig et al., Op. Cit., pp. 1-4.

(3) فعمل سبيل المثال، لم يتبنَّ أي من "أنجيلا ميركل" -رئيسة الوزراء الألمانية- والرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون -حتى 2018- لهجة متعصبة ضد المسلمين؛ لكن رئيس وزراء هولندا في 2017 نشر خطاباً أشار فيه إلى أنَّ الراضين للتكيف وللقيم الهولندية ينبغي أن يعتدلوا أو ينصرفوا (المصدر: Ibid. pp. 4-15).

واضحًا في بريطانيا⁽¹⁾ التي وصلَ نفوذ هذه الجماعات فيها إلى البرلمانين مثل جيريمي كوربين رئيس حزب العمال الذي ظهرَ في أغسطس 2018 رافعًا علامة رابعة المعروفة بارتباطها بجماعة الإخوان المسلمين في مصر. وكذلك الأمر في فرنسا التي كشفتُ تحقيقاتها حولَ بعض الحوادث الإرهابية أن فاعليها مرتبطون بحزب الله وداعش والقاعدة وجماعة الإخوان المسلمين⁽²⁾. انتشرَ نفوذ الإسلام السياسي في العديد من الدول الأوروبية بما يتدخل في سياسة هذه الدول وسيرها في بعض الأحيان مما رآه البعض تهديدًا للهوية الغربية خاصة أن هذه الجماعات تعمل على أن يحافظ المسلمون على هويتهم المسلمة وألا يندمجوا مع المجتمع الغربي بل السعى وراء تحويل هوياتهم. إلا أن الجدير بالذكر أن مشكلة الإسلاموفوبيا أنها في بعض الأحيان تكون عاجزة عن التمييز بين أعضاء هذه الجماعات المتطرفة وبين المسلمين العرب المسالين في هذه المجتمعات⁽³⁾.

ثانيًا: السياق السياسي الإقليمي (العربي):

الحقيقة أن المنطقة العربية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، ونجاح حركات التحرر الوطني في إجلء الاستعمارات التي استطوت بلادها؛ قد دخلت في موجة من الصراعات والحروب. لذلك، فهذا الجزء يتناول أهم الصراعات والحروب التي شابت المنطقة وتشوبها، بالإضافة إلى الثورات العربية عام 2010-2011 التي استتبعتها عواقب وخيمة بعضها وصل إلى حروب أهلية مستطيلة وسيطرة تنظيمات إرهابية لم تلح نهايتها قط حتى ممات أحمد خالد توفيق.

1- الصراع العربي-الإسرائيلي: بدأ هذا الصراع مع إعلان قيام دولة إسرائيل داخل الأراضي الفلسطينية في عام 1948 إذ لحقته حرب "فلسطين 1948" التي انتهت بهزيمة العرب أمام الكيان الصهيوني الإسرائيلي المدعوم من الولايات المتحدة والغرب. وخلال الفترة (1948-1967)، كان الصراع عبارة عن "مباراة صفرية" نظر فيه العرب بأنه (إما

(1) ففي ديسمبر 2015، أعربت الهيئة المشرفة على الأعمال الخيرية في بريطانيا عن استيائها من أن الجمعيات الخيرية المنتمة لتنظيم الإخوان يستغل العمل الخيري للترويج للإرهاب وللأفكار المتطرفة (المصدر: ____، "ملف الإسلام السياسي في أوروبا"، المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب، 28 نوفمبر 2021، ص2).

(2) المرجع السابق نفسه، ص ص. 2-5.

(3) Valentina Colombo, "Political Islam and Islam in Politics in Europe", European view, no.12, 2013, pp.143-152, pp. 143,144;

محمد ثروت، "الإسلام السياسي في أوروبا جدل مستمر (1)". اليوم السابع، 26 يناير 2021، تم الوصول إليه في 25 أغسطس 2022، الساعة 11:00، متاح على: <https://m.youm7.com/story/2021/1/26/>

نحنُ أو هم) ورفضوا التسوية. ولكن بعدَ نكسة 1967، دخلَ الصراعُ طورًا جديدًا وهو السعي نحو "التسوية السلمية". فبعدما كانَ الخطاب العربي يحضُّ على إزالة الكيان الصهيوني الإسرائيلي نهائيًا، باتَ يبحثُ في كيفية دخول الدول العربية في اتفاقيات سلام وعلاقات طبيعية مع إسرائيل⁽¹⁾. بمعنى أفضل، فقد حدثَ تحوُّلٌ جذري في تكيُّف الدول العربية مع عدائها لإسرائيل من النظر إليه أولاً أنَّه تصفية استعمار، وأنَّ السلوك العربي الفلسطيني هو حرب تحرير وطني وقومي إلى اعتباره نزاعاً بين دول على أراضٍ محتلة يسمح بالتسوية والاعتراف بدولة إسرائيل والتعايش معها في مقابل أن تتخلَّى عن الأراضي التي وضعتَ يدها عليها. وقد ازدادَ الوضع سوءاً مع حرب الخليج الثانية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، وهيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي التي زوَّدت التدخل الأمريكي في المنطقة خاصةً بعدَ 2001 واحتلالها للعراق؛ كما تدمَّر العراق وقوته الإقليمية وزادت المديونية العربية واحتياجها للدعم الخارجي؛ وكانت مصر قد خرجت من دائرة الصراع منذ معاهدة السلام 1979. ونتيجةً لذلك، لم يعد هناك إجماع عربي على القضية الفلسطينية، وصارَ هناك ميل إلى الاعتدال مع إسرائيل⁽²⁾.

وبسبب مساعي التسوية هذه التي بدأت باتفاقيات السلام الثنائية مع بعض الدول العربية سواء "اتفاقية كامب دافيد" مع مصر أو "أوسلو" مع السلطة الفلسطينية أو اتفاقية "وادي عربة" مع الأردن، حصلت إسرائيل على وقتٍ كافٍ لتتوسع على حساب الفلسطينيين. هذه الاتفاقيات لم توقفها عن السيطرة على المزيد من الأراضي الفلسطينية وإقامة مستوطناتها عليها؛ أي إنها - أي الاتفاقيات - حققت أهداف إسرائيل التي سبق وعجزت عن تحقيقها بالأداة العسكرية. لكن الجديد هو ما دعا إليه الرئيس الأمريكي دونالد ترامب باسم "صفقة القرن" عام 2020 الذي كانَ يمهّد لها منذ توليه الرئاسة عام 2017، بضرورة توفير طاقة إسرائيل والدول العربية وإنهاء الصراع بينهما لمواجهة الخطر الأكبر وهو الخطر الإيراني والإرهاب. دعاهم إلى ضرورة "التطبيع" وهو خيار أمريكي صهيوني يسعى لتحديد هذه الدول العربية باستخدام الاقتصاد والسياسة، والهدف الرئيسي وراءه هو تفتيت المنطقة واختلاق الصراعات الداخلية واستغلال الثروات

(1) المرجع السابق نفسه؛ أحمد يوسف أحمد، "أربعون عامًا من الصراع مع إسرائيل (1965-2005)". مجلة السياسة الدولية، العدد 171، يوليو 2005، ص 82.

(2) هدير حسن أبو زيد، مرجع سبق ذكره، ص 83؛

Yahya Sadowski, "Revolution Reform or Regression?: Arab Political Options in the 1990 Gulf Crisis", Brookings Review, Vol. 9, no.1, 1991, pp. 17-20;

وتحويل المعتقدات الدينية والثقافية الخاصة بالقدس. وفعلًا رغم استجابة بعض الدول العربية لهذه الدعوات، فلم ينتهِ الصراع العربي الإسرائيلي بل ارتفعت حدته - حتى لو ضعف من الناحية العسكرية - ولم تتوقف عمليات التوسع الاستيطاني ولم يتوفر الأمن والاستقرار في المنطقة بل هناك أثرت "النعرات الطائفية والمذهبية والحزبية" الكافية لإدخال المنطقة في المزيد من الصراعات وتشتت التوجه العربي الشعبي نحو القضية الفلسطينية وتتيح لإسرائيل تحقيق ما تريده من بسط سيطرتها التامة على فلسطين. الحق أنَّ من الملاحظ على هذه التسويات وسياسات التطبيع أنه على الرغم مما ظنه العرب من أنها ستحقق مكسبًا لفلسطين من خلال إنهاء الصراع، فإنَّ حجم التنازلات كانَّ أكبر بكثير من المكتسبات خاصة أن إسرائيل لم تتوقف عن عدوانها وتوسعها، بل لم ترجع هذه التسويات والتطبيقات المدن المحتلة ولا أعادت اللاجئين الفلسطينيين لبلادهم ولا أوقفت التهجير الفلسطيني من ديارهم، وإنما أدَّت إلى انفتاح عربي على إسرائيل وأوجبت اندماجها إقليميًا وجَرَمَتْ معاداة اليهود⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أنَّ هناك بعض الآراء المتفائلة بصدد احتمالية انقضاء دولة إسرائيل في المستقبل القريب، فإنَّ أحمد خالد توفيق ذاته كانت له نظرة خاصة في هذا الأمر وكانت في الأساس تشاؤمية نوعًا ما. ففي كتابه، "دماغي كذا"، الصادر عام 2008، ذكر إسرائيل لا تعوّل في قوتها على المحيط العربي الضعيف فقط؛ وإنما أيضًا على مؤسسات صنع القرار والمفكرين (thinktanks) الموجودين في داخلها والذين يخططون بفهمٍ ليعطوها امتيازاتٍ أكثر، مع النظم السياسية العربية التي تعمل على إبرام معاهدات سلامٍ معها⁽²⁾. وعاد في مقال عام 2017 له يردد أنَّ إسرائيل دولة مستقرّة تحظى بالدعم الأمريكي غير المشروط مما يحصنها من التغيرات العالمية سواء في البورصة أو النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة. بل إنَّها لم تعد تخشَى المحيط العربي بعد أن توقّف عن عدائها وراح يبحث عن وسائل توطيد العلاقات معها. ليس هذا وحسب، بل إنَّ مشروع "الشرق الأوسط الجديد" يعمل على إقصاء مصر عن القيادة العربية لصالح السعودية وإحلال إسرائيل محل قطر وإيران؛

(1) عبد الكريم طارق عبد الكريم، "تأثير اتفاقيات السلام وسياسات التطبيع على واقع القضية الفلسطينية (1978-2020)، رسالة ماجستير، (جامعة الشرق الأوسط: كلية الآداب والعلوم، 2021)، ص 113-116.

(2) أحمد خالد توفيق، دماغي كذا، (القاهرة: أدبيات، 2008)، ص 13-17.

وهو ما وصفه أنَّ العرب تركوها حتى توحشت وتضخمت مثل السرطان الذي يكون في البداية قابلاً لاستئصاله لولا أنه مع تركه أكثر يتغلغل ويسيطر أكثر⁽¹⁾.

2- صراعات أخرى: بعد الثورة الإيرانية الإسلامية عام 1979⁽²⁾، بدأ الصراع السعودي الإيراني المتأثر باختلاف عقائدهما؛ إذ إنَّ إيران دولة -وفق لقول رئيسها أحمدي نجاد عام 2005- ثورية شيعية ترى النظام الدولي غير عادل وغير شرعي وتعزز سياستها الخارجية من العدالة القومية والعالمية، وتسعى إلى "تصدير الثورة الإسلامية"⁽³⁾ للدول العربية المجاورة ذات الأقليات الشيعية كاليمن والبحرية وسوريا والسعودية. أما المملكة العربية السعودية، فهي دولة وهابية سنية تزعم حمايتها للإسلام. أثبتت إيران منذ 2005 نفوذها في الخليج الفارسي بتواجدها في العراق ولبنان وفلسطين واليمن والبحرين⁽⁴⁾، وطوّرت برنامجها النووي مما رآته السعودية يهدد مصالحها الأمنية والاقتصادية. وتبارك بنية النظام الدولي التي تعطلها الولايات المتحدة هذا الصراع وصنفت إيران في استراتيجية الأمن القومي عام 2006 أنها أهم تهديد في المنطقة، وتقاربت مع السعودية ودول عربية محافظة أخرى، وشكّلت ما يشبه تحالفاً -وافقت السعودية على مشاركة إسرائيل فيه- لاحتواء الخطر الإيراني عام 2007⁽⁵⁾. وبالإضافة إلى هذا الصراع السعودي الإيراني، تشكلت جبهة "حماس" في فلسطين، وتوالى الانتفاضات الفلسطينية لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي⁽⁶⁾. وفي لبنان اشتعلت الحرب

(1) أحمد خالد توفيق، "نبوءة لا تتحقق"، إضاءات، 29 يونيو 2017، تم الوصول إليه في 30 أكتوبر 2020، متاح على: <https://www.ida2at.com/prophecy-does-not-come-true>

(2) وهي الثورة التي قادها الإسلاميون في الداخل الإيراني بقيادة آية الله الخميني لتحول النظام السياسي الإيراني إلى نظام إسلامي متشدد قائم على فكرة "الإمامة" السائدة في الفكر الشيعي.

(3) وهو مفهوم استخرجته النخبة الحاكمة التي تدبر بالعقيدة الشيعية: تعني به أنَّ الشيعة المستضعفين في الدول العربية جميعهم يقعوا تحت الحماية الإيرانية وسوف تتدخل إيران من أجل إنقاذهم من أيدي حكامهم الباطشين إذا تطلب الأمر منها ذلك.

(4) فشغلت فراغ القوة الذي ساد في العراق مع الاحتلال الأمريكي وسقوط صدام حسين عام 2003 وذلك في إطار عنف طائفي شنيع؛ وفي لبنان مؤلّت حزب الله الذي تصوّر ببراعة للغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان عام 2006 الذي أخذ وجوهه في النسيج السياسي اللبناني فيما بعد؛ وبعثت لوجيستياً حركة "حماس" الفلسطينية في صراعها مع إسرائيل؛ وقطعت العون لبشار الأسد خلال الحرب الأهلية السورية منذ 2011 لمواجهة القوى الثورية المضادة؛ وساننت الحوثيين في اليمن بدءاً من عام 2011؛ وفي البحرين نحو 60% من الشعب شيعي تقدم لهم مساندتها.

(5) راندا مصطفى عبد الرحمن، "العلاقات الإيرانية السعودية في الفترة من 1990-2000"، رسالة ماجستير، (معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية، جامعة الخرطوم، 2004)؛

Mahdi Alikhani, Mehdi Zakerian, "Study of Factors Affecting Saudi-Iranian Relations and Conflicts and their Resulting Behavior Pattern", Journal of Politics and Law, Vol. 9, no. 7, 2016, pp. 178-183, pp. 180-182;

SaeidNaji, Jayum A. Jawan, "US-Iran Relations in the Post-Cold War Geopolitical Order", Asian Social Science, Vol. 7, no. 9, September 2011, accessed on November 16th, 2019, available at: https://www.researchgate.net/publication/268262456_US-Iran_Relations_in_the_Post-Cold_War_Geopolitical_Order, pp. 97.98.

(6) أبرزها انتفاضات أعوام 2000 و2008 و2014 (المصدر: أحمد يوسف أحمد، "انتفاضة القدس (2-2)"، بوابة الأهرام، 26 مايو 2021، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/809088.aspx>).

الأهلية منذ سبعينيات القرن العشرين التي انتهت بعد 20 عامًا من الخراب باتفاقية "الطائف" ذات التغييرات الطفيفة⁽¹⁾؛ وفي 1986 و2006 غزت إسرائيل الجنوب اللبناني لينشأ "حزب الله اللبناني" - المدعوم من إيران - في الغزو الأول؛ وتصدى هذا الحزب لإسرائيل في الغزو الثاني ليدخل في المعادلة السياسية اللبنانية⁽²⁾.

كما وقعت حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران منذ عام 1980 لغزو الأول -تحت قيادة صدام حسين- للثانية؛ وانتهت عام 1988 بسيادة الجمود لكنها ثبتت أقدام إيران في الخليج العربي والعراق⁽³⁾. ثم في أغسطس 1990، غزا صدام حسين الكويت بعد اتهامها بسحب نفط العراق الخام وأنها تتلاعب مع السعودية بأسعار النفط؛ فبدأت حرب الخليج الثانية بتعاون الدول العربية مع الولايات المتحدة وحلف الناتو لإخراجه من الكويت. وانتهت الحرب في فبراير 1991 بانسحاب العراق وتقبل الاعتراف بسيادة الكويت على أراضيها والتخلص من أسلحة الدمار الشامل⁽⁴⁾. وبعد زعم الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن احتفاظ صدام حسين بمخزون أسلحة مدمرة، حدث الاحتلال الأمريكي للعراق في مارس 2003 وانهازت بغداد في يد هذه القوّات في شهر أبريل من العام ذاته. وبسبب هذا الاحتلال، وقع العراق أسيرًا للحروب الطائفية بين السنة والشيعة؛ وفي 2004 ظهرت صور من سجن "أبي غريب" تكشف معاملة المحتلين للإنسانية للمعتقلين السياسيين مما حطّم الواجهة الأمريكية في أعين العالم. وانتهى الاحتلال رسميًا عام 2011 بعد أعوام من ثورة الداخل الأمريكي بسبب آلاف الجنود الذين ماتوا في حرب ليست لهم؛ لتعاود إرسال بعض الجنود هناك عام 2014 بزعم محاربة تنظيم الدولة الإسلامية. وحتى

(1) Murat Tinas, "Revisiting Lebanese Civil War", Journal of Faculty of Economics and Administrative Sciences Gazi University, August 2017, pp. 88-108, available at:

https://www.researchgate.net/publication/330534492_Revisiting_Lebanese_Civil_War, p. 91.

(2) أحمد يوسف أحمد، "انتفاضة القدس (2-2)"، مرجع سبق ذكره.

(3) Ranj Alaaldin, "How the Iran-Iraq war will shape the region for decades to come", The Brookings, October 9th, 2020, accessed on December 8th, 2020, at 10:00 pm, available at: <https://www.brookings.edu/blog/order-from-chaos/2020/10/09/how-the-iran-iraq-war-will-shape-the-region-for-decades-to-come/>.

(4) _____, "Persian Gulf War", History, January 17th, 2020, accessed on December 8th, 2020, on 10:30 p.m., available at: <https://www.history.com/topics/middle-east/persian-gulf-war>.

2018 لم يكن الجنود الأمريكيون قد رحلوا رغم انتصار العراق على التنظيم بحجة احتواء التنظيم ومواجهة نفوذ إيران⁽¹⁾.

3- الثورات العربية: في ديسمبر 2010 ثارت تظاهرات شعبية في تونس تندد بغياب العدالة الاجتماعية والحرية السياسية واستشراء الفساد؛ التي نجحت في إسقاط نظام "زين العابدين"؛ لتنتقل الشعلة الثورية إلى بعض الدول العربية المجاورة. وقد استطاعت المظاهرات الشعبية السلمية بالإطاحة بالحكومات في مصر وليبيا واليمن؛ وأخفقت في بلدان أخرى لتقودها -بدلاً من الديمقراطية وقهر الديكتاتورية- إلى صراعات مسلحة كما في سوريا واليمن وليبيا والعراق. أما في البلدان المحافظة التي امتدت إليها هذه الثورات، كالبحرين والكويت والأردن، فالحكومات احتوتها ومنعت تفاقمها بتقديم بعض الخدمات للمواطنين لسد احتجاجاتهم. لكن، بتقييم إنجازات هذه الثورات بعد نحو عشرة سنوات من توقدها، فالحق أنها حققت أهدافها بشكل محدود إذ استعادت الحكومات المستبدة سلطتها في أغلب هذه الدول قاضية على الحريات المدنية أو حلت محل النظم السياسية البائدة نُظُم اتبعت أيضاً أسلوب قمع الشعوب⁽²⁾. وصارت أهميتها تكمن فقط في أنها أوضحت قدرة التظاهر الشعبي السلمي؛ ودور وسائل التواصل الاجتماعي في إيصال رغبة الشعوب للعالم الخارجي؛ وألا تعارض بين الإسلام والديمقراطية. فقبل هذه الثورات، ظن الأكاديميون أن ما يساعد على عدم ثورة الشعوب العربية ضد حكامهم السلطويين هو الدين الإسلامي الذي أنه يرفض الثورة على الحاكم. لكن بهذه الثورات، أثبتت الشعوب العربية أن الإسلام لا يدعو للصمت على الظلم وأنهم يتوقون للديمقراطية. كما كشفت هذه الثورات طبيعة علاقة الجيوش بالنظم السياسية العربية إذ تباين تفاعلهم مع الثورات بناء على تركيبة النظام وعلى مدى مؤسسة الجيش⁽³⁾.

(1) Miriam Berger, "Invaders, allies, occupiers, guests: A brief history of U.S. military involvement in Iraq", The Washington Post, January 11, 2020, accessed on December 9th, 2020, at: 7:00 p.m., available at: <https://www.washingtonpost.com/world/2020/01/11/invaders-allies-occupiers-guests-brief-history-us-military-involvement-iraq/>.

(2) Erin Blakemore, "What was the Arab Spring and How did it spread", National Geographic, March 29, 2019, accessed on December 9th, 2020, at 10:00 available at: <https://www.nationalgeographic.com/culture/topics/reference/arab-spring-cause/>.

(3) في الدول ذات النسيج المجتمعي المتجانس والجيوش الاحترافية التي لا تخدم مصالح الخُكَّام ومؤمنة بدورها في النظم القائمة، ساند الجيش الثوار كما في مصر وتونس. وفي الدول ذات النسيج المجتمعي المنقسم والجيوش أداة شخصية في يد الحكام، انقسم الجيش بين دعم النظام وبين الانضمام للمعارضة وبين البقاء على الحياد كما في اليمن وليبيا. وفي الدول المحكومة من أقلية عرقية أو إقليمية وشعبها من الأغلبية وجيشها يتبع الأقلية الحاكمة، فساند الجيش النظم مثل البحرين والسعودية والأردن (المصدر:

F. Gregory Gause, "Why Middle East Studies Missed the Arab Spring: The Myth of Authoritarian Stability", Foreign Affairs, Vol. 90, issue 4, July/August 2011, pp. 81-90, pp. 82,83).

ثالثًا: السياق السياسي المحلي (المصري):

لأنَّ توفيق أديب مصري، فلا بُدَّ من التطرق إلى أهمِّ محطات السياق السياسي المصري الذي عاصرَه منذ مولدهِ حتَّى وفاتهِ لتبيُن مدى تأثيره على رواياته. في البدء، يمكنُ القول إنَّ النظام السياسي المصري منذ 23 يوليو 1952 يتميزُ بمركزية دور الرئيس. أي من أجل فهم تطور هذا النظام، فينبغي النظر إلى الإجراءات التي اتخذها الرؤساء لتعزيز شرعيتهم. وكانَ هذا واضح في عهود الرؤساء جمال عبد الناصر ومحمد أنور السادات ومحمد حسني مبارك؛ إذ عملوا على تقوية دعائم الجيش والجهاز الإداري والحكومي ليكونوا أيديهم الحديدية. بل واستمرَّ الأمر مع الرئيس محمد مرسي الذي سعى ليسيّط على مؤسسات الدولة بما يدعم فكر جماعة الإخوان المسلمين فيما عُرفَ باسم "أخوة الدولة"⁽¹⁾. كما اتسمَ النظام السياسي المصري بمركزية دور المؤسسة العسكرية أيضًا منذ عام 1952 إذ كانتْ هذه المؤسسة تبدي نفسها ظهرًا للرؤساء المتتاليين. وعندَ اندلاع ثورة 25 يناير 2011، لعبتْ دورين مهمين أولهما الفصل بين القوى السياسية لمتنع "انزلاق البلاد تجاه صراع لا يمكن السيطرة عليه" والذي يمكن أن يؤدي لفتنة طائفية أو حرب أهلية أو انهيار مؤسساتي لكيان الدولة. والدور الثاني كانَ قيادة القوى السياسية في ثورة يونيو 2013 وإطاحة الإخوان المسلمين عن الحكم. وقد وُردَ في ديباجة دستور 2014 تأكيدًا على وجود ارتباط لصيق بين الشعب المصري و"جيش الوطن"، وأنَّ هذا الجيش هو حامي الإرادة الشعبية. وبذلك تأكَّدتْ قوَّة هذه المؤسسة في مواجهة القوى المدنية الأخرى سواء سياسيًا أو اقتصاديًا. وقد استمرَّ هذا الوضع مع وصول الرئيس عبد الفتاح السيسي للسلطة عام 2015؛ إذ كانَ يشغل أصلًا منصبًا عاليًا في هذه المؤسسة⁽²⁾. وفي هذا الإطار، يمكن الحديث عن أهم محطات النظام السياسي المصري في ظل العهود التي تعاقبتْ عليه منذ عام 1962 وحتى 2018.

1- عهد الرئيس جمال عبد الناصر: قامتْ ثورة يوليو 1952 على أكتاف "الضباط الأحرار" داخل الجيش المصري والتي تزعمها جمال عبد الناصر التي ساقَتْ البلاد لتحولات سياسية واقتصادية جذرية بإطاحتها لطبقة (الإقطاعيين) التي قامَ عليها المجتمع فيما

(1) أي وضع ظهراء سياسيين موالين له في جهاز الحكومة والإدارة: بل لقد ترك رجال الأعمال من جماعة الإخوان المسلمين ليسيّطروا على الاقتصاد المصري في ظل تردّي الوضع السياسي الذي منغ المستثمرين من توسيع استثماراتهم أو إنشاء استثمارات أخرى.

(2) علي الدين هلال وآخرين، عودة الدولة: تطور النظام السياسي في مصر بعد 30 يونيو، (القاهرة: مكتبة الأسرة، 2015)، ص 28-48: 112-105، 72-66.

سبق؛ وحلَّ الأحزاب السياسية؛ والتغلَّب على خصوم الثورة الداخليين (كتنحية اللواء محمد نجيب عن رئاسة مجلس قيادة الثورة ورئاسة الجمهورية عام 1954)، أو الخارجيين (الإخوان المسلمين). وتميَّز عصر "عبد الناصر" بمحاولة النظام تثبيت أركان الثورة وساد الفكر الاشتراكي والنظام الاقتصادي القائم على أساس "التخطيط المركزي" كما غابت فيه الحرية والتعددية السياسية. بدأ حكمه بعلاقة جيدة مع الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة بعد أن نصَّت اتفاقية "تأميم قناة السويس" على حق القوات البريطانية في العودة إذا هوجمت تركيا أو أي دولة عربية؛ والذي تم تأويله أنه تقارب مع الغرب لأنَّ الاحتمالية الوحيدة لمهاجمة تركيا كانت من الاتحاد السوفييتي. لكنَّه نشرَ فيما بعد كتابه "فلسفة الثورة" عام 1954 ليوضح أهمية أن يكونَ لمصر دورًا قياديًا للمنطقة العربية. هُنا دُعِم حركات التحرر الوطني؛ وتصدَّى لمشروع "حلف بغداد" عام 1955 للخروج من التبعية الغربية؛ وأنشأ السد العالي عام 1956؛ وصمَد أمام العدوان الثلاثي (البريطاني-الفرنسي-الإسرائيلي) الذي قامَ عقب تأميم شركة قناة السويس. وبعدَ نجاح حركات التحرر الوطني، سعى للتوحيد العربي وكانَتْ خطوته الأولى هي الوحدة بينَ مصر وسوريا عام 1958، كما ساعدَ في إنشاء "منظمة التحرير الفلسطينية" لمجابهة الخطر الإسرائيلي⁽¹⁾.

ورغمَ التحديات التي واجهها هذا الدور المصري مثل معاداة بعض الدول العربية لمسارهِ (كالعراق)؛ وانفصال سوريا عن "الجمهورية العربية المتحدة" في سبتمبر 1961؛ فقد استعادَ "ناصر" زمامه بدعم الثورة في الشمال اليمني عام 1962 التي انتصرتُ في نوفمبر 1976 وبذلك حرمتُ الغرب من نفوذه على اليمن. ما أوجبَ تسديد ضربة قاضية لمصر قبيل الانسحاب البريطاني من الجنوب اليمني الذي كانَ متقدرا في عام 1968. وحلَّت هذه الضربةُ المعنيَّة بالعدوان الإسرائيلي المدعوم من الولايات المتحدة في يونيو 1967 على كلِّ من مصر وسوريا والأردن. هكذا وقعت "شبه جزيرة سيناء" تحت الاحتلال الإسرائيلي وفقدت مصر - بذلك - أغلب ثروتها النفطية التي كانتُ في باطنِ هذه الرقعة بالإضافة إلى حقول نفط خليج السويس ودخلَ قناة السويس؛ كما خسرتُ 80% من أسلحتها وباتتُ بحاجة لبنية عسكرية تفي بمتطلبات الحرب القادمة مع إسرائيل. ونظرا إلى أنَّ هذا العدوانَ قد ظفرَ بسبب عدم كفاءة قادة المؤسسة العسكرية التي عيَّنها "عبد الناصر" بلا رقابة تقريبا، فقد خرجَ معلنا

(1) أحمد يوسف أحمد، "تآكل الدور المصري في النظام العربي"، مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد 18، العدد 71، 2007، ص 59-69، ص 69.

Robert Eugene Danielson, "Nasser and Pan-Arabism: Explaining Egypt's Rise in Power", Master Thesis, (California: Naval Postgraduate School, 2007), pp. 29-42

مُسئوليتته عن هذه "النكسة" وبدأ -للمرة الأولى في تاريخ مصر المعاصر- بقبول المساعدات المالية من السعودية والكويت وليبيا. لكن لأنَّ هذه الدول ذات أنظمة سياسية محافظة، فلم يعد باستطاعة "ناصر" استكمال "المشروع القومي العربي" ودعم تغيير النظم المحافظة في المنطقة بينما يتلقى مساعداتهم⁽¹⁾. ورغم أنَّ إزالة العدوان باتَ شغله الشاغل، فقد حافظ "ناصر" على جماهيريته بين النخب العربية وظلَّ للقيادة المصرية دور في المنطقة إذ سعى مثلاً لحل الصراع المسلح بين الأردن والمقاومة الفلسطينية عام 1970⁽²⁾.

2- عهد الرئيس محمد أنور السادات: وهو من تولَّى القيادة عقب وفاة ناصر في سبتمبر 1970؛ الذي بدأ عهده بالعمل على التخلص من الخصوم الناصريين وتبني الفكر الليبرالي والانفتاح على المعسكر الغربي. وقد أبعد مصر عن القيادة العربية مكَتلاً جهوده لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي واستعادة الأراضي المسلوقة. وبالفعل قامَت الحرب بين مصر وسوريا وبين إسرائيل في أكتوبر عام 1973 لتشارك فيها عددٌ من الدول العربية بصورة غير مباشرة كالدول المنتجة للنفط التي حرمتُ العالم الغربي من نفطها للضغط على إسرائيل. ثمَّ دأبَّ السادات عقب هذه الحرب على التوصل لاتفاقية سلام مع إسرائيل لكبحها عن تكرار العدوان على مصر؛ التي تحققت في مارس 1979 بعد جولات متعددة منها اتفاقية "فض الاشتباك الأولى" في يناير 1974 وزيارة السادات لإسرائيل في نوفمبر 1977؛ و"اتفاقية كامب دافيد" في سبتمبر 1978. وبعدَ هذه الظروف، كانتُ الدول العربية المصدرة للنفط قد استطاعتُ تنحية مصر عن المشهد العربي من خلال استثمار ارتفاع أسعار النفط والازدياد الطفري في ثرواتهم؛ وأهم هؤلاء هم "السعودية" و"العراق" ثمَّ "سوريا" و"الجزائر". وإنَّ كانَ الدكتور أحمد يوسف أحمد، وهو المتخصص في الشؤون العربية يؤكدُ أنَّ رغمَ ذلك، فالنظام العربي لم يجد قائداً يحلُّ محل مصر بصورة كلية بعدَ معاقبتها على توقيع اتفاقية السلام - رغم كونها اتفاقية سياسية فحسب- وفشلتُ جميع المشروعات العربية التالية. وهذا ما يفسر اصطفاً هذه الدول جميعها وراء المسار المصري في "قمة فاس" عام 1982 التي وافقت على مبادرة "فاس"

(1) أحمد يوسف أحمد، "تآكل الدور المصري في النظام العربي" مرجع سبق ذكره، ص 62؛ ماهر حسن، "زي النهارده... ذكرى نكسة 5 يونيو 1967"، المصري اليوم، 5 يونيو 2020، تم الوصول إليها في 13 نوفمبر 2020، متاحٌ على:

<https://www.almasryalyoum.com/news/details/1984971>

(2) حيثُ كانتُ المقاومة الفلسطينية تقومُ بالمناوشات على القوات الإسرائيلية من الأراضي الأردنية؛ ما يجعل الأردن مصباً للانتقام الإسرائيلي؛ وللمزيد من المعلومات عن السياسة الأردنية تجاه المقاومة الفلسطينية (المصدر):

Nader Ibrahim M. BaniNasur, et al., "Jordanian Foreign Policy Towards the Palestinian Issue", British Journal of Arts and Social Sciences, Vol. 8, no. 1, 2012, p. 6).

للتسوية مع إسرائيل⁽¹⁾. وقد انتهت هذا العهد باغتيال الرئيس في السادس من أكتوبر عام 1981 على يد الجهاديين (خالد الإسلامبولي) الذين سبق وأخرجهم السادات من سجونهم للقضاء على الشيوعيين والاشتراكيين الذين سادوا المشهد السياسي في البداية⁽²⁾.

3- عهد الرئيس محمد حسني مبارك: تقلد الحُكم عقب اغتيال السادات في أكتوبر 1981 ليسيداً حالة من التسامح امتدت طيلة فترة الثمانينيات من القرن العشرين. إلا أن نظامه سرعان ما انقلب إلى سلطوية عميقة بتقييد الحريات السياسية والمدنية؛ وتعديل قانون الأحزاب والحد من حرية الإعلام ومعاملة الخصوم السياسيين بيد من فولان، وبالأخص جماعة "الإخوان المسلمين". بل زور النظام نتائج الانتخابات التشريعية في الأعوام (1990) و(1995) و(2000) لقمع المعارضة وتحقيق أغلبية غير مسبقة للحزب الحاكم وهو "الحزب الوطني الديمقراطي"⁽³⁾. وفي الانتخابات الرئاسية لعام 2005 ورغم وجود تسعة مرشحين ضد "مبارك"، فقد فاز الأخير بـ 87% من الأصوات وفازَ الحزب الحاكم في الانتخابات التشريعية بالتزوير. وقد حازَ الإخوان المسلمون في الانتخابات ذاتها على 20% من المقاعدما حفزَ النظام على اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع أي انتصار جديد لهم؛ فأجلوا الانتخابات المحلية ومدّوا حالة الطوارئ لعامين إضافيين⁽⁴⁾. وازداد تردّي الأوضاع مع التعديلات الدستورية عام 2007 التي قلّصت الحرية السياسية بإزالة القضاء بوصفه مشرفاً على الانتخابات؛ وتمكين الرئيس لحلّ البرلمان بلا استفتاء؛ وحظر الأحزاب الدينية جميعها -لمنع الإخوان المسلمين من تأسيس حزب سياسي-؛ وإعطاء الرئيس الحق لإحالة المدنيين للمحاكمات العسكرية إذا اشتبه فيهم أنهم إرهابيون. ونتيجةً، تعرّضَ على المعارضة أو الإخوان المسلمين الحصول على أي مقعد في انتخابات مجلس الشورى عام 2007⁽⁵⁾. أمّا الانتخابات التشريعية لعام 2010 فاتصفت بانتهاكات هائلة

(1) أحمد يوسف أحمد، "تآكل الدور المصري في النظام العربي"، مرجع سبق ذكره، ص 63، 64

(2) عبد العظيم رمضان، "أسرار اغتيال السادات"، الوفد، بتاريخ 7 أكتوبر 2002، متّاح على:

https://anwarsadat.org/site/project_img/pdf/16004.pdf، ص 1760

(3) Maria Cristina Paciello, "Egypt: Changes and Challenges of Political Transition", Mediterranean Prospects, Report No. 4, May 2011, accessed on November 2nd, 2020 at 16:30, available at:

https://www.researchgate.net/publication/228256301_Egypt_Changes_and_Challenges_of_Political_Transition, pp. 1.2;

Jack A. Goldstone, Revolutions, (Oxford: Oxford University Press, 2013), pp. 1.

(4) Amr Hamzawy, Michelle Dunne, "Brotherhood Enters Elections in a weakened State", Carnegie Endowment, November 15th, 2010, accessed on December 23rd, 2020, at: 10:00 available at:

<https://carnegieendowment.org/2010/11/15/brotherhood-enters-elections-in-weakened-state/42tv>.

(5) Maria Cristina Paciello, Op. Cit., p. 3.

مع إلقاء القبض على مئات النشطاء من الإخوان المسلمين والعنف مع الإعلام؛ فانتهت بفوز "الحزب الوطني" الحاكم بأغلبية غير معقولة⁽¹⁾.

كانت المعارضة ضعيفة في هذا العهد نتيجة القمع والتلاعب في الانتخابات وقانون الطوارئ الذي حرّم الإضرابات وراقب الصحف. كما كانت الأحزاب الموجودة بلا ديمقراطية داخلية أو قدرة تنظيمية أو موارد مالية وأصبحت الحركات كحركة "كفاية" وحركة "شباب 6 أبريل" أكثر نشاطاً. ومن خلال توفير الخدمات الاجتماعية التي انسحبت الدولة عن تقديمها، حشدت جماعة الإخوان المسلمين داعمين كثر لكنها عجزت عن إبداء نيتها في تغيير النظام أو التحالف مع القوى المعارضة الأخرى لخوفها من إقصائها من الحياة السياسية. ولهذا قبلت إعادة انتخاب الرئيس عام 2005 واحتمالية توريث الحكم لابنه؛ وتجاهلت نداء "محمد البرادعي" لمقاطعة انتخابات البرلمان عام 2010. على الجهة الأخرى، نشطت المعارضة الاجتماعية على هيئة التظاهرات الغاضبة؛ إلا أن هذه التظاهرات لم تنسق مطالبها الاقتصادية-الاجتماعية أبداً مع أي منظمة سياسية وتميزت بعفويتها وتشتتها؛ بل إن المعارضة السياسية -كالإخوان المسلمين- رفضوا الاندماج معها. وبذلك، فبقيت هذه التظاهرات نائية عن السياسة وتعبر عن مصالح طبقات محددة بالأخص الطبقة الأعلى في الطبقة المتوسطة. والحقيقة أيضاً أنه رغم ضعف مصر في تصنيف الإصلاح السياسي، كان الغرب يداوم على تجديد دعمه الاقتصادي بلا مشروطيات عديدة بل خصت الولايات المتحدة مصر بأكبر مساعداتها في المنطقة؛ وصرفت إدارة أوباما عام 2009 نظرها عن ملف حقوق الإنسان والديمقراطية في مصر. فسّر البعض أن نظام مبارك كان مصداً ضد الحركات الإسلامية ومحافظاً على السلام مع إسرائيل؛ ما شجع الغرب على دعمه⁽²⁾. والبعض الآخر تحدث عن انتماء مبارك -ككل رؤساء مصر منذ 1952- للمؤسسة العسكرية ذات المكانة المرسخة في المجتمع المصري ولها استثماراتها الضخمة في مجالات العقارات والصناعة والسياحة وذلك الأمر وطّد أركان الحكم أشد⁽³⁾.

(1) Michelle Dunne, AmrHamzawy, "From Too much Egyptian Opposition to Too little- and legal worries Besides", Carnegie Endowment, December 13th, 2010, accessed on December 23rd, 2020 at 17:00, available at: <https://carnegieendowment.org/2010/12/13/from-too-much-egyptian-opposition-to-too-little-and-legal-worries-besides/2ynu>.

(2) Maria Cristina Paciello, *Op. Cit.*, pp.3-6.

(3) Jack A. Goldstone, *Op. Cit.*, p. 113.

لكن مع ذلك، بعد مقتل "خالد سعيد" في يونيو 2010 ونشأة صفحة "كلنا خالد سعيد" لتضمّ العديد من رافضي النظام⁽¹⁾؛ وكذلك بعد انتخابات البرلمان في نوفمبر 2010 - التي عبّرت ضعف نسبة المشاركة الشعبية بها عن انعدام ثقة المواطنين في المؤسسات السياسية - التي جعلته برلماناً بلا معارضة حقيقية وأكدت نية النظام لتوريث الحكم لجمال مبارك⁽²⁾. هنا، انتهى هذا العهد باندفاع الجموع الشعبية في 25 يناير 2011 إلى الشارع المصري، وانضمت القوى السياسية المنظمة إليهم في يوم 28 يناير 2011 (يوم الغضب). والحق أنّ هناك مجموعة من العوامل جعلتها تظاهرات فريدة؛ أولها نجاح الثورة التونسية التي أشعرت المتظاهرين أنّ إطاحة الديكتاتور ممكنة، وأنّ المؤسسات الحكومية ليست بالقوة الظاهرة؛ وثانيها "استخدام وسائل التواصل الاجتماعي" إذ استطاع الشباب حشد هذه التظاهرات بدعواتٍ مرسلة على صفحات موقع "الفيسبوك"؛ وثالثها "عدم وجود انتمايات سياسية أو أيديولوجية للشباب المتظاهر" ما جعله حراكاً شاملاً وعباً الشعب من أطيافه كافة. بالإضافة إلى ذلك، فقد ربط هذا الحراك مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية بطلبات ذات طابع سياسي ظلّت تتناول حتى بلغت "تنحية الرئيس ذاته"⁽³⁾. أخيراً، فلم يصطف الجيش المصري ضدّ الثوار رغم عدم تحالفه معهم ورغم عدم تدخله لصد بعض العنف الذي صنعه داعمو مبارك؛ وبعد بضعة أيام من بداية الثورة، ضغط الجيش على الرئيس للتنحي وبات جزءاً رئيساً في المعادلة السياسية أثناء المرحلة الانتقالية اللاحقة على رحيل نظام "مبارك"⁽⁴⁾.

4- الفترة بعد ثورة 25 يناير 2011: بعد ثورة 25 يناير 2011، حكم مصر "المجلس العسكري" حتى بدأ حكم "الإخوان المسلمين" في بدايات عام 2012 مع فوز حزب "الحرية والعدالة" بنحو 47% من مقاعد مجلس الشعب بعد انتخابات حرة ونزيهة. وفي يونيو

(1) إذ زعمت الشرطة أنّه كان يتاجر في المخدرات ومطاردًا؛ قبل أن يُكتشف أنّ قوات الشرطة هي التي أوسعته ضرباً ودسّت لفاقة المخدرات في حلقه ما تسبب في وفاته (المصدر: _____، "قضية خالد سعيد: السجن 10 سنواتٍ لشرطيّين لإدانتهما بقتل الشاب المصري"، BBC، 3 مارس 2014، تم الوصول إليها في 23 ديسمبر 2020، الساعة 10:00 مساءً، متاح على:

https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2014/03/140303_egypt_khaled_said_killing_prison_policemen.

(2) إذ نصّ القانون على أنّ الحق في تسعة مرشح رئاسي جديد سيكون حكرًا على الأحزاب الفائزة بمقاعد البرلمان أي خرجت المعارضة من المعادلة تمامًا.

(3) Maria Cristina Paciello, Op. Cit., pp. 10, 11.

(4) Neil Ketchley, "The army and the people are one Hand!: Fraternalization and the 25th January Egyptian Revolution", Comparative Studies in Society and History, Vol. 56, no. 1, 2014, pp. 155-185, available at: <https://www.cambridge.org/core/journals/comparative-studies-in-society-and-history/article/abs/army-and-the-people-are-one-hand-fraternalization-and-the-25th-january-egyptian-revolution/095EB0CA07581A9643F640E7239681FA>. p. 115;

_____, "The State of the Egyptian Revolution", POMEPS briefings, September 7th, 2011, available at: https://www.pomeps.org/wp-content/uploads/2011/09/POMEPS_BriefBooklet6_Egypt_web.pdf, pp. 21, 22.

2012 فازَ مرشحهم محمد مرسي في الانتخابات الرئاسية التي كانت في مواجهة أحمد شفيق. وفي سلسلة اجتماعات عقدها محمد مرسي مع إعلاميين وصحفيين، أكدَّ أنه سيجتهد للحفاظ على الطابع المدني للدولة مع استحالة "أخونة الدولة المصرية". لكن خلال الشهور الثمانية التالية على بداية حكمه، وصلَ الكثير من أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" لمفاصل الدولة الدقيقة⁽¹⁾. جميعهم كانوا يعملون لمصلحة جماعة "الإخوان المسلمين" ونشر أفكارها وصولاً لإصدار الرئيس ذاته في نوفمبر 2012 إعلان دستوري يحصنُ قراراته من القضاء. هنا حدث استقطاب سياسي أول وظهرَ فريقان؛ الأول فيهما يدعمه الإخوان المسلمين والأحزاب الإسلامية المناصرة لهم؛ والثاني فيهما مكوّن من القوى السياسية الأخرى التي تحالفت في تشكيل "جبهة الإنقاذ الوطني"؛ وهو الاستقطاب الذي مهّد لهذه الثورة التي أطاحتُ بالإخوان بمساندة الجيش. فجميع هذه التصرفات اضطرَّ الغضب الشعبي، وغضب المجلس العسكري والمخابرات المصرية. وانتهى الأمر بالحشد الشعبي في 30 يونيو 2013 وإسقاط نظام محمد مرسي ما أدى إلى اندلاع مظاهرات مضادة من أعضاء ومناصري جماعة "الإخوان المسلمين" نجمَ عنها مئات الموتى والمصابين، واعتصموا في ميدان "رابعة العدوية" لمدة تزيد على الشهر حتى تمَّ فض الاعتصام من قِبَل قوَّات الجيش المصري في منتصف أغسطس 2013، وتمَّ حظر الجماعة واعتبارها جماعة إرهابية، واعتقال بعض رموزها والمنتمين إليها، ومصادرة بعض أملاكهم⁽²⁾.

بعدَ هذه الثورة وسقوط نظام الإخوان المسلمين، حدث استقطاب سياسي ثانٍ بين تحالف الشرعية" المؤمن بشرعية الإخوان وضرورة عودتهم؛ وبين "تحالف 2013" المؤيد لإقصاء الإخوان عن الحكم⁽³⁾. ثمَّ تنصَّب عدلي منصور -والذي كانَ رئيس المحكمة الدستورية سابقاً- رئيساً مؤقتاً للبلاد تميّزَ أدائه بمحدودية في المشاركة والتأثير في عملية صنع القرار. وفي عام 2014، أُنتخب الرئيس عبد الفتاح السيسي الذي مارسَ سلطة عالية

(1) بالإضافة إلى هشام قنديل رئيس مجلس الوزراء، وهو من أبرز أعضاء الجماعة والحزب. أصبح منهم أيضاً 8 وزراء و5 محافظين و8 في مؤسسة الرئاسة، كما تم تعيين مستشارين للوزراء ومتحدثين إعلاميين ورؤساء للقطاعات ومديرين لمكاتب الوزراء، كما كانَ هناك 5 نواب محافظين منهم و12 رئيس حي و13 مستشاراً للمحافظين.

(2) مصطفى المصفاوي، آيات الحبال، عمر عبد العزيز، "المصري اليوم" ترصد عملية (أخونة) الدولة في 8 شهور من حكم مرسي (ملف خاص)، "جريدة المصري اليوم، 14 فبراير 2013، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022 الساعة 12:00، متاح على:

<https://www.almasryalyoum.com/news/details/286656>

Sally Nabil, "Egypt Court bans Muslim Brotherhood's political Wing", BBC News, August 9th, 2014, accessed on May 20, 2022, available at: <https://www.bbc.com/news/world-middle-east-28722935>.

(3) Eman Ragab, "Egypt in Transition: Challenges of State and Societal Resilience", Istituto Affari Internazionali, Vol. 17, no. 32, November 2017, pp. 2-5.

في بداية حكمه في عملية اتخاذ القرارات صعبة وعسيرة وانفردت السلطة التنفيذية بصنع التشريعات والقوانين لحين إجراء الانتخابات البرلمانية التي انعقدت في ديسمبر 2015⁽¹⁾. وأثناء حكمه، سادَ تساؤل جديد حولَ إذا كانَ الأولَى توفير مساحة حرية سياسية أكبر أم تقليصها للحفاظ على أركان الدولة الواقعة تحت طائلة الهجمات الإرهابية من الإخوان المسلمين. كما كانَ هناك استقطاب آخر بينَ الراغبين في تنفيذ مشروعات كبرى كـ "مشروع تطوير قناة السويس" وبينَ من يدعون لتنفيذ إصلاحات "صندوق النقد الدولي" وبينَ من يهتمون بتقديم حماية اجتماعية لقطاعات المجتمع المهمشة. وقد رأى بعض المحللين أنَّ مصر ما زالتْ شبه دولة بسبب صراع القوة بينَ النخبة الحاكمة الذي يحزُم الحركات المعارضة الأصيلة وبسبب الاقتصاد المتدهور والفساد المستشري في المحليات؛ فيما رأى آخرون أنَّ الوضع قد اضمحلَّ عما كانَ في عهد "مبارك"⁽²⁾.

حتى عام 2018 وتحت حكم السيسي، تميَّزت الدولة المصري بأكثر من سمة أهمها هي موجة العنف والهجمات التي دشنتها جماعة الإخوان المسلمين في شبه جزيرة سيناء وفي العاصمة، التي استهدفتْ مدنيين وعسكريين والبنية التحتية والكنائس وسفارات أجنبية؛ ما منع المشروعات التنموية في شمال سيناء وتحدى شرعية النظام الجديد وأذى السياحة المصرية. من هنا، شَنَّ النظام ما عُرف باسم "الحرب على الإرهاب" بمقتضاها قبُض على القادة المسؤولين عن الهجمات وتجميد أرصدتهم؛ ومساعدة ضحايا الإرهاب؛ بالإضافة إلى وضع استراتيجيات لتجديد الخطاب الديني للقضاء على الأفكار الدينية المتطرفة. ورغمَ تضائل عدد الهجمات بدءاً من عام 2016 وانحصارها في شمال سيناء، فقد ظلَّ الإرهابيون يهاجمون بعض الأهداف شديدة الأهمية؛ كما أنَّ الدولة اكتفتْ بمطاردة الأفكار الدينية المتطرفة مع تجاهل شبه كامل للعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية المساهمة في تكوين العقلية الإرهابية⁽³⁾. بل إنَّ هذه الحرب قد جعلتْ النظام الجديد يجور على الحقوق والحريات المنصوص عليها في دستور 2014. فللقضاء على جماعة الإخوان المسلمين، فقد حظرها باعتبارها جماعة إرهابية وأصدر جملة قوانين وصفها العديد من الصحفيين والنشطاء الحقوقيين بأنها تنتهك حق المواطنين في التظاهر والتعبير؛ وأهمها

(1) أسماء مصطفى. مرجع سبق ذكره، ص 238.

(2) Eman Ragab, Op. Cit., pp. 2-5

(3) Ibid, pp. 10-12: _____. "Five Years of Egypt's War on Terror". The Tahrir Institute for Middle East Policy. July 2018, available at: <https://timep.org/wp-content/uploads/2018/07/TIMEP-ESW-5yrReport-7.27.18.pdf>, pp. 5, 52, 53.

هو "قانون التظاهر" الذي حظر أي تجمع شعبي من أكثر من عشرة أفراد وقانون "الكيانات الإرهابية 2014" وقانون "مكافحة الإرهاب 2015" التي جميعها لم يقتصر أثرها على جماعة الإخوان المسلمين، بل طال نشطاء ليبراليين وعلمانيين والتي بسببها توقفت تظاهرات الشارع تمامًا. ولقد رصدت بعض جمعيات حقوق الإنسان تزايد عدد حالات الاختفاء القسري في الفترة (2013-2016)؛ وهو ما علقت عليه الحكومة أنهم إما أناس موقوفون أو أُطلق سراحهم⁽¹⁾. لم يعد الخطاب السياسي يرحب بالمعارضة السياسية؛ وجبهة (25-30)² في البرلمان اكتفت بتوجيه الانتقاد لسياسات الحكومة الاقتصادية دون أن تقدم بدائل معقولة أو تساءل الوزراء. أمّا التظاهرات العمالية، فاستمرت وبلغ عددها في الفترة (يناير-إبريل 2016) نحو 492 وركزت على مطالب فتوية. ومن جانب آخر، فقد ظلّ للشعب نافذة وسائل التواصل الاجتماعي للتعبير عن غضبهم رغم أن الحكومة قد شملتها برقابتها. وذكر تقرير "التنمية البشرية العربية" لعام 2016 أن المواطن المصري لم يعد يبالي بالمشاركة السياسية لاهتمامه بتحسين ظروف معيشته؛ وإن كان استطلاع "القيم العالمية WorldValues" وجد أن 75% من المصريين المشاركين في الاستطلاع اعتبروا أن السياسة "مهمة جدًا" خاصة بين الفئة العمرية (30-49)؛ وبذلك فقد ارتفع الوعي السياسي إذ إن استطلاع الجهة ذاتها للفترة (2000-2004) وجدت النسبة على السؤال ذاته لا تزيد على 48%⁽³⁾.

والحق أن النظام المصري حاول الاستجابة لهذه الضغوطات. فراجع -مثلا- البرلمان المصري قانون التظاهرات فيما بعد وقضت المحكمة الدستورية العليا أن مادة القانون العاشرة - التي أتاحت لوزير الداخلية منع أي تظاهر دون حكم قضائي - غير دستورية إذ ليس بإمكان أحد منع التظاهر ما دامت وثائقه جميعها سليمة؛ وعلى الوزير عرض طلبات التظاهر للقضاء وانتظار حكمه قبل إتاحة أو منع أي تظاهر⁽⁴⁾. كما أطلقت المؤسسة

(1) Lin Noueihed, "Egypt's Sisi pledges reviews of Protest law, detentions", Reuters, October 27th, 2016, accessed on November 1st, 2020 at 20:00, available at: <https://www.reuters.com/article/us-egypt-sisi-politics-idUSKCN12R2MX>.

2 جبهة (25-30) هم مجموعة صغيرة من النواب جعلوا أنفسهم محط أنظار داخل المجلس التشريعي وخارجه يخطفون دائمًا مع تكتل الأغلبية ورئيس المجلس لدرجة تحويلهم أمام لجنة القيم في البرلمان وتهديد رئيس البرلمان لهم علنًا بإسقاط عضويتهم. اكتسب شهرته من معارضة اتفاقية ترسيم الحدود البحرية بين مصر والسعودية التي منحت جزيرتي تيران وصنافير للمملكة العربية السعودية عام 2016.

(3) Eman Ragab, Op. Cit., pp. 14, 15.

(4) El-Sayed Gamal El-Din, "Egypt Cabinet formulates amendment of unconstitutional article 10 in protest law", Ahram online, December 7th, 2016, accessed on November 1st, 2020 at 13:00, available at: <http://english.ahram.org.eg/News/251566.aspx>.

الرئاسية "مؤتمر الشباب القومي" لمناقشة شئون الشباب مع مسؤولي الحكومة؛ وأولى المؤتمرات انعقدَ في أكتوبر 2016 لينتهي بوعد الرئيس بتشكيل لجنة لتحرير الشباب المسجونين بلا دليل أو لأسباب تخص التجمعات السياسية غير المصرح بها⁽¹⁾؛ وأعلن عن العمل على محاكمة رجال الشرطة الذين يعاملون المواطنين بوحشية كأولئك المتورطين في قضية "شيماء الصباغ" وهي عضوة حزب "التحالف الشعبي الاشتراكي" التي أطلقوا الرصاص عليها خلال تظاهر عام 2015 كأنَّ يحتفل بمرور أربعة سنوات على ثورة يناير 2011⁽²⁾. ولكن في الواقع، فهذه السياسات قاصرة ولا تصلح شيئاً بعد؛ بل إنَّ الحكومة من ناحية أخرى ظلَّت تقيد منظمات المجتمع المدني بقوانينها كقانون 2016 الذي يحدُّ من قدراتهم على جمع التبرعات، وهو ما عبر عنه أحد الحقوقيين "ناصر أمين" أنَّه قانون يتنافى مع قرارات المحكمة الدستورية التي قضتُ بعدم التدخل في شئون هذه المنظمات؛ كما أنَّه ينتهك "الميثاق الدولي لحقوق الإنسان" و"الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" الذي يؤكد الحركة الحرة لهذه المنظمات⁽³⁾. أي بمعنى آخر، فحتى 2018، فالمجتمع المصري سياسياً عانى من الكبت والقمع وعدم القدرة على التعبير الحر عن مطالبه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Lin Noueihed, *Op. Cit.*

(2) Amira El-Fekki, "Retrial of Police Officer in Shaimaa Al-Sabbagh's case postponed". Daily News Egypt, December 22, 2016, accessed on November 1st, 2020 at 21:00, available at:

<https://dailynewsegypt.com/2016/12/22/re-trial-police-officer-shaimaa-al-sabbaghs-case-resumes/>

(3) Maged Atef, "NGO Law in Egypt", The Washinton Institute, January 12, 2017, accessed on November 1st, 2020 at 14:30, available at: <https://www.washingtoninstitute.org/fikraforum/view/ngo-law-in-egypt>.

الفصل الرابع

السَّيَاق الاقتصادي-الاجتماعي
العالمي والإقليمي والمحلي



في هذا الفصل ينصبُّ الاهتمام على السياق الاقتصادي- الاجتماعي الذي نشأ "أحمد خالد توفيق" وكتاباته بين طيّاته. والحق أن أدّجت العوامل الاقتصادية مع العوامل الاجتماعية نظرًا إلى التأثير المتبادل لكل منهما على الأخرى ما يجعل فصلها أمرًا غير ضروري. وكالفصل الثالث، سيتمُّ تقسيم هذا الفصل إلى مستوياتٍ وهي المستوى العالمي ثمَّ المستوى الإقليمي العربي ثمَّ المستوى المحلي المصري.

أولاً: السياق الاقتصادي - الاجتماعي العالمي:

لعلَّ فضلَ الطرق للتعبير عن هذا الجزء هو تقسيمُهُ إلى قضايا كُبرى أثّرت في هذا السياق. والحقيقة أن أهم هذه القضايا هي اقتصاد الحرب الباردة مع تبعية الجنوب للشمال" و"الاقتصاد العالمي" و"الفقر العالمي" و"اللجوء" و"البيئة وتغير المناخ"، و"الفضاء السبراني وصحافة المواطن" و"الاهتمام المتزايد بحقوق الإنسان"، وأخيرا "العولة الاجتماعية"، مع نبذٍ سريعة لفهم كلٍّ منها.

1- اقتصاد الحرب الباردة مع تبعية الجنوب للشمال: لم تكن الحرب الباردة صراعًا أيديولوجيًا سياسيًا وحسب، بل لقد طال الاقتصاد كذلك؛ إذ تبنّى المعسكر الغربي نظاما اقتصاديًا رأسماليا قائمًا على "اقتصاد السوق" وتبنّى المعسكر الشرقي نظاما اقتصاديًا اشتراكيًا قائمًا على "التخطيط المركزي". غير ذلك، فقد انقسم العالم إلى "شمال متقدم" وهي الدول الغربية الصناعية؛ و"جنوب متخلف" وهي المستعمرات التي احتلتها أوروبا فيما سلف وأدخلتها الاقتصاد العالمي بوصفها مصدرًا للمواد الخام والقوى العاملة الرخيصة وسوقًا لتصريف منتجاتها فجعلتها اقتصادية قبل صناعية وتابعة تمامًا للقوى الكبرى؛ التي نالت استقلالها السياسي دون الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية، فظلّت في تبعيتها المهينة للغرب. وخلال الفترة (1945 - منتصف السبعينيات) استقرّت اقتصادات أوروبا واليابان ورفعت الدول الصناعية نموها الاقتصادي واحتوت التضخم والبطالة؛ بينما حققت دول الجنوب (العالم الثالث) نموًا اقتصاديًا معقولًا؛ وازدادت قوة الاتحاد السوفييتي اقتصاديا وعسكريا وسياسيا. والحقيقة إن كان هناك اختلافًا جذريًا - خلال هذه الفترة- بين النظام الدولي السياسي والنظام الدولي الاقتصادي إذ كان الأول قائمًا على أساس عالمي وضحته الأمم المتحدة التي ضمّت جميع الدول المستقلة بما فيهم دول المعسكر الشرقي؛ بينما الثاني (وهو النظام الضام بالأساس للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي وغيرهما) قام متأثرًا بالانقسام الأيديولوجي للحرب الباردة، ونأّت عنه النظم الشرقية الاشتراكية حتى انهيار الاتحاد السوفييتي. أيضًا، قام النظام السياسي على أساس

المساواة في السيادة ونشأ الثاني على مبدأ الرأسمالية الذي يحدد أصوات الدول الأعضاء وفق لحصصها ومدى مساهمتها في المنظمة، ما منح الدول الصناعية الكبرى وأهمها الولايات المتحدة سلطة أكبر على النظام الاقتصادي الدولي منذ بدايته⁽¹⁾.

مع بداية السبعينيات، ظهرت عدة أزمات أهمها "أزمة نظام النقد الدولي" و"أزمة الغذاء 1970" و"أزمة الطاقة 1973" و"أزمة المديونية 1982" و"أزمة التنمية" و"أزمة الاشتراكية". بالنسبة لأزمة "نظام النقد الدولي"، فقد تعرّض الدولار الأمريكي -الذي قام عليه النظام الاقتصادي الغربي - للتضخم بعد حرب فيتنام ما أثر سلباً في النظام الدولي الذي لم تستطع السياسات الأمريكية إصلاحه وانتهت بتعديل اتفاقية "صندوق النقد الدولي" عام 1976 الذي أعطى الدول حرية اختيار نظام الصرف؛ فتهجّن نظام النقد الدولي وقام على الدولار من ناحية ومن ناحية لا يضع ضوابط عليه؛ كما لم يعد الدولار معبراً عن الأوضاع الاقتصادية العالمية إذ استعادت أوروبا واليابان قوتيهما⁽²⁾. بالنسبة لأزمة الطاقة، فمع حرب أكتوبر 1973 بين مصر وسوريا وبين إسرائيل، رفعت الدول العربية المصدرة للنفط سعره من 3 دولار للبرميل إلى 5 دولار وأخفضت السعودية إنتاجها وحظرت تصدير نفطها للدول المتعاونة مع إسرائيل؛ وبعد وقت وصل سعر البرميل لأكثر من 20 دولاراً؛ فقررت دول منظمة "الأوبك" رفع سعر النفط وأسماها "الصدمة النفطية الأولى"⁽³⁾ التي لحقتها "الصدمة الثانية" عام 1979 بعد أن وصل سعر البرميل إلى 26 دولاراً عقب الثورة الإيرانية. أدت هاتان الصدمتان إلى عجز في موازنة الدول الصناعية وفائض مالي هائل للدول المنتجة للبترول سرعان ما تبدد بالتضخم العالمي للأسعار ما رفع أسعار واردات الدول النامية من الدول الصناعية واضطرها إلى الاستدانة من المؤسسات المالية وبذلك زاد حجم مديونية دول العالم الثالث. ثم وقعت "الصدمة العكسية" عام 1986 بعد أن توجهت شركات النفط العالمية للاستثمار في دول أخرى وإيجاد مصادر جديدة للنفط ما أضعف موقف الدول المصدرة للنفط وأخفض أسعار النفط بشدة⁽⁴⁾.

(1) حازم الببلاوي، النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، (الكويت: عالم المعرفة، 2000)، ص 15، 28-31، 34.

(2) Barry Bosworth, Aaron Flaaen, "America's Financial Crisis: The end of an Era", ADB Institute Working Paper 142, 2009, available at: <https://www.adb.org/sites/default/files/publication/155997/adb-wp142.pdf>, pp. 2-12

(3) Giovanni Covi, "Puzzling Out the First Oil Shock: History, Politics and the Macroeconomy in a Forty-Year Retrospective", History of Economic Thought and Policy, Issue 2, 2015, pp. 32-35.

(4) Pascal Ditte, Peter Roell, "Past Oil price Shocks: Political Background and economic impact: Evidence from three cases", Denk würdigkeiten: Journal der Politisch-Militarischen Gesellschaft, no. 31, July 2006, available at: <https://www.pmg-ev.com/wp-content/uploads/2015/09/2006-31-Denk-wuerdigkeiten1.pdf>, pp. 3,4.

أما "أزمة الغذاء" فتمتلخص في اعتماد المستعمرات الأوروبية السابقة في نموها الاقتصادي على تصدير المواد الغذائية بالأساس، وهو ما نجم عنه أزمات داخلية، وكذلك تردى الوضع مع أزمة الطاقة والمديونية -سابقة الذكر-. ومن أجل حلها، سلكت بعض هذه الدول سياسة التدخل الحكومي في الاقتصاد وسياسة إحلال الواردات وتقليل الاعتماد على الخارج؛ وتوجهت دول جنوب شرق آسيا إلى اقتصاد السوق مدمج بدور كبير للدولة في توجيه الاستثمار؛ ما أدى إلى معدلات نمو عالية وباتت تسمى أنفسها "النمور الآسيوية"، وهم "كوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وماليزيا وإندونيسيا وتايلاند"؛ والتي واجهت أزمة مالية عام 1997 إذ انهارت عملاتها وحدث نزوح هائل لرؤوس الأموال. أما أمريكا اللاتينية وإفريقيا، فوضعهما لم يتحسن وساءت التضخم نتيجة القروض الخارجية وتفشي الفساد والحروب الأهلية والنزاعات القبلية -هاتان الأخيرتان بالأساس في جنوب الصحراء الإفريقية-. وهذه الأزمة فتحت الباب لسياسة "الإصلاح الاقتصادي" التي دشنتها "صندوق النقد الدولي" تحت عنوان "توافق واشنطن Washington Consensus" القائمة على تقليص دور الدولة في الاقتصاد وتشجيع القطاع الخاص والتوجه للاقتصاد. كما بدأت عمليات "الخصخصة" بعد ضعف "دولة الرفاه" في بعض الدول الصناعية كبريطانيا تحت قيادة مارجريت تاتشر 1979 والولايات المتحدة تحت قيادة رونالد ريغان 1980. وبذلك، سادت سياسة "التنمية" عالمياً وخضعت لها الدول جميعها سواء المتقدمة أو النامية⁽¹⁾.

وأخيراً، بالنسبة لأزمة "الأيدولوجية الاشتراكية"، فهي تدور حول قصور نظام "التخطيط المركزي" الهادف إلى "الكميات الضخمة" الذي اشتهر به الاتحاد السوفييتي. رأى السوفييتيون أنه نظام يهدر الكفاءة وطالبوا بالإصلاح الاقتصادي؛ ليجيء جورباتشوف ليعترف بأهمية السوق والحد من دور البيروقراطية والحزب الشيوعي في توجيه الاقتصاد. وهذا الأمر عبّد السبيل للمطالبة بالمزيد من الإجراءات الديمقراطية في مناحي الحياة السوفييتية الأخرى؛ وقد أخذها جورباتشوف جدياً بعد أن كان قد وافق على الانتقادات التي ذكرت أن سيطرة الحزب الشيوعي والبيروقراطية على السياسة والاقتصاد جعلت الاتحاد السوفييتي أشبه بألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية. هكذا بدأ في اتخاذ خطوات توائم بين ديمقراطية الدولة والحفاظ على النظام الشيوعي إلا أنه فشل. فالثورة التكنولوجية الحديثة كانت قد وصلت للشعب السوفييتي وأطلعته على شكل المجتمعات

(1) حازم البيلادي، مرجع سبق ذكره، ص 93-98

الغربية على شاشات التلفزيون والإذاعة؛ فاعتبروا الاتحاد السوفييتي قوى استعمارية، وتولد لديهم شعورٌ مناهضٌ ضده. هذا بالإضافة إلى المخابرات الغربية التي وهَّجَتْ هذا الإحساس العدائي حتَّى قامت المظاهرات والإضرابات في أنحاء الاتحاد، التي خَرَّبَتْ نظم الشيوعية في أوروبا الشرقية حتى سقط الاتحاد كُلُّهُ وذهب بعض المفكرين إلى أنها نهاية لتاريخ وانتصار الليبرالية⁽¹⁾.

2- الاقتصاد العالمي منذ 1990: ابتداءً من تسعينيات القرن العشرين، شهد العالم الاقتصادي ثورة "معلومات" وتطوراً تكنولوجياً وتغيراً نوعياً في الصناعة بحيث لم يعد التقدم الاقتصادي مقترناً بالإنتاج الأكبر؛ بل الإنتاج الذكي. من هُنا، فالآلة لم تعدْ تحل محل عضلات الإنسان أو عقله، ولكنها تعاونه على عمليات "الخيال والابتكار". بذلك، أضحَتْ الآلة تقومُ بالأعمال الميكانيكية بالإضافة إلى العمليات الذهنية التي تحتلُّ حفظ المعلومات ومعالجتها محلَّ المشكلات. والحقيقة أنَّ الثورة التكنولوجية حقَّقَتْ طفراتٍ في جميع المجالات كالأحياء والهندسة الوراثية وكما أنها ساعدَتْ في ظهور "الاقتصاد المالي" الذي يختلف اختلافاً بيناً عن "الاقتصاد العيني". فلو كانَ الاقتصاد العيني هو اقتصاد قائم على الموارد المادية المشبعة للحاجات والملوكة من قِبَل الإنسان؛ فالاقتصاد المالي يقوم على "حقوق" هذه الموارد الحقيقية؛ بحيث يتم التصرف في الحقوق العينية بعيداً عن الشيء المادي. ومع وجود "الأصول العينية" و"الأصول المالية"، فقد توسَّعَ اقتصاد السوق إذ صار الأفراد يتعاملون في البورصة والشهر العقاري مع هذه "الحقوق"، وتجلَّتْ "الملكية المشتركة" وارتفع شأن "الشركات المساهمة" بحيث يتصرفون في الأسهم داخل وخارج البورصة بمنأى عن المورد الحقيقي الذي تمثله هذه الأسهم. علاوة على ذلك، فمع ثورة التكنولوجيا هذه، فال "نقود" أصبحت "تعبيراً إلكترونياً" في ذاكرة حواسيب البنوك إذ تطوَّرت "الأدوات المالية" كالأسهم والسندات والأوراق التجارية؛ ما ساعدَ على تكوين الشركات متعددة الشركات. غير ذلك، فتطوَّرَ الأسواق المالية جعلها "عالية" فيتداول أسهم الشركات الأمريكية والأوروبية في بورصات لندن وطوكيو وسنغافورة ونيويورك. وبطبيعة الحال، فهذه الأمور جميعها أدَّتْ إلى أزِمَاتٍ مالية أثَّرتْ في أجزاء كثيرة من العالم بسبب نقل

(1) Erik Lauritzen, "Causes and Origins of the Collapse of the Former Soviet Union", Bachelor Thesis. (Ohio State University), June 2011, available at:

<https://kb.osu.edu/bitstream/handle/1811/49693/1/FinalThesis-July-15-2011.pdf>, pp. 35-42.

رءوس الأموال من مكانٍ لآخر بصورة فجائية لعوامل سياسية أو نفسية كالأزمة الأوروبية عام 1992؛ والأزمة المكسيكية (1994-1995)، والأزمة الآسيوية 1997⁽¹⁾.

غير ذلك، فهذه الثورة المالية ساهمت في بروز "التجارة الإلكترونية" إذ أُمسَتْ هناك مشروعات تجارية تعرض منتجاتها على شبكة الإنترنت، وبذلك أصبح الحاسوب وسيلة تعاقد وعقد صفقات ودفع ببطاقات الائتمان وتحوُّلت تعاملات البورصة لعمل منزلي من خلال شاشات الكمبيوتر⁽²⁾. لقد تحوَّل العالم عن "العلاقات الاقتصادية الدولية" إلى "الاقتصاد العالمي" بسبب التداخل والترابط الاقتصادي غير المسبوقة بين أقطاره ولم تستطع الحدود السياسية إرساء قيودها على النشاط الاقتصادي وتزايدت معدلات التجارة الخارجية. جرى هذا التحوُّل بسبب توجه الصناعة في كل مراحلها إلى "العالمية" أي اعتمدت على مستلزمات إنتاجية من مختلف مناطق العالم بل لقد اشتهرت تجارة "السلع الوسيطة"؛ وبسبب نبوغ دور الشركات متعددة الجنسيات المتحكمة في تكنولوجيا الصناعات وسياساتها تتجاوز حدود الدول السياسية؛ وبسبب تطور المؤسسات الاقتصادية المسيطرة على العلاقات الاقتصادية الدولية؛ وبسبب الميل لتوحيد المواصفات العالمية والمقاييس الفنية؛ وبسبب وسائل الإعلام العالمية التي جعلت الأذواق في ربوع العالم تتشابه وهو ما يؤكد الهيمنة الأمريكية؛ وبسبب عالمية القواعد المنظمة للبيع والاستشارات والعقود الدولية مع ازدياد اللجوء لقواعد التحكيم الدولي. بذلك، باتت الدولة تتعايش مع كيانات منافسة كالشركات المتعددة الجنسيات - ذات الاستراتيجيات المتجاوزة لحدود الدولة السياسية - والمؤسسات الاقتصادية الدولية - كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومجموعة الدول الخمس - ومؤتمرات القمة الاقتصادية⁽³⁾.

3- الفقر العالمي: رغم المساعي العالمية لخفض الفقر منذ أربعينيات القرن العشرين، فما يزال قرابة البليون ونصف نسمة عام 2000 يعيشون فقرا مدقعا أغلبهم متركزون في آسيا وفي جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية. والحقيقة أنَّ الدراسات الحديثة أثبتت أنَّ هؤلاء يعانون من مصاعب اقتصادية، بالإضافة إلى سوء التغذية والأمية وضعف الصحة

(1) حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص ص 127-138.

(2) Zainab Al-Shandoudi et al., "The Role of Electronic Trading System on Organizational Knowledge Management at Muscat Securities Market", Conference of proceedings of the 10th International Business Information Management, January 2008. pp. 1175-1180. pp.1175.1176.

(3) Nicholas F.R. Crafts, "The World Economy in the 1990s: A long Run Perspective". Duke-UNC conference Understanding the 1990s: the long run perspective, March 26-27, 2004. available at: <http://eprints.lse.ac.uk/22334/1/WP87.pdf>, pp. 1-3, 18-20.

والوفاة المبكرة وغياب الحوافز⁽¹⁾. ففي إحدى الدراسات، فالأسر الفقيرة غالباً ما تكون ريفية وتتعدد أوجه فقرهم لتشمل الحرمان من الغذاء الجيد والنظافة العامة والمياه النظيفة والكهرباء؛ وأن عادةً، فهؤلاء ذوي مستوى المعيشة المتدنية حُرِموا من الانضمام للمدرسة والتعليم⁽²⁾.

4- اللجوء: بعدما كَانَ اللجوء في العصور القديمة يتمُّ على أسس دينية، أصبحَ مبنياً على العرق والإثنية. فمثلاً في عام 1972 أجبرَ عدي أمين (رئيس أوغندا) السَّكَّانَ الآسيويين في بلاده على النزوحِ لأوطانهم وإلا قتلهم. والحقيقة أنَّ أغلب حالات اللجوء في التاريخ المعاصر كانتْ بسبب الحروب الأهلية المندلعة للاختلافات العرقية والانتماءات السياسية. فمِنذ 1979 اضطرَّت أعدادُ كبيرةٌ من أفغانستان والبلقان ورواندا والعراق وكولومبيا وأوغندا وسوريا والصومال والسودان إلى الرحيل وإعادة التوطن. وقد اختارَ أغلبهم الإقامة في أوروبا ما أدى إلى انتشار التظاهرات المضادة للاجئين في أنحاء العالم خوفاً من المسلمين على وجه الخصوص. وخلال العامين 2015 - 2016، فقد انهمكتْ عناوين الجرائد الرئيسية في وصف وصول آلاف اللاجئين للحدود اليونانية والمجرية والنمساوية والصربية. وواقع الأمر أنَّ تباينت ردود الأفعال الأوروبية حيال هذا الأمر ما بينَ من أغلق سكك الحديد ودفعَ اللاجئين إلى مخيمات وبنى جدران لحجزهم وبينَ من رحَّبَ بهم ودعمهم. ولعل ما يثير مشاعر سلبية تجاه هؤلاء اللاجئين أنَّ الكثير منهم يتميَّزون بأساليب حياتية ريفية غير حضارية، ويعتقدون معتقدات غير مسيحية في الوقت الذي تدينُ الدول المضيفة لهم بالديانة المسيحية، ويعيشون حياة صناعية حضارية. ولقد جاءتْ العديد من تعليقات القراء على أخبار اللجوء لنتهم هؤلاء اللاجئين بالإرهاب والإجرام دون وعي لأزمتهن ولا أسباب طلبات لجوئهم. ورغم أنَّ الولايات المتحدة تأسست على فكرة "الهجرة" وبها أكبر عدد من لاجئين مستقرين، فقد أصدرَ ترامب (2016-2020) قراراً تنفيذياً يحظر سفر اللاجئين من ست دول مسلمة كبرى ووصفَ المهاجرين المكسيكيين أنهم جُنَاة

(1) Michael M. O. Seipel, "Global Poverty: No longer an untouchable problem", International Social Work, Vol. 46, no. 2, 2003, pp. 191-207, p. 206.

(2) Gisela Robles Aguilar, Andy Summer, "Who are the World's poor? A new Profile of Global multi-dimensional poverty", Center for Global Development, Working paper 49, January 2019, available at: <https://www.cgdev.org/sites/default/files/who-are-worlds-poor-new-profile-global-multidimensional-poverty.pdf>, p. 22.

ومغتصبون. وتسببَ هذا العداء في انخفاض عدد اللاجئين إليها بشكل كبير على خلاف الأوروبيين الذين استقبلوا خلال الفترة (2011-2018) عددًا هائلًا منهم⁽¹⁾.

5- البيئة وتغير المناخ: في العصر الحديث، وجَّه العالم انتباهه لقضايا البيئة العالمية وبالأخص أزمة "الاحتباس الحراري" التي تسببَ في تفاقمها نشاط الدول الصناعية الكبرى -كالولايات المتحدة والصين- التي تستعملُ مواد غير صحية. وبناءً على بعض الدراسات، فأثار هذا الاحتباس بدأت في إثبات نفسها مع نهاية القرن العشرين، ويُتَوَقَّعُ أَنْ تتردَّى الأوضاع في الأعوام التالية بحيث سينجمُ عنه تغيرات مناخية تدمر البيئة وتنتشر أمراضًا خطيرة تضرُّ بالإنسان. كما أن هذا سيؤدي إلى ذوبان الجليد في القطبين الثريين بالثروة الحيوانية التي ستنقرضُ إذا وقع هذا الأمر؛ وهذا الذوبان سينتج ارتفاع في مستوى البحر عالميًا ما يهدد الدول المطلة على البحر بالغرق. ولعل الأزمة هي أنَّ الدول الصناعية الكبرى المعنية يماطلون في الاعتراف بالأزمة بحيث ارتبط الاقتناع بها بأيدبيولوجية النظام الحاكم كالولايات المتحدة أو يرفضون وجود أزمة بالكلية كالصين؛ وكلتاها - على وجه التحديد - تأبيان الانضمام إلى جميع الأطر العالمية التي تشكلت لمكافحة هذه الأزمة⁽²⁾.

6- الفضاء السبراني وصحافة المواطن: إنَّه الفضاء السبراني هو المجال الذي تتشابكُ فيه جميع شبكات حواسيب العالم عبر أسلاك فايبر أو من دون أسلاك؛ ويتضمَّنُ الإنترنت وأيضًا شبكات الحواسيب التي لا تحتاج الإنترنت للنفاذ إليها؛ والذي شهد العالم على ظهوره وتوسعه منذ ثمانينيات القرن العشرين⁽³⁾. بسببه، فقد برزت "القوة السبرانية" وهي استخدام أو التهديد باستخدام الهجمات السبرانية للتجسس والتخريب. ولو كانت هذه الهجمات السبرانية تدخل في صلب استراتيجيات الدول الدفاعية والهجومية، فبانتشار الإنترنت باتت ثمة فواعل من غير الدول -كالجماعات الإرهابية والشركات متعددة الجنسيات والجماعات المتطرفة سياسيا والمقرصنين والتنظيمات الإجرامية- تستخدمها ما يوقع الدول

(1) Jody Lynn McBrien, "Refugees, asylum seekers, and other immigrants", Social Studies Research and Practice, Vol. 12, no. 2, 2017. pp. 113-124. pp. 118.119

(2) Olufemi Adedje et al., "Global Climate Change". Journal of Geoscience and Environment Protection, no. 2, 2014, pp. 114-122. p. 114, p. 122

(3) Fred Schreier, "On Cyber warfare", DCAF Horizon 2015 Working paper, no. 7, 2015. pp.10-19. pp.10.11.

المتعرضة لهذه الهجمات لأزمة؛ إذ لا تستطيع الاستدلال على الفاعل والنيل منه⁽¹⁾. غير ذلك، فهذا الفضاء أدّى إلى ظواهر اجتماعية أخرى مثل "صحافة المواطن" (Citizen Journalism) التي تعني قدرة المواطنين العاديين غير المنتمين إلى أي مؤسسات إعلامية أو إخبارية على كتابة خبراتهم الخاصة ونشرها ليتلقاها القراء بلا وسيط نتيجة لانتشار "تكنولوجيا النشر الإلكتروني" كالدونات ووسائل التواصل الاجتماعي⁽²⁾. والحقيقة أنّ هذه الظاهرة تسببت في العديد من الإشكاليات مثل أنّ هذا النفاذ الذي أتاحت الإنترنت للمواطنين العاديين لكل المعلومات قد أدّى إلى تآكل سلطة المؤسسات الأكاديمية والحكومات في نشر المعلومات والشروح للأحداث المختلفة. كما أنّ شاعت تساؤلات حول مدى مصداقية هذه المعلومات والشروح التي ينشرها غير المتخصصين ومدى قدرة الدول على التحكم فيها خاصة لو تسببت في أحداث كبرى كالثورات⁽³⁾.

7- الاهتمام المتزايد بحقوق الإنسان: بدأ وضع مسألة "حقوق الإنسان" في إطار قانوني بدءاً من وثيقة "الماجنا كارتا" البريطانية عام 1215، وبعدها بقرون، ظهرت عريضة الحقوق عام 1628 وقانون التحقق من قانونية سجن شخص معتقل عام 1679. وفي عام 1689، فقد صدر "إعلان الحقوق" (Bill of Rights) للحدّ من سلطة الملوك المطلقة من خلال تقوية دور البرلمان واحترام حقوق الإنسان وحياته الأساسية. وبعد ذلك ظهر كلا من "إعلان فيرجينيا" و"إعلان الاستقلال" في أمريكا الشمالية عام 1776، ليؤكدوا حرية الصحافة والدين والحرية الشخصية، وأنّ الناس مولدون سواسية، وأنّ حقهم في الحياة والحرية هبة من الله، ثمّ الدستور الأمريكي عام 1787 الذي تعدّل ليضمّ فكرة "حقوق الإنسان" في حرمة النفس والمال والبيت وتحريم الرق والمساواة في الانتخاب. هذا غير التطورات التي نجمت عن الثورة الفرنسية خاصة "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" عام 1789، الذي أكّد الكثير من الأمور أهمها المساواة والحرية والحق في الملكية والأمن. ولكن بعد المآسي التي تعرّض لها المجتمع الدولي من جرائم الإبادة الجماعية وانتهاكات حقوق الإنسان

(1) Petr Hruza, Jiri Cerny, "Cyber-warfare", International Conference Knowledge-Based Organization, Vol. 23, no. 1, 2017, pp.155-160, pp.155, 156; 9. مجلة الدراسات الحقوقية، العدد 9، 2018، ص ص 165-195، ص 165 محمودي قادة، "مخاطر ومظاهر الإرهاب الإلكتروني"، مجلة الدراسات الحقوقية، العدد 9، 2018، ص ص 165-195، ص 165

(2) Serena Miller, "Citizen Journalism", Oxford Research Encyclopedia of Communication, 2019, accessed on November 23rd, 2020 at 20:00, available at: https://www.researchgate.net/publication/332627049_Citizen_Journalism.

(3) Lisa Anderson, "Too much Information? Political Science, the University and the public sphere", Perspectives on Politics, Vol. 10, no. 2, 2012, pp. 385-396, p. 388, 389.

في ظلّ الحربين العالميتين، وإنشاء الأمم المتحدة عام 1945، فقد اشتدّ الاهتمام بحرية الإنسان وحقوقه. وكانّ التنظيم الدولي الأول لحقوق الإنسان على يد منظمة "الأمم المتحدة" التي جعلت لهذه الحقوق بُعداً دولياً، وبدأ ذلك في ميثاق الأمم المتحدة إذ تناول في بعض مواده ما يحثّ على وجوب مراعاة حقوق الإنسان، وعهدت المنظمة تقنين هذه المسألة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع لها ليعد مشاريع اتفاقيات يعرضها على "الجمعية العامة" للمنظمة، وينشئ لجناً للشئون الاقتصادية والاجتماعية لتعزيز هذه الحقوق. هكذا أنشئت "لجنة حقوق الإنسان" عام 1946 لتعترف بحقوق الإنسان وتكفل احترامها. ثمّ أصدر "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" عام 1948 ليؤكد مبادئ المساواة في هذه الحقوق وقيامها على أسس العدل والسلام والحرية وقنن هذه الحقوق في 30 مادة. وفي عام 1966، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الاتفاقيتين الدوليتين للحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، واللتين دخلتا حيز النفاذ عام 1976 واللتين قامتا على أسس تحرير الشعوب من الاستعمار وتحريم الاسترقاق والتمييز العنصري وتعزيز الحريات العامة وحمايتها من اضطهاد الحكومات، كما ضمتّ الاتفاقيتان حقوق لبعض الفئات كالأطفال والمرأة والعجزة. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك المزيد من الاتفاقيات "مثل اتفاقية لمناهضة التعذيب" وأخرى "لمناهضة التمييز العنصري"، والإجراءات من أجل إعمال هذه الحقوق دولياً⁽¹⁾.

لكن واقعياً، فقد واجه إعمال هذه الحقوق صعوبات وتحديات أولها أنّ هذه الاتفاقيات الدولية تفتقد عنصر "العموم"؛ إذ إنّ إجراءاتها تُفرض على الدول الأعضاء وحسب، بل وبعض هذه الدول المنضمة إليها تتحفّظ على بعض ما تتضمنه هذه الاتفاقيات من أحكام؛ وثانيها أنّ التقارير التي تقدمها الدول الأعضاء طوعاً عن حالة حقوق الإنسان بها كانت شكلية، إذ لم يكن من المعقول أنّ تعترف دولة بتقصيرها في تشريعاتها وتنفيذ التزاماتها، وثالثها عدم وجود الأجهزة القضائية المتخصصة في النظر في انتهاكات الدول لحقوق الإنسان، رغم أنّ هناك "مجلس حقوق الإنسان الدولي" منذ عام 2006 - أنشئ ليحل محل "لجنة حقوق الإنسان" التي اتهمت بأنها "مُسيّسة" و"غير محايدة"، الذي لا يأتي سوى ببعض التوصيات التي تُرفع للجمعية العامة للأمم المتحدة؛ ورابعها أنّ هذه الاتفاقيات لا تتناول عقوبات أصلاً على انتهاك هذه الحقوق سوى أنّ تضغط اللجان المختصة على الرأي العام

(1) بول جوردن لورين، نشأة وتطور حقوق الإنسان الدولية - الرؤى، أحمد أمين الجمل (مترجم)، (القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، 2008)، ص32؛ عماد خليل إبراهيم، مرجع سبق ذكره، صص 272-274، 277-285، 296.

الدولي وتندد وتنشر بعض التقارير سواء التي تصيغها أو تصيغها منظمات دولية غير حكومية مثل "منظمة العفو الدولية"؛ وخامسها أن هناك ازدواجية معايير في تعامل الدول الكبرى مع قضايا حقوق الإنسان بما يتفق مع مصالحها السياسية الخاصة بها⁽¹⁾.

بل ويمكن في هذا الصدد الحديث عما حدثَ بعدَ انتهاء الحرب الباردة وانتصار الولايات المتحدة والمعسكر الغربي؛ إذ ظهرَ توجه يفيد أن الأفراد في أنحاء العالم يتمتعون بذات الوضع الأخلاقي، وأن العدالة الإنسانية ينبغي أن تمتدَّ عبر الحدود القومية؛ وهو ما حفَّزَ التوتر بين حقوق الإنسان وبينَ حقوق الدول بحيث دارت تساؤلات حول ما هو "الحق الإنساني"؛ وإلى أي مدى ينبغي مراعاة هذه الحقوق. بلغت التوترات مداها عندما استخرجت الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون مفهوم "التدخل الإنساني" الذي يعطي المجتمع الدولي -الممثل في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة- الحق في التدخل العسكري في الدول التي تستغل وتبيد مواطنيهم إبادات جماعية. ولقد فعلوا هذا المبدأ في عدة حوادث أهمها "حرب كوسوفو عام 1999" قبل أن يطوروه إلى "مسئولية الحماية"، واستخدموه في "الحرب الأهلية الليبية عام 2011" وغيرها⁽²⁾.

8- العولمة: يُقصدُ بالعولمة العبور السريع والكبير وغير المقيد للمعلومات والسلع والأفكار والقيم الثقافية ورأس المال والخدمات والأفراد من دولة إلى أخرى وعبر القارات كذلك؛ وهو ما سهله الإنترنت الذي جعل العالم "قرية صغيرة". ويمكن القول إنَّ للعولمة أربع أبعاد وهي "العولمة الاقتصادية" و"العولمة السياسية" و"تشكيل رأي عام عالمي" و"التحول الديمقراطي". وعلى الرغم مما أنجزته فكرة "العولمة" من محاسن، فقد أثارت انتقادات لكونها أوقعت الدول الصغيرة تحت هيمنة ما يأتيها من الدول الكبرى. فهذه الدول الصغيرة تستورد بصورة مستمرة من الدول المتقدمة دون أن تمتلك ما تصدره؛ ما يثري الدول الغنية ويفقر الدول الفقيرة⁽³⁾. اجتماعياً، فقد ازداد النفاذ للمعلومات والمعرفة؛ وسمحتْ عولمة التواصل بعولمة التعليم العالي وهو ما تراه عدة دول من العالم النامي خطراً لأنَّ القيم العالمية السائدة حلت محل القيم الثقافية المحلية. بالإضافة إلى ذلك، وقعتْ أكثر من لغة تحت تهديد اللغة الإنجليزية بعدما صارت الأخيرة توفر فرص أعلى في

(1) المرجع السابق نفسه، ص 296.

(2) Andrew Heywood, Global Politics, (New York: Palgrave Macmillan), 2011, p. 303.

(3) Zangin M. Awdel, et al., "The rise of globalization and its effect on the autonomy of state and political economy", Journal of Critical Reviews, Vol. 7, issue 6, 2020, pp. 998-1000, p. 998, p. 1000.

التوظيف وفي المرتبة الاجتماعية. بل انتشر خوفٌ من أنَّ هذه العولة التعليمية تعجّل من "التطابق" الثقافي وتلغي ثقافة التسامح مع المختلفين تدريجيًّا⁽¹⁾. سياسيًا، فالعولة أضعفت سيطرة الدول على حدودها وسهّلت تجارة المخدرات والسلاح غير المشروعة وسرقة حقوق الملكية الفكرية وغسيل الأموال وتوطيد أركان التنظيم الإرهابية واختطاف البشر وبيعهم كعبيد أو الإتجار بأعضائهم. وهذا الأمر يعد تحديًا لقوة الدول التي تُستنزف في حروبٍ غير متكافئة مع شبكات قوية وثرية ومجهولة تستطيع التخفي والإضرار بالمواطنين دون ضبطهم⁽²⁾.

ثانيًا: السياق الاقتصادي - الاجتماعي الإقليمي (العربي):

يعملُ هذا الجزء على طرح أهم القضايا الإشكالية التي تسمُ السياق الإقليمي العربي اقتصاديًا واجتماعيًا باعتباره مؤثرًا بصورة كبيرة في روايات دكتور أحمد خالد توفيق خاصة شكل النظم الاقتصادية العربية ومدى إمكانية التعاون الاقتصادي بينهم؛ والهوية العربية المشتركة؛ وأخيرًا اللغة العربية الموحدة وأهم التحديات التي تواجهها في العصر الراهن.

1- شكل النظم الاقتصادية العربية: تتباينُ النظم الاقتصادية العربية بصورة واضحة؛ فمن جهة تتميزُ دول الخليج باقتصاد ريعي معوّل على صادرات النفط وأسعاره في السوق العالمية وتوظفُ ثرواتها لصنع شبكات زبائية ولتوفير خدمات اجتماعية لشعوبها منعا للثورة ولتوجيه القطاع الخاص وربط مصالح الرعية بمصالح النظام. لقد أجهضوا التظاهرات التي اضطرتهم داخلهم تزامنًا مع الثورات المصرية والتونسية بمضاعفة الرواتب وزيادة السلع الاستهلاكية للمواطنين ووحدها "ليبيا" -التي تصنف من هذه الفئة- هي التي وقّع نظامها، وذلك بسبب عدم استخدام "معمر القذافي" لعوائد النفط في مشروعات شعبية تؤمّنُ شرعيته. ومن جهة أخرى، فبأقي الدول العربية لا تنتج نفطًا بل هي مديونية اتبعت حرفيا شروط المؤسسات المالية الدولية لنيل قروض يسدون بها هذه الديون؛ وأهم هذه الشروط كان "تحرير الاقتصاد" بالخصخصة والاستثمار الأجنبي وخفض دعم ومصروفات الحكومة. والحقيقة أنَّ هذه الشروط خلقت فرصا لرجال الأعمال المحليين في هذه الدول؛ وأتاحت للطبقات العليا في المجتمع الوصول

(1) Ali M. Alli, "Globalization: its effects", International Business and Economics Research Journal, Vol. 6, no. 1, 2007, pp. 89-96, p. 95.

(2) Moises Naim, "Five Wars of Globalization", Foreign Policy, November 3rd, 2009, accessed on December 1st, 2020 at 20:00, available at: <https://www.moisesnaim.com/my-columns/2020/6/1/five-wars-of-globalization>.

للمنتجات العالمية؛ بل وصنعت طبقة "رجال الأعمال شديدي الثراء" التي ضمتُّ أسَرَ الرؤساء. إلا أنَّها -في الوقت نفسه- تسببتُ في إفقار باقي فئات الشعب وغياب العدالة الاجتماعية وهو ما كانَ إحدى أسباب اندلاع الثورات العربية عام 2011⁽¹⁾.

2- العلاقات الاقتصادية العربية: رغم أنَّ الساحة العربية شهدتْ مداولات عدة لتحقيق "التكامل الاقتصادي العربي" لعقود، فبصورة عامة، فالعلاقات الاقتصادية العربية ضعيفة سواء في التجارة البينية أو في الاستثمار العربي أو في مشروعات التكامل الاقتصادي. فمن ناحية، فالتجارة البينية العربية لا ترتقي عن 10% من إجمالي التجارة الخارجية العربية بينما تتوجه أغلب تجارتهم إلى العالم الخارجي. ومن ناحية الاستثمارات العربية، فلا يفضل أغلب المستثمرين العرب أن يهدروا أموالهم في الدول العربية نتيجة لعدم الاستقرار السياسي والإداري والاقتصادي ويفضلون التوجه للدول الآسيوية والأوروبية. ومن ناحية أخرى، فتقريباً انعدمتْ مشروعات التكامل الاقتصادي بسبب تشابه المنتجات العربية الذي يلغي أي احتمالية للتكامل وإنما ينجم عنه التنافس. حاولوا إقامة مناطق تجارة حرة عربية قبل أن يساور كل دولة الخوف من توسع بيع منتج دولة معينة، فيقصون الكثير من المنتجات الضرورية عن هذه المنطقة الحرة أو يرجئون ضمها مما ينتهي بفشل المشروع. ولعلَّ العنصر الإيجابي الوحيد في هذه العلاقات الاقتصادية العربية هو "حركة العمالة" إذ تعاني الدول الخليجية من قلة السكان، وتلجأ إلى عمالة خارجية لتحقيق التنمية، ووصلت العمالة المصرية في العراق في إحدى الفترات إلى 3 ملايين فرد؛ وتجاوزوا الملايين في السعودية وليبيا. بل يمكن الزعم أن نحو 15 مليون عربي يعملون في دول عربية شقيقة. مع ذلك، فلم يمتد هذا الانتعاش في حركة العمالة العربية إلى حركة السلع ورأس المال⁽²⁾.

3- الهوية العربية العابرة للحدود: من السمات الاجتماعية المرصودة في المنطقة العربية هي وجودُ "هوية عربية عابرة للحدود" بين مجتمعاتها. ولعل البرهان الأكبر على ذلك الأمر أنَّه على الرغم من تجاهل هذه المجتمعات العربية للثورة الإيرانية عام 2009، فلقد تأثروا بنجاح الثورة التونسية. وذلك يرجع لمشروع "القومية العربية" ومفاهيم "العروبة" التي يُقصد قدرة القادة العرب (بالأخص جمال عبد الناصر) على حشد الدعم

(1) F. Gregory Gause, Op. Cit., pp. 84-86.

(2) حميد الجميلي، "التكامل الاقتصادي العربي: بعض هواجس الإخفاق وآفاق المستقبل"، مجلة منتدى الفكر العربي، المجلد 29، العدد 261، 2015، ص ص 140-160، ص ص 140-143.

السياسي من المجتمعات العربية بناءً على فكرة وحدة المصير والهوية المشتركة باستخدام الكاريزماً ووسائل الإعلام "كالراديو". وقد تجاهل العرب هذه المشاعر طويلاً عقب الهزيمة أمام إسرائيل عام 1967؛ وتوقيع بعض الدول لاتفاقيات السلام معها (مصر والأردن) ومفاوضات سوريا وفلسطين المباشرة معها والقيادة الأمريكية للحرب ضد العراق عامي 1991 و2003 وعقب تنامي الشعور أنَّ العرب باتوا أقوى من الانسياق وراء أي ضغط أيديولوجي. والحقيقة أنَّ هذه العروبة قد أُحييت عام 2011 إذ استلهمت المجتمعات العربية فكرة "الحشد الشعبي بلا قائد"، وأنها قادرة على تكرار ما قامت به الثورتان التونسية والمصرية، خاصة أن هذه المجتمعات تتشابه في الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية. لعلَّ مفهوم العروبة الحديث لم يعد يعني السعي وراء تذويب الحدود القومية وتخليق دولة عربية واحدة -كما كان حال مشروع القومية العربية في ستينيات القرن العشرين؛ لكنها أصبحت تعني "التأثير المتبادل" لهذه المجتمعات العربية على بعضها بعضاً؛ وهو الأمر الواضح في بعض القضايا كالصراع العربي الإسرائيلي وكالسياسات الأمريكية التي تتوحد المشاعر الشعبية العربية تجاهها⁽¹⁾.

4- تدهور اللغة العربية: تشترك المجتمعات العربية في أنها جميعها تتخذ "اللغة العربية" لغةً أمّاً لها باعتبار أنَّ غالبية الشعوب العربية تدين بالدين الإسلامي والقرآن الكريم هو كتابه المقدس والمنزل باللغة العربية الفصحى. بسبب اللغة الموحدة، تشاركت المجتمعات العربية في رؤاها حول الاستعمار الأوروبي والصراع العربي الإسرائيلي، واستطاع الكتاب العرب التعاون في كتابة مؤلفات عديدة في مجالات شتى. بل لقد سهّلت هذه اللغة "حركة العمالة العربية"، وحركة "الطلاب" بين الأقطار العربية. هذا بالإضافة إلى تأثيرها في النشاط الإعلامي العربي مثل إذاعة "صوت العرب" التي عبّأت الرؤية العربية خلف خطابات الرئيس المصري "جمال عبد الناصر" ضدَّ الاستعمار. وقد تمكّنت دور النشر العربية كدار الهلال أن تنشر الثقافة العربية والمصرية في أقطار المنطقة العربية. مع ذلك، ففي العصر الراهن، تتعرض اللغة العربية لبعض المعوقات أمام وظيفتها التواصلية أهمها "غلبة اللهجات المحلية المهجنة بين لغات عدة" و"انتشار اللغات الأجنبية بسبب الاستعانة بالعمالة الأجنبية في الوطن العربي -بالأخص دول الخليج- خوفاً من العمالة العربية التي قد تنتمي لتيارات سياسية متطرفة مزعومة للاستقرار"، و"التوسع في استخدام لغات أجنبية في التعليم داخل الوطن العربي" وشيوع لغة الحواسيب بألفاظها غير العربية وأخيراً

(1) F. Gregory Gause, Op. Cit., pp. 87,88.

"ظهور قنوات إخبارية ناطقة باللغة العربية مثل France24 وBBC وRT بعد ملاحظتهم مدى تأثير المجريات العربية على السياسة الدولية؛ ما كسر احتكار العرب للوسائل الإعلامية وهدم الرؤية العربية المشتركة للقضايا المختلفة⁽¹⁾.

5- وضع الثقافة العربية المعاصرة في ظل الثقافة العالمية: بسبب الاستعمار الأوروبي لجميع دول المنطقة العربية، ومن بعدها انتصار الولايات المتحدة في الحرب الباردة وتنكّبها على رأس النظام الدولي مع حلفائها من الغرب، فقد ساد اعتقاد عربي بوجود مركزية ثقافية وحضارية لأوروبا وأمريكا، وأنّ هناك تراتبية أو علاقة هرمية بين الثقافات؛ بحيث أنّ الثقافة الغربية الأوروبية والأمريكية تسمو على ما عداها من ثقافات مستعمراتها السابقة. بل لقد سعوا إلى فرض نماذجهم الثقافية على المنطقة العربية باستخدام أفلامهم والتعليم الأجنبي والبعثات إليهم وإصداراتهم الأكاديمية والأدبية، التي يتشربها العرب تشرباً. وانتشرت سياسة "استيراد الحلول الجاهزة" من الغرب، التي لم تحقق التنمية والتقدم بصورة كبيرة لاختلاف النموذج الغربي عن النموذج العربي⁽²⁾. بل كما ذكر في الفكرة السابقة، فإنّ سبباً من أسباب تدهور اللغة العربية التي كانت أحد عناصر الوحدة بين شعوب المنطقة العربية هو الاستعمار الغربي للبلاد العربية إذ نافستها وداخلتها لغات المستعمر سواء الإنجليزية أو الفرنسية. وعلى الرغم من استقلال هذه البلاد، فقد ظلّ لديهم اعتقاد نفسي أنّ استخدام اللغات الأجنبية لمستعمرهم السابقين لهو معيار تحضر، وفي سبيل ذلك، قبلوا بالتضحية بلغتهم العربية. فمثلاً في بعض الدول العربية، أصبح منتشراً دمج بعض الكلمات الإنجليزية في الحديث العربي والنظر إلى هذا الفعل أنّه معيار للتحضر والتقدم. هذا غير انتشار لغة "الفرانكو آرب" (FrancoArab) التي هي مزيج بين اللغتين العربية والإنجليزية؛ إذ يتم صياغة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، التي يستخدمها قطاع واسع من الشباب العربي في محادثاتهم غير المتكلفة على منصات التواصل الاجتماعي. أمّا مثلاً دول المغرب العربي، التي كانت ترزح تحت الاحتلال

(1) Khawlah Ahmed, "The Arabic Language: Challenges in the Modern World", International Journal for Cross-disciplinary Subjects in Education, Vol. 1, issue 3, September 2010, pp. 197,198.

(2) علي الدين هلال، "الإسهام العربي المعاصر في الثقافة العالمية"، بوابة الأهرام، 12 سبتمبر 2021، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/822638.aspx>.

الفرنسي لفترة طويلة، فرغم استقلالها، ظَلَّت السطوة الفرنسية عليها فجعلت اللغة الفرنسية لغة الإدارة والتعليم العالي والإعلام والاقتصاد⁽¹⁾.

ثالثاً: السَّيَاق الاقتصادي الاجتماعي المحلي (المصري):

لقد مرَّ الاقتصاد المصري بالعديد من المراحل؛ حيث تنوّع واختلَف نمطه، وكان لهذا أثره في المجتمع المصري بشكل أو بآخر، وهذا على النحو الآتي:

1- اقتصاد التخطيط المركزي قبل الانفتاح الاقتصادي: يمكن القول إنّ الاقتصاد المصري مرَّ بثلاثة مراحل في عهد الرئيس جمال عبد الناصر وجميعهم تميّزوا بالدور المركزي للدولة على حساب القطاع الخاص. أولى هذه المراحل كانت في أعقاب ثورة يوليو 1952 مباشرة حيث سياسات إعادة توزيع الموارد كـ "قانون الإصلاح الزراعي 1952" للقضاء على الإقطاعية والملكية الزراعية الكبيرة التي تميّزت بها المرحلة الملكية؛ وسياسات "التوجه للتصنيع" لامتصاص القوى العاملة المصرية و"تأمين قناة السويس" و"الاستثمار الحكومي المباشر". هذا قبل الانتقال إلى المرحلة الثانية وهي "التخطيط الشامل" حيث اتباع النموذج الاشتراكي وإصدار قوانين اشتراكية لوضع حدود على ساعات العمل والأجور وتدخلات الدولة لوضع الأسعار؛ بالإضافة إلى السيطرة على قطاع البنوك وشركات التأمين والمصانع الجديدة ومحطات الكهرباء، ولم يكن للقطاع الخاص إلا الزراعة وبعض قطاعات الصناعة الخفيفة. كما أفاد "ناصر" من علاقات مصر الطيبة مع معسكري الحرب الباردة الشرقي والغربي للحصول على معونات خارجية ضخمة وحمى السوق المحلية من منتجات السوق العالمي. أما المرحلة الثالثة فهي "اقتصاد الحرب" بعد نكسة 1967 وتخصيص الموارد لحرب استعادة الأراضي المحتلة المصرية، وبذلك علا معدل الإنفاق العسكري على حساب جميع القطاعات الاقتصادية الأخرى.

إلا أنّه مع وصول "محمد أنور السادات" لسُدّة الحكم، فقد انتهج سياسة "الانفتاح الاقتصادي" لحل الأزمة التي واجهتها الدولة في تمويل الاستثمارات الكبرى؛ ولجذب الاستثمارات الأجنبية والعربية بعد أن ارتفعت أسعار النفط عام 1973. وهذه الخطوة - في الواقع- لم تفصل الاقتصاد المصري جذرياً عن "التخطيط المركزي"، فقد ظلت الدولة

(1) أسماء عز الدين، مشيرة الصاوي، "ظاهرة الفرانكو آرب لغة جديدة ولكنها تدمر اللغة العربية"، جريدة الدستور، 8 يوليو 2014، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على: <https://www.dostor.org/641293>؛ وجمعة وعلي، "أزمة اللغة العربية: الأسباب، المظاهر، سبل التجاوز"، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العدد 45، 2018، صص 449-464، متاح على:

صص 453، 454، 455، <https://www.iasj.net/iasj/article/136232.454.453>.

تسيطر على قطاعات الصناعة والزراعة والبنوك. ولعل أهم ثمار هذه السياسة كان بروز "بنوك القطاع الخاص"، والتي لم تتمكن من التغلب على بنوك القطاع العام إذ ظلت الأخيرة حتى عام 1979 تستحوذ على 81% من إجمالي الودائع و83% من إجمالي الائتمان. والحق أن هذه السياسة لم تحل أزمة الاقتصاد، بل لقد انفجرت الأزمة فعلياً بالقروض الغربية التي انهمرت بعد توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وبعد أن توجهت مصر بكليتها للولايات المتحدة؛ وبعد زيادة أسعار البترول⁽¹⁾.

2- الإصلاح الاقتصادي والتمهيد لثورة يناير 2011: نتيجة لزيادة الدين الخارجي، اضطر نظام "محمد حسني مبارك" عام 1991 لتوقيع اتفاقية مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي التي قضت ببعض الإصلاحات الاقتصادية بوصفه شرطاً لإتمامها؛ أهمها هي الخصخصة وتحرير التجارة. وقد تحقق الاستقرار السياسي بفعل هذا التحرير الاقتصادي بدايةً إذ لم يلمس القطاعات الاقتصادية ذات الأبعاد السياسية ولم يضر بمصالح النخبة الحاكمة وحفظ للجيش -وهو أهم داعم للنظام- على مركزه الامتياز؛ بالإضافة إلى أنه جذب القطاع الخاص وتقوية قاعدته. بمعنى آخر، أفاد هذا التحرير من كان على علاقة حسنة مع السياسيين والمؤسسة العسكرية. والحق أنه على الرغم من معدل النمو الاقتصادي المصري المميز، فلم يستطع النظام التصدي للآزمات الحياتية التي عاشها المواطن المصري وبقيت الإصلاحات تخدم مصالح نخبة وتقوي مراكزهم فيما تقصي الشعب، وعجزت المعارضة المقموعة عن إيصال مشكلات الشعب للحكومة؛ واستشرى الفساد ولم يعد القطاع الخاص منتجاً أو تنافسياً أو مستقلاً. بل في بداية الألفينيات ارتفعت أسعار السلع الغذائية مع تقلص أجور القطاعين الخاص والعاماً أضعف مستوى المعيشة لدى أغلب الشعب وارتفع معدل الفقر ليصل من 16.7% في (2001-2000) إلى 23.4% في (2008-2009). ولم تستطع إجراءات الحكومة (تمويل نظام الدعم الغذائي ورفع رواتب الموظفين المدنيين) حل الأزمة بل تفاقم التضخم والدعم لم يصل إلا إلى عدد محدود من الفقراء.

كذلك، عانى المتخرجون من أوضاع سوق العمل وزادت البطالة من 9.7% عام 1998 إلى 14.4% عام 2006 وصارت أغلب الوظائف في الفترة (1998 - 2006) واقعة ضمن الاقتصاد غير الرسمي حيث الأجور الزهيدة وغياب التأمينات الاجتماعية وعقود العمل.

(1) سهام محمد محمد بصل، "مراحل تطور الاقتصاد المصري منذ الحملة الفرنسية حتى أواخر القرن العشرين"، مجلة كلية الآداب جامعة بورسعيد، العدد 12، يوليو 2019، ص 33-49؛ ص 45-49.

وزادَ الوضع تردّيًا مع الأزمة العالمية (2008) إذ لم يكن تحسن أداء الاقتصاد المصري في الفترة (2003 - 2008) إلا بسبب سوق النفط العالمي وارتفاع دخول الدول العربية المصدرة للبترول التي انعكست على هيئة استثمارات أجنبية مباشرة وتحويلات من دول الخليج؛ وليس بسبب السوق الداخلي. غير ذلك، فالصادرات المصرية انحصرت في الموارد الطبيعية والسلع الصناعية ذات التكنولوجيا المنخفضة مما كان يتيح وظائف رديئة الجودة ومحدودة للعاملين الشباب من ذوي الكفاءة العالية، ولم يكن الاستثمار الأجنبي والمحلي في القطاعات المعولة على الأيدي العاملة بل في تلك المعولة على رؤوس الأموال ما حرم الشباب من فرص توظيف جيدة. أخيرًا، ففي نهايات عهد مبارك، كانت الدولة موفرة رئيسة لخدمات التعليم والصحة؛ إلا أنها أخفّضت إنفاقها عليها فلم تعد مجانية وباتت ذات جودة غاية في السوء خلقت أجيالا شابة غير مُعدّة لسوق العمل، وبذلك تكبّدت الأثر المصري تكاليف كثيرة للنفاذ للخدمات الاجتماعية ولتأهيل أبنائهم لفرص العمل⁽¹⁾.

3- الوضع الاقتصادي عقب ثورة 25 يناير 2011: هكذا اندلعت الثورة المصرية رفضًا لهذه الأوضاع الاقتصادية المضمحلة. ولا يمكن القول إنها أنقذت الاقتصاد بصورة كبيرة. فعقبها ونتيجة لغياب الاستقرار السياسي والأمن الداخلي والرؤية الواضحة لمسار الدولة تحت حكم "المجلس العسكري" و"الإخوان المسلمين"، وانعكس انعدام التجانس بين الأطياف السياسية وعجز البرلمان عن إثبات نفسه⁽²⁾، سلبًا على الاقتصاد. فقد انهزمت عوائد السياحة وإشغال الفنادق؛ وكذلك الأمر بالنسبة لعوائد قناة السويس واحتياطي النقد الأجنبي الذي انهار من 36 بليون دولار قبل الثورة إلى 15 بليون دولار بعدها. علاوة على ذلك، فقد تضرر الاستثمار الأجنبي في مصر، وتداعت مؤشرات تداول الأسهم المصرية، كما زاد العجز في الميزان التجاري -الذي بلغ 28 بليون دولار عام 2011- وسقط

(1) Maria Cristina Paciello, Op. Cit., pp. 7-9; NohaBakr, "The Egyptian Revolution". in Stephan Calleya, Monika Wohlfeld, (eds), Change and Opportunities in the Emerging Mediterranean. (Mediterranean Academy of Diplomatic studies, 2016), pp. 58, 59

(2) وذلك نتيجة للكثير من الأخطاء التي ارتكبتها البرلمان الذي حاز فيه حزب الحرية والعدالة -صوت الإخوان المسلمين- عام 2012 على أغلبية مقاعده، ولزيادة من المعلومات يمكن الرجوع لهذين المقالين: طارق البشرى، "أخطاء الإخوان في مائة يوم من عُمر مجلس الشعب"، جريدة الشروق، 11 مايو 2012، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على:

<https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=10052012&id=3eeb2630-27b0-4d51-9725-07a1038edb96>

: مصطفى المرصاوي وآخرين، مرجع سبق ذكره.

الاستثمار الأجنبي المباشر إلى 2 بليون دولار بعدما كان 113 بليون دولار قبلها بسنوات معدودة، وأخيرًا، فقد ارتفع معدل البطالة إلى 12%⁽¹⁾.

4- الإجراءات الاقتصادية في عهد الرئيس عبد الفتاح السيسي: في سبيل الوفاء بشروط قرض "صندوق النقد الدولي" لإصلاح الاقتصاد المصري، فقد قللت الحكومة قيمة العملة المحلية "الجنيه" بنحو 50%؛ وأنقصت دعم البنزين وطُرحت ضريبة "القيمة المضافة". ونتيجة لذلك، تصاعدت نسبة البطالة والتضخم الذي وصل 34.2% في يوليو 2017؛ ومن ثمَّ أساء الأمر لمستويات معيشة المواطن العادي والفقراء المعتمدين على السلع المدعَّمة⁽²⁾. وزاد الوضع تدهورًا نتيجة للنمو الاقتصادي البطيء، إذ إنَّه منذ 2015، كان انتعاش القطاعات الاقتصادية بطيئًا بشدة وتضاربت مساعدات الدول الخليجية والأوروبية لمصر، وذلك لما رآوه من أنَّ ما حدث في مصر في 30 يونيو 2013 كان انقلابًا عسكريًا وليس ثورة. علاوة على ذلك كانت مصر من انعدام المساواة في التنمية الاقتصادية إذ ارتفعت نسب الفقر في الريف عن الحضر؛ وتأثرت الطبقات الوسطى وانخفض عدد المنتمين إليها -وفقًا لتقرير "الثروة" العالمي الصادر عن معهد "CreditSuisse"- من 5.7 مليون نسمة عام 2000 إلى 2.9 مليون نسمة عام 2016. وقطعًا، فالأمر جعل شغل المواطن الشاغل هو تحسين أوضاعه الاقتصادية على حساب اهتمامه بأي إصلاح سياسي. ولأجل هذا الهدف، زادت نسب الشباب المصري الذين يلقون بأنفسهم في غياهب الهجرة غير الشرعية إذ صُنفت مصر باعتبارها الدولة الأولى -من بين قريناتها العربية- من حيث الهجرة غير الشرعية. ولقد صرَّحت "نبيلة مكرم" -وزيرة الهجرة- أنَّ المحافظات ذات مستويات البطالة والفقر الأعلى -ككفر الشيخ والغربية والفيوم- شهدت الحالات الأكثر للهجرة غير الشرعية وبالأخص إلى إيطاليا وفرنسا⁽³⁾.

5- سطوة الجماعات الإسلامية داخل الجامعة والمجتمع منذ سبعينيات القرن العشرين وحتى اندلاع ثورة 30 يونيو 2013: يمكن القول إنَّ الجامعات المصرية والمجتمع المصري شهدوا تعددًا في التيارات الفكرية منذ عقود بعيدة؛ إلا أنَّ الأمر ظهر بوضوح ابتداءً من سبعينيات القرن العشرين عندما قام الرئيس "محمد أنور

(1) Doaa S. Abdou, Zeinab Zaazou, "The Egyptian Revolution and Post Socio-economic Impact", Topics in Middle Eastern and African Economies, Vol. 15, no. 1, May 2013, pp.92-115, pp. 97-99.

(2) وبناءً على "الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصري"، فإنَّ نسبة الفقر عام 2000 كانت 16.7%؛ وفي عام 2015 وصلت إلى 27.8%. وبناءً على مقياس الأمم المتحدة للتنمية البشرية، فقد نزلت مرتبة مصر من 101 عام 2010 إلى 111 عام 2016.

(3) Eman Ragab, Op. Cit., pp. 6-8.

السادات" بإبرام ما يشبه الاتفاق مع جماعة "الإخوان المسلمين"، أن تنشر سيطرتها على النقابات والجماعات والمساجد والمدارس، من أجل مكافحة القبضة اليسارية الماركسية في الفضاء العام. من ثم، صار بإمكانهم أن يؤسسوا المنظمات الخيرية والمستشفيات والمراكز التعليمية، عارضين أنفسهم بوصفهم بديلاً يعوض انسحاب الدولة من الرفاهة العامة كالـتعليم والتضامن الاجتماعي والعلاج، وأصبحت المساجد تقدم دعماً للأسر الفقيرة، بينما المستشفيات الإسلامية وفرت العلاج والدواء الرخيص للمواطنين غير القادرين على تحمل تكاليف المستشفيات أو دفع الرشاوي لدخول المستشفيات الحكومية. بذلك حصلت جماعة الإخوان المسلمين -وغيرها من الجماعات الدينية التي حذت حذوها- على ولاء الآلاف الذين قد لا يكونون متفقين مع آراء الجماعة السياسية، لكنهم رأوهم رجال شرف ورجال الله أو على الأقل رجال لديهم نوايا طيبة. وقد استخدمهم أيضاً الرئيس محمد حسني مبارك لذات السبب ولو لبعض الوقت، وهو ما يعطي تفسيراً حول ظاهرة سيطرة طلاب الجماعات الإسلامية على الجامعات الذين غالباً ما يأتون من القرى الريفية للعاصمة من أجل الدراسة، فتذللهم حياة الحضر، ويتمسكون بالدين عصمة لأنفسهم، وهو ما يُعرف باسم "ترييف الإخوان"، أي الاعتماد على الريف بوصفها قاعدةً لحشد داعمين لجماعة الإخوان المسلمين. وبذلك اعتادوا أن يعتدوا على الطلاب غير الملتزمين بالقواعد الدينية بالجنائزير. وانتشر آنذاك الطلاب الذين يبدعون حياتهم الجامعية بالتححرر الفكري قبل الانقلاب إلى أعضاء في هذه الجماعات الإسلامية واعتناق سلوكياتهم المتشددة. على الجانب الآخر، تواجد الشيوعيون بكثرة بأفكارهم الثورية المتحررة. والعجيب هو تواءم هاتين الفئتين وكأن هناك ميزان دقيق كانت السلطة السياسية تستغله آنذاك. فحينما تزداد قبضة الشيوعيين، يكسرونهم بتدعيم أركان الإسلاميين، وعندما تقوى قبضة الإسلاميين، يعتقلونهم ويعتبرونهم خصومهم⁽¹⁾.

(1) مصطفى عبيد، "أسرار صراع الإسلاميين والشيوعيين على جامعات مصر"، جريدة الوفد، 22 ديسمبر 2010، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 16:00، متاح على: <https://alwafd.news/article/6878>؛ أمل حمادة، "عن ماذا يكتب علماء السياسة العرب: دراسة حالة لعلماء السياسة في مصر 2000-2014"، مجلة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، المجلد 22، العدد 1، يناير 2021، ص 198؛

Abir Sorour, "Egypt's Muslim Brotherhood: What's happened to the Islamist group after being Banned?", The Africa Report, November 26th, 2021, accessed on May 20, 2022, available at: <https://www.theafricareport.com/150347/egypts-muslim-brotherhood-whats-happened-to-the-islamist-group-after-being-banned/>

وبالعودة إلى سطوة الإخوان المسلمين؛ فلم تكن الدائرة الاجتماعية والدائرة السياسية منفصلتين قبل مجيء مبارك، وقد عمل الإخوان المسلمين على البنية التحتية ثم العليا من خلال نيل احترام وثقة الجموع على مر السنوات. ولهذا نالوا ما نالوه من انتصار في انتخابات مجلس الشعب عام 2011، والانتخابات الرئاسية 2012 كان -جزئيا- بسبب ما قدموه للشعب خاصة أنها كانت أكثر جماعة سياسية منظمة ومتوحدة. وبعد حظر الجماعة واعتبارها إرهابية، فقد تعرض الآلاف من أعضائها ومناصريها إما للاعتقال أو للنفى أو للاختباء، وسيطرت الحكومة على الكثير من العقارات التي كانت تنتمي إلى المنظمات السياسية والدينية والاجتماعية التي كانت الجماعة تديرها. وقد حاولت الدولة أن تتدخل من أجل ملء الفجوة التي تركتها الجمعيات الخيرية التي كانت تنتمي لهذه الجماعات الإسلامية مثل جمع التبرعات وتوزيعها على الفقراء، مثل برنامج "تكافل وكرامة" الذي صُمم لتحقيق الأمن الاجتماعي للفقراء. كما عملت الدولة على تجديد "الخطاب الديني" ما حتمَّ فصل الكثير من الشيوخ والموظفين في المؤسسات الدينية الرئيسية "مؤسسة الأزهر الشريف" و"وزارة الأوقاف" و"دار الإفتاء المصرية"، وتعيين مراقبين على بعضهم ليسجلوا أي انحراف عن خطبة الجمعة الموحدة التي تُنشر بموافقة الحكومة، كما تواجدت الشرطة بكثافة خارج المساجد لأنها تكون نقطة التقاء الثوار الإسلاميين في العامة. وهكذا سعت الدولة المصرية إلى مكافحة الفكر المتطرف من خلال تكبيل الخطب التي قد تعزز الخطاب السياسي والاجتماعي للإخوان المسلمين، وبذلك يُعجزون الجماعة عن الوصول إلى ساحة يدفعون من خلالها لأهدافهم. والحق أن بعض هؤلاء الإخوان المسلمين ما زالوا نشطاء إلكترونياً يستخدمون وسائل التواصل الاجتماعي لانتقاد الحكومة والدولة، وبعضهم ما زال يظن أن الفكر الإخواني لن يموت والجماعة قادرة على العودة يوماً ما⁽¹⁾.

ولعل سبب هذه الثقة في قدرتهم على الرجوع هو أن رغم كل إجراءات تجديد الخطاب الديني التي قام بها النظام السياسي الذي جاء بعد ثورة 30 يونيو 2013، رآه البعض أنه لا يأخذ قسماً وفيراً من الاهتمام ويغيب عنها الوضوح والتحديد، يعني مثلاً رغم مركزية القضية بعد 2013، فإنه لم توضح ماهية مصطلح "تجديد الخطاب الديني"، وما إذا كان قديماً لا يتماشى مع العصر مما أوجب تجديده، وما إن كان ينبغي أن يحتوي على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أم أنهما خارج هذا الخطاب الديني فلا يدخلان ضمن ما

ينبغي تجديده. وكذلك تفتقر للمصداقية والجدية مما يهدد بصعوبة القضاء على الأفكار المتطرفة التي ما زالت قائمة في المجتمع وتهدد نسيجه⁽¹⁾.

6- الزيادة السكانية الهائلة وتماهي الدولة مع المجتمع: بناءً على إحصاءات "المركز القومي للتعبئة العامة والإحصاء" في يناير 2022، أن إجمالي عدد السكان بالداخل قد وصل إلى 102 مليون و811 ألف و600 نسمة، وهذا يعبر وفقاً لدراساتهم عن استمرار زيادة عدد سكان مصر في 2021⁽²⁾. والحق أنه على الرغم من قدرة بعض الدول ذات عدد السكان الكبير على الإفادة منه، فمصر تعاني من "المشكلة السكانية" أي وجود حالة من عدم التوازن بين عدد السكان وبين الموارد والخدمات المتاحة. وهذه المشكلة كانت موجودة في عهد محمد حسني مبارك، إلا أنها تفاقمت خلال أواخر عهده وفي العهود التالية عقب ثورتي 25 يناير 2011، و30 يونيو 2013. وتمت مناقشتها في بعض خطابات الرئيس عبد الفتاح السيسي ومسئولي حكوماته الذين اعتبروها عقبة تفرض ضغطاً على موارد الدولة وأمام جهودهم لمكافحة البطالة والفقر. وهذه المشكلة تعود أسبابها إلى ارتفاع معدلات الإنجاب وتحسن الرعاية الطبية ما يقلل من نسب الوفيات، بالإضافة إلى أسباب مجتمعية تخص الشعب المصري مثل تأييد الزواج المبكر، وتفضيل إنجاب الذكور، وقلة استعمال وسائل تنظيم الأسرة، مع استمرارية ثقافة ربط الإنجاب بفكرة السند والعزوة. ومن المعروف أن لهذه المشكلة آثارها في زيادة استهلاك الأفراد وزيادة نفقات الدولة وتفشي "البطالة" وانخفاض معدلات الأجور في القطاعين العام والخاص، وتداعي المرافق العامة وصعوبة وصول الخدمات للجميع، وأخيراً يتسبب في ارتفاع عدد السكان في الحضر فيما يُعرف باسم (العشوائيات). هذا غير ما تواجهه الأسرة كبيرة العدد من ضعف قدرتها على رعاية أطفالها أو الرقابة عليهم ووقوعها بين براثن القفر الشديد والاضطرار لعمالة الأطفال وانتشار الخلافات الأسرية وزيادة الضغط

(1) نبيل عبد الفتاح، "أزمة الخطاب حول تجديد الخطاب الديني، بوابة الأهرام، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/743279.aspx>: حنان عبد الله عبد الصمد، "معالجة المواقع الصحفية لقضية تجديد الخطاب الديني في الخطابات الرئاسية"، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، عدد 77، أكتوبر 2021، متاح على: https://ejsc.journals.ekb.eg/article_224643_db876d8c59c6cf245b7356bf948897ea.pdf، ص 124، 125.

(2) أحمد ضياء الدين، "مع بداية 2022 / (المركزي للإحصاء) يعلن الزيادة الجديدة في عدد السكان"، جريدة الأخبار اليوم، 1 يناير 2022، تم الوصول إليها في 20 مايو 2022، متاح على: <https://akhbarelyom.com/news/newdetails/3624025/>.

النفسي والعصبي للأبوين. كما أنَّ للأمر آثاره البيئية في ذبوع الضوضاء والتلوث والازدحام وما يتبعه من مشكلات صحية ونفسية وتعليمية⁽¹⁾.

في مصر، تتداخل الدولة مع المجتمع بحيث مؤسساتها كالبيروقراطية والجيش والنظام التعليمي والصحي والوزارات هي موظف المواطن الأول وبعده يأتي القطاع الخاص؛ وبلغ عدد موظفي البيروقراطية المدنيين عام 2016 نحو 6 ملايين مواطنًا أي 25% من إجمالي قوة مصر العاملة. هذا غير إفاة قرابة 71 مليون مواطن من منتجات الدولة؛ ويتم التجنيد الإجباري للمبوني مواطن شاب سنوياً. والحق أن هذا كله يضع على كاهل الدولة مسؤولية القضاء على البطالة⁽²⁾.

7- الشكل التقليدي للأسرة المصرية وصراع الأجيال: للأسرة المصرية بنية داخلية طبقية تكمنُ فيها السلطة الكاملة في يد الأب ليكونَ لديه المزايا والمسؤوليات لترتيب شئون الأسرة؛ وهو النموذج الأعلى الفريد الذي تجب لأفراد الأسرة الآخرين الاحتذاء به. والحققة أنها بنية تخلق نمط علاقات مرتكز على القوة السلطوية، والطاعة العمياء من جهة واحدة، وهي جهة الأب للأبناء؛ ما ينشئ الأطفال غير قادرين على تكوين آراء حرة أو نقاش موضوعي أو اتخاذ قرارات مصرية. لهذا، يعاني الشباب المصري -خاصة في الطبقات الوسطى- من صراع دائم بين قيم "الحداثة" التي يطالعونها بواسطة شبكات الإنترنت والأفلام الأجنبية، وبين "القيم التقليدية السائدة" وهو ما يدفعهم إلى الإحباط وعدم الرضا. والأدهى، أنه نتيجة لعدم وجود مجموعة موحدة من القيم الاجتماعية داخل المجتمع المصري بعد عهد "محمد أنور السادات" الذي كان ينشر عقيدة الافتتاح، فقد تصاعد هذا الصراع خاصة وأن أغلب هذه الأسر تتبع المؤسسات البيروقراطية والدينية في المجتمع التي تتجاهل وتتجنب قيم الإبداع والابتكار، وتؤكد أهمية قيمة "الصبر" و"الخضوع" في وقت العسرة باعتباره امتحاناً إلهياً لإيمان المرء. بالنسبة لصراع الأجيال، فبعدما اقترحت الحداثة المجتمع المصري، بدأ الكثير من آباء أسر الطبقة الوسطى يواجهون تردداً عند اتخاذ القرارات المهمة نتيجة لضرورة اختيارهم بين العادة الموروثة وبين القيم الحداثة. مع ذلك، فإنهم يفضلون معاقبة أبنائهم الشباب إذا توجه الأخيرون إلى أساليب حياتية حداثية ونقدية ما يعزز الشخصية المطيعة للشباب المتردد بين القديم والجديد وينعكس ذلك على تعاملهم مع مشكلاتهم⁽³⁾.

(1) محمود العمري، "الزيادة السكانية وخطرها على المجتمع... دراسة تكشف: النمو السكاني يفرض ضغوطاً كبيرة على موارد البلاد ويعيق جهود الدولة المبذولة في التنمية ومكافحة الفقر والبطالة"، جريدة اليوم السابع، 10 نوفمبر 2021، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على: <https://www.youm7.com/story/2021/11/10/>

(2) Eman Ragab. Op. Cit., pp. 4,5.

(3) Samah Ahmed Farid, "Creative Adults and socio-cultural challenges: Sociological study in Egypt", International Journal of psychological Studies, Vol. 3, no. 2, December 2011 pp. 227-237. pp. 231-233.

8- أزمت التعليم الحكومي وانتشار التعليم الأجنبي: بينما يعتمد العالم المتحضر على التفوق في التعليم من أجل تعويض الفقر في الموارد الطبيعية، فمصر منذ نحو 40 عامًا تعاني من تدهور في مستوى التعليم، وبعدها كانت المدارس الحكومية المجانية قادرة على إخراج المتفوقين والناغبين، أصبحت الأسر المصرية تتوجه للتعليم الخاص لكون "سوء التحصيل" فيه أقل من التعليم الحكومي. وهكذا ألحقت شريحة اجتماعية واسعة أبناءها بالمدارس الأجنبية غالية التكاليف ما وضع عبئًا هائلًا على ميزانية الأسرة بل وأدى إلى حدوث حالة من "الاغتراب" و"تشوه الهوية القومية". وأشار حازم راشد -وهو أستاذ المناهج ووكيل كلية التربية بجامعة عين شمس- إلى أن التعليم الأجنبي زاد نتيجة ضعف إمكانيات التعليم الحكومي من فصول ومدارس وانتشار "الدروس الخصوصية"، ويوضح أن المشكلة أن هناك بعض المدارس الدولية التي تدرّس -منذ الصغر- مناهج بلغات أجنبية، وتبعد عن قيم المجتمع الشرقي ما يصنع أطفالًا مشوهة ثقافيًا ووطنية. ولفتت الباحثة التربوية بثينة عبد الرؤوف النظر إلى أن النظام التعليمي في مصر يفتقر إلى المتخصصين إذ تنظر الدولة لمنصب "وزير التعليم" على أنه منصب سياسي لا منصب تربوي، وأن الوزير المختار يأتي بتربويين بصفتهم مستشارين يصبحون فيما بعد موظفين ينفذون سياساته وحسب. وتسלט هذه الباحثة الضوء على ظاهرة "الاستبعاد الاجتماعي" للطلاب في التعليم الأجنبي أي إنهم لا يستطيعون الاندماج في مشكلات مجتمعاتهم من فقر وعشوائيات ويعجزون عن توظيف القيم والمعلومات التي تعلموها، كما أنهم يعانون من عدم الانتماء لأي وطن بل لأنفسهم ولطموحاتهم الذاتية، والأزمة أنه على الرغم من قلة عدد الطلاب في التعليم الأجنبي، فمنهم تتشكل النخبة التي تصنع المستقبل لبقية الأمة. كما انتبهت د. نجوى القوّال وهي الرئيس الأسبق للمجلس القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية أن المتخرجين من التعليم الأجنبي "مُعولون" أي إنهم يهتمون بالقضايا الإنسانية عامة، ولكنهم يجهلون التاريخ المصري والقضايا المجتمعية المصرية، خاصة أن الإعلام لا يبرز هذه القضايا بالعمق المطلوب، وكذلك لأن الموضوعات التي يدرسونها في مدارسهم لا تتمتع بالخصوصية الاجتماعية المصرية، ولا تطوّر وعيهم؛ ما يؤدي إلى ولادة أجيال شابة لا تعلقًا بالشأن العام. غير ذلك، فالأجيال الجديدة تعتمد على إيجاد "المراكز التعليمية" (Centers) التي تقدم "المذكرات" التي هي "خلاصة الخلاصة" ما يساهم في رداءة مستويات التعليم⁽¹⁾.

(1) سهر غنّام، "بين أزمت (الحكومي) وبريق (الأجنبي) مأزق التعليم في مصر"، بوابة الأهرام، 9 نوفمبر 2018، تم الوصول إليها في 20 مايو 2022، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/679172.aspx>.

9- أزمات الشباب في المجتمع المصري: بالنظر إلى أنَّ أحمد خالد توفيق كان مُهمِّمًا بالتوجه برواياته وسلاسله الأدبية إلى الشباب المصري على وجه الخصوص، كما سيظهر في الفصل الثاني، كانَّ من المنطقي تسليط بؤرة الضوء على هذه الفئة بالتحديد من المجتمع المصري بشكل كلي. أولاً، يمكن القول إنَّ المجتمع المصري يُعاني من ظاهرة تُسمَّى "فقاعة الشباب". هذا المصطلح يُطلق على الوضع الديمغرافي الذي يميز المجتمع المصري؛ إذ تكثر نسبة الشباب مقارنةً بالفئات العمرية الأخرى، والذي -نظرياً- يحتم إضافة المزيد من الإمكانيات والفرص له⁽¹⁾، بينما لم يكن هذا ما يحدث عملياً. أي رغمَّ هذا الوجود الكثيف للشباب، فهم مجرد "فقاعة" بلا قيمة. وذلك لأنه من جانب، هناك شباب يستطيع نيل وظائف جيدة وبالتالي استقرا مالي واستقلال شخصي وقدرة على تكوين أسر، بينما على الجانب الأخرى يعاصر آخرون البطالة أو الوظائف ذات الأجور البخسة وبالتالي تبعية عاجزون عن تكوين أسر بسبب التكاليف الباهظة. ورغم برنامج "الإصلاح الاقتصادي" في عهد "مبارك" والانتعاش الاقتصادي، استمرَّت معدلات البطالة العالية والأجور الضعيفة وغياب الاستقرار والأمن الوظيفي والفرص القليلة في التعليم الجامعي الجيد ووجود الاقتصاد غير الرسمي بفرصه غير الملائمة⁽²⁾.

وغير ذلك، فكما قيل، فإنَّ الشباب المصري يعاصر قيما معينة داخل الأسرة المصرية التي أضافت إلى مشكلاتهم الاقتصادية والاجتماعية الأخرى ما جعلَ المحصلة هو وجود شباب يقاسي من رؤية مظلمة للمجتمع والمستقبل؛ إذ إنَّ الشباب العاطل باتَ يؤمَّن أنَّه لا يملك أي حق في هذا المجتمع ومن ثمَّ فحلالٌ ألا يؤدي وظائفه. وقد ساد اعتقادٌ أنَّه لا عدالة اجتماعية بين الطبقات المجتمعية المختلفة حيث يحصل شباب الطبقات الأعلى على التعليم المثالي والوظائف الفضلى، ويُحرم منها شباب الطبقات الأدنى؛ ما يقلل من رغبة هذا الشباب الفقير في الاندماج في المجتمع. الحقيقة أنَّ الإحباط يصدر أيضاً من شعور الشباب أنَّ التعليم الجامعي يخرجهم عاجزين عن مواجهة تحديات سوق العمل ما يضطرهم إلى الاعتماد على نشاطات إضافية خاصة لتحسين مستوياتهم كتعليم اللغات وبرامج الحواسيب. بل إنَّهم يرون مجتمعهم لا يقدر قيمة العمل بدليل الفجوة العملاقة بين الفقراء والأغنياء في نوع الوظيفة الواحدة؛ وبدليل الفساد المالي والأخلاقي المستفحل في قطاعات هائلة من الوظائف

(1) أحمد مرعي هاشم، "دور التنظيمات الجامعية في تنمية قيم السلام الاجتماعي للشباب الجامعي: دراسة من منظور طريقة تنظيم المجتمع"، مجلة كلية الخدمة الاجتماعية للدراسات والبحوث الاجتماعية-جامعة الفيوم، العدد 13، 2018، متاح على: https://jfs.journals.ekb.eg/article_59634_6fcfc6f5f61ad5ad07115a5232f3e37d.pdf، ص 381

(2) Samah Ahmed Farid, Op. Cit., p. 229.

بحيث يُمنَح الشخص الثري الاحترام مهما كانَ فاسداً، ويُحتقر الفقير مهما كانَ شريعاً⁽¹⁾. ولقد استخرجتُ إحدى الاستبيانات أنَّ أهداف الشباب المصري تدور حول نيل فرصة عمل جيدة تحقق شيئاً من الأمن الاقتصادي، والزواج وتأسيس أسرة، والتمتع بعلاقة اجتماعية مع شخصية معروفة، وأخيراً الحصول على السعادة الذاتية بإتفاق المال والسفر خارجاً. رغمَ بساطة الطموح، يعلم الشباب مدى صعوبة تحويلها لحقيقة نتيجة للمناخ السياسي والاقتصادي الذي لا يبيح لأحد أن يحسن مستوى معيشته، وهناك من يرى أنَّ الحُكَّام يحبطونهم عن المشاركة السياسية لدعم طبقات معينة لتهمين على الحياة الاقتصادية والسياسية، ما يزيد إحباطهم. والعديد منهم لا يرونَ في الهجرة خارج البلاد إلا وسيلة أخيرة للفرار من صعوبات العيش في المجتمع باعتبار أنَّ الفوز بوظيفة في بلد آخر سوف يساعدهم على إعادة التوازن لحياتهم، أي إنَّهم شباب متزن وغير متهور مثلما يشاع عنهم أحياناً⁽²⁾.

بل لقد انتشرت ظاهرة عُرفتُ باسم "هجرة العقول" بين الشباب المصري. هذه الظاهرة في حدِّ ذاتها ليست بالحديثة وإنما تفسَّتْ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين حينما انتقل الناس من أوروبا إلى شمال أمريكا، وزادتْ منذ عام 1960 حينما هاجر العلماء البريطانيون إلى الولايات المتحدة، ومن بعدها ظهرتْ في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي، وتجلَّتْ كذلك في دول متقدمة مثل الولايات المتحدة والصين حيث يسعى أبنائهما للسفر إلى مناطق أخرى لنيل فرص عمل أفضل. هذه الظاهرة تعني أنَّ تفقد دولة ما مصادرها الأكاديمية والتكنولوجية من خلال انتقال أبنائها إلى دول أخرى تتمتع بمناخ اقتصادي وسياسي أفضل، وهو الوضع الذي يؤدي لافتقار الدول الأم وإثراء الدول المضيفة، ووصفتها منظمة اليونسكو بأنَّها شكل غير طبيعي من التبادل العلمي بين الدول يتسم بتيار أحادي الاتجاه يفيد الدول شديدة التقدم وحسب⁽³⁾.

وفي استبيان أقيم عام 2022 مع طلاب من عدد من كليات جامعة القاهرة تبينَ أنَّ جميعهم على علم بهذه الظاهرة حتى لو أنَّ بعضهم لم يكن يعلم أنَّ اسمها العلمي "هجرة العقول". ويرى العديد منهم أنَّ هذه الظاهرة تؤدي إلى زيادة الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية، وتُخسر الدول الأصلية قوتها العاملة ذات الخبرة العالية والتدريب الجيد

(1) Ibid., pp. 233, 234.

(2) Ibid., pp. 234, 235

(3) Zovange L. Kone, Caglar Ozden, "Brain Drain, Gain and circulation". The KNOMAD, Working paper 19, March 2017, accessed on May 20, 2022, available at: https://www.knomad.org/sites/default/files/2017-04/KNOMAD%20WP19_Brain%20Drain%20gain%20and%20circulation.pdf, pp.10-12; Frederic Docquier, Hillel Rapoport, "Globalization, Brain Drain and Development, IZA Institute for the Study of Labor, Discussion Paper No. 5590, March 2011, accessed on May 20, 2022, available at: <https://docs.iza.org/dp5590.pdf>, pp.2-4.

والإنتاج المميز؛ ما يؤثر سلبيًا في الاقتصاد وكذلك يرفع تكلفة جذب الكفاءات الأجنبية التي ينبغي إيجادها لسد النقص في الدولة. كذلك أوضحوا أنها تفسد التنمية العقلية وتحطُّ بعبء الإنتاجية على القوة الشابة المتبقية في الوطن، وأنَّ هؤلاء الذين يهاجرون يضطرون للخضوع لثقافة الدول التي هاجروا إليها ويهجرون قيمهم الأصلية؛ ما يشوه هوياتهم، بل وتؤدي إلى مشكلات أسرية مثل ترك الآباء لأبنائهم مما يخلق "أسرًا منكسرة". لكنهم في الوقت ذاته كانوا يعرفون أنَّ هذه الظاهرة تفسَّت بين الشباب بسبب فقر أوضاع سوق العمل والرواتب المنخفضة والموارد والإمكانات القليلة والبطالة المتزايدة وصعوبة أحوال المعيشة الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، والتمييز بين الشباب بناءً على النوع. كما يعتقدون أنَّ هؤلاء المهاجرين يسعون وراء تحسين مستوى معيشتهم من ناحية التعليم والخدمات بل والحصول على فرص عمل تتسق مع مؤهلاتهم العلمية والعملية العالية. وأنَّ كثيرًا من هؤلاء الطلاب الذين تمَّ معهم الاستبيان يحملون بالسفر للدول الأوروبية للحصول على فرص عمل بأجور عالية ويتمتعون فيها بـ "سقف أعلى" للحرية الفكرية، ولأنَّهم بذلك لن يواجهوا ذات التحديات المفروضة على الشباب الماكثين في الدول النامية عند بداية حياتهم المهنية والأسرية، يرون أنَّهم سيجدون الاستقرار بعيدًا عن "الصراعات المتراكمة" في مصر⁽¹⁾.

10- الحداثة والعولمة في المجتمع المصري: يمكن القول في هذا الصدد إنَّ هناك رأيين يخصان تأثير العولمة والحداثة على المجتمع المصري. فمن ناحية أولى، فهناك الرأي الذي يرى وجود فجوة بين الرؤية المصرية وبين الرؤية العالمية لمفهومي "العولمة" و"الحداثة" وأنَّ هذه الفجوة هي السبب لوجود قيود قانونية ودينية وأمنية على حريات المثقفين المبدعين الساعين وراء تحقيقهما في مصر. فيشير هذا الرأي إلى أنَّه على الرغم من الأسئلة والتحويلات الكبرى التي طرحتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 على العالم أجمع؛ فلم يعكس الفكر المصري هذه التغيرات وظلَّ متمسكًا بالأسئلة التي سادت في مرحلة ما بعد الاستقلال عن الاستعمار والتحرر من الإمبريالية الغربية. وهذا أمرٌ خطير إذ لم يعد للعولمة ذات المفهوم الذي كان لها في القرن العشرين وهو سيادة الدولة الأعظم عند قمة النظام الدولي، بل تمدد المفهوم ليخوض في "عولمة الإرهاب" و"راديكالية الإسلام السياسي" و"عولمة السياسات الأمنية لمكافحة الإرهاب". ووفقًا لهذا الرأي، أنَّ ما تنطرق إليه الخطابات المصرية القومية واليسارية

(1) Caroline Sherif et al., "Brain Drain: Why our youth are obsessed with travel?", The Elite Magazine, Faculty of Economics and Political Science, Cairo University, Vol. 1, no.41, March 2022, available at: <http://www.feps.edu.eg/images/elite/41/issue41en.pdf>, pp.8,9

والإسلامية من أنَّ مفهوم العولة يتجاهل الهويات الصغرى والخصوصيات الثقافية وتنميط العالم، فهو تطرُّق غير صحيح لأنَّ عالميًا انتشرت أفكار حول قدرة الشعوب على تحقيق خصوصياتها الثقافية في إطار الإنسانية الواحدة ما يجعل التمثيل الثقافي والهوياتي للجماعات الصغيرة سواء القومية أو الدينية أو اللغوية أو المذهبية شيئًا ضروريًا. بل وفقًا لهذا الرأي، فهذه الفجوة صنعت ركودًا في الخطابات السياسية والفكرية المصرية وبعض القوى السياسية أصبحت تعوّل على الخطابات المتحايلة على الحريات السياسية وعلى الفكر والإبداع⁽¹⁾.

مع ذلك، فهناك رأى آخر يفيد أنَّ كان للعولة أثرًا داميًا على الثقافة المصرية السياسية من خلال الثورة العلمية والتقنية الحديثة (الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي) التي سرّعت تدفق المعلومات ونقل الأفكار والقيم بين دول العالم، والتي لم يعد عليها رقابة أو قيود حكومية. وأنَّ هذه الآثار قد خلّقت -أقلها قبل 25 يناير 2011- ثقافة معارضة للواقع السياسي القائم. وتجلّى ذلك على سلوك الشباب في بروز الحركات الاحتجاجية مثل حركة "كفاية" وحركة "6 أبريل" ونشأة المدونين السياسية الإلكترونية، وارتفاع حدة الاحتجاجات سواء اعتصامات أو تظاهرات أو إضرابات. وكان الناتج الأساسي لهذه الثقافة المتأثرة بالعولة هي ثورة 25 يناير 2011 التي استخدم الشباب وسائل التواصل الاجتماعي في الدعوة لحشدها. من هذا يمكن القول إنّه بينما وجدت فجوة بين "الخطابات السياسية المصرية" وبين الرؤية العالمية بشأن العولة، فثقافة الشعب السياسية تأثرت بالفعل بهذه العولة وأدواتها⁽²⁾.

11- مصاعب الطبقة الوسطى المصرية وأزمة المثقف المصري: تأخذ هذه الطبقة في التضاؤل شيئًا فشيئًا نتيجة لعوامل تاريخية وسياسية متراكمة؛ وأكثر ما يضرّها هو السيكلوجية المفروزة القلقة على قوت يومها ومستقبلها. فبسبب الظروف الاقتصادية الشنيعة، فإن تأمين مستقبل هذه الطبقة بات صعبًا. وبالطبع إنّه أمر حساس باعتبار أنها الطبقة المنتظر منها الإبداع وإقامة التوازن بين طبقة الأثرياء وطبقة الفقراء⁽³⁾. أما دور المثقف، فقد تراجع بصورة كبيرة نتيجة الشعور بالإحساس باللاجدوى، من ناحية نتيجة

(1) صفاء عزب، "اليوتوبيا والجحيم.. استعراض الإشكاليات القائمة بين يوتوبيا الحداثة وجحيم الواقع"، المدى للإعلام والثقافة والفنون، 23 يوليو 2011، تم الوصول إليه في 25 يونيو 2020 الساعة 10:00، متاح على:

<http://almadasupplements.com/news.php?action=view&id=2635#sthash.0bD31wYu.dpbs>؛ نبيل عبد الفتاح، "السؤال الغائب: لماذا تقدموا ولماذا تخلفنا"، بوابة الأهرام، 1 أكتوبر 2015، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 12:00، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/NewsQ/440205.aspx>.

(2) أحمد محمد عبد الرحمن، "تأثير العولة على الثقافة السياسية المصرية ودورها في قيام ثورة 25 يناير 2011"، مجلة البحوث المالية والتجارية كلية التجارة جامعة بورسعيد، المجلد 18، العدد 4، أكتوبر 2017، ص 95-121، ص 113، 114.

(3) صفاء عزب، مرجع سبق ذكره.

لممارسات التيارات الإسلامية المتطرفة التي تغتصب الحريات العامة ومن ناحية نتيجة - خاصة حالياً- لغياب الرؤية الحكومية لمشروع سياسي ديمقراطي واجتماعي عادل ومن ناحية، فوزارة الثقافة المصرية تعاني من البيروقراطية والفساد الهيكلي وانعدام الكفاءة بل والا مبالاة بدور الثقافة، فأوضح د. نبيل عبد الفتاح في إحدى مقالاته أن هذا السياق يستدعي "تناسي" دور المثقف التاريخي في بناء الدولة والسياسة والمؤسسات المصرية⁽¹⁾.

12- تأكل المدينة بصفتها مجالا جغرافيا و"ثقافة القبح": نتيجة لعمليات "ترييف المدن" و"ترييف الأخلاق"، أي انتقال مواطني المناطق الريفية للمدينة، فقد تم الإضرار بأخلاقيات المدينة وقيمها الحضرية وأصبحت المدينة في مصر "مزيفة" بعد انتشار سلوكيات جماعية لا تحترم القانون ولا تبالي -على أقل تقدير- بقواعد المرور أو الوقت أو التنظيم المعماري والإداري للطرق والمنشآت. لقد انعدمت الحساسية في التعامل مع المرافق العامة تماماً⁽²⁾؛ وهو ما يوجه إلى سيادة "ثقافة القبح" في المجتمع المصري أي اعتياد المصريين لرؤية القبح في الأزياء والأنماط المعمارية. فكثيرا ما يظهر تباين ألوان تنسيق العمارات في الأماكن العشوائية دون أن يحدث أي ضجة معترضة، وكذلك لم تعد هناك أي مبالاة بالحدائق الخضراء في الأحياء المختلفة، ولو وُجدت، فلا ضمان أن يستمر الحفاظ على نظافتها وتنسيقها⁽³⁾.

(1) نبيل عبد الفتاح، "المثقف والبيروقراطي والسياسي"، بوابة الأهرام، 10 سبتمبر 2015، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 11:00، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/NewsQ/432391.aspx>

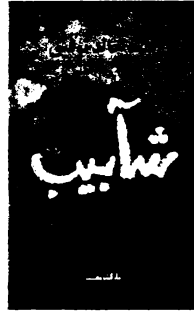
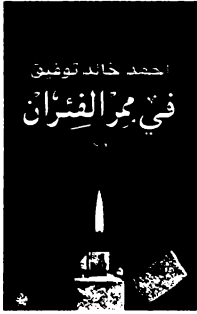
(2) نبيل عبد الفتاح، "ثقافة المدينة الضائعة"، بوابة الأهرام، 5 أكتوبر 2017، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 11:30، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/616493.aspx>

(3) نبيل عبد الفتاح، "عمارة الحرية والجمال... وعمارة القبح"، بوابة الأهرام، 29 أكتوبر 2015، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 12:00، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/449644.aspx>؛ نبيل عبد الفتاح، "تنمية الجمال ويقلّظ الوعي الفردي"، بوابة الأهرام، 28 ديسمبر 2017، تم الوصول إليه في 27 ديسمبر 2021 الساعة 12:15، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/NewsQ/629861.aspx>

الجزء الثاني

اليوتوبيا

في روايات أحمد خالد توفيق



أما وقد ناقش الجزء الأول من الكتاب بفصوله الأربعة تجربة أحمد خالد توفيق الشخصية والأدبية وأهم الاتجاهات الأدبية المصرية والعالمية التي سادت عصره وموقعه من كلٍّ منها، كما رسم معالم السياق السياسي والاقتصادي-الاجتماعي الذي أحاط بتوفيق وروايته، فإنَّ هذا الجزء يتناولُ باستفاضة ملامح اليوتوبيا في رواياته الأربع: "يوتوبيا 2008"، و"مثل إيكاروس 2015"، و"في ممر الفئران 2017" و"شأبيب 2018". فقد لوحظ على ثيمات هذه الروايات الأربع أنَّها تدور في المستقبل القريب وأنَّ في بداية كلِّ منها يسعى الأبطال الرئيسيون إلى البحث عن المدينة الفاضلة كلِّ منهم بطريقته الخاصة أو حتى يعيشوا فيما يطلق عليه الآخرون أنه "اليوتوبيا".

والحق أنَّ لكل بطلٍ من هؤلاء الأبطال أسبابه التي حثته على البحث عن هذه المدينة المفقودة، أو حتى أسباب ليجد نفسه يحيا فيها، هذا قبل أن تتدخل عناصر ديستوبية-بصورةٍ أو بأخرى- في هذه اليوتوبيا تؤدي إلى حدوث توازن بين اليوتوبيا والديستوبيا يعيشها هؤلاء الأبطال. ومن ثمَّ، يعمل الفصل على استخراج هذه الأسباب التي إما أنشأت اليوتوبيا أو جعلت الأبطال يبحثون عنها، والآليات التي استخدموها من أجل الوصول إلى هذه اليوتوبيا. ثمَّ أوضح شكل هذه اليوتوبيا ومميزاتها، وأخيرًا يُختم الفصل باستحضار ما تمت ملاحظته من آليات أدت لحدوث توازن بين هذه اليوتوبيا وديستوبيا غاية في البشاعة.

وانطلاقًا من هذا الهدف، ينقسم الفصل إلى فصول ثلاثة، الفصل الأول يناقش أسباب إنشاء اليوتوبيا في الروايات؛ بينما يوضح الفصل الثاني آليات الوصول إلى اليوتوبيا وملامحها في الروايات؛ ويبين الفصل الثالث التوازي بين اليوتوبيا والديستوبيا في الروايات.

فصل تمهيدي

اليوتوبيا



قبل البدء في الحديث عن اليوتوبيا في روايات أحمد خالد توفيق، فينبغي المرور أولاً على مفهوم اليوتوبيا بصورة عامة. ولهذا، فإنَّ هذا الفصل التمهيدي يتناول كل ما يخص هذا المفهوم فيما يخدمُ فصول الجزء الخاصة باليوتوبيا في الروايات.

لغة:

لا يمكن القول إنَّ لفظة "يوتوبيا" عربية أصيلة؛ لكنَّها جزئياً تجدُ صدًى في اللُّغة العربية، فيجوزُ المقاربة بينها وبين لفظة "طوبى" أي "الطيب"، وهذا مذكور في القرآن الكريم "الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" (سورة الرعد آية 29). وهنا، فطوبى تعني المعيشة والحياة السعيدة، وهنا يرى بعض المفسرين اختلافاً بينها وبين المفهوم الاصطلاحي ليوتوبيا، فالأخيرة يقصد بها "الأمل الإنساني في الحياة السعيدة"؛ بينما "طوبى" هي "معيشة أعدها الله للعباد الصالحين"، بل في لغة الحبشة، فـ "طوبى" هي "الجنة"؛ وفي المعتقد الإسلامي، فالجنة لا تتحقق على الأرض، لكنها الكمال الذي يعيش الإنسان حياته طامحاً إليه⁽¹⁾. ويجوز الادعاء -بالاعتماد على المعجم الفلسفي لجميل صليبيا- أنَّ "اليوتوبيا" لفظ إغريقي مرَّكَّب من جزئين: "يو أو Ou" أي "لا"، وتوبوس أو Topos أي "مكان". لذا؛ فهي "اللامكان". وبعضهم يراها ترجمة للكلمة اللاتينية "Nusquama" والتي تعني أيضاً "اللامكان" أو "المكان الذي لا يمكن أن يكون موجوداً في أي مكان". وفي اللُّغة العربية، فإنَّ "يوتوبيا" تترجم "طوبوية" كما فعل "خَليل أحمد خليل" لكتاب (Utopies et le Utopistes) - لـ تييري باكو وجعلها "الطوبيا والطوباويون"، وقد يراه بعضهم غير صائب لأنَّ الكتاب يهتم بمفهوم "إيتوبيا" أو "Eutopia" وهي "المكان الصالح"، وليس اليوتوبيا بمعنى "اللامكان"، بل إنَّ خوسيه بويرطا في مقالته "البنية الطوباوية لقصور الحمراء" يرى أنَّ (طوباوية) هي الترجمة الدقيقة للإيتوبيا، فكلاهما يقصدان "الأماكن السعيدة"⁽²⁾.

(1) شريف الدين بن دويه، يوتوبيا: المفهوم ودلالاته في الحضارات الإنسانية. (العتبة العباسية المقدسة: المركز الإسلامي للدراسات

الاستراتيجية، 2018)، ص 14-16.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 17-21.

استطاع المفكر لويس ممفورد في كتابه "قصة اليوتوبيا" أن يقدم تعريفين كبيرين لمفهوم اليوتوبيا. في التعريف الأول، فالـيوتوبيا هي "الهروب" أي حالة فكرية تدع العالم الخارجي بلا تغيير ويذهب الفرد لتشييد قصور في الهواء. أما في التعريف الثاني، فالـيوتوبيا هي "إعادة البناء" أي مشروع متكامل لتغيير الواقع يمكنُ الفرد من التعامل معه بما يتوافق مع طموحاته، وكأنَّ الإنسان فيها يستعينُ بمهندس معماري يقيمُ له منزل طموحاته. وبالنسبة للتعريف الأول، فقد شابهه تعريف بول فولكويه لليوتوبيا والذي قال أنَّ اليوتوبيا هي أن يحلم الفرد بمجتمع خيالي أو بمستقبل خيالي مطلوب. وفي هذا الصدد ذاته، قدَّم عبد المنعم حنفى تعريفه لليوتوبيا أنها مكان متخيل لا يمكن العثور عليه في أي أرض وأنها محض فرضيات وتخيلات لا ترتبط بالواقع. كما وضع المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية تعريفه لليوتوبيا وهي أنها تكاد تكون خيال، وأنها كل فكرة ونظرية لا ترتبط بالواقع ولا يمكن تنفيذها في الواقع ولا تعبر عن الواقع. وعلى هذا النحو أيضًا، فقد أعطي هربرت ماركيز⁽¹⁾ مبررًا لكون اليوتوبيا حلمًا، فيرى أنَّ على الرغم من أنَّ اليوتوبيا بمعناها أنها لا مكان لم تعد ذات فائدة في التاريخ ولكنها شديدة الأهمية لهؤلاء الذين تمنعهم المجتمعات الموجودة من التعبير عن أنفسهم ولهذا فالـيوتوبيا بالنسبة إليه هي حلم للإنسان الذي يقاسي ويلات الكبت والقهر الاجتماعي. وعرفها كارل مانهايم⁽²⁾ أنها الحالة الفكرية التي تتكون حينما يخالف الإنسان حالة الواقع الذي تتجلى فيه وتتخطاه، أي تسعى وراء تحطيم شكل وبنية الأوضاع الموجودة سواء كان ذلك التحطيم كليًا أو جزئيًا. وفي نظرة لهذا التعريف، فقد وجدَ شريف الدين بن دobe أنه يضيفُ بُعدًا سياسيًا على فلسفة اليوتوبيا بجعلها نظرية تسعى لتجاوز النظرية التعسفية "...التي تمارس قسرًا على الفكر المالك لقابلية الاستعباد، فهي في بداية أمرها ثورة على العبودية والاسترقاق الفكرى..."⁽²⁾.

(1) انظر إلى: هربارت ماركيز، نحو ثورة جديدة، عبد اللطيف شرارة (مترجم)، (بيروت: دار العودة، 1971)، ص 180.

(2) شريف الدين بن دobe، مرجع سبق ذكره، ص 19-21

أما بالنسبة للتعريف الثاني، فجعل اليوتوبيا أشبه بالإيتوبيا (المكان السعيد). فالحق أنَّ الفكر الطوباوي في بعض الأحيان لم يكن يكتفى بالحلم والتطلع لأرض خيالية فيها العدل وتخلو من العنف والقهر، وإنما كان يتجاوز الأمر لوضع مشاريع مستقبلية وتشديد مجتمعات يوتوبية، وهذا على غرار يوتوبيا المجتمع الشيوعي، ويوتوبيا المجتمع الرأسمالي ويوتوبيا العولة. فقد رأى جورج أوريل أن هذه اليوتوبيا هي حلم بمجتمع عادل وهو ما ينتاب الخيال البشري من عهدٍ لآخر على نحو لا يمكن ذبحه أبدا مهما تغيرت مسمياته. وفي السياق ذاته، ففاروق سعد يعرف اليوتوبيا أنها: "تصاميم ذهنية مادية ومعنوية لمنشآت وأنظمة نموذجية وقيم حضارية مثالية، غايتها تحقيق الكفاية والعدالة والسلام والسعادة للمخلوقات، يبتكرها الفكر الإنساني ويحيط بها بأجواء من الخيال الجامح والغموض الساحر، والرمز المشوق موحيا بأن العالم الموصوف هو عالم واقعي موجود فعلا". وقد ساهمت المدرسة اللامادية التي يترأسها جورج بيركلي بتقديم فهم أفضل لهذا المعنى، فتذكر أنَّ الهدف الرئيسي من النص اليوتوبي هي البحث عن الحكمة، أي أنه يطلب من المكان المثالي الجديد أن يكون بداخله وجود اجتماعي منبني على الحكمة المناقضة لعالم الجنون الذي يعيشه البشر. وبالفعل هكذا رأى توماس مور، الذي سعى لبناء عالم جديد في نصه الأدبي على شكل مدينة فيها تنهياً الحكمة المقابلة للحكمة المجنونة المائلة للسلطة والتي تقهر الفرد والجماعة. وبحسب قول شريف الدين بن دونه، فالنص اليوتوبي (وكذلك النص الإيتوبي) مؤسس للكتابة الرمزية ويبسط أمام الباحثين الكثير من الإشكاليات الدينية والفلسفية والسياسية، كما يجعله يعمل على إعادة ترتيب آليات قراءته تماماً⁽¹⁾.

الفصل الأول

أسباب إنشاء اليوتوبيا في الروايات



من خلال قراءة روايات توفيق المعينة، فقد لَوَحَظَ أنها تحتوي في جزء منها على مرحلة معينة يمكن تسميتها بمرحلة "التأهيل" حيث يحاول فيها الأبطال إنشاء مدينة فاضلة أو الوصول لحالة فكرية تتحقق فيها سعادتهم. في هذه المرحلة يستوضحُ توفيق لكلٍّ من هؤلاء الشخصيات الرئيسية، بعض الأسباب التي تدفعهم لرفض واقعهم والسعي وراء واقعٍ بديلٍ يعتقدون أنه سيوفي متطلباتهم المتعلقة بالسعادة. وسيكون شغل هذا الفصل الشاغل هو الإحاطة بهذه المرحلة واستحضار هذه الأسباب، ويمكن القول إنَّ الأسباب التي دفعتُ الشخصيات الرئيسية للسعي وراء مدينتهم الفاضلة في الروايات الأربع كانت هي:

1- العيش بعيدًا عن الفقراء: وهذه كانت الحالة في رواية "يوتوبيا"، وهي الرواية الأولى التي ينشرها توفيق بعيدًا عن سلسله الخيالية. حَمَلَتْ هذه الرواية اسم "يوتوبيا"، وفي مقدمتها وصَّفَهَا توفيق بأنها مكانٌ تخيليٌّ يدركُ يقينًا أنه ستوجدُ عمَّا قريب. تدور أحداثُ الرواية عام 2023، وقد تأصَّلَ الظلم وغياب العدالة الاجتماعية في المجتمع المصري حتَّى وقعَ استقطابٌ عنيفٌ بين الأثرياء - الذين ازدادوا ثراءً - والفقراء - الذين ازدادوا فقرًا- حذاً بالأولين لأن يقيموا مدينة "يوتوبيا" على الساحل الشمالي المصري لتضمَّ بين جناحيها أثرى أثرياء البلاد الذين احتكروا أهمَّ الصناعات في المجتمع؛ ومُحاطةً بأسوار تحميها قوَّات "المارينز" المستعارة من الولايات المتحدة. وبذلك، فهي مفصولة عن عالم "الأغيار" المكتظ بفقراء مصر ومعدميها الذين سبق وكانوا -قبلَ استئثار الظلم- من أصحاب الطبقة الوسطى وأعالي الطبقة الفقيرة الكادحة. هكذا، فأثرياء مصر هُم من أنشأوها -بإرادتهم الحرَّة- ليباعدوا عن الفقراء.

ومن ثمَّ، كان على بطلي الرواية "جابر" و"علاء" أن يتأقلموا مع وجودها؛ كلٌّ وفقًا لظروفه الحياتية. فأما جابر، فقد كان حاضرا حين حدثَ هذا الاستقطاب ونشأت مدينة "اليوتوبيا" وهو من وضَّحَ في الرواية حيثيات بنائها وانقلاب أحوال المجتمع المصري وترديه لهذا الحدِّ. أما علاء، فهو ابن "مُراد بك" وهو رجل الأعمال المُقدَّر له احتكار صناعة الأدوية في مصر، يقيم في اليوتوبيا منذ ميلاده -أي منذ 16 عامًا- حياة مترفة ماجنة أوصلته إلى حدود الملل والسأم. لطالما تساءل علاء: "وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية؟ تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتَّى يزهرق الطعام أنفاسك وتقيء حتَّى تتمكن من معاودة لذة الأكل.. تمارس الجنس.. لو كنت تعرف طريقةً أخرى يمارس بها المرء حياته، فلسوف يسعدني أن تقولها.. إنها (يوتوبيا) حيث يضنيك البحث عن طريقة

ترجي بها كل دقيقة من حياتك!"⁽¹⁾. لكن الجدير بالذكر أنه رغم ما شعر به "علاء" من ضجر، فما إن خرج لعالم الأغيار (عالم الفقراء) ورأى حالهم، فقد ودَّ الرجوع لمدينته والاحتماء بها. وسيظهر ذلك تمامًا عندما اندلعت ثورة "الأغيار" النهائية حيث لم يقبل بالهزيمة -كما سيأتي في الفصل الرابع- بل حملَ بندقية آلية وراح يطلق رصاصًا عشوائيًا على الفقراء الثائرين، فعلها رغم أنه خلال مغامرته الماضية وعلاقته بجابر قد فهم تمامًا أن المدينة مبنية على أنقاض أحلام الفقراء والحقوق ينبغي أن ترجع لأصحابها⁽²⁾.

2- اتقاء التنمر والاضطهاد والبحث عن الذات والتميز: تجلّى هذا السبب بوضوح في كلّ من رواية "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران" و"شأبيب"، فأما "مثل إيكاروس"، فهي عن البطل "محمود السمنودي" وتأتي على لسان طبيبهِ النفسي الذي عالجه ورافقه، بل وقتله بدم بارد بلا شفقة ليرحمه من عذابه ويريح الآخرين من نبوءاته التعيسة⁽³⁾. فرغم انتقال محمود منذ صغره عن القرية التي وُلدَ فيها إلى القاهرة، فقد شبّهه "توفيق" ببطل رواية (حكايات الغريب) لجمال الغيطاني إذ ظلَّ القروي الذي لم يزر قريته، بحيث كان يسير في طرقات المدينة متخبطًا رعبًا من صخبها وسياراتها وزحامها لا يدخل كافيتريا أو مطعم. كان أهلُه من الطبقة الوُسطى مستورة الحال في بيتهم الصغير بحيم الصغير بحيث لم يكونوا متطرفي التدين ولا متسيبين بانحلال، بل كانوا بلا قيمة -كوصف توفيق- كالغبار المنكوس على جانب الرصيف الذي لا يبالي به أحد. في مدرسته لأن بالصمت والشرود ينتظر أباه في الفناء الخلفي ليعود لمنزله والتهيبُ من العالم يملأه.

في المدرسة الابتدائية تعرّض لتنمر من أحد زملائه تعقبه وأسقطه أرضًا قبل أن يوسعه ضربًا وشدًا للشعر دون أي سبب، بينما عجز محمود عن ردّ العدوان باقيا على الأرض يبكي ولا يفهم، ساءه الأمر خاصة أن الصبية الآخرين وقفوا يصفرون ويضحكون مثل - بوصف توفيق- جماهير السيرك الروماني المنتشين بافتراس الأسود للمسيحيين. ورغم حيرته الداخلية وتسائلاته عن السبب الذي قد يدفع هؤلاء الأطفال لإيذائه إذ لم يسبق أن ضُرهم في شيء، فلم يفصح أو يشتكي، عانى من الضرب يوميًا بصمتٍ وتقبّل توبيخ أبيه له أنه يفرط في اللعب ولا يحافظ على ثيابه. لكن مع الوقت، نبتت في عينيه نظرة مخيفة تمزج الحدة مع الاتهام لا يحتملها الرائي حتى قرر المدرسون والتلاميذ اعتباره مخيفًا

(1) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، (القاهرة: دار ميريت للنشر والتوزيع، 2008)، ص 19.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 188-192.

(3) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، (القاهرة: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2015)، ص 17.

والابتعاد عنه. إذن، بسبب التندر اكتسب قوته النفسية التي أرعبت الجميع، كما بات يعطي مَنْ أمامه انطباعاً أنه صاحب عاهة ما، ما دفع المدرسين - الخائفين منه - لمنع زملائه من مضايقته. هكذا، تشكّلت حوله هالة هيبة وتوجس استمرّت خلال فترة المراهقة فلم يحظ بأصدقاء ولم يعرف أحد بيته ولا أهله.

وفي هذه المرحلة لم يتحدث قط عن شهواته الجنسية، بخلاف زملائه الذين كانوا يبتاعون المجلات الفاضحة ويلقون نكات فاحشة، وهو ما علّق عليه الطبيب -الراوي- أنه أمر مخيف، إذ يعني أن محمود إما مجرد من المشاعر الإنسانية أو أنه قديس أو بداخله أقدّر الرغبات كالسفاحين الذين مزقوا النساء وكانوا الأكثر صمتاً عن شهواتهم. أعطى انطباعاً آخر أنه عجوز في جسدٍ مراهق رغم أنه لم يكن مريضاً بمرض (البروجيريا)⁽¹⁾. وقد قصّ على طبيبه النفسي أنّ أحد المدرسين تحرّش به في غرفة مظلمة، حكى بلا اشمئزاز كأنّها واقعة طبيعية لا تشذ عن قوانين الحياة، وبالفعل لقد تشكّلت لديه قناعة بعد هذا التندر أنّ السمك الكبير يتغذى على السمك الصغير ولا سبيل للاستثناءات. وصفه الطبيب: "لقد كانت حياته جافة تماماً ولا بُدّ أنه قضى ساعاتٍ قاسية وحده بلا صديق في دار ضيقة حارة، لا بُدّ أنه كان يحلم بلا توقف وأن شخصيته كانت تزداد تفرداً وغبابة"⁽²⁾.

التحق بكلية "الحقوق" وذاب بين الدفعة الضخمة التي لا يتميّز بها أحد، يلوذ بصمته ونظرته المخيفة ومظهره الموحى بالعاهة لكي يبعد الجميع عنه، تحاشته زميلاته لإثارة الرجل الحيوي لا المخيف، واتخذته مادة للسخرية يتلامزن به فيقلن إنّ لديه ساقاً رابعة أو أذناً ثالثة وبترت أو لديه عين خامسة فقأها له أحد. حيرت هيئته الجميع فحسبه بعضهم - على حد وصف توفيق - طالباً ريفياً تزوده أمه بالفطير والجبن وسيعمل في مكتب محام كبير ليتخضرم ويفتح مكتبه الصغير لخدمة أهل قريته. وفي أحيان أخرى يظنونه الشيوعي الثائر الذي يطل من عينيه التمرد، وفي أحيان ثالثة رأوه الأرستقراطي المشمئز من رائحة العرق حوله. تخرّج وعمل محامياً في شركة مغمورة يساعده أهله. ورغم تجرده من غرائز الرومانسية والأبوة، تزوّج محامية من طبقة متوسطة. وأكبر ظنون الطبيب أنه تزوجها لأن-كما وصف توفيق- والدته رأتها محجبة بنت أصل، وتبكي لابنها تتمنى الموت لأنه لا يريد الزواج وإسعادها، حتّى لأن ووافق⁽³⁾. وقد خمن الطبيب أنّ

(1)مرض يتسبب في الشيخوخة المبكرة في سن مبكرة.

(2)المرجع السابق نفسه، ص 20-22.

(3)المرجع السابق نفسه، ص 24-28، 54، 55.

الزوجين لم يَخُوضَا علاقةً زوجيةً كاملةً لعجز محمود عنها، وحياتهما العادية تميّزت بالشقاء بسبب انعزال محمود عن زوجته وعدم إخباره لها عن محبته لقراءة كتب السحر المخيفة التي أخفاها في "نيس" الشقة⁽¹⁾.

أمّا في رواية "في ممر الفئران"، ففي الحق أنّ الشراقوي لم يتعرّض لتجربة تنمّر أو اضطهاد صريحة، إلا أنه كان هُلُعا من فكرة احتمالية التعرّض لها في ظلّ الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر، وهذا ما توضّح في بداية الرواية. فقد كان الرجل في الأربعين من عمره يعمل مُهندسا في شركة هندسية مرموقة، لديه طفلان بلا عيوب خلقية، وزوجته امرأة جميلة، يقطنون شقة مريحة واسعة ولم يكن أيهم مريضا. مع ذلك كان يشعر أنه مغترب كمن لا ينتمي لكل هذه الموجودات. عقله يفلسف كل ما تقع عليه عيناه ولا يبرح يذكره برخاوته وضعفه وعجزه عن كل شيء بل حتّى يسخر من الانتصارات التي يحققها الشراقوي ويخبره أنّها - على حدّ وصف توفيق انتصارات في معارك خاطئة، ويقول له: "أنت لا تقدر على ركل كلب في زقاق لأنه سيمزقك، ولا تجرّو على تحدي ضابط شرطة لأنه سينهي مستقبلك؛ أنت لا تجرّو على ذكر آرائك السياسية أو في الدين أو في المجتمع ولا مصارحة امرأة تشتهيها بأنك تشتهيها! أنت لا تجرّو حتّى على مصارحة نفسك بمدى ضعفها⁽²⁾.

وألّف أغنية أسماها "أغنية الوحدة" الملخصة لمشاعره النائرة، مطلعها يقول: "الليل والصمت وأغنية الانهزام وصحوة الجرح الذي لم يلتئم بعد والشهوات التي لم ترتو قط"⁽³⁾. حاول التمسك بالدين، فلم يجد أي سعادة واستغرب من يلقي خلاصه في التقرب لله. كان يتساءل إن كان التدين يحتاج لغدة ولذّ دونها أو أنّ الأمر هبة ربانية محروم منها، أو أنّ إيمان هؤلاء مجرد وسيلة ينمون بها أسئلة عقولهم حول العالم. ورغم امتلاكه للمال الوفير، لم يكن يعرف كيف للمال والأراضي والبنوك وما يتصل بهم من مشكلاتهم المعقدة أن تحقق السعادة لبعض الناس. بالإضافة إلى ذلك كان يرى أنّ الإفراط في العلاقات الحميمة لا يؤدي للسعادة بل للزهد والاشمئزاز وصارت معدته تتقلص كلما فكر في ممارسة هذه العلاقة مع زوجته. قرأ رواية "الشحاذ"⁽⁴⁾ لنجيب محفوظ آلاف المرات إذ تتقارب مع أفكاره، وكلما

(1) المرجع السابق نفسه، ص 55.

(2) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، (القاهرة: دار الكرمة للنشر والتوزيع، 2017)، ص 11-13.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 11.

(4) كتبها نجيب محفوظ عام 1965 في الفترة الناصرية ليعبر عن أسئلته حول أهميته الوجودية.

قرأها ومضت في مخيلته رؤية مبهمة تؤكد له أن سعادته تكمن في الهيمنة والتحكم في مصائر المجتمع وهزيمة القيود كلها، فكان يفكر: "تلك الرؤية المبهمة؛ أنك تقف في حفل ضخم عملاق والشاشات تنقل صورتك والكل ينظر لك بتبجيل وتقديس.. هل لهذا معنى ما؟ هل هذا ما سيكون أو ما تتوق لأن يكون؟"⁽¹⁾.

أما بطل رواية "شأبيب" المصري، محمد عدنان، فكان غرضه للاضطهاد. لقد قضى طفولته يقرأ في الفلك يتأمل السماء أولاً من نافذة غرفته بمراقبه قبل أن يتضايق أنها تظهر ضيقة بعيدة بين المباني العالية ويقرر الصعود لسطح البناية يتأمل ويكتب مواقع النجوم ويحفظها، وقد تحسنت رؤيته بسبب انقطاع التيار الكهربائي المتكرر في البلاد - وهو كناية من توفيق عن أن الأحوال الاقتصادية المصرية في هذه الرواية مضمحلة.

خلال هذه الفترة، اتسعت روحه ورأى الكون أعظم من مشكلاته الحياتية الصغيرة كقسوة الأب وصعوبة المدرسة وازدحام السوق؛ كما شغف بالدين الذي وجدّه يناقش عوالم أخرى رحبة خالدة، توقع أنه سيحقق أحلامه ويصل للحقيقة ويعلمها للآخرين. هذا قبل أن يبدأ الاختبار في سن السادسة عشرة عندما وجّه مراقبه لتأمل بنايات الجيران، وتجراً على مشاهدة فتاة في غرفتها تنزع ثيابها، فاختلق لها اسماً وتاريخاً كاملاً كأن تدعى "عزة" خريجة معهد ومعجب بها الكثيرون. لقد غيرت هذه الحادثة مجرى حياته إذ مهما رصد النجوم، فلم يكن يشعر بمثل هذه المشاعر المستثارة في بدنه وروحه التي شعر بها عند تأمل جسد جارتها. ظلّ يتلصص عليها لأعوام مستشعراً نشوى وإن أحس بالخزي الدائم لانهزامه في اختباره الأول وتخليه عن الله وعن نجومه.

بعد أعوام قابل الفتاة ليهوس بميولها الثورية ويعلق صور "جيفارا"، ويقرأ أشعار "لوركا" و"نيروذا"، وولع بالقضية الفلسطينية والشيخ "إمام"، وكأن هذه الأمور جميعها - بحسب وصف توفيق - مجموعة ينبغي أخذها بلا تفكير. وبسبب هذه الفتاة، صادق محمد رجلاً ماركسياً ملحداً أراد إشراكه في توزيع منشورات على بعض عاملي مصانع "الحلة الكبرى" وفي الجامعة؛ لكنهما شرارة التغيير الأولى في أي مجتمع. وأوضح توفيق استعمال الماركسيين للغة ولّى عهدها عندما فكر محمد في إحدى المرات أن مشكلة الفتى الثوري ذاك أنه ما زال يعيش في أجواء السبعينيات رغم أن الخريطة السياسية تغيرت. فمحمد بات مدرّكاً أن قوتين وحيدتين تسيطران على مصر وهما (الجيش)

و(الإسلاميين) بينما محاولات المدنيين واليساريين لخلق قوّة جديدة غير نافعة؛ ويعرفُ أنَّ الجامعة لم تعد تتحرك إلا لأسبابٍ دينية⁽¹⁾، فذكرُ توفيق عبارة تدلُّ على وعيه بالخريطة السياسية المصرية: "إمّا أن تهلك للجيش وإما أن تدعو لدولة الخلافة، لكن لو تكلمت عن ديكتاتورية الطبقة العاملة، فسيضربونك بالحذاء"⁽²⁾.

وقد عانى الفتى من غربة بين الإسلاميين الذين يشعر بينهم أنه فاسق؛ وبين اليساريين الذين يشعر بينهم أنه جبان، بل لقد كان جباناً لدرجة أنه لم يجرؤ على إعلان خوفه لهذا الصديق من توزيع المنشورات، كان يشعر أنَّ وطنه أسير في يد سلطة إما جاهلة أو مستبدة، ويحتاج إلى من ينقذ الأجيال القادمة؛ وأنَّه لما بحث عن دور ليقوم به في الإنقاذ، فقد وجد أنَّ الشيوعيين بأفكارهم عن "ديكتاتورية الطبقة العاملة" غير واقعيين، وأن الإسلاميين أكثر تنظيماً ووجوداً في الشارع، ومشكلتهم هي وعي الحكومة بنفوذهم، وتحاول سحقهم بحيث لم يبقَ منهم إلا قطاعات حذرة لا تتكلم وإنما تسمع فقط. ورغم أنَّ محمد لم يكن عضواً فاعلاً مع اليساريين فقد جاء اليوم الذي اقتحمت الشرطة بيته وجبَّ أمامها من أن يطلب إذن النيابة في التفتيش. ولأنَّه لم يكن قد تخلَّص من منشورات اليساريين -التي كانت تدعو عمال المحلة الكبرى للإضراب والثورة- بعد، فقد وجدوها واعتقلوه تحت أستار الليل فلم يشهد الاعتقال إلا أسرته، ووصف توفيق المشهد بقوله: "كل الجيران نائمون في أحضان زوجاتهم يحلمون أنهم ثاروا وقهروا الظلم وسادوا الأرض"⁽³⁾.

وشى محمد على الجميع في غرفة المحقق عندما شعر أنَّ أحد رفاقه سبق وخانه، وانسالت الاعترافات بمجرد أنَّ سأله الضابط الهادئ. ولم يشعر بأي قنوط عندما عرف أنَّه سوف يُسجن لأنَّه عزم على استكمال دراسته في السجن متوقفاً أنَّ يُطلق سراحه بعد 3 أعوام. لكن في السجن شاهد تجاهل المسؤولين لأزمات المعتقلين، فأدرك أنَّ سياسة السجن هي-على حد وصف توفيق- أنَّ تترك المرضى ليشفيهم الله وليكون أهمهم وسيلة مرغوبة لتكفير الذنوب. ثمَّ تجاهلوا مجدداً أزمة قلبية أصابت زميل زنزانته الإسلامي وتركوه ساعتين قبل أنَّ يستجيبوا للهيّاج الذي حلَّ على زملائه وأحضروا محفة ناقلين إياه للمشفى بلا مبالاة. وبالفعل جاء الصول في اليوم التالي يخبرهم أنَّ المريض توفي، لتغلي نفوس زملاء الزنزانة إيماناً أنَّ الإدارة قتلت الرجل بإهمالها. أضربوا عن الطعام احتجاجاً وطلباً

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، (القاهرة: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2018)، ص 82-88.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 89.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 87-92.

للمعاملة الآدمية بينما المسئولون يهددونهم أنهم سيرغمونهم على الطعام بأشنع الطرق كما جاء في وصف توفيق كوضع خراطيم في شروجهم لصبوا فيها الطعام. مع ذلك، استمرّ الإضراب خاصةً أنّ بعضهم عانى من أمراض مزمنة ولم يكن أحد يفحصهم سواء "قرح أو ربو أو سُكري أو التهاب المرارة". هكذا ومع استمرار الإضراب، كثُفَت الإدارة من إجراءاتها في التكدير عليهم كالتفتيش المتكرر للزناينة يوميًا فما كان من الزنازين الأخرى إلا أنّ تشاركهم ووعدهم محاميهم أنّ يقدم بلاغًا للنائب العام. لكن المؤلم أن قد حضرت (لجنة حكومية لحقوق الإنسان) لتجد المعاملة إنسانية راقية جديدة بأرقى سجون العالم، و-كمّا وصفها توفيق- قدّم السجن لأفرادها مكرونة باللحم المفرومة التهموها مشتكين فقط أنّ "الملح كثير في الدجاج". وانتهى الإضراب غصبا عندما نقلت الإدارة محمد للمشفى وقيدته للفراش وعلقت له المحاليل ودسّ الطبيب أنبوبًا بلاستيكيًا في طاقة أنفه أجبره على فتح فمه وابتلاع الأكل، هنا أدرك ضعفه وأنّ بلده سجنٌ كبيرٌ، وختم توفيق هذا المشهد ببیت من أشعار فاروق جويده، يقول إنّ السجن كبير بحيث حتّى لو فتحوا الباب، فلن يخرج.

أفرج عنه بعد أن اغتصبت روحه، وقد استسخر فكرة أنّ الكون واسع لحدود الأبدية وعجّت نفسه بالشكوك في الدين، إذ تساءل عما قد يضايق الإله العظيم في اختلاس نظرة لجسد جارة أو أكل مسلم في نهار رمضان، أو التهام مسيحي لقطعة لحم في الصيام أو عمل اليهودي يوم السبت، وصارت الأسئلة وسواسًا قهريًا. أصيب بالاكْتئاب الحاد وانعزل في غرفته وحاولَ مرارًا إدمان الحشيش والخمر دون نجاح حتّى قرر الانتحار بتناول شريط (باراسيتامول)، ولكن الجرعة لم تقتله ونيمته لساعات رأى أثناءها رؤية أنه قابل وجه محبوبته كبصيص نور باهت؛ والتي دعتة للهجرة والرحيل. وظلّت الرؤية في رأسه طيلة السنوات التالية وقد تلاشت فيها أحلامه المراهقة، وعاش حياة رتيبة مملة في بلاده. عمل موظفًا في مصرف، وهي الوظيفة التي حصل عليها ب "واسطة" نالها بصعوبة بسبب تاريخه السياسي المُقلق، والتي ينتهي منها لبحث عن ميكروباص يعيده لبيته بعدما باع سيارته بعد الانهيار الاقتصادي والتضخم الهائل وغلو الأسعار الذي تعاني منه البلاد. يركب الميكروباص ليشعر - بلا مبرر - أنّ الجميع يكرهه ويتمنّى موته. وعندما يحاول النظر للسماء خلال سيره في الطرقات يتعثّر في مياه المجاري، ووصف الأمر أنّ شوارع مصر ليست لتأمل السماء بل تجبر المرء على المشي بذلّ وانحناء ككل شيء. يعود لبيته فلا

يتبادل كلمة مع زوجته المعلمة -التي تزوجها زواجاً تقليدياً لا حبّ فيه- ثمّ يكمل يومه في مطعم صغير يعمل فيه "كاشير" عائداً للمنزل حيث يشاهد التلفاز ويخلد للنوم.

علاقته الزوجية فاشلة إذ لا يشعر بأي إثارة جهة زوجته، وهو ما فسّره توفيق في قوله "السبب هو أنك اعتدت أن مصر تعكس حالتك النفسية والجسدية؛ كُنْتُ في ذروة الخصوبة والعنفوان عندما كانت مصر بخير نسبي؛ ثمّ بدأت مصر تنهار في كل شيء، ومع كل انهيار تفقد أنت أرضاً، هناك جزء من رجولتك يضيعُ في كل مرة والهموم تبتلع الهرمونات"⁽¹⁾. ولم يكن قادراً أن يكونَ كرجالٍ يعرفهم يلجأون للجنس كانتقام يحولون به هزائمهم في الواقع لانتصارات. عاش حياة اختفى فيها الأفق السياسي وحولت -وفقاً لكلمات توفيق- المواطنين إلى صراصير تهلل فرحاً لوجود الكثير من الطعام في صفيحة القمامة، فيفكر: "الحكومة تزداد سوءاً، ليس من حق المصريين أن يحلموا بالتغيير؛ أو أن يثوروا من جديد. كلما نظر للغد، وجده ممتداً لما لا نهاية. ربما ينتهي بالشلل والعمى فيما بعد"⁽²⁾، ولما بلغ اليأس ذروته، أكمل إجراءات الهجرة لأستراليا، واستطاع الانطلاق في رحلته دون أن يعرف أنها ستكون آخر مرّة يرى فيها مصر. فكر وهو في الطائرة: "هل الهجرة تجعله يفر من سجن الكون ومن شكوكه وذكرياته وافتقاره للأمن؟ بدا هذا غريباً له وغير منطقي؛ لكن في أرض غريبة وسط أناس آخرين، فلربما صارَ شخصاً آخر ويبدأ بعقل لا يرى حوله كل هذه القيود"⁽³⁾.

3- الخلاص من الاضطهاد العنصري والخوف من اندثار الثقافة العربية في بلاد المهجر: هذا السبب كانَ حكرًا لأبطال رواية "شأبيب"، التي تدور في المستقبل القريب حيث ارتفع معدل الاضطهاد الذي يلاقيه العرب في أنحاء البلاد التي هاجروا إليها. بدأ الأمر مع شخصية "أمينة" معلمة اللغة الإنجليزية التونسية المحجبة، التي عاشت طفولتها في تونس وذلك حتّى وقعت الثورات العربية واضطُرَّ أبوها لأخذها وأسرّتها لأوسلو الباردة مردداً أن أرض الله واسعة. كانتُ آنذاك طفلة و-على حد وصف توفيق- صدّقت إعطاء الله مساحات أخرى من الأراضي للمطرودين من بلادهم، ولم تكن تعلم أنها آخر الفرص للهجرة إذ بعدها أغلقت النرويج -وجميع الدول الأوروبية- باب الهجرة أمام العرب والمسلمين. في أوسلو، شبّت الفتاة وعاشت مع زوجها وابنتها فيما أسماه توفيق بـ "جيتو

(1) المرجع السابق نفسه، ص 99.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 100، 101.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 109، 117.

العرب" -وهو ما يشير بتأثر توفيق بفكرة (الجيتو اليهودي) - الذي يسكنه عرب من جميع الجنسيات، ويتسم بالطابع العربي. وقد أُحيطَ هذا الحي بأسوار من قرميد بها باب خشبي صغير يسمح بالفرار في حالة الاضطرابات، وهو ما عُلّق عليه توفيق بقوله إِنَّ كل مجتمع مغلق مصاب بعقدة (المسادا اليهودية) أي الرعب من الحصار بلا قدرة على الفرار قبل أن يقعوا في مصيدة الإبادة. وهذا المجتمع يسبب للعرب داخله أزمة هوية لاضطرابهم خارجه أن يتصرفوا ويفكروا كالنرويجيين ببرودتهم وعمليتهم بينما داخله يتصرفون كعرب بحرارة دمائهم. في الحيّ تحوّل الدين إلى رمز للانتماء العرقي، إذ يشعر كل من يسمع تأذين إمام المسجد الصغير -بلا مُكَبَّر بعددًا منعته السلطات النرويجية- بالانتماء للجهة ذاتها خاصة أَنَّ المسيحيين العرب -التابعين للطائفة الأرثوذكسية الشهيرة في الشرق- اغتربوا عن مسيحي النرويج التابعين للطائفة الكاثوليكية، ولهم كنيستهم الصغيرة بالحيّ. لقد ذُوِبَتْ حياة المهجر الفوارق الدينية، وهو ما عُلّق عليه توفيق أن أخيرًا تحقق حلم مفكري الليبرالية منذ مئات السنوات وإنْ تحقق بحكم الضرورة⁽¹⁾.

خلال هذه الفترة، انتشرت سطوة الشعبويين في النرويج مثل (داجفين) الذي وصفه توفيق أَنَّهُ في الأربعين من عمره صاحب الكاريزما العالية والوجه الشيطاني الخبيث الذي يخطب في قومه المتعصبين، والذي وصفه توفيق بأنّ لديه عينين لامعتين تميزان (الديماجوج) بحيث ينوم بهما قومه مغناطيسيًا وتسهل مهمته، لأنّ الإنسان-كما فسّر توفيق في الرواية- بطبعه شرير يتيسر نفخ الكراهية فيه. وفي يوم خطب داجفين ذاك في حديقة (فروجنر) التي وصف توفيق أنّ تماثيلها العارية جرّدت الأمور لحقيقتها ألا وهي القوة والعنف والسقم، ووقف جمهوره بلافتات تقول (الموت للعرب) أو (أيها العرب عودوا لبلادكم) بينما هو يتصايح مثل (هتلر)-كمّا شبهه توفيق في وصفه- ويقول: "هكذا يتخلل العرب كل شيء هنا كالصدأ المتخلل أجزاء المعدن الصقيل لينهار.. تدرس في المدرسة على يد معلم عربي يلوث عقلك؛ الاقتصاد يسيطر عليه العرب! أنا أفتش عن الإسكندنافيين غزاة الشمال فلا أجد! ذهب أولاف وجاسبار وجاء أحمد ومحمد.. تتداعى حضارتكم وتراثكم؛ وسيأتي اليوم الذي يستعبدون فيه أطفالكم ونساءكم لأنهم يتظاهرون بالاندماج في المجتمع الغربي لكنهم -حقيقة- يكرهونكم وينتظرون اللحظة المناسبة ليفتكوا بكم؛ إن العربي الوحيد هو الذي يحمل حقييته ويغادر بلاده"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 25-29.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 37-39.

عندما قدّم "توفيق" شخصية "أمينة" في بداية الرواية، كانت في إحدى حصصها حيث تشرع مسرحية "بيت الدمية" لـ (إبسن) وسط ضجر التلاميذ، وكأنه بذلك يؤكد علانها ستكون مثل بطلتها "نورا" التي تحولت من دمية لطيفة تحتاج الحماية لشخصية حازمة تدعو للحرية الفردية، وهو ما تناوله الجزء الثالث من الكتاب. كانت معلمة مجتهدة لا تهاب طلابها مهما أبرزوا نظراتهم العدائية لها وإنما كانت تعزي هذه النظرات للشعبيين الذين كانوا يلقنونهم المقت للعرب، فتفكر دوماً: "التلاميذ لا يكرهونها، لكن هناك مدرسة أخرى تنتظرهم في المنزل وفي الشارع وفي وسائل الإعلام تعلمهم أن المجد للمقت وطوبى لمن تعلم أن يكره"⁽¹⁾. في البداية عاشت قلقاً كأن يلهب قلبها وتترقب الأسوأ، وزادت حساسيتها لدرجة الامتنان لزملائها الذين لا يسخرون منها. كانت تتعرض من الآن للآخر لتوبيخ مديرة المدرسة عندما ترد إليها شكاوى من أولياء الأمور أن أمينة تتلاعب بالناشئين وتدس بمعلومات تاريخية مغلوطة مثل أن زحف المسلمين للأندلس كان لتحريرها، أو أن الحروب الصليبية كانت حروباً توسعية تحت قناع الصليب أو أن فلسطين من حق العرب، وهو ما عقت عليه المديرة في آخر توبيخ: "(الطالب في صفنا.. لا يعرف لماذا يجب أن يكون العرب هم حكام أورشليم؛ فكل الأديان تصارعت وذبحت بعضها بعضاً في تلك البقعة لأن كل دين يعتقد أصحابه الأجدر بعطية الله! لا أحد يقول لمراهقين مسيحيين أن أجدادهم حاربوا بدعوى الدين لكنهم كانوا منافقين)"⁽²⁾. وقد صححت لها أمينة أنها اكتفت بالصمت عندما سألتها الطلاب حول هذه الأمور، لتجيبها المديرة أن الصمت في حد ذاته تأييداً، كما حذرتها أن رغم محبتها لها ولسعيها، فلن يكون بمقدورها مجابهة غضب الأهالي خاصة في -على حد وصف توفيق- "المناخ النازي المجتاح أوروبا"، وأقنعتها أن (التعصب العرقي) الذي تقوم به سيضرها، وطالبتها بالتخلي عن تاريخها وقناعاتها والاصطباغ بالصبغة الأوروبية. لم تستطع أمينة الدفاع عن ذاتها واكتفت بالاعتذار ووعدها بالسيطرة على ذاتها.

غير ذلك، فالجيتو العربي كان عرضة لتحرشات الشباب الأوروبي العنصري المدمنين ذوي الوشوم والسلاسل الشبيهة بالجنائزير. فبعضهم كان يقود سياراتهم في الحي بسرعة جنونية بلا اكتراث لرعب الساكنين وسبابهم؛ وذلك لمعرفتهم أن وضع العرب الحرج بأوروبا يعجزهم عن رد العدوان، وإلا قيل إنهم متوحشون قادمون من الصحراء ليفتكوا

(1) المرجع السابق نفسه، ص 18، 19.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 21-23.

بأبناء البلد. تعرّضتُ ابنة أمينة المراهقة لسخرية زملاء مدرستها مما ذكّر أمينة بمقولة هتلر في كتاب (كفاحي) إنّه اعتبرَ اليهودي الألماني يهوديًا وليس ألمانيًا، فعرّفتُ أنّ النرويجيين يرونهم عربًا مهما تجنسوا بالجنسية النرويجية. وبعدَ بعض الوقت، باتتُ تهلع من تأخر زوجها أو ابنتها في العودة للبيت، متذكّرة أحد الكتب التي قرأتها عن فترة الخناقين وفرق الفداوية، إذ كانوا يقولون في هذه الكتب إنّ الرجل الذي يتأخر عن داره حتى العصر فقد مات. من جهة أخرى استهانَ زوجها بمخاوفها وعارض رغبتها في الرحيل بحجة امتلاكهم البيت والعمل والمدرسة لابنتهما غاضبًا أنه كلما حققوا ذواتهم في البلاد تحدثتُ عن الرحيل. كانَ يأمرها بالبقاء طالما أنّهما متميزان في وظيفتيهما بحيث يصعب على الأجانب التخلص منهما، وحدثها بضرورة التماسك لكونهما أفضل حالًا من العرب الذين أغلقتُ أوروبا أبواب الهجرة أمامهم. والحق أنّ توفيق ذاته في هذا الجزء فسر تميّزهما بتميّز الأقليات لمواجهة محيطها المعادي مثل اليهود الذين كانوا أقلية صنعوا القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية وسيطروا على السينما الأمريكية والاقتصاد العالمي.

ولما شاهدتُ خطاب (داغفين) في حديقة "فروجنر" وتصفيق الجماهير له، تيقنتُ أنّ البلاد موشكة على عملية تطهير عرقي للعرب. ثمّ في يوم آخر تحرّش بها خمسة شباب وسط الشارع تحت صمت الشرطي والمواطنين الموجودين "دليل تواطؤهم"؛ ولم تقدر على الغضب أو الاستنكار وصمّنت على تحرشهم متمنية ألا تواجه صغيرتها أمرًا كهذا. وذلك حتّى أنقذها تلميذاها النرويجيان اللذان ضربا المتحرشين بالحجر حتّى أوقفهما الشرطي أخيرًا ملوحًا بهراوته وهرب المتحرشون ولم تحرر محضرا، متسائلة عن: متى يمرض تلاميذها المحبون بفيروس الكراهية؟ والغريب أنّه كانَ على سواعد هؤلاء المتحرشين علامة (عقال عربي معقود كالمشنقة) لتساعد العنصريين على التعرف على بعضهم. وبعدَ أيام، اقتحمتُ عربية بها ملثمون عليهم وشوم ومعهم هراوات الحي العربي ودمروا نوافذ المتاجر وأحرقوا الحوانيت وضربوا بضراوة كل من دافع عن نفسه، وهو ما علق عليها توفيق أنّها حادثة تحرّرت فيها قوى أوروبا الشيطانية التي تحضروا سابقًا بكبحها. تحصّنتُ أمينة وابنتها في شقتيها مرتعبتين خاصة أنّ أحد العرب أطلق رصاصة أردتُ أحد المعتدين مما رأيته جنونا أعطاهم ذريعة لذبح السكّان، أي لقد كفرتُ بمشروعية الدفاع عن النفس وآمنتُ بالخنوع واليأس. ووصلتُ شقتها زجاجة مولوتوف قذفها أحدهم من الأسفل عبر النافذة وبدأ حريق الشقة المغلقة. سعنا للفرار فوجدتا المعتدين اقتحموا البناية قاتلين الرجل العربي الذي أطلق الرصاص. ولم ينتهِ الكابوس سوى بقدوم رجال الشرطة

والمطافئ الذين كانت قد هاتفتهم مسبقاً، لكن خوفها لم ينتهِ لمعرفتها أنَّ هذا الدمار يقف خلفه الشعبويون ذوو الجماهيرية الواسعة، وفكرت أنَّها: "الحرب التي ولدت من رحم العدم؛ لكنها ككل الحروب: تبدأ بسهولة وتنتهي بعسر أو لا تنتهي.. عرفت أمينة أن مشكلتها قريبة من مشكلة اليهود في ألمانيا النازية.. ستأتي ليلة السكاكين الطويلة والزجاج المكسور؛ وهما ليلتان شهيرتان في تاريخ النازية عندما افترست الجماهير الغاضبة اليهود"⁽¹⁾.

تشابه معها في الرواية ذاتها بروفيسور "مكرم ميخائيل" أستاذ العلوم السياسية العربي المسيحي المقيم بالولايات المتحدة الذي يؤمن أنَّ العدالة هي التي تتيح للمرء أن يصل للقمة إذا التزم اللعبة، وهو ما لا يراه في العالم العربي. حافظ على تراثه العربي إذ سمى ابنتيه "صفية" و"عليه". وأكد على ضرورة تناول الطعام العربي والتحدث باللغة العربية في بيته. كان يتساءل للسنوات لمْ ذابَّت الحضارة العربية دونَ ترك دولة عربية قوية وراءها تخلفها على غرار الحضارة البريطانية التي خَلَفَتْ (بريطانيا العظمى) والحضارة الرومانية التي خَلَفَتْ (إيطاليا)؛ مدرِّكاً ضعف وترف وتخلف العرب الذين يتعرضون للديكتاتورية في بلادهم أو العنصرية والتطهير العرقي في بلاد المهجر. كانَّ بصدد تأليف كتابه (العربي التائه) الذي تمنَّاه لو يكونَ مؤلفاً خالداً في التاريخ أنه منقذ العرب على هدي كتاب (رأس المال) لكارل ماركس أو (العصيان المدني) لثورو. خشي الاضطهادَ عندما تحرَّشَ أمريكيُّ بابنته في السوبرماركت باصقاً عليها وطالبها بالعودة لبلادها ناعثاً إياها (عاهرة) وتواطأت الشرطة بعدم التدخل. أي رغم طلاقة لغتها الإنجليزية وبياض بشرتها وديانتها المسيحية، عرف الفتى جذورها العربية بسبب عينيها العربيتين، ما أكد لمكرم أنَّ العنصرية لم تهتم بديانتها وإنما بالأصل العربي، كما خافَ من اندثار القيم العربية في دول الغرب إذ بدأتْ الابنة في مواعدة زميل مدرستها الثانوية لكونه طقُساً من الثقافة الأمريكية، واضطرَّ غصباً أن يقبل مصاحبة الفتى لها إلى الحفل المدرسي وكله هلع أن يتجاوزا الحدود⁽²⁾، وأخذ يفكر قبل خروجهما من البيت دون أن يجرؤ على الإفصاح عن هذه الأفكار: "عندي كذلك ألا تقبَلْ ابنتي ولا تعتمر جسدها بين ذراعيك أو تدمر..

(1) المرجع السابق نفسه، ص 50.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 59-62.

طهرها؛ عدني ألا تؤذي ما هو عربي فيها! لن أجرو على قول هذا علناً لكنه اتفاق ضمني تراه في عيني" (1).

وقد رأى في عين أختها الصغرى استمتاعها وتمنيها أن تواعد عمًا قريب مما عرّفه صعوبة السيطرة على مراهقتين عربيتين في عالمٍ عربي لكون المجتمع أقوى من بيئة البيت بمراحل. كان يعرف -أسفًا- أن انتصار المجتمع على بيئة البيت لهو أمر صحي وفي حالة العكس أي انتصار بيئة البيت، فقد يحدث كما فعل (إدجين السفاح) الذي حنط جثة أمه لكيلا يفارقها. لم يكن ظريفًا مع صديق ابنته واعترف لزوجته أنه العربي الغيور الراض لخروج ابنته بلا زواج مع رجل خاصة وهو لا يثق في هرمونات الفتاة التي قد تزيج أخلاقياتها المتربة عليها (2). ولا تكتمل شخصية مكرم سوى بصديقه "جوناثن إيرهارت" الذي كان ابنًا لمواطن أمريكي من جنوب البلاد. ذاق هذا الأب "آرثر" ويلات الحرب العالمية الثانية وصراعات مروعة اقترّب فيها من الموت وشاهد موت آلاف الرفاق وعقد معاهدة مع الموت ألا يؤذيه وأن يعيده حيًا لأهله في مقابل ألا يذكر عنه شيئًا لأحد. وقد دخل -آرثر- معسكر (إشفيتز) النازي ليرى الجنود الألمان المستسلمين ليجدهم مجرد صبية متسخين، بينما فُجِعَ لم رأى اليهود الأسرى ذوي العيون اللامعة التائهة والمنامات المخططة بالطول: وهزالهم القاسي؛ واللحى غير النامية لانتهااء الهرمونات في دمهم؛ كما وقع بصره على عظام أطفال. هنا، فقد ترسّخت لديه قناعة أن الإنسان شرير بطبيعته وأن الأبله هو من يصدق في جوهره الطيب. وصفه توفيق "أنه رغم عدم قراءته لشوبنهاور، فقد شاركه فلسفته بالفطرة وهو جندي غريب" (3).

وقد أثرت خبرة آرثر هذا في ابنه "جوناثن" الطموح الذي صار سياسيًا في "الحزب الديمقراطي" وحاصلًا على درجة الدكتوراة في القانون؛ والذي وصل للكونجرس الأمريكي بعد نجاحه في حكم إحدى الولايات، إذ رفع تصنيفها الائتماني وقدم حلولًا معقولة للبطالة؛ وأخيرًا بات نائب الرئيس الجديد مدركا انعدام قيمة المنصب. كان رجلًا صارما بلا قضايا أخلاقية ولا يطارده الإعلام؛ يؤمن بقسوة الإنسان وتوحشه وبأن التفرقة العنصرية والاضطهاد العرقي أصبحا في دم البشرية. فتوقع أن لو توحدت الأديان والجنسيات والبشرات لقتل طوال القامة قصارها، كما أنه يكفر بتغير طبائع البشر عازما

(1) المرجع السابق نفسه، ص 123-124.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 123-126.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 52-55.

على أن يكون درعاً يحمي المنبوذين والمختلفين. صادقٌ مكرم لكونهما في حزبٍ واحدٍ وصارا في أحاديثهما- على حدِّ تعبيرِ توفيق- كعازي في الغرفة؛ الذي يحمل أحدهما الكمان والآخر يلعب على البيانو صانعين ملحمة موسيقية جميلة. فأفكارهما منسجمة؛ إذ يبدأ مكرم نقاشاً فيكمّله الآخر باحترافٍ، مشيدين حواراً فلسفياً وسياسياً ممتازاً ينسيانه بمجرد الرحيل. ولعلَّ الاختلاف الأبرز بينهما هو أنه لو كانَ "جوناثن" يؤمن باستحالة منع الشر البشري وضرورة حماية الضعفاء فحسب؛ فمكرم اعتقد أنه - ذاته - الشخص المناسب الذي جاء في الزمن المناسب لإصلاح العالم. طلبَ إليه صديقُه "جوناثن" يومَ رآه يشاهد أخبار بلطجية النرويج ومذابح العرب في الفلبين وحرق المساجد في لندن؛ أن يتقبل بأنَّ العرب باتوا يهود العصر المشتتين؛ فرفضَ مكرمَ التسليم بادعاء أنَّ اليهود لم يقبلوا أمرهم وغيره، ليجيبه جوناثن أن كل فرد له قدرة معينة هي التي تحدد مصيره، فقال "كلُّ بما يستطيع فعله". وقد تحوَّلت العلاقة إلى حركةٍ جديَّة بعدَ حادثة التحرش التي أصابت ابنة مكرم؛ والتي حكاها للآخر ليتعاطفَ معه جوناثن خاصةً أن الفتاة مسيحية وأن العنصرية سببها الأصل العربي وحده؛ وأن الحادثة تثبَّتُ قناعته عن أنَّ جرائم الكراهية لن تفتنى؛ والبشرية لن تنضج⁽¹⁾.

وبالفعل كانت مخاوف مكرم في محلّها إذ إنّ ابنته (علية) لم تعد ترى العالم العربي سوى بقعة صحراوية بعيدة بها نفط وأماكن مقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود، وأنّها تحب اسمها العربي فقط لأنّه يمنحها طابعاً يميزها ويروق للأمريكيين؛ وما أكلها للمأكولات العربية التي يحرص عليها أبوها إلا أنّها تستلذّ مذاقها وترى حفاظ اليابانيين والهنود لطعامهم. عانت من التباس ثقافي بسبب طول الوجود الصهيوني سواء في المنطقة العربية أو في أمريكا، ففكرت مثلاً في أكلة (الفلفل) أنّه بينما يصرُّ العرب أنّها تقليدهم الخاص، أكّد اليهود أنّها اختراعهم ولم يكن بمقدورها أن تحسم الأمر بنفسها. دانت أمها بالمسيحية الكاثوليكية ولم يكن أبوها متديناً وإن كانَ أرثوذكسياً ينتقد صورة المسيح الأشقر، قائلاً: إنه عربي فلسطيني ولا بدُّ أن بشرته سمراء وعيونه سوداء وشعره مجعد. ربّاهما أبواها تربيةً عربيةً أن-على حد وصف توفيق- الأولاد أشرار وأنّ جسدها وأوثنتها عار لكيلا تتماذى في علاقاتها العاطفية. فرأت أباهما متمسكاً بالاستعلاء الذكوري العربي كأنه ربان سفينة تجب طاعته على الجميع لكونه رجلاً، ووصفت الأمر أنّها "عقدة قديمة" لم يتخلص منها. تنمَّرَ عليها أحد زملائها السُكّاري في حفل المدرسة، فوصفها أنّها "مختتنه" لكونها عربية ولأنّه يعرف أنّ ختان الإناث أساسي في الجنس العربي وأخبر صديقها ألا جدوى من

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 56-58، 61، 62.

مصاحبتها لأنها ستكون باردة كالثلج. رغمَ تعاطف صديقها معها ولكمِ للفتى المخمور، إلا أنه سألهما بعدَ رحيلهما إنْ كانتْ حقًا قد أجزتْ ختانَ الإناث. سؤاله استدعى ذكريات المضايقات التي تعرّضتْ لها في وسائل المواصلات وبائعات المحال والجيران الذين يقذفون بقمامتهم في حديقتهم وزملائها الذين يكتبون (عاهرة) على منضدتها، وهو ما دفعها للاستنتاج أنه على الرغم من شعورها أنّ مشروع أبيها -وطن العرب- وهم لكنها تفهمت أسبابه بعدما صارت حياة العرب بشعة وتتوقع الفتاة أنّ لحظة الانفجار ستأتي عمّا قريب⁽¹⁾.

أمّا سليم، جذوره ليبية؛ وبعدَ الفوضى التي غرقت فيها ليبيا بسبب الحرب الأهلية اللاحقة على ثورة عام 2011 ونتيجة للقهر والاضطهاد السياسي، خرجَ جدُّه بأهلِهِ إلى ليبيا لينتظروا على الساحل الغربي الإفريقي سفينةَ تقلهم إلى الولايات المتحدة. هذا قبل أنْ يكتشفوا أنّ عهد الهجرة ولّى وأنّ الدول المتقدمة لم تعد مفتوحة للقادمين؛ وأنّ السود قد هجروا الولايات المتحدة إلى ليبيا متوقعين أنها ستصبح أول ولاية أمريكية في إفريقيا مستعملين العلم الأمريكي بألوان مختلفة ومطبقين النظام السياسي الأمريكي. وهكذا استقرّت الأسرة بدورها في مونروفيا بليبيا وافتتح والد "سليم" متجرًا صغيرًا للمواد الغذائية بسعر الجملة؛ وتوطدت في "سليم" الصغير قناعة أنّ هناك بعض الأشخاص لا يريدون بلادهم لأنّ بلادهم لا تريد لهم بحيث يكون في البداية ويقاومون الحقيقة ويتمسكون بأوطانهم حتّى يتعلموا مع كل ركلة تركلهم فيها بلادهم أنّ يكرهوها، وأن يغادروها بأحلامهم وثقافتهم ذكرياتهم ودينهم وكبرياتهم ولغاتهم عالمين ألا عودة. أحبّ الفتى "كريمة" ابنة مساعد أبيه وصديقه الذي سافر معه من ليبيا، منذ الصغر حبًّا مجنونًا، وكذلك توافق الوالدان على تزويج الصغيرين عندما يكبران؛ وقد كانَ. تزوّجا لتصبح كريمة -على حدّ وصف توفيق- وطنه وتاريخه ولغته وأحلامه؛ وصارَ سعيدًا معها خاصةً بعد إنجابها طفلين⁽²⁾. على فراش الموت، أورثه الأب متجره وأوصاه بكريمة واعتذر له على جلبهم لليبيريا قائلاً: "جلبتكم لمونروفيا حيث لا غد والحياة جافة وقاسية؛ ولا وجود لكلمة ثراء! لكني كذلك رأيتُ في شبابي ما يكفي من الموت والمذابح في ليبيا حتّى يسعني أن أقول إنني أسديت لكم خدمة"⁽³⁾؛ أنه تأثر توفيق بالحروب الأهلية التي شاعت في المنطقة العربية. الحق أنه رغم كل المعاناة والفقر، كانت حياة سليم وكريمة الزوجية سعيدة بجمال كريمة ورقتها وكان هو يشعر بالراحة في متجره الصغير. هكذا لم يكن سليم في البداية يعرفُ بلداً غير مونروفيا التي أضنتها

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 144-148.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 66، 67.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 68، 69.

الحروب الأهلية ولا يملك لبلاد العرب إلا صورة ذهنية خاطفة عارفاً فقط أَنَّ للمسلمين أماكن مقدسة في شبه الجزيرة العربية وإسرائيل؛ يجيد العربية والإنجليزية. عاش حياته بلا طموح إلا أن يكبر ابنه ليرثا متجره ويموت بهدوء كأبيه⁽¹⁾.

وقد وعى لمناخ الكراهية المتنامي وظنَّ أنه لن يصطدمَ به أو على الأقل سيتعامل مع الوضع بحكمة إذا وقع، إلا أنَّ يقينه تصدَّعَ عندما باتَ ضحية هجوم عنصري إذ ضربه رجلٌ ما أثناء عودته لبيته في أحد الأيام وطرحه في الأرض الموحلة، ولما لأمه سليم -ظاناً أنَّ الرجل فعلها عن غير قصدٍ- سبَّه الآخر وصديقُه أنه -سليم- لم يكن حذراً ودفعه في كتفه ليهتاج سليم عليهما؛ فيصدمه أحدهما في الجدار مردداً أنَّهم -معشر العرب- يسطون على وظائفهم وأعمالهم وكذلك على شوارعهم كلها، فأدرك أنَّهما يكتنَّان كراهية للعرب ودًا تفرغها في أي عربي. وفي يومٍ آخر كانَ مع زوجته وصغيريه في متجره؛ قلقاً لمرضٍ صغيره الذي يعني احتياجه لعلاج سيكبد مالا كثيراً وهو المعدم؛ ليتفاجأوا بولوج الرجلين المعتدين السابقين نفسيهما وعيونهما تؤكدان نيتهما في اختلاق المشكلات. عاملهما سليم بأدب في البداية وأجاب أسئلتهما المستفزة، ثمَّ إذ فجأة أسقطاً زجاجة مياه مهشمين إياها. وعندما زجرهما مطالباً إياهما بدفع ثمنها؛ أخبراه أنه لم تكن في نيتهما تحطيمها منادين إياه بـ (العربي)، ولكن أكذا أنَّ تحطيمهما القادم متعمدٌ. وبالفعل، طفقا بعدها في إعادة التحطيم والتخريب في أنحاء المتجر وضربا سليم ضرباً مبرحاً عندما حاول منع العبث دونَ أن يتجاسر أحدُ ممن تجمهروا بالخارج على الاقتراب. وبلا سابق إنذار، هوى أحدهما بهراوته على رأس كريمة قاتلاً إياها قبل أن يركل رضيعها الذي وقع من بين ذراعيها قاتلاً إياه أيضاً، وهربَ الاثنان بعد أن هشَّما يد سليم بالهراوة⁽²⁾، ووصفَ توفيق الأمر: "كانَ سليم يسمع هذا بعدة لغاتٍ وهو على الأرض.. كل شيء ينبض من حوله وأنامله تتقلص.. وغاب عن الظلام! لقد نالوا منك بأسوأ طريقة ممكنة! لكنك لم تدرك خسارتك بعد، فيما بعد عندما تفيق ستدرك حجم ما فقدته في لحظات! أما الآن، فالحين حين صداع وإغماء وقيء"⁽³⁾.

أما "محمد عدنان"، فبعد الإحساس بالاضطهاد داخل مصر، فقد هاجرَ إلى سيدني وتزوَّج امرأة أسترالية بجمال محدود؛ وذلك في وقتٍ لم تكن أمور البلاد شديدة السوء إذ بعدَ زواجه بفترة لم تعد أي فتاة أسترالية تقبل أي عربي خوفاً منه وعليه. لم ينجبا لكنه أحبَّها وامتَنَّ لها لإعادة

رجولته للحياة؛ وامتلك بيتاً صغيراً له حديقة وعَمَلٌ في أحد المصارف، لكنه كَانَ واهماً عندما ظَنَّ الهجرة خلاصه؛ فقد عَلمَ من العربَ الموجودين هُنَاكَ أَنَّهُ في الماضي نَابَ العرب في المجتمع الأسترالي حتَّى وقعتْ تفجيراتٌ إرهابيةٌ تأهَبَ القومُ على إثرها لطقوس الكراهية وظهرَ الداعون لإبادة العرب. وبذلك، بمرور الوقت توجَّبَ على العرب أَنَّ ينزلوا ويمارسوا حياتهم متوقعين في جيتو ليس لهم حقوق المواطنة ذاتها. وقد عَقِبَ توفيق على هذا الأمر أَنَّهُ على الرغم من أَنَّ العربي يتمائِل مع أي أجنبي أمام القانون، فهذا القانون لم يكن كل شيء إذ كانتْ هُنَاكَ مستويات أخرى للتعامل لا يمكن أَنَّ يطولها أي عقاب. وبالفعل، فقد تعرَّضَ لتنمر المجتمع الغربي بسبب أصوله العربية لدرجة أَنَّهُ في يومٍ ما حَبَكَ زملاؤه بالمصرف مقلِّباً وسكبوا دلو "بول" على رأسه؛ وهو ما فاقَ طاقته خاصة أَنَّهُ لم يتمكن من التعرف على الجاني؛ ولم يأملُ بالكثير عندما اشتكى للمدير إذ توقع أَنَّهُ سينزعج قليلاً قبل أَنَّ يصرفه. وفعلاً، لم يسأله المدير إلا إذا كَانَ يتهَم أحداً⁽¹⁾، ليجيب مُحمَّد: "أتهَم الجميع! لا أتوقع أَن يظهرَ صاحب البول ليعلن أَنَا فعلتها، لا أتوقع أَن تحمرَّ أذناه خجلاً لكني أتهَم الجميع! ولأنَّه من المستحيل أَنَّ تعاقبَ الجميع، فجوابي هو أَني لا أتهَم أحداً"⁽²⁾. هكذا صرفه المدير بعد أَنَّ طلب منه أَن يقنع نفسه أَن شيئاً لم يحدث، رحلَ مُحمَّد عنه متذكراً طفولته ومراقبة النجوم وجسد الفتاة وسجن المنصورة وَأَنَّ سجن الكون وصلَ لأستراليا⁽³⁾.

4- معرفة الحقائق المخفية: وهذه كانتْ حالة بعض شخصيات رواية "مثل إيكاروس" التي أفرَدَ لها توفيق بعض المساحة. وهؤلاء كانوا الروائي الأمريكي ريتشارد دواير، والعالم برتراندج؛ والصيديلي مصطفى أبو حسن. فأولهم أرادَ أَن يعرف ثلاثة أمور مخفية: ما إن كانتْ زوجته توفتْ في حريق برجي التجارة العالمية (2001) بألم أم بسكينة وهدوء؛ وما إن كانتْ للسلطات الأمريكية أي دخل بهذه الواقعة. أرادَ معرفة الأمر الثاني لأنَّه إذ رفضَ نظرية الجيش الأمريكي التي تقول أَنَّ كان هناك انتحاريون إسلاميونهم من قاموا بالكارثة وذلك لصعوبة تصديق أَنَّ ملتحي تنظيم "القاعدة" المختبئين في كهوف أفغانستان قادرون على القيام بهذه المهمة المعقدة، وفي الوقت ذاته لم يجهر بشكوكه لمقتبه لنظرية المؤامرة والماسونية والنورانية وكذلك لفكرة أَنَّ الجيش الأمريكي كَانَ بحاجة لمبرر لاحتلال العراق وأنهم زرعوا شرائح إلكترونية في الطائرات يوجهونها عن بُعد. كان محتاراً ويرى أَنَّ أحداً لن يعرف ماذا جرى بالضبط وَأَنَّ عشرات الكتب ستظهر دونَ أَن توضح الحقائق لأنَّه

(1) المرجع السابق نفسه، ص 190-195.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 192

(3) المرجع السابق نفسه، ص 192، 193.

يؤمن أنَّ الفاعل الحقيقي قد فرَّ بجريمته. والأمر الثالث الذي أرادَ معرفته كانَ بأوامر من البنتاجون الأمريكي نفسه، وهو مصرير هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم.

وهذا الأمر كانَ لأنَّه قبيل حادثة 2001 بفترة كانَ قد أصدرَ رواية تُدعى "الشیطان في التفاصيل" ربعته على عرش كُتَّاب الخيال العلمي لدرجة أنَّ استجوبته السلطات عند وقوع الحادث خوفاً من أن يكونَ تنظيم القاعدة استقَى مخططه منها؛ فإذ بهم في عام 2020 - حيث تدور أحداث رواية مثل إيكاروس نفسها- يحضرونه ويولكون إليه مهمة كتابة رواية يتخيل فيها سيناريوهات لانهايار قوَّة الولايات المتحدة الأمريكية. فوقفاً لكلام الجنرال الذي حدَّثه، فإنَّهم يعرفون أنَّ القوى العالمية منذ فجر التاريخ فشلت في الاحتفاظ بالسلطة؛ وكانَ هناك لعبة "الكراسي الموسيقية" للهيمنة على العالم؛ وهذا على غرار الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية والدولة الإسلامية، والتي جميعها انتهت بدول ضعيفة. وقد وافق دواير على هذه المهمة حتَّى لو سيكون "كاتباً شبحاً" يذهب مجده الأدبي لغيره عندما أقنعوه أنَّها "مهمة وطنية"، وأنَّ "العم سام يحتاجه" وأنَّ "سومرست موم" كانَ جاسوساً خلال الحرب العالمية. وهكذا خصصوا له مكتباً في البنتاجون وفريق بحثي كامل فقط كي يبتكر هذه السيناريوهات والأسباب الدافعة وراءها على أن تُرفع للرئيس أولاً بأول.

مثله كانَ "بروفسور بارتديج" وهو أستاذ جامعي في الخمسين من عمره يحسبه البعض أحمقا والبعض يراه مجنوناً، يؤمن بالنظرية الداروينية لتطور الجنس البشري وأنَّ الإنسان مجرد مرحلة متطورة من الكون الذي لن يتوقف تطوره وسيستمرُّ إلى الأبد. كان يرفض آراء منتقدي الداروينية الذين يرون أنَّهم لم يروا تطور الإنسان، قائلاً: إنَّ التطور يستغرق ملايين الأعوام. كان يدرك أنَّ الأرض شهدت انقراضات نحو 18 مرة على مدى 250 مليون عام بعضها بسبب البراكين، وتوقع أنَّ يأتي التطور على هيئة أحد هذه البراكين التي ستطلق سحباً تغطي الشمس بحيث يموت الإنسان لترجع الطبيعة لنقطة الصفر حيث يسودها جنس الفئران والصراصير لأنها الأقدر على التكيف. شارك طالبته حلمها في الحصول على نظرية بانورامية شاملة على الكون في المستقبل وعلى جذورهم ومنتهاهم ليأتي بالدليل على نظرياته مردداً أنه لو استطاع اقتطاع ساعتين سافر بهما للأرض بعد مليون عام لكانَ أسعد البشر. ولاستحالة الأمر، فقد رضي بأسئلته متمنياً لو تخلد أفكاره ويأتي من يستكمل مسيرته حتى يعرف تلميذ تلميذ تلميذ... تلميذة -بعد مليون عام- الإجابة. ولما مرض بالسرطان وعلم بموته المحقق قريباً زاد حرصه على المعرفة.

أمَّا "مصطفى أبو الحسن"، فكانَ طالباً بكلية "الصيدلة"، في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، يميل للانفتاح على الفنِّ وغير متدين قبل أن يشهدَ على تنامي سطوة

"الجماعات الإسلامية" في ظلّ حماية نظام "محمد أنور السادات" لهم إذ كانَ يضرب بهم الشيوعيين واليساريين⁽¹⁾. تقرَّب منهم ليعرف فكرهم ورافقَ زعيم طلابهم "عثمان"، وعرف أنَّ أغلبهم قادم من الريف للمدينة للدراسة، وأنهم فزعوا من الصخب والانفتاح والسيارات والشوارع الواسعة والفتيات الجميلات، فلانوا بالتعمق في الدين للامتناع عن الموبقات، وقد استطاعوا استقطابه وأمنَ بهم أشدَّ الإيمانِ، ووصلت نفوذهم لمداها⁽²⁾. وذلك حتَّى بدأت هذه السطوة في التراخي بعد احتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان واندلاع الثورة الإيرانية اللتين دللتا على أنَّ نفوذ الإسلاميين إذا وصلوا للحكم ستكون مدمرة. وهكذا تمَّ اتهام كل المجاهدين الذين سافروا "لنصرة الدولة الإسلامية" في أفغانستان بأنهم إرهابيون. لكن كانت الأمور قد خرجت عن السيطرة واغتال المجاهدون أنور السادات الذي سبق وأطلقهم من السجون فيما مضى. وهو ما وصفه توفيق أنه كان التحوُّل الشديد إذ بعدما كانَ الإسلاميون "سادة الجامعة المحميين" صاروا "مضطهدين" و"مطاردين"، وباتت حياة مصطفى بينَ كرٍّ وفرٍّ واعتاد الاعتقال في الفجرِ ظاناً أنه بذلك ينال الحسنات. واستمرَّ الوضع حتَّى اندلاع ثورة 2011 إذ شاهدَ "مصطفى" نجاح الجماعات الإسلامية في الانتخابات البرلمانية والرئاسية نتيجة قدراتهم التنظيمية

(1) حكى توفيق بالتفصيل كم كانَ الفتى مهووساً بالفن التشكيلي ورسم رينوار وبيكاسو وسلفادور، يقرأ كتب "مصطفى محمود" قبل أن ينسأها سريعاً ويحوّزته المجلات الإباحية ويرتاد السينما ويستمع للموسيقى، حتَّى حطَّ الإسلاميون أحد معارض الفن التي عقدها كاتبين على اللوحات ((هل أنتم طلاب أم عبدة شهوة؟)) رغم أنَّ الصور لم تكن عارية، ولم يتدخل رجال الأمن لإنقاذ شيء بل ونصحه الضابط ألا يحرر ضدهم أي محضر لأنهم محميين من النظام السياسي، ثم وقع التصادم ثانيةً عندما كتب مصطفى ورفاقه مجلة الكلية واتهمه زعيم طلاب الإسلاميين -عثمان الفقي وهو الرفي الضليع في الخطابة- بالترويج للعلمانية والفحش بالأشعار العاطفية المبتذلة، وتذكّر "النصارى" يبدون أفكارهم، ومزق مع أعرافه المجلة (المصدر: المرجع السابق نفسه، ص71-76).

(2) رأى فيهم تشذيب للحي وحبب الآخرين إليهم وشعورهم بالتفوق على الآخرين لإجابتهم التجويد أكثر من زملائهم الذين رأوهم منحلّين؛ ثم علم فيهم مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" عندما شاهدَ عثمان وهو يُشعل سيجارة لأحد زملاء الكلية ويجب لوم مصطفى أنَّه على الرغم من أنَّ التدخين إثم، لكنه إثم بسيط وهم -الدعاة- جاؤوا لعظائم الأمور، وأخبره أنَّ الخطوة الأولى هي أن يثبَّ الطرف الآخر فيه وبعدها يستطيع في كل شيء. وارتفعت آماله فيما بعد بانتشار علامات هذه الجماعات بينَ العوام إذ سيطر فكر "حسن البنا" و"سيد قطب" واعتبار "طه حسين" و"العقاد" ضالّين، والنظر للأهل أنهم طبييون لكن منحرفون عن سواء السبيل، وشاعت أفكار تحريم فوائد البنوك وارتداء الحجاب للنساء والجلباب القصير للرجال واستعمال السواك وإطلاق اللحي والمشي بهرولة وتجويد الأسماء وتغيير عناوين المتاجر إلى أسماء إسلامية مثل ((طوبور الرحمن))؛ و((ألبان الصفا المروءة))، والدعوة لصلاة الفجر، وإرسال الأطفال لدروس التحفيظ في المساجد المجاورة، والحديث بالفصحى كـ(أبي) بدلا من (بابا)، وذبوع "العقيقة" بدلا من "السبوع" واعتبار التلفزيون ابتذالا والأغاني رجزا من الشيطان. هنا بدأ يفكر في حلم الخلافة واستعادة القدس والأندلس. وقد استطاعوا تغيير نظرتهم للمسيحيين بأنهم يكرهون الإسلام والنبي - عليه الصلاة والسلام- وأنهم يؤذون الإضرار بالمسلمين وأنَّ قساوستهم تأمرهم بأن يصيروا أطباء ليكشفوا عورات نساء المسلمين؛ لذا فتحتهم وتهنتهم بأبداهم جريمة آثمة، وبأن من الطبيعي أن يخرج المسيحيون من امتحانات الشفوي مسؤولي الوجه ويرسبون بسبب الأسئلة المعقدة التي تتوجه لهم، ليفرح فيهم الإسلاميون لأنهم يرون وصولهم للمناصب القيادية سيجعلهم يقهرون المسلمين. كما أضحت السخرية من أوضاع الأمة الإسلامية أنها تحولت من العلم والجهاد إلى الأغاني والابتذال هي أكثر التفتحات التي يجذب بها الإسلاميين الآخرين. وصار مصطفى كالضئير الذي يشعر الآخرين بالذنب وأطلق لحيته وبات قاضياً يهدف الجميع لنيل رضاه، وتشكك في جميع التوايا ورأى أن الكل يسعى لهم الإسلام، وأن هناك مؤامرة الغرب لنزع الصلوة الإسلامية بل قرر أن يتزوج أخت أحد زملائه لتكون مؤمنة عن حق ولأن أهلها سيقدرون ظروف البلاد الاقتصادية الصعبة آنذاك (المصدر: المرجع السابق نفسه، ص77-82).

وشعاراتهم الدعائية من خلال خطباء المساجد في النجوع والكفور والقرى الذين تحدثوا عن الدولة الكافرة التي تبيح الربا وتحارب الإسلام. ثم شاهدتهم وهم يسقطون سقوطاً مدوياً بعد عام واحد في عام 2013. أثارت هذه التجربة رعب "مصطفى" وهو يشاهد تغيير الشارع على الإسلاميين والنظر إليهم أنهم دعاة عنف وأنهم كانوا سيعيدون مصر إلى العصور الوسطى، وسحبوا كل دعمهم لهم، فبدأ يتساءل إن كانت الثلاثون عاماً الماضية وهماً أو حلمًا عاشه. واستمر الطوفان مع الاضطهاد الذي لاقاه بسبب لحيته حتى اضطر لحلقها، ومع مقابله لزميله المسيحي الذي كان نابغاً ولكن تعرّض للعنصرية من الإسلاميين حتى ضيعوا فرصته في أن يكون أستاذًا جامعيًا وصار صيدلانيًا في الإمارات يحيا حياة عادية. فقد سأل ذلك الزميل - الذي أصبح يؤمن بالعلمانية لأن الدين بالنسبة إليه مادة قابلة للجنون - عن سبب ما حدث، فلم يتمكن "مصطفى" من إجابته⁽¹⁾.

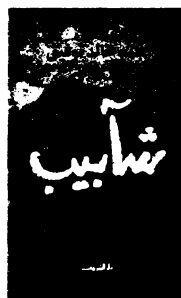
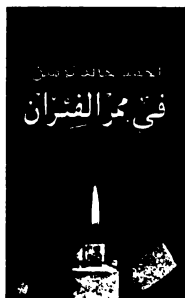
أخيرًا جاءته الطامة الكبرى عندما اكتشف أن زميله "عثمان فقي" قد تبرأ من العبادة الإسلامية بعد ثورة 30 يونيو 2013 وأعلن ولاءه للنظام الجديد، بل ونهب لقسم الشرطة يحرر محضراً يؤكد فيه أنه لم ينتم للجماعة الإسلامية قط، وحذا حذوه الكثير من الرفاق، تاركين إياه وحده. هنا أنشأ مدونة وأسماها "لا أدري" ليضيف فيها جميع الشكوك التي باتت تراوده في الدين. فبعدما كان الأمر واضحاً في الجامعة، حيث هو وزملاؤه يرضون عن أنفسهم ويفهمون الكون ويعتقدون أنهم من أهل الجنة والآخرين من أهل النار، فهذا الإيمان اهتز وبات يتذكر المسلمين المنافقين الذين يصلون للبشر لا لله كالإمام الذي يصلي متطلعاً لمديره الذي يصلي معهم ليراه راضياً عنه أم ناقدًا عليه. كفر بمسألة الدولة الإسلامية بعد الفساد الذي حدث في أفغانستان بل وشك في الأقاليم الدينية - التي كانت تبكيه سلفاً - معتبراً إياها سذاجة. لم يعد يرى في الدين سوى تجنيد الذين يؤمنون به ليتخلصوا ممن لا يؤمنون به؛ وأنه وسيلة لتنميط الجميع بحيث يقضون على المختلف فيهم. واشتدَّت هواجسه وتمنى لو يعيد إليه أحد إيمانه بإخباره الحقيقة الكامنة وأي الحزبين أصح. إذن، فالحقيقة المخفية التي كان يريد الاطلاع عليها لتستقر نفسه وتسعده هي ما إن كانت الجماعات الإسلامية على صواب ومتدينين بحق أم أنهم كانوا يوظفون الدين لصالحهم وحينها فأى الجهات تدعمهم⁽²⁾، كذلك تطرقت الرواية لبعض المُعذِّبين الآخرين الذين أتوا محمود ليساعدهم أمثال "الزوجين الأمريكيين" و"الصحفية المصرية الشابة الفقيرة" و"السمسار الأمريكي" و"المستبد المُفدَّى منصور الديب" كما سيلي في الفصلين القادمين.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 83-86.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 86-91.

الفصل الثاني

آليات الوصول إلى اليوتوبيا وملامحها في الروايات



على الرغم من أنَّ توفيق كانَ معنيًا بالأساس بمعاني الديستوبيا في رواياته، فإنه لم ينسَ تخصيص جزء يسير من بعض الروايات لذكر لمحات للمدينة الفاضلة التي أرادها وتمناها الأبطال الرئيسيون، ابتداءً من كيفية الوصول إليها إلى توضيح أركانها وصورتها الأولية قبل التدهور. انطلاقًا من هذه النقطة، ففي هذا الفصل، سينقسمُ الحديث عن اليوتوبيا أولًا إلى آليات بناء اليوتوبيا أو الوصول إليها، وثانيًا عن شكل هذه اليوتوبيا.

أولًا: آليات الوصول إلى اليوتوبيا:

بالنظر إلى المطروح في الروايات الأربع، فهذه الآليات إمَّا هي آليات من صُنع الإنسان أو أنها كانت خارجة عن المؤلف تتحكم بها قوى خارقة للطبيعة نوعًا ما، وهذا على النحو الآتي:

• آليات من صُنع البشر:

ففي رواية اليوتوبيا، "اليوتوبيا" هي مدينة فعلية على الساحل الشمالي نشأت نتيجة لنفوذ أصحاب الثراء الشديد الذين استغلوا ظروف البلاد الاقتصادية، ليكونوا ثروات طائلة لا يمكن إحصاؤها قبل أن يقرروا أن سكناهم جوار الفقراء سيكون خطرًا عليهم فتوجهوا لتشديد هذه المدينة من أجل حماية أنفسهم والتمتع بما تكسبوه وتربحوه على حساب الآخرين، دون أن يخشوا من ثورة جياح أو حسد حاسد. وفي تأسيسها، أعانتهم الحكومة المصرية التي رفعت يدها عن تقديم الخدمات للمواطنين الفقراء وتوجهت بالنفاق والرياء لرجال الأعمال حتى أصبحت صديقتهم في قهر الطبقات الأخرى لصالحهم. في هذا الصدد، يمكن القول إنَّ الحكومة كانت تمارس الدور الماركسي للدولة ألا وهي أن تكون الطبقة العليا المساندة لطبقة مالكي أدوات الإنتاج بحيث ترسخُ أيديولوجيتهم وأفكارهم، والحق أنَّه على الرغم من أن هذه المدينة كانت تحمل اسم "يوتوبيا" وهدفها كان إرساء أركان المدينة الفاضلة على الأرض، فسماتها الأخلاقية والاجتماعية قد كانت آية ديستوبية هائلة، وهو ما سيتم توضيحه في الجزء الثالث من الكتاب.

أمَّا في رواية "شأبيب"، فقد كانت الدولة هي من صُنع بشر هو "مكرم ميخائيل" وصديقه "جوناثن إبراهيم"، فمن ناحية أولى، أراد مكرم تخليد اسمه في التاريخ؛ ومن ناحية أخرى شاهد اضطهاد العرب المشتتين سواء المسلمين أو المسيحيين والذي بدأ بإهانات ثم تفاقم للضرب وأخيرًا للذبح والحرق؛ فعرف أن الإنسان يعجز عن العيش بلا حلم حتى لو عاش بلا مسكن أو مال أو طعام أو دين. لهذا أراد تجميع العرب جميعهم في دولة واحدة يُعاملون فيها معاملة آدمية لكونهم متميزين في دولهم الأجنبية؛ وتوقعها دولة

قوّةً بضمها لعقول متقدمة ذكية. وقد أدرك صعوبة الموقف ومع ذلك تقبّل أنّه -على حد وصف توفيق- "سيكون عليه أن يلعب لعبة صعبة خطيرة هي مزيج من دور النبي والقديس والقائد الحربي والفيلسوف والنصاب والمفكر الاقتصادي وابن الزنا؛ لربما اضطرّ للعب دور صنم وثني في لحظات ما"⁽¹⁾. ولقد تعددت خطوات مشروع بناء دولة "شأبيب" وذلك على النحو الآتي:

أولاً: من أجل ضمان وجود المناصرين لمشروعه رفعَ على الإنترنت ملف (Torrent) به أغان للوحدة العربية، فوجدَ يومياً عشرين فرداً جديداً يحملونه من دول مختلفة مثل كولومبيا وتنزانيا وفرنسا وغيرها؛ فادرك أنّ في كل ركنٍ من العالم هناك عربي يتقن اللغة العربية ويعرف صلاح الدين الأيوبي والمعرّي والمتنبي بحيث جمعهم في وطنٍ واحد واجب. لهذا نشرَ فصول كتابه (العربي التائه) على شبكة الإنترنت مستغلاً وجود "عالم سيربراني عربي" أصبح العرب يحرصون على نشر الأفلام والأغاني والتفسيرات القرآنية عليه، وبالفعل وجدَ إقبالا كبيراً من العرب وتوقع إدراكهم لإشاراته المخفية بينَ سطور الكتاب⁽²⁾.

ثانياً: بحثٌ عن مبرر أخلاقي لإنشاء الدولة الجديدة كما سبق لهتلر أن أقنع شعبه بأنّ يهاجم روسيا بإخبارهم أنّ ستالين خطر، وكما أشاع الحُكّام الأوروبيون أنّ الحروب الصليبية لحماية مهد المسيح؛ وكما زعم الصهاينة أنّهم سكان فلسطين الأصليون، وردّد توفيق أنّ حتّى أبشع الناس لا يستطيع المحاربة من دون مبرر أخلاقي؛ لهذا استعانَ مكرم بأساتذة تاريخ وأديان مقارنة وأديبٍ عربٍ مقيمين بالولايات المتحدة أمريكا وأمرهم بأنّ يصنعوا "تاريخاً مزيفاً" ليقنّع العرب المشتتين الذين توطّنوا على أنّ الدول المضيفة لهم هي بلادهم لأنّ بها أصدقاءهم وأعمالهم مهمّا أذاقتهم الويل، ليتركوا حياتهم الراكدة ويعيشوا في بلدٍ نائية. أرادَ من هؤلاء الأساتذة أنّ يكتبوا كتاباً بصبغة دينية قومية يحدّث العرب أنّ لهم تاريخاً في بلد غريب بعيد -ككتب (الأندلس) - يحضهم على الرجوع إليه وإحياء تراثهم فيه. اختارَ جزيرة "بابوا غينيا الجديدة"، فلما استعجب أحد الأساتذة من الاختيار، وأكّد أنّ كذبتهم ستنكشف، أجابه مكرم إنهم سيلوذون بنظرية المؤامرة لتلافي انتقادات الإعلام والأكاديميات إذ لا توجد أي حدود عربية مع هذه المنطقة، وسيقولون إنّ العالم لا يسمح لهذه الحقائق بالظهور، وحثهم على إصدار مقالات في صحف عالمية؛ وإنشاء موقع عربي يبشّر بالفكرة دائماً وأمهلهم سنتين لكتابة الكتايمتوقعا أنّ العرب

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 120، 121، 126.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 122، 123.

الأثرياء المهتمين بالقضية سيمولون المشروع⁽¹⁾، فقال: "يمكنك دائماً أن تصنع غباراً حول الحقائق؛ فلا يفهم أحد ما حدث! كلما كانت الكذبة أكبر، صارت أقرب للتصديق لأنه ببساطة لن يتصور أحد أن هناك كذبة بهذا الحجم"⁽²⁾.

وبالفعل ظهر كتاب "تاريخ لا يحكونه في المدارس" الذي تحدث عن الحق التاريخي العربي -المزيف- في بابوا غينيا؛ وقد أورد توفيق فصلاً كاملاً منه في الرواية، حيث تشابه أسلوب كتابته مع أساليب كتب حقبة الخلافة الإسلامية. فذكر الكتاب أن الأمر بدأ مع (الحارث بن مسعود) الحكيم الصبور قويّ البنيان ذي العيون الصارمة؛ الولع بالبحر والأمواج وصيحة (الناضوري) عند وصولهم لأرض دانية، والمؤمن بوسع أرض الله وحاجتها للتعمير، والذي استحقّ حقد الحاقدين الذين وشوا زوراً أنه انتقد الخليفة العباسي وأنّ ولاءه للأمويين، مشعلين الأكاذيب الفاحشة. لم يقبض عليه الخليفة ليحسب الحارث أنه يميل له ليتراجع أو يتمهل حتى يرتكب الحارث أخطاءً توجب إعدامه؛ فعمل بنصيحة زوجته الشاعرة الممتازة الشريفة قوية الشكيمة وأخذ القصيدة التي كتبها للخليفة يسترضيه بها، ويطلب سفينة وملاحين بزعم أنه سيفتح أرضاً وراء البحر يجعل شعبها يدينون بالولاء للخليفة البغدادي، ورحل للجنوب الشرقي حيث اعتقد العرب أنّ العالم انتهى في رحلة لعشرة شهور وصل فيها لجزيرة "بابوا غينيا الجديدة" عام 750م بالتزامن مع تأسيس عبد الرحمن الداخل للدولة الأموية في الأندلس⁽³⁾، بعد رحلة مخيفة ضلّت فيها السفينة ودخلت في مياه مجهولة وهدد البحارة بالثورة.

حكى الكتاب عن خرافات البحارة أنّ العالم له حافة تسقط منها السفن وأنّ هناك جُزراً تعيش بها وحوش بساق واحدة، وحكى عن الوباء الذي قتل عدداً منهم، وعن تعامل "الحارث" معهم؛ حيث الرفق مع الحزم. وصلوا حيث هُلل البحارة وكبروا وسجد الحارث على صخور ساحلها مردداً أنه سيسمها "أرض الياقوت" تنفيذاً لوعده للخليفة، ومؤكداً أنه أول من سجد عليها، ووجدوا سكّانها قومًا بدائيًا منحطاً بلا لغة معروفة أحبوا المسلمين وتوافدوا عليهم بمجرد أنّ أمر الحارث طبيبه اليهودي أن يعالج مرضاهم. استعان ببنائيه ومهندسيه لينشئوا مدينة "شأبيب" بها مسجد كبير ومدرسة ومستشفى وبيوت كما كوّن جيشاً من 70 رجلاً أصبح قوّة مهيبة بأسلحته وحسن تنظيمه هازمين أهل الجزيرة

(1) المرجع السابق نفسه، ص 128-130.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 130.

(3) إنه يربط التاريخ المزيف بالأندلس لعلّه أنّها حلم أغلب العرب، كما أنّ حكاية عبد الرحمن الداخل شبيهة بهذه الحكاية فلا يثير الشكوك.

الرافضين لحكم المسلمين. وقد دخل بعضهم في الإسلام وأبحر إليهم أقوام الجزر المجاورة ليشاهدوا الحضارة الأعجوبة موالين لها بالطاعة. وقد بعث الحارث بالأخبار للخليفة طالباً أن تصير "شأبيب" هي (بغداد الجنوب) ويمدُّه بالرجال والعتاد⁽¹⁾.

وبعد عامين، وقعت الحركة التوسعية الشاملة بعودة الرجال من الوطن معهم نساء ليتزوجهم رجال الحارث إذ كانت نساء الجزيرة مريضات بمرض جلدي منفر من العرب من الاقتران بهنّ؛ وهذا ما فسر غياب الدماء العربية في أهل الجزيرة. اختلق الكتاب أسماء علماء وأطباء ومهندسين وفلاسفة قطنوا الجزيرة، كما نجحت المدرسة الطبية في علاج الأمراض الجلدية ولعلمائها مراجع في داء الجذام، كما كان بها شعراء وظهر بها نوع عزف جديد اسمه "الياقوتيات" لم يبق منه شيء لأنّ القوم لم يعرفوا وسيلة لتدوين موسيقاه. كان حكمها مركزياً معتمداً على الحاكم ومعه (مجلس الحكماء) المتكون من شعراء ورجال دين وفلاسفة وأطباء يجتمع مرّة أسبوعياً للنظر في القضايا المهمة ويشترعون القوانين بحيث كانت قراراتهم ملزمة فيما عدا شئون شن الحرب ووقفها الذي يختص بها (مجلس الحرب) المكون من أربعة من رجال الحرب. ولأنّ السكان الأصليين لم يملكوا سوى أسلحة بدائية، فلم يكن أمر الحرب يشغل العرب. وقد حرص الحارث على الحرية والمساواة في الحكم وكان يسمع مجلس الحكماء ويتعلم لكيلا يكرر أسلوب الخليفة التقليدي، الذي يقرب منه من يشاء ويبعد من يشاء، ويحيط نفسه بسور يمنع نقل الأخبار الفعلية له. تعقّد النظام القضائي المكون من الدفاع والادعاء مع عشرة رجال خيّر يعطون قراراً نهائياً بالبراءة أو الإدانة -كنظام المحلفين- ويحدد القاضي كبير السن عالي الهيبة الأخذ بقرارهم أو رفضه. شيّدوا مدارس تُعلم القراءة والكتابة والقرآن مع مدارس أعلى -كالجامعة- لمن لديه حرفة يعلمها لغيره مع مدارس للسكان الأصليين -كالمدارس التبشيرية- لتعليمهم اللغة العربية ومبادئ الدين وأدت لاعتناق العديدين للإسلام. تعلّموا الكثير في الصناعة واستعانوا بالسكان الأصليين في زراعة الأرض البركانية الخصبة. ظهرت "البيمارستانات" المصغرة التي اختاروها على طريقة "الرازي"، وعُرف نظام "الأطباء الحفاة"، التي يزعم الكتاب أنها كانت أهم أداة احتلال⁽²⁾ لأنّها: "تمثل نوعاً من القوى الناعمة التي تعجب الأهالي وتجعلهم تلقائياً يتبنون قضية الغازي الذي يداويهم"⁽³⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 150-155.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 159-163.

(3) إنّه توظيف مثالي من "توفيق" للمفاهيم السياسية المعاصرة، المصدر: (المرجع السابق نفسه، ص 162).

ثمَّ انهارت هذه الدولة بأكملها عندما تأخر وصول الخراج للخليفة العباسي وانقطعت أخبار الحارث وأشاع الوشاة أنه خلع الخليفة وورث ابنه الحكم، لتبحر سفن الخليفة الغاضبة لهنالك واشتبكوا مع جنود الحارث على الساحل قبل حتَّى أن يدركوا أنَّ الحارث لم يَخُن الخليفة بل مات تاركًا الحكم لابنِهِ. وبسبب تفوُّق جيش الخليفة في العدد والعتاد، فقد كان الأمر مذبحة عظيمة إذ سحقَ هذا الجيش السكان وهدم المباني ومسجد الياقوت بمن فيه⁽¹⁾، وقَطَعَ رأس ابن الحارث وقدمها للخليفة. وقد ذبح السكان الأصليون من تبقى من العرب مستغلين الهزيمة لدرجة أن زعم البعض أنَّ في هذين اليومين ماتَ نحو 2000 عربيٍّ. وقد فسَّر الكتاب هذا الانهيار أنَّ الحارث-على حد وصف توفيق- نجح أكثر من اللازم إذ هُناك قاعدة ألا يترك العرب أي أحدٍ من ظهراينهم ينجح أكثر من اللازم إذ يفشلونه ويذهبون ريحه مثلما فعلوا مع محمد بن القاسم في السند⁽²⁾. كما لم يغفل الكتاب عن ترديد عباراتٍ توحى بالمؤامرة على تاريخ العرب في هذه الجزيرة منها أنَّ الخليفة أنزلَ أوامره للمؤرخين بأن يتجاهلوا هذه القصة في كتبهم حتَّى تلاشَى ذكر دولة الياقوت تمامًا، بحيثُ أنهم فعلوا -بناءً على كلام توفيق- ما فعلته رواية "1984" لجورج أورويل عندما يجعلون المرء (Un-person) ليمحوه عن الوجود. كما ذكر أنَّ التاريخ كان قاسيا مع حضارة شأبيب التي لم يبقَ فيها سوى القليل على عكس الحضارة الأندلسية التي تماالتوسع في الحكي عن أحوالها وفنونها وطبها مما صعبَ على دارس التاريخ أن يصدق بوجود حضارة عربية في "الأوقيانوسية" رغمَ أنَّها الحقيقة مثلما أثبت "ثيوهايردال" وصول القدماء المصريين لأمريكا الجنوبية. وأخيرًا أكَّد الكتاب أنَّ معلومات هذه الحضارة موجودة في كُتب مؤرخين محترمين مثل "ابن قزوين" و"البغدادى"، وأنَّ الكتاب يهدف إلى أنَّ هذه الحضارة التي تدمرت واحترقت، ما زالت موجودة تحت الأنقاض بحيث يمكن العثور على آثارها مما سيعرّفُ العالم كله أنَّ العرب كانوا هُناك يومًا.

ثالثًا: بدأ مكرم في مرحلة "الترويج للفكرة"، فطارَ لكل مكان وقابل المسؤولين الذين عرفهم منتزعا من كل منهم وعد بالمنصرة والدعم؛ متبعًا خطة ذكية: أن يبشِّر المولين أنَّ الرئيس الأمريكي متحمس؛ ثمَّ يلقي الرئيس الأمريكي مخبرًا إياه أنَّ المولين متحمسون،

(1) وقد ذكر الكتاب أنَّ الأمر كان بشعًا لدرجة أنَّ الفيلسوف "ابن عمواس" رمى مخطوطاته المشتعلة وأحنية الجنود الداعسة للكتب الثمينة، ويردُّ أنه مكتوب على الأمة العربية أن يترنموا يومًا ببيت الشعر ((أضاعوني وأي فتى أضاعوا)). المصدر: للمرجع السابق نفسه، ص 159.

(2) للمرجع السابق نفسه، ص 157-159، 163.

بحيث حرص على ألا يعرف المسؤولون بعضهم بعضاً⁽¹⁾. ولم يكن نادماً على الخداع طالما أنه سينقذ العرب، مردداً أنَّ التاريخ سيذكر أنه فعلَ ما فعلَ (مارتيزيني) لوطنه وأنه سيكتب كتاباً مثل كتاب (الأمير) ليكافلي بعدما يتحقق حلمه يشرح فيه أساليب النفعية من أجل مصلحة جماعة وأنَّ هناك لعب قذرة من أجل أهداف نظيفة.

هذا قبل أن يسعى لنيل الدعم الأمريكي لعلِّمه أنَّ الولايات المتحدة هي أقوى دول العالم وأقدرها على فرض سلطتها، فكانَ مطمئناً لصداقته بـ "جوناثان إيرهارت" الذي كانَ جسراً لعقل الرئيس الأمريكي، وبالفعل استدعتهما المخابرات المركزية الأمريكية في اجتماع للعصف الفكري عندما اتسع نطاق الفكرة، وأقنعهم مكرم بمصلحة الغرب في دعم مشروعه لعلِّمه - كما قال توفيق - أنَّهم لن يدعموه لطيبة قلوبهم. أخبرهم أنَّ على الولايات المتحدة مساعدته لأنَّها من صنعتَ المهاجرين عندما أفسدت الأنظمة السياسية العربية وأحالت حياة المثقفين الطامحين للحرية السياسية والدينية للجحيم مما اضطرهم للهجرة للغرب، وكذلك عليها أن تدعم فكرته بسبب "القنبلة الديمغرافية العربية" إذ تنجب المرأة العربية 5 أضعاف ما تنجبه المرأة الغربية أي احتمالية ابتلاع العرب لأوروبا عمّاً قريب. ولقد رفضَ ظنون الأمريكيين أنَّهم سيدعمونه لحماية العالم من الإرهاب الديني إذ ذكرهم مكرم أنَّ المخابرات الأمريكية هي من تعقد صفقات مع الصفوف العليا في الجماعات الإرهابية التي ترسل شبابها لتفجير أنفسهم رغبةً في الجنة، وأكد أنَّ الإرهاب الديني ليس إسلامياً وحده بل هناك المذابح التوراتية وصراعات الكاثوليك مع البروتستانت الدموية، كما أكدَّ أنَّ دولة "شأبيب" لن تنقلب لخلافة إسلامية لأنه ذاته مسيحي وسيعمل على تطبيع الدولة الوليدة بطابع المدنية العلمانية التي بها الأديان جميعها متساوية وذكرهم أيضاً أنَّهم - الغرب - هم من قدموا إسرائيل كقدوة سيئة لفكرة "الدولة الدينية" بعدما كانَ العرب قد استغنوا عن الفكرة. ولما أعرب أحد الموجودين عن أنه سيكون استعماراً إحلاليًا للجزيرة، أجابه مكرم أنَّ الغرب أيضاً قدموا إسرائيل نموذجاً سيئاً لهذا الاستعمار⁽²⁾ إذ قال: "كانتُ فلسطين أرضاً مسالمة من زارعي أشجار الزيتون والبرتقال ثم غرستم في

(1) مستقيماً من طرفة عن أب وعد ابنه بتزويجه بابنة "بيل جايتس" إذ اعتمدَ الرجل على أن الطرف الأول سيوافق لأنه أخبره أن الطرف الثاني موافق: لذا ضمان موافقة الطرف الثاني لأنَّ الطرف الأول قد وافق بالفعل، المصدر: المرجع السابق نفسه، ص 131.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 126، 133، 138.

جسدها خنجركم، ويجب أن نذكر أن كل تفاعلات المنطقة وكل هذه الحُمى محاولات الجسد السقيم لطردها جسم غريب"⁽¹⁾.

وقد لاقى جداله إعجابهم فصعدوا المشروع للرئيس الأمريكي الذي اجتمع به وبجوناثان وبيعض العرب الأثرياء وأعضاء من وزارة الدفاع والمخابرات الأمريكية والكونجرس. هناك حشد مكرم تركيزه في شرح وجهة نظره لعلهم أن قضيتهم أصعب من اليهود، إذ عول الآخرون على حادثة "الهولوكوست" و"عقدة الذنب" التي أكتنتها أوروبا بينما العرب لم يعانون سوى من الاضطهاد وبعض التحرشات. مع ذلك، اعتمد على "السابقة اليهودية"، بحيث أكد لهم أن العرب -بتستهم في ربوع البلاد وعزلهم في مجتمعات ضيقة لإيمان الدول المضيفة أنهم لن يندمجوا معهم وسيثورون ويفتسونهم في أي لحظة- هم يهود العصر، وشدد على أن الأمة العربية كانت عظيمة وبادت، وأنه لولا الحماقات التي ارتكبتها العرب في جيل سابق وتبديدهم لثرواتهم وتعرضهم للغزو الخارجي، لاحتفظت هذه الحضارة بنواة صلبة كالحضارات الأخرى تجعل العرب أقوى في هذا العصر الحديث. كما شغل فيلما تسجيليا ملأه بصور لأقران وجوه خائفة ونساء أنوفها دامية تبكي ورعاع أوروبيين بهراوات وقادة آسيويين بوجوه متوحشة يخطبون في ميادين؛ معلقا أنها صور مكررة في كل الدول المضيفة للعرب، وأن أوروبا تعج بالقادة المتعصبين؛ وأن ديكتاتورا في الصين صنع أفرانا ليزج بالعرب فيها وأن صحفيا عربيا هو الذي صور صورة الأقران قبل أن يموت؛ وأن الكوبيين يخطفون العرب ويسرقون أعضاءهم.

قال إنه لو كان الأوروبيون اعتذروا من اليهود وتخلصوا من إزعاجهم بجعلهم يهاجرون إلى فلسطين، فواجب عليهم أن ينقذوا العرب من الإبادة. وبالفعل اقتنع الرئيس بالمشروع بعدما وعد العرب الأثرياء بأن يمولوه وألا يكبدوا الولايات المتحدة أي مصاريف وهو ما علق مكرم في نفسه أنهم سيلعبون دور "أسرة روتشيلد" مع إسرائيل. فطلب أن تكون "بابوا غينيا" هي مكان الدولة الوليدة حيث مجتمعها البدائي ومواردها غير المستثمرة وحضارتها المدممة، على أن يكون دور أمريكا هو أن تبارك الفكرة وتتولى بحريتها نقل المهاجرين لهنالك لأن أغلبهم فقراء لا يملكون ثمن السفر. وقد كان دور جوناثان إيرهارت في الاجتماع أن يطرح أسئلة يعرف إجاباتها سلفا ليجيبها مكرم أمام الحضور مما يليق رأس الرئيس. وقد أكد مكرم أنه على العرب المترفين أن يألفوا الصعاب

(1) للرجع السابق نفسه، ص138. إن، لقد لخص المصالح الأمريكية في أنهم صنعوا الاستبداد العربي والمهاجرين والإرهاب وفكرة الدولة الدينية والاستعمار الإحلالي -بإنشاء دولة إسرائيل- في الشرق الأوسط، ما أبرد تأثر توفيق بالآثار الدامية للولايات المتحدة في المنطقة العربية.

القادمة ما داموا يشاققون لبداية جديدة بلا أخطاء، قائلاً: "الحياة لا تمنحك هذه الفرصة أبداً ولكن الوطن الجديد يفعل، هكذا فعل المهاجرون من أوروبا للعالم الجديد إذ صححوا أخطاءهم وصنعوا الولايات المتحدة الأمريكية وأنتم تعرفون أن تجربتهم لم تكن سهلة"؛ وهو ما يعزز الفكر اليوتوبي للمشروع⁽¹⁾. وبالفعل بعدها بفترة، أجرى جوناثان إيرهارت مؤتمراً صحفياً أكد فيه أن الولايات المتحدة لا تخطط بين العرب الأبرياء وبين الجماعات الإرهابية وأنها تعلم عن معاناة العرب من التمييز العنصري، ليقول -على غرار وعد بلفور البريطاني لليهود- إن الولايات المتحدة (تنظر بعين العطف) إلى خطوة العرب في اتخاذ جزيرة "بابوا غينيا الجديدة" موطناً لهم يبدؤون فيه من جديد بعيداً عن التمييز والاضطهاد، على أن تنقلهم سفن أمريكية لهنالك والتي ستخصص حساباً دواراً لإنشاء المستعمرات بالتنسيق مع الحكومتين الأندونيسية والأسترالية⁽²⁾.

ورابعاً وأخيراً: إن أبطال الرواية الآخرين "أمانة" و"سليم" و"محمد" اقتنعوا بالفكرة وتوجهوا إليها، كل لأسبابه الخاصة. فأما أمانة، فقد تردت الأوضاع في أوسلو مع تفجيرات يردد مرتكبوها "الله أكبر" ما يجعلها تثق أنها مخطط للتخلص من العرب لأنهم ليسوا حمقى ليكشفوا أنفسهم بهذه العبارات، كما شاعت بعض محاولات الشباب العنصري لذبح المصلين المسلمين في مساجدهم، مما ذكرها برواية "ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور حيث اضطر المسلمون للإفطار في نهار رمضان مؤمنة أن الفارق حالياً هو أن المضطهدين صاروا العرب سواء مسلمين أو مسيحيين. ورغم علمها أن العرب لم يكونوا يقتحمون المحيطات، فقد قرأت كتابي (العربي التائه) و(تاريخ لا يحكونه في المدارس) وهوست بهما رغبة في أن تنشأ ابنتها على التاريخ واللغة العربية وأملت في الرجوع "لأرض الميعاد"⁽³⁾ - على حد وصف توفيق- لدرجة أنها جادلت زوجها -الذي ارتاب في المعلومات التاريخية إذ إن أطلنطس الأقدم وجدوا لها أطلالا بينما لم يجدوا لشآبيب شيئاً- إن الغرب هم من محو التاريخ العربي. فلما سمعت مؤتمر "إيرهارت" الصحفي، تذكرت وجه "داجفين

(1) المرجع السابق نفسه، ص 143.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 173، 174.

(3) وصف توفيق حالها بالآتي: "في حياة كل منا كتاب ينتظره، يزلزل مفاهيمه ومعاييرهِ ويجعله يتحمس لأشياء بعينها مثل ((كوخ العم توم)) و((الإدراك العام)) و((الإسلام وأصول الحكم)) و((رأس المال)).. من الكتب الثورية التي تبدل حياة كاملة: وقد كان كتاب ((العربي التائه)) هو الكتاب الذي كانت تنتظره.. يوشك أن يكون إنجيلاً يخبرها بما ينبغي أن تعرفه وتفكر فيه وما ينبغي أن يكون". المصدر: المرجع السابق نفسه، ص 166، 167.

العنصري" وابنتها وشقتها المحروقة والدماء المراقبة في الشوارع وطمحتُ لبداية جديدة⁽¹⁾ مرددة أنها فرصتهم الأخيرة.

وبسبب جمود فكر زوجها الذي لم يرد التضحية بالوظيفة الجيدة والسكن المستقر من أجل السفر لبلدٍ يعجُّ بأكلي لحوم البشر ومرض الجذام، يتشكك في أن للعرب حقاً به، وبسبب شعورها أن المشكلة عسيرة هذه المرة بحيث لا ينفع معها إصلاح ابنتها لها، فقد قدمت استقالتها من وظيفتها دون علمه واتفقت معه على الطلاق، لأنه لم يكن يقبل أن يظل مسئولا عن زوجة وابنة في مغامراتهما. تطلقاً والحب بينهما لتبدأ رحلتها بعد رفضها لعرض تلميذها الطيب ألا تهاجر وأنه سيدافع عنها ضد عنصرية قومه، إذ أدركت أنها لن تستطيع أن تحب فتى أصغر من ابنتها، وأن مجتمعه أقوى منه، فاكثفت بقبول هدية توديعه التي كانت الحجر الدامي الذي ضرب به من تحرشوا بها، وسافرتُ لتحق بجيرانها الذين سبقوها عالمة أنها ستكون رحلة شاقة وطويلة نحو - على حد وصف توفيق - أرض الميعاد.

أما سليم، فكان ملتزماً بالوحدة والظلام وشرب الخمر بعد مقتل أسرته وأصغى للقليل من كتاب "العربي التائه" على الراديو، والذي ذكّرهُ بلامبالاته عندما استدعته الشرطة بعد قبضها على الجانبين اللذين قتلَا أسرته ورؤيته لهما مضروبين بعيون متورمة وشفاة مشقوقة. لم يبصق عليهما أو يلطمهما إذ كانت خسارته ضخمة. ولما شاهدَ خطاب "جوناثن"، تساءل مباشرة على آلية نقل العرب إلى شاييب مبدئياً رغبته التامة في الرحيل؛ مؤكداً أن جذوره في ليبيريا انتهت مع موت أسرته، بحيث فقد قدرته على الحياة وعلى الحلم بالغد ويحتاج إلى أرض جديدة بوجوه وذكريات جديدة، وأنه في سبيل هذا سيتحمل المخاطرة والسفر للمجهول والتضحية بأصدقائه واسمه وماله القليل. وقبل رحيله زارَ قبر أسرته باكياً لأنه عجز عن الدفاع عنهم لأنه عاجز حتى عن الانتحار ليلحق بهم، ووعدهم بالرجوع لاسترداد رفاتهم ودفنها في الوطن الجديد. أما محمد، فعزم ألا يرجع لمصر مهما تنمّروا عليه في أستراليا، بل وكان يتحدث بطلاقة عن مواقفه السياسية المعارضة، أمام زميل مصري كان معروفاً أنه جاسوس لأمن الدولة المصري، ويكتب تقارير عن الجالية المصرية في أستراليا. لذلك، فلما سمع خطاب "إيرهارت"، ورغم استنكاره هو وزوجته لفكرة تجميع عرب الشتات في هذه الجزيرة التي يعلم أنها تحت الحكم الأسترالي، فقد استوطنته الفكرة وقرر أن يصحب معه زوجته الأسترالية التي تحمست للأمر عكس زوجته المصرية الماضية التي أبت الهجرة معه لأستراليا فطلقها.

(1) وقد أحست أن الشاعرة ((إيما لازاروس)) قد شعرت بهذا الحماس وهي تكتب شعرها عند قاعدة تمثال الحرية، المصدر: المرجع السابق نفسه، ص 166.

• آليات من صنّع قوَى خارقة للطبيعة:

تجلّى هذا الأمر في كلٍّ من رواية "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران"، ففي الرواية الأولى عثر "محمود السمنودي" في حشية فراشه على كتبٍ قديمة بأوراق بالية مصفرة ظنّها في البداية كتباً دينية قبل أن يكتشف أنّها كتب للسحر تفيض بالطلاسم دونَ علامات ترقيم، وبعضها باللُّغة الإنجليزية التي عجزَ عن تبيانها، وقد أخبره أبوه أنّها كتب موروثه من جدِّ لآخر. هنا، اعتبرها محمود - هو ما زالَ مراهقاً - مشروع عمره فأفنى ساعاتٍ طويلة بينها يقرأها ويفهمها خاصة أن ثقافته لم تكن عالية بحيث تنفّره من هذه الأفكار السخيفة وإنما حرّضه خياله على أن يستفيدَ منها أكبر الاستفادة. كان يؤمّن أن السمك الكبير يلتهم دوماً السمك الصغير وأنّ عليه -كيلا يهاجمه أحد- أن يصيرَ سمكة كبيرة قويّة، ووجد أنّ هذه الكتب السحرية ستمدُّه بالقوة الخارقة التي تصنع له مدينته الفاضلة التي لن يؤذيه فيها أحدٌ ما دامت الوسائل المادية غير مجدية. وفي أثناء دراسته الجامعية أتقنَ اللُّغة الإنجليزية من أجل قراءة هذه الكتب، بحيث ركّزَ على مهارات القراءة دونَ المحادثة والنطق حتّى توافرت لديه آلاف المفردات. وهكذا بدأ في قراءة الكتب الإنجليزية بلا قاموسٍ وانعزلَ فيها لدرجة إهمال زوجته. ولما فتحتُ زوجته إحداهما ووجدتها بالإنجليزية تحوي صوراً لمعادلات وأهرام ولسيدة اسمها "بلافاتسكي"، سألتها عنها، وأجابها أنه يبحث عن (المرأة) التي تجعله يقدر على معرفة ما يدور وراء ظهره دونَ أن يستدير؛ وأنّ ما يطالعه ليست كتباً للسحر وإنما هي محاولة الأسبقين للنظر بوعيهم الحالي في مرآة الغيب التي ستساعدهم على رؤية ما خفيَ عنهم. فقد كانَ مدركا أنّهم لن يعرفوا غيب الماضي والحاضر والمستقبل سوى بعد الفناء، فأرادَ هو أن يتتبع خطا السابقين لمعرفة في وقته الحالي دونَ أن يموت. فما كانَ من زوجته إلا أن تنظر لکلماتِه أنها أشبه بكلام العرافين والكهنة وتشككت أنه على شفا حفرة من الجنون وكفّت عن مجادلته⁽¹⁾.

وفي أحد الأيام رجعتُ زوجته ليلاً بعدَ زيارة والدتها لتجدَ زوجها على فراشه فاتحاً ذراعيه وساقيه على هيئة حرف الـ(X) في حالة حرمان حسي كاملة إذ غطى عينيه المنفرجتين المصوبتين نحو السقف بجمود بعصاة ليزيح عنهما النور، ووضع سدّادات في أذنيه ليعطل سمعه. نزعتُ السدّادات تناديه، فوجدته غير نائم ولكن عينيه جامدتان- في كلمات توفيق- كعيني دمی المحلات التي تبدو حية وميتة في نفس الآن، فأثار هلعها

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 22-26، 56-58.

وشدته من يافته فلم يستجب، ولم تملك تفسيراً لحالته إذ لم يتناول أي دواء. وبعدَ فحص الطبيب له، استنتج أنه يحتضر وبدأ مع الزوجة بهاتفان المشفى. لكن في لحظة سمعا شهقة محمود الذي أفاق يسعل سعالاً متتالياً، وقد تبدلت هيئته تماماً؛ فعيناه محمرتان كـ "كرتي لهب"، وشفتاه ملتصقتان بقشور غريبة وأنامله وتجاعيد وجهه اكتستا بخيوط كخيوط العنكبوت وشعره شاب تماماً. سألتُه إنْ كانتْ الحالة غيبوبة أو "تواجد" متصوفين، ليجيبها جذلاً أنها رحلة تبدو بالنسبة إليه قد استغرقتْ شهراً حتى لو بدتْ لها قد استغرقتْ ساعتين أو ثلاث ساعات، معقباً على شبيهة شعره أنها بسبب الأهوال التي رآها والتي تبدو - على حد وصف توفيق كـ "محاولة احتواء الأعاصير في الرثتين". وقد فسّر طبيبه النفسي المعالج فيما بعد أنَّ محمود كان من النادرين الذين بلغوا (السجلات الأكاشية)؛ التي هي لفظة "سنسكريتية" تعني "السما" يعرفها المهتمون بالظواهر الغريبة. يقال إنها سجلات توثق الحقائق والوعي الجمعي للكون كله؛ فالأكاشا هي المادة الأولية التي تخرج منها الماء والنار والهواء، وهي ذاكرة الوجود وأرشيف ناسه وحياته الذي يتمدد مع تمدد الخبرات الإنسانية التي لا تتوقف.

ولقد اكتشفَ الطبيب أنَّ الكثيرين حاولوا الاطلاع على هذه السجلات بالتأمل أو الإصغاء لنغمات رتيبة أثناء الصلاة الخاشعة أو بتعاطي عقاقير تدنيههم من الغيبوبة والموت. وعرف أنَّ هناك من ادعوا بلوغها مثل العرافة البولندية (هيلين بلافاتسكي) والنبى النائم (إدجار كايس) الأمريكي. فأما الأولى فهي مؤلفة كتاب (العقيدة السرية) الذي ذكرت فيه أنها تتلمذت على يد رهبان التبت الذين علموها طريقة الوصول إليها، والثاني زعم وصوله إلى السجلات وتخزينه لخبرات "لا وعي" البشر منذ بداية الخليفة بإدخال نفسه في حالة تداني الغيبوبة يقرأ خلالها الكتب بحيث كان يتحدث في سباته وأحدهم يدوّن ما يقوله ويستيقظ ناسياً كل ما قيل. بناءً على أقوالهم، فالسجلات مرتبة على هيئة مكتبة ذات أرفف وأنه يستحيل على شخص واحد اقتناء الكتب كلها مرة واحدة أو معرفة كل شيء؛ لكونها جرعة مبالغاً فيها سينهار بسببها أي عقل بشري. وهكذا خمنَ الطبيب أنَّ محمود استعمل طريقة "الحرمان الحسي شبه التام" في تلك الليلة المطيرة؛ ووصلَ للسجلات قبل أن يرجع من التجربة بهيئته الغريبة تلك إذ من الواضح أنه رأى أهوالاً في هذه السجلات. في البداية ظنه الطبيب يهذي كالمرضى النفسيين الذين رأهم حتى أدرك أنَّ "محمود" لا يدعي. وقد رأى الطبيب محمود يوماً وهو مبحرٌ في سجلاته تلك ليصف منظره بأنه أكثر المشاهد المفرعة إذ يبدو - وفق لكلمات توفيق - كمن في غيبوبة بلا مخدر يخترق فجوة في جدار العالم

ويتلمس طريقه لمكتبة كونية يقرأ أرففها، وهو التحدي لقوانين الطب من خلال تعطيل التكوين الشبكي في مخه. ويعودُ الرجل من غيبوبته بعد ساعة مثلاً نازعاً عصابة عينيه وسدادات أذنيه ويبدو كالمخمر وقد تكاثفت الخيوط حول وجهه وانساب شعر "صلاح عبد الصبور" منه إذ يقولُ إِنَّ رعباً أكبر من ذلك قادم لا ينجي البشر منه حتّى لو اعتصموا الجبال العالية أو اختبأوا في بطون الكهوف.

أمّا في رواية "في ممر الفئران"، فقد تناوَل الشرقاوي في إحدى ليلاليه بعض الحبوب المنومة للتخلص من أرقه الذي يجعله سبيّة في قبضة عقله الذي يطرح عليه كل معضلاته الوجودية بلا حلّ، تناولها متأملاً أنه سيصحو في الصباح ليمرّ اليوم سريعاً وينام من جديد ويداوم على هذا الروتين يومياً لعشرين عاماً حتّى يموت وينال حرّيته؛ وفكر أن لو أتى يومٌ وفقدت هذه الحبوب تأثيرها فلسوف يقتل عقله بأي طريقة. إلا أن الأمر تمانى عن رحلة نوم اعتيادية؛ وبلغ حدّ الغيبوبة التي تيقنوا أنّها لأسباب نفسية إذ لم تجد تحاليل الدم أو جهاز الرنين المغناطيسي الذي حُمِلَ إليه أي سموم أو حمى مُخية أو نزيف دماغي أو فشل كبدي أو كلوي. كان تنفسه منظم وحركة عينيه تعبثُ بجنون خلف جفنيه مما يدلّ على أنه يحلم. لقد فسّر توفيق أن الأحلام هي أن يفرّ الوعي لبعُد آخر يمارس فيه حياة قصيرة ليقابل أشخاصاً قبل أن يصحو منه بذكريات تائهة. وقد رأى أنّه على الرغم من بقاء جسد الشرقاوي في الواقع، فقد ارتحل بوعيه إلى بُعدٍ آخر؛ ولأنّ غيبوبته طالَتْ فهذا كان يعني أنه يعيش حاضراً طويلاً ما زال لم يعدّ منه بمجرد ذكريات تائهة، "لا أعرف تفسير الغيبوبة، لكنني أعرف أن رحلته في ممر الفئران قد بدأت ولن تنتهي عمّا قريب؛ ربما لن تنتهي أبداً"⁽¹⁾. إذن، فالليوتوبيا في هذه الرواية كانت من رسم خيال الشرقاوي خلال الغيبوبة التي وقع فريسةً لها، والحق أنه يمكن النظر إلى أن الرواية لا تستعرض أزمة "الشرقاوي" الوجودية وحسب، بل تتطرّق في هذا الجزء إلى أزمة المثقف في مصر وفي أي نظام فاش، فالشخص صاحب الضمير والفكر لا يستطيع ممارسة آماله وتطلعاته إلا من خلال النوم والأحلام، هذا وكأنّ هذا الفرد لن يعثر على سعادته يوماً في الواقع بل في عالم خيالي يسافر له عبر النوم؛ وإذا استحلاه مهما كان مرّاً، فعليه أن يبقى فيه على هيئة غيبوبة. وهذا ما يفسر القصيدة التي بدأ بها توفيق عالم الليوتوبيا الذي يحلم به الشرقاوي: "قال العراف: (هناك غد)، قالت الأغنيات: (هناك غد)؛ قال الأنبياء (هناك غد)؛ قالت أحلامي: (هناك غد) وعندما جاء المغول يحرقون الثرى ويكومون جثث الأطفال

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 15-18.

قالوا إنه لن يكون غدا! حقًا لا أصدق! لو أرادوا ألا يكون غدا، فعليهم أن يحاربوا كل العرافين وكل الأغنيات وكل الأنبياء؛ ربما استطاعوا قهرهم؛ لكن أحلامي ستهزمهم ويكون هناك غدا"⁽¹⁾؛ فقط الأحلام هي التي بمقدورها إنقاذ الغد. لعله أمل؛ لكنه واهٍ إذ أنه في النهاية استجداء بأحلام.

ثانيًا: ملامح اليوتوبيا:

يمكن القول إن الروايات الأربع تطرقت لهذه اليوتوبيا بصورة وجيزة، بحيث إما كانت هذه اليوتوبيا "حالة" تعطي السعادة بخروج البطل من الواقع المؤلم الذي يعيشه سواء إراديًا (مطالعة السجلات الأكاشية) أو لا إراديًا (الغيبوبة)؛ أو أنها كانت "مكانًا" جديدًا تم تشييده سواء كان على هيئة مدينة أو دولة.

• يوتوبيا على هيئة حالة:

تجلى هذا الأمر في روايتي "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران". في رواية "مثل إيكاروس"، بعدما وصل محمود للسجلات الأكاشية من خلال "الحرمان الحسي" وأصيب بالجنون الأولي بعدما شاهد مستقبل العالم بأهواله -الذي سيرد بالتفصيل في الفصل القادم- فإنه قرّر أن يتوقف عن رفض الهبة المغطاة له وأن يستسيغ الحالة بفضاعتها. فلمّا سأله الطبيب إن كان سيرجع للانتحار، أجاب بأنه كان في الماضي سيستغل كل الأسلحة الممكنة للانتحار مغًا، ولم يكن ليمنعه سوى أن يفضّح أهله بسمعة "أهل الكافر" رغم أنه كان يؤمن أن الله مطلع على الهول العظيم الذي تتجشّمه أعصابه يوميًا وكان سيغفر له الانتحار. إلا أنه حاليًا، لن يقفز من النافذة وإنما سيقف لديها مراقبًا الليل قبل ابتلاع قرص منوم ليحصل على قسط من الراحة مبرًا أفكاره الانتحارية الماضية أنها كانت بسبب خوفه، وعدم قدرته على احتمال الحقيقة القاسية والسواد الفظيع اللذين عرفهما واللذين كانا- على حد كلمات توفيق- ك"مستنقع عفن الرائحة بلا نهاية ملآن بالثعابين". ثم فسّر عدوله عن هذه الفكرة لإيمانه باحتياج البشر لرجل شجاع يحذرهم من المستنقع المقبلين عليه.

وفي أحد المساءات وقف محمود في حديقة المصحة يبكي ويتوسل الله باللغة العربية الفصحى، أخبره بالنص: (ربي، الإصر ثقيل لا تتحمله كتفاي، أعلم أن هذا تم بإذنك

(1) المرجع السابق نفسه، ص 21.

ومشيئتك، ما كان له أن يحدث دون إذتك ومشئتك، ولكن كاهلي أنا الفاني ينوء بما عرفت، ولات حين مناص، هبني النسيان.. هبني الجهل.. هبني الغفلة.. أعدني طفلا غريرا كما كنت وكما البشر من حولي، الذبابة إن دنت من النار أكثر من اللازم احترقت، والبئر إذا امتلأت فاضت وأغرقت القرى والسهول وفنكت بالجميع، جائئا مسغبًا كنت فامتلات حتى قاربت الانفجار، قد ارتقيت دوائر أعلى فأعلى.. حتى صرت في قمة موحشة ثلجية، أخشى أن يتبعني أحد لكنني لا أقدر على العودة لأسفل، ربي.. قد تحملت آلام الماضي وقسوة الحاضر ووحشة المستقبل، عرفت من أين جاءت الريح وإلى أين هي ذاهبة.. ورأيت ميلاد البراكين وكذا رأيت نهايتها، لم يعد هذا عقلي وإنما هو مليون حياة نابضة.. إن العذاب الذي أعانيه لا يوصف، لكم من مرة فكرت في انتزاع حياتي بنفسي والحمد لك أنني لم أوفق، آليت أن أبقى بينهم لأخبرهم بالهول القادم عساهم يعرفون ويتحسبون.. لكن الألم شديد وأنا لم أخلق من طينة الأبطال، في كل فجر تنشب الحرب العالمية الجديدة تحت جمجمتي وأحاول أن أنسى.. أتخفف من بعض ما عرفت فلا أقدر، هبني النسيان يا رب أو أمتني.. أمتني فلا أملك الشجاعة كي أمحو وجودي بنفسي.. أخاف سكرات الموت وعقوبة الجاحد بفضلك⁽¹⁾.

وقد كان طبيبه على علم بأنه رغم معاناة محمود فلن يعودَ لطور الإنسانية من جديد، وأخبر زوجته أنه لا يؤمن في شفائه: "(لقد اختار دربًا موحشًا قليل السالكين يمشى فيه وحده ولن ينظر إلى الوراء أو يعود! كل يوم يمر يجعله أبعد وأناى عن عالمنا! بعد هذه الرحلة المعقدة لا أتصور أن يبتاع الفول والجريدة صباحًا ويهرع إلى المحكمة ليطالع الرول ثم يطلب التأجيل ويبتاع لحمًا وفاصوليا في طريق العودة للبيت، إنه في كون آخر، مشاكله غير مشاكلنا، أحلامه غير أحلامنا، كلماته غير كلماتنا!"⁽²⁾، وعندما شاهد معالم أله الفظيعة خلال الإبحار مرة في السجلات الأكاشية، فكَرَّ: "أنت -يا محمود- تمقت وتخشى ما تراه كلما غصت في هذه السجلات، وبرغم هذا فللمعرفة مذاق يدفع للإدمان"⁽³⁾.

ولما أفشى الطبيب النفسي سرَّ محمود للجهات المصرية والأمريكية وتمَّ نشر مقال عنه في مجلة أمريكية مما عرَّفَ المعذِّبين بحيرتهم به وتوافدَ بعض منهم عليه، فلم يجدْ محمود أي غضاضة في لقاء الجادِّين منهم واطلاعههم على المعرفة التي يرغبون فيها. لم يلتقِ العابثين من غير الجادِّين، وذلك لأنَّ الطبيب ذاته كان يصرفهم عنه. والحقَّ أنَّ أغلب

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص125، 126، 140، 141.

(2) المرجع السابق نفسه، ص169.

(3) المرجع السابق نفسه، ص179.

الأسرار التي كانَ محمود يخبرُ هؤلاء الجادِّين بها في مصر إمَّا لم يعملوا بها رغمَ أنها كانت صالحةً له مثل الصحفية الشابة الفقيرة التي لم تفهم طلاسمة الناصحة لها وسلَّمَت نفسها للرجل الثري والذي بالفعل تركها وصارتَ حاملًا. أو أنَّها كانتَ أسرارًا حزينة زادتهم ألمًا، مثل حال الروائي دواير الذي علِمَ عن محمود من السلطات الأمريكية، وذهب للقياء وآمنَ بقدرته حينما بدأه محمود بقول أن موت زوجة دواير كان بالاحتراق ببطء وهو ما جعله يخز أرضًا باكيًا من الحزن. أو لا يمكنهم البوح بها لسبب أو لآخر مثل مصطفى أبو الحسن الذي أتى محمود يسأله عمَّن كان المُصيب ومن كان مُخطئًا في مسألة الجماعات الإسلامية. لم يجبه محمود سوى بعدَ وقتٍ في ظروف أخرى -سيأتي ذكرها بعد قليل- وإن كانت أسرارًا يصفها توفيق أنها مثل "الشموس الحارقة" التي لا يمكن لمصطفى أن يبوح بها. كما أتاها أيضًا و"البروفسور بارتديج" الذي - كما قيل سابقًا - كانَ يرغب في معرفة مآل تطور الإنسان بعدَ ملايين السنين، وذهبَ لمحمود الذي يُدّاع عنه أنه يعرف المستقبل؛ ورغمَ أن حماسه خفت حينما أدرك أن محمود يعتمد على السجلات الأكاشية، لكنه لم يرحل وفضل الاستماع.

وكدليل على استساغة محمود لهذه الحالة أنَّه رغمَ ألمها، فسرعان ما أجاب كلا من مصطفى وبارتديج عندما جاءاه في المصحّة بمصر؛ بشفريات لا يمكنُ حلُّها لأنَّها في كتب لم يملكها أبدًا، وهذا ما بدا في هذا المشهد: "قال بارتديج وهو يشعل لفافة تبغ: (لا يمكن أن يحكي مصير الكون في خمس دقائق، لكنها البداية) قلتُ باسمًا وأنا أعيد تشغيل الهاتف لأسمع ما قيل: (الأمر أعقد من هذا! ليست بداية أي شيء سوى المزيد من الضباب والتخبط! يتكلم محمود عن الكتاب رقم 210 ورقم 361 ورقم 412 من كتبه! الكتب في غرفته أقل عددًا من هذا بكثير! محمود اليوم يتكلم عن صفحات في كتب لا وجودَ لها)"⁽¹⁾.

ومثلما كانت هذه الحالة والمعرفة مصدرًا للمتاعب مثل اعتقال المخابرات المصرية له - كما سيأتي في الفصل التالي - فقد أنقذته عندما استطاع أن يفرَّ من تعذيبهم الشنيع له بوصوله لأعلى درجات الحرمان الحسي التي تجعله يخبئ وعيه في السجلات الأكاشية ويبدو للعيان ميتًا. هكذا ظنوه مات، وحملوه للصحراء متأملين أن تلتهم جثته الكلاب، بذلك تلافي جحيمهم. ليس هذا وحسب، بل لقد عقد صفقات باستخدام هذه المعرفة لينجو من البطش ولو إلى حين. فبعدما استفاق من حالة الحرمان هذه، لجأ - وهو مهشَّم

(1) المرجع السابق نفسه، ص 187-189.

الأوصال جروحه دامية وشعره شائط وقدماه حافيتان- لبيت "مصطفى" طالبًا منه العون والخصوصية والأمان مطمئنًا أنَّ الحكومة لن تأتيه هناك لانتغالهم في موت المُفدَّى-وهو الديكتاتور الذي كان يحكم مصر في الرواية كما سيأتي الذكر فيما بعد-؛ وطلب أيضًا أن يعطيه بعض المال والثياب ويتصل بـ "دواير". وفي مقابل ذلك، فقد وعده باطلاعه على كل الأسرار التي يشتهيها إذ يعرف أنه كان صادقًا في كل مراحل حياته وفي حيرته من تبدل الناس وإن حذرهُ أنَّ ما يعرفه سيكون شموسًا حارقة لم يكن يبتغي للآخرين أن يحترقوا بها مثلما احترق هو بها. هكذا، فقد مكث لديه يومًا ونصف فحسب أثنائهما حممه مصطفى وأطعمه وضمد جراحه، وقبل رحيل محمود أجلسه أمامه لساعتين وأخبره بأسرار لم يذعها "توفيق" في الرواية بل اكتفى بقول إنها كانت أسرارًا تخفى على الجميع أشبه بالقنابل الذرية الواجب كتمانها. كذلك، فقد سبق في المصححة - لعلمه أنه سيُعْتَقَل ويُظَلَم- وعاهد "دواير" أنه سيخبره بكل ما يعرفه عن مصير الولايات المتحدة في المستقبل وعن الحقائق المخفية وراء حادث 11 سبتمبر 2001 في مقابل أن يساعده في الفرار من مصر.

وأخيرًا، نجحت خطته وتم نقله بمساعدة "دواير" إلى المكان الذي أحبه وهو "جبل شاستا" شمال كاليفورنيا المهجور الذي كان يسكنه الهنود الحمر؛ وذلك لشعوره الدائم أنه بقراءته للسجلات الأكاشية قد ارتقى جبلًا جعله يرى أكثر من الآخرين. وهناك، سمّاه الأمريكيون "الليموري" لكثرة حديثه عن "قارة ليموريا"⁽¹⁾، وإن خمنوا أنه شرق أوسطى ولا يعرفون موطنه ويشعرون أنه لا ينتمي لعالمهم، ويتقوّن فيه لأنه لم يسأل الناس مالا ولا هبات وإنما كان يطلب منهم أن يستمعوا لرسائله العاجلة عن الغد وعن أنفسهم.

قطن كوخًا صغيرًا بلا فخامة وسط الضباب والصخور، وقد امتلأت ساحته بالزوار سواء أطفال أو مسنين أو شباب أو مراسلين يائسين لأن التصوير واللقاءات الصحفية ممنوعة. ذاعت شهرته لأن الأمريكيين - كما وصفهم توفيق - يقتنعون بكل ما هو روحاني وغير أمريكي بحيث يطرون المستوى الثقافي لفيلم فرنسي أو إيطالي تافه، ويتبعون هندیًا أو فلبينيًا يتكلم عن التأمل، كان بالكوخ حارسان ينظمان ولوج الزوار، وامرأة "هسبانية" تتولى نظافة ملابس محمود وإطعامه إذ قد يمكث أسابيع بلا لقيمة أو جرة ماء فكانت تدس بالطعام في فمه حتى يمضغ ويأكل، ويرافقه "دواير" بحاسوبه

(1) يمكن الرجوع للرواية نفسها لمعرفة ماهية هذه القارة الخرافية.

المحمول يدوّن كلماته بافتتان واهتمام. كانَ محمود يجلسُ بالكوخ يومياً بتجاعيده وخيوطه العنكبوتية أمام منضدة خشبية معصوب العينين يسد أذنيه وهي هيئة مخيفة للزوار تذكرهم بمسوخ الخيال العلمي. وفي أثناء إقامته هُناك، فقد قابل المزيد من المُعذِّبين، وأراحهم بذات الطريقة السابقة على سفره.

وكانت الأسرار التي يخبرهم بها أيضاً -كما في مصر- إمّا يغتاظون منها مثل "الزوجين الأمريكيين" الذين كانوا يبحثون لديه عن سر سعادتهم الذي أخفقوا في معرفته من طبيعهم النفسي، وهذا حتى أخبرهم بطلاس تعني أنّ سعادتهم في الانفصال. اغتاظوا حينها ولم يصغوا له واتهموه بالجنون رغم أنّ توفيق أكّد أنهما بعد ذلك بفترة لسوف ينفصلان وكل منهما سيعيش سعيداً مع شخص آخر. أو أنهم لا يفعلونها مثل "السمسار" الذي شكك طويلاً في نبوءات محمود حتى حدّره في إحدى الطلاسم أنّ الشركة التي يضارب فيها لسوف تنهار أسهمها. لم يحاول السمسار فهمه وإنما تركه حتى وصله الخبر بالفعل وإن كان بعد فوات الأوان. أو لا ينتفعون بها مثل "بارتديج" الذي كان غاضباً لأن السلطات المصرية أخفته ثم فرح حينما سمع عنه في التلفاز وذهب إليه، وبالفعل حدّثه محمود عن أهوال لسوف تجري بعد ملايين السنين. لكن لم يتمكن البروفسور من الانتفاع بها لأنّه بمجرد رجوعه لغرفته في الفندق لتدوين هذه الكلمات، حتى دهمته سكرات الموت وتوفى مرتعباً. أو أخيراً تحطمهم وتزهدهم في الحياة كلية "مثل ريتشارد دواير" والذي كان يلزم محمود كي يحدّثه عن مصير الولايات المتحدة الأمريكية، وبالفعل عندما عرف محمود أنّ السلطات الأمريكية التي سبق وساعدته - في السفر ووضعت ضمن نظام حماية اليهود - قد نفذ صبرها وستأتي لتعذبه حتى ينطق بجميع نبوءاته، فقد جلس إلى دواير في جلسة وداعية وحكا له عن كيفية موت زوجته التي ماتت احتراقاً، وكذلك عن أسرار واقعة برجى التجارة العالمية؛ ليدرك أنّ هناك أطرافاً خطيرة متورطة فيها. والحق أنها جميعها كانت أسرار قادرة على سحق الأمل بداخله، فإذا به بعدها يشكره، ويودعه ثم سار بين الجبال حتى مات.

وقد انتهى محمود من تجاربه سواء في السجلات الأكاشية أو مع المُعذِّبين جميعهم ببعض الحكم الأساسية أهمها هي أنّ-على حد وصف توفيق الحكمة شمسُ تشعُ ببذخ على الجمع مهما كانوا منحطين حقراء، وأنّ البشر لا يجدونها في الأكواخ وأديرة التبت ومياه الجانج والحجور وإنما تأتي لمن يبتغيها ويريد بها بحق بشرط أن يستحقها. صار يرى أنّ الشر ينتصر كل مرة لأنّ البشر هم من يرغبون في ذلك. وتيقّن أنّ من فشل فهذا

لأنه قارن نفسه بالآخرين ولأن من نجحوا لم يحذروه من المآزق التي ستقابله. رأى أن الأثرياء مسئولون عن فقر الفقراء والأبرياء مسئولون عن الخطاة المعذبين الذين لم يفكروا في أن ينقوهم ويعلموهم الخير. آمن أن البشر يفتشون دوماً عن الأسرار التي هي بعد ذرات رمال الشاطئ وأن معرفتها لا تؤدي دوماً للحكمة بل ربما للضياع الأبدي، وذلك لأن الحكمة مختلفة عن المعرفة ولأن هناك أموراً يُفضل أن تبقى مكتومة إذ إنها خطيرة قد تقتل صاحبها في النهاية. وجد أن الخطر موجود في كل مكان (في المنعطفات والسهول والأخاديد) وأن الشر دوماً ينتصر بينما منذ قديم الأزل والضعفاء "مهيضو الجناح" يطمنون نصراً واحداً وبذلك استمرت الحياة خدعة وراء خدعة أنهم قد ينتصرون يوماً، ولولا هذا الأمل لقتل الجميع بعضهم بعضاً. تعلم أن للضرورة أحكاماً مثل - في كلمات توفيق- ضرورة الشرب من "أقداح ملوثة" قدرة إذا أراد الإنسان ألا يموت ظمأ، بل على المرء أحياناً أن يستحم بالماء "الأسن" ليبقى طاهراً.

كان معتزاً بالمعرفة التي وصل إليها يردد أنه لا يلجأ للمنطق لأن المنطق يتحصل على منطقته منه هو، وأنه لو أنهك من صعود قمة الجبل (أي معرفته للغيب)، فهذا لم يقتله بل أنه يرتعب من فكرة أن يهبط الجبل. كان يطلب من السعادة أن تبتعد عنه لأنه لم يتعذب كفاية لكي يستحقها؛ بل في موضع آخر تحدث أنه وصل للنور والنهار في "ليموريا" التي لم تكن القارة الوهمية في المحيط بل هي الكامنة في نفوس البشر والتي ظهرت له حينما صفت نفسه وفهم، وهكذا يدعو من حوله للعثور على سعادتهم في أنفسهم لا من خلال نظريات العلم السخيفة، وأجاب المرأة التي سألته عن السعادة أن السعادة لا تُمنح لنفوس لا تعرف قيمتها. وقد كان مدركاً أن الإنسان لن يصل لهذه السعادة لأن البشر- في قول توفيق- مثلاً ورثوا حكمة القرون، فقد ورثوا معها غباء القرون لأن الميراث لا يتجزأ. وكان يقول إنه كلما راوده اشتها الموت، يغمض عينيه ويطلع السجلات الأكاشية ويرى فالنوم بين هذه السجلات رفيق به رغم أنه تعذب من الرؤى والكوابيس المهولة التي شاهدها. بات يقول إن سفينته طافت خُلجاناً عدة يبحث بها عن السلام ولكن أي من هذه الخُلجان لا يرضى أن يرسو عنده. كما ذكر أن الوحدة باتت موطنه الوحيد ورفيقه بعدما افتقر للوطن، فيما يعد الناس هم الغربة الذين كلما تقرب منهم شعر أنه يرتكب الخطيئة في حق وحدته، لكنه يقول دائماً أنه اضطر لهذا التقرب منهم لكيلا يموت بالسر وحده⁽¹⁾، "تخليت عن هبة الصمت المبهج والهواء الذي لا رائحة له! أردت أن أمنح اللهب للعميان

المدرّثين في الظلام)"⁽¹⁾. خلاصة القول إنّ "حالة" اليوتوبيا لدى "محمود" والتي أعطته السعادة، كانت في خروجه من حيّز واقعه المؤلم والاطلاع على "السجلات الأكاشية" ومعرفة الغيب (ماضيًا وحاضرًا ومستقبليًا) سواء كانت هذه المعرفة سلبية أو إيجابية.

أمّا في رواية "في ممر الفئران"، فكانت اليوتوبيا هي "الحالة" اللاحقة مباشرة على دخول "الشرقاوي" للغيوبة والتي وضعها توفيق في فصلٍ عَنَوْنُهُ باسم (ذكريات النور)، التي لم تكن يوتوبيا سعيدة حقًا وإنما كانت "الحالة" الأفضل مقارنةً بما سيقابله الشرقاوي وأبطال أحلامه فيما بعد من ظلامٍ واستبدادٍ مُحَقِّق. في هذا الجزء، استعرض توفيق حياة أبطال أحلام الشرقاوي (رامي، فاتن، د. مصطفى، ماهر، نجوان) قبل سقوط النيزك، وللعلم فهذه الشخصيات ليس لها وجود في حياة الشرقاوي الواقعية بل تخيلها كلها في حلمه. وللعجب، فحياتهم تلك التي استعرضها توفيق قبل سقوط النيزك كانت شبيهة بحياة الشرقاوي قبل الغيوبة حيثُ النور والمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فأسرة رامي ضربتُ المثل في الأسرة المصرية التقليدية بأسوأ ظروفها بأبوين من عهد ستينيات القرن العشرين اللذين لم يفرحَا منذ النكسة وشاخَا قبل الأوان، وصفهما توفيق أنّ فقط انخفاض سعر اللحم هو ما يسعدهما وأنهما يتعسان لارتفاع سعر الطماطم. أخوه الصغير مراهق يطارد شهواته الصبيانية ويشاهد الأفلام الفاضحة ليلاً، وأخته الصغرى كذّابة حياتها مستقلة عمّن حولها؛ وأخته الكبرى مُعلمة "عانس" تعاني أعراض الحرمان من الزواج.

أمّا رامي نفسه، فكان شاباً لا يتميز بشيء ثقافته ومستوى أخلاقه وتدينه عادية بحيث لم يكن فاسداً، وكان طالبا في كلية "العلوم" قسم "الجيولوجيا" بحيثُ وصفه "توفيق" أنّه كان ينتظر أن يتم توزيعه على مدرسة ما وسط صفوف المتخرجين الذين لا يتذكّركم أحد. كان هو وزملاؤه لا يحبّون العلم وإنما ينظرون للكلية كساحة حرية بعيدة عن رقابة الأهل يلقي فيها أصدقاءه ويلقون النكات وبها بعض الشباب الثائر الذي يهوى النظريات الشيوعية. أمّا د. مصطفى، فهو أستاذ جامعي بارز حائز على أعلى الجوائز وإن كان غير متزوج جففته الحياة القاسية ويطمح للعاطفة في حياته لدرجة التحرش بطالبة لديه "فاتن" التي كانت بالغة الجمال والروعة. ولولا تدخلُ رامي في لحظة التحرش هذه بدخوله مدعيًا أنّه يسأل عن المحذوف في المنهج، لاكتشفهما عامل الكلية وابتزهما. ومن

(1) المرجع السابق نفسه، ص 273.

هنا، أصبحا - الأستاذ وطالبه - صديقين إذ لم يكن في نية رامي أن يبتزَّ أحدًا وفي الوقت ذاته لم يُلِّم أستاذه الذي بدا له أخيرًا بشريًا كاسرًا الجمود الذي اعتادوا أن يدرِّسَ لهم به.

كذلك استعرضَ توفيق خريطة الانتماءات السياسية للطلاب الجامعيين التقليديين في مصر، في تطرقه لشخصية "ماهر" الشيوعي الذي وصفه بأنه أحد الجيفارات الموجودة بين كل مجموعة طلابية بحيث قال عنه: "هناك دائمًا شعلة للثورة والتمرد في كل دفعة قد تتخذ شكل جيفارا اليساري شبه الماركسي أو شكل سيد قطب المتزمت المطالب بالحاكمية لله". وتحدّث عن المقاهي في الأزقة الضيقة ذات الأرصفة والأرض المهشمة والتي يلتقي فيها منادو الثورة؛ حيث المطرب الذي يضغُ (ببريه) على رأسه ويحملُ العود واضعًا الساق على الساق مدندنًا بينما يتابعه الشباب بالتصفيق. وصفَ توفيق أنَّ رامي منذ اللحظة الأولى التي دخل بها هذا المقهى مع صديقه ماهر وقد استشعر أنَّ الجو "مفتعل زائف" بحيث يحاولون بسناجة تقمُّص "حوش قدم" و"الشيخ إمام". فالأغاني ساذجة بشعرها الركيك وغنائها النشاز؛ فمثلاً تقول الأغنية التي كان يشدو بها المطرب: "وطني صحاني من جوّه- قال لي قوم دافع عن عرضي! قال لي الظالم خدني بقوة - وبيرضع خيري من نهدي" وهو ما علّق عليه توفيق في قوله: "لا بدُّ من نهد في الموضوع؛ كلام فارغ.. لكنهم كانوا في حالة من افتعال الثورة جعلتهم يندمجون" مع انتشار زجاجات البيرة ولفافات الحشيش ومصاحبة بعض الشباب المنفلت لشابات منفلتات لشققهم، وفي النهاية لا علاقة حقيقية بين الجميع: "وطبعًا عند أول مشكلة أمنية سيبلغ الكل عن الكل ويتبرأ الكل من الكل"⁽¹⁾.

في هذا العالم مازالَ شباب الطبقة الوسطى يعانون للزواج بحيث بعدما تخرَّج "رامي" في كليته، واجهَ أزمات ما بعد التخرج من حيث التجنيد والحصول على وظيفة مقبولة ليتمكن من أن يتزوج محبوبته، وكانت عوائق كثيرة لدرجة يقينه أنه سيفقدها إلى الأبد، فذكرَ توفيق أنَّ بينهما محيطا ينبغي أن يملأه الفتى بالجنهات والدولارات والذهب بحيث سيفترقان لا محالة ومستقبلها "عريس جاهز" سيأتيها من حيث لا يدرى ليحظى بها بمخالبه، فقال: "تمنى لو يتشجع ويخطفها ويفران معا ليتزوجا في دغل لا يعرف أحد مكانه أو تقاتل هي وتبتلع السم من أجله؛ لكنهما من الطبقة الوسطى: ملل وسيطرة كاملة على العواطف وافتقار تام للتهور والجموح؛ لا معجزات"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق نفسهم 38. 39.

(2) المرجع السابق نفسهم 48.

في هذا الجزء من الرواية، تعمّد توفيق على تقليل الحوار مع التعويل على "لغة العيون" للتدليل على أهمية "النور" و"النظر" في تطور العلاقات الإنسانية في هذا العالم وأنّ هذه الميزة جعلته عالماً يوتوبياً مقارنةً بالآتي، فمثلاً برّر د. مصطفى ارتكابه للتحرش أنّ فاتن "بدّت" له كالشيطان المغوي، ومثلاً في وصف موقف تدخل رامي: "كان ما رآه هو ظهر دكتور مصطفى مطوقاً فتاة بذراعيه.. لم تبدُ الفتاة راضية.. يَرى وجه الفتاة بوضوح: زميلته في الصف فاتن ذات الجمال المتعالي.. سمع حقيقاً في نهاية الممر، استدّار للخلف فرأى عامل القسم قادمًا.. بنظرة سريعة تفحص العامل الفتاة ورامي والدكتور.. ثمّة شيء مريب في عين د. مصطفى وفي وقفة الفتاة.. فتح رامي المذكرة كأنه كان يستشير أستاذه في شيء ما عندما جاء العامل؛ ومن جديد عاد العامل ليبعثر نظرات الشك ثمّ انصرف.. أدرك مصطفى من عيني الفتى أنه رأى كل شيء.. لعل أسوأ المواقف هو موقف رامي، في عينيه نظرة تقول (لم أرَ الكثير) ودكتور مصطفى راح ينظر إليه في ثبات كأنّه يقول (هَلُمَّ ابتسم في خبث سأعطيك فرصتك كاملة)، في اللحظة التالية نظرتُ فاتن للأرض⁽¹⁾. وكأكد على هذه الملاحظة فتوفيق نفسه عقّب في نهاية هذا المشهد: "بالطبع هذا حدث قبل الظلام عندما كانت هناك نظرات أعين"⁽²⁾. بل وفيما بعد، عندما كان رامي وفاتن يلتقيان في الكلية مصادفة، "كانت عيونهما تتلاقى فيشيخ بعينه محاولاً ألا تراها، لكنه في كل مرة كان يضبط ذلك التعبير المميز على وجهها (لقد رأى) مزيجاً فريداً من المقت والتوتر والخجل والغضب والاستشهاد والاحتقار والتوجس والتوسل"⁽³⁾ مما يذكره ببعض الأفلام الأمريكية التي كان "يشاهدها" إذ "يرى" "الشاهد" جريمة يدفع من أجلها الثمن، وأدرك "بنظراته" أنّها مرهقة والبرهان هي هالات "عينها" وشحوب بشرتها وميلها لاستعمال "العوينات السوداء" لإخفاء تورمات "جفونها". وعاد "النظر" ليؤدي لانفراجة العلاقة عندما رآها في المقهى الثوري بعينيه المكتئبتين بحيث عندما استدّارت والتقت "عيناهما"، جحظت عينها كأنّها - على حدّ وصف توفيق - "ترى" ضميرها "يراقبها"، ومن هنا أتاه رامي وطالبها بنسيان الحادثة وأنّ تتركه لشأنه⁽⁴⁾ موضعاً: "من العسير أن نمارس حريتنا وهناك من يحسب كل خطوة نقوم بها ألعوبة قدرة أو نوعاً من

(1) المرجع السابق نفسه، ص 29-34.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 35.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 36.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 36-38.

الوقاحة.. عندما أَرَى عَيْنِيكَ أَكْرَهَ نَفْسِي بِلَا سَبَبٍ وَاضِحٍ"⁽¹⁾، فأراحها ذلك وبدأ عهد علاقتهما الجديد.

أخيراً، جعلَ توفيق هذا العالم يَقْدُرُ الجمال بصورةٍ أو بأخرى، بحيثُ كَانَ رَامِي يَرَى "فاتن" شديدة الجمال ويفكر: "رباه لا يجب أن تكوني جميلة بهذا القدر! هذا يجعل المرء لا يشعر براحة! ثمة درجة مطلوبة من القبح فيمن نتعامل معهم لتستقيم الأمور؛ لكن هذا الوجه خُلِقَ لِيُرْسَمَ أو يُعْبَدَ"⁽²⁾. في هذا العالم للحبِّ مكانٌ يفتح "الجمال" له الباب ولا يمكن استشعاره إلا بالنظر. فلَمَّا أَعْلَنْتُ له حبها، صَارَ يَرَى الكلية مكاناً جيداً يحبُّ قضاء اليوم بأسره فيه ويغادرها منتشياً كمن لمس النجوم، خاصة وأنها "أجمل طالبات الصف" بحيث معروف أَنَّ الفتى الذي تحبه هي يعلو سعره، مما عَزَزَ ثقته في نفسه. وقد قرَّر د. مصطفى مسح حادثة التحرش من رأسه ليتمكن من معاودة النظر في عيون طلابه خاصة عيون رامي وفاتن، ولولا ذلك لعَجَزَ عن استكمال حياته. وفي هذا العالم حيث النور المتوافر، كَانَ الظلام رفاهية مثل رامي الذي كَانَ يبتسم عند انقطاع التيار الكهربائي إذ يشعر أَنَّ الظلام كَانَ ينعش أحلامه مع فاتن ويبتسم مع عودته لأنَّ النور يسعده. وأخيراً، كَانَ توفيق قد وصفَ الحب أصلاً بطريقة لا يمكن استشعارها سِوَى بالنظر: "الحب المقدس؛ الخدعة التي لا تموت أبداً والتي توضح كالزجاج الملون فوق عالم رمادي كثيب باهت فيتوهَّج بألوان قوس قُزَح"⁽³⁾. الخلاصة أَنَّ كَانَ عالم النور يوتوبيا نسبية أي لا يمكن اعتبارها مدينة فاضلة من دون مقارنتها بفضاعة الديستوبيا التالية الكامنة في (أيام الظلام) القادمة.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 39، 40.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 41.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 43، 44.

• يوتوبيا على هيئة مكانٍ جديد تمَّ تشييده (مدينة / دولة):

كانَ هذا واضحًا في كلِّ من روايتيَّ "يوتوبيا" و"شآبيب" بحيثُ حملتُ اليوتوبيا اسمي الروائيتين، فأما في الرواية الأولى، كانتُ مدينتها الفاضلة هي مدينة "اليوتوبيا" الواقعة على الساحل الشمالي المصري يتميزُ سكَّانُها بالثراء الفاحش والنفوذ العالية بحيثُ احتكرَ كلُّ منهم صناعةً كبرى كصناعة الأدوية أو الحديد أو اللحوم. أحيطُ ببواباتٍ عملاقة وسياجات مكهربة، تصونها دوريات حراسة من قوَّات المارينز، يسكنُ قاطنوها في قصورٍ منيفة ذات حداثٍ غناء، وبها مطار داخلي يمكنُهم من الفرار عند اندلاع ثورة الفقراء (الأغيار). شوارعها نظيفة تنتثر فيها التماثيل والبحيرات الجمالية، وتتمتعُ بالكثير من المراكز التجارية ودور عبادة لجميع الديانات السماوية والمدارس الدولية ذات الصلة الوثيقة بالمؤسسات التعليمية الأوروبية. يحلُّ قاطنوها مشكلاتهم في مجالس عرقية بحيث لا تتسع لحدود الشرطة أو الأغيار. ظاهريًا، كانتُ مدينة الأثرياء حيث راحة البال والسعادة المطلقة.

أما في رواية "شآبيب"، فلم يبخلُ توفيق في ترسيم ملامح الدولة الوليدة التي كانتُ تجسيدا لحلم المهاجرين العرب في يوتوبيا جديدة؛ وأفرَدَ فصلًا كاملاً لتسريحها جغرافيًا وتاريخيًا للتأكيد على أنَّها مكان حقيقي لا خيالي، فكانتُ الدولة تقعُ في جزيرة "ماروس أيلاند" التي كانتُ إحدى جزر "بابوا غينيا الجديدة" والتي كانتُ تخضعُ لهيمنة أستراليا منذ عام 1975 وتخلتُ الرواية أنها تحررت منها بعدَ 60 عامًا وبقيتُ ضمن نظام "الكومونولث"، وقد اشتهرتُ "بابوا غينيا" بالشكل الجغرافي الشبيه بريشة الطائر؛ تقع على خط الاستواء وبها مناطق جليدية مما دفعَ الجيولوجيين لأنَّ يخمّنوا أنَّها كانتُ جزءًا من القارة الأسترالية وانفصلتُ عنها منذ 130 مليون عام؛ عاصمتها "بورث مورسبي" التي سيطرت على جميع جزرها ما عدا "ماروس أيلاند" الواقعة بين "بريطانيا الجديدة" وجزيرة "بوجنفييل". وكانتُ "ماروس أيلاند" نموذجًا مصغرًا للبابوا غينيا الجديدة فيما يخص التنوع البيئي والعرقي والجغرافي. ففي بابوا غينيا الجديدة زهاء 820 لغة، 12 لغة منها انقرضتُ متكلموها، وهناك لغات لا يتجاوز متحدثوها الألف نسمة، واللغة الإنجليزية غير شائعة وإنما لغتا "الإنجا" و"اللبا" وفي عام 1938 اكتشفتُ طائرة هليكوبتر حلقت فوق الجزيرة مجموعة عرقية جديدة من 50 ألف شخص في وسطها، على الجزيرة بركان "جواتامي" الذي لم يثرُ منذ 300 عام، وأرضها وعرة لدرجة أنَّ وسائل المواصلات المتاحة كانتُ الأقدام أو الطائرة. وقد درس مكرم المكان قبل كتابة كتابه "العربي التائه" ليقوّن أنها الأصلح لدولته الجديدة خاصة أنها جزيرة لا يهتمُّ بها أحد، وتنال مباركة الولايات

المتحدة ولا تثير حفيظة أستراليا؛ مقدراً أنها ستكفي المليون عربي المشتت في أصقاع الأرض بينما لن تحتل العرب المقيمين في أوطانهم الأصلية لكثرة عددهم. سكان الجزيرة الأصليون بدائيون يعيشون على الصيد والقنص ومارسوا طقوس أكل لحوم البشر حتى توقفوا، ويستعملون "القواقع مذهبة الحواف" و"المقايسة" في معاملاتهم واشتهروا—على حد قول توفيق— بعبادة "أجدادهم" فيما لم يكن بينهم مسيحيون.

وقد سرد توفيق المشاعر المتضاربة لهؤلاء المهاجرين العرب في يومهم الأول على الجزيرة بعدما أنزلتهم سفن الأسطول الأمريكي السادس وسفن دول الكومونولث؛ حيث انتشرت القوارب البخارية تحمل الركاب للشاطئ، هنا شاعت الحماسة الجماعية والرجال يساعدون النساء والأطفال كما ارتفعت الدعوات والصلوات وسجد بعضهم وسط الأمواج ليصيروا أول الساجدين على الأرض الجديدة، وأمدهم الجنود الأمريكيان بزجاجات المياه ونوّهوا بضرورة تعاطي أقراص الملاريا التي سبق ووزعوها عليهم لتفادي الوباء؛ بينما وقف السكان الأصليون وراء الأشجار يتبادلون الآراء برهبة بين مهادن ومعاد. أدركت أمينة مثلاً جسامة التجربة عندئذ وإن عرفت—كما وصف توفيق— أن الاتفاق لم يتضمن عودة الفاشلين لأوطانهم بحيث لا مجال للفشل أو الندم، وأجابت سؤال ابنتها عما ستفعلانه لو ساءت الأحوال بأنهما ستتحملان تبعه قراراتهما بشجاعة. ملأ المهاجرون بطاقات قدموها لمكتب جوازات في الأدغال لاستلام خيمة وحشية؛ وغفّت أمينة محتضنة ابنتها تتساءل عن حال زوجها الوحيد في أوسلو "تشتهم" أن تركهما في التجربة وحدهما وراودتها كوابيس عن "داغفين العنصري" مما وشى بمخاوفها.

على الصعيد الآخر، تفرّج مكرم على الوجوه الخائفة والخيم المنصوبة والأكواخ البدائية وعلم أن أحلامه لمدينة متكاملة—بها متاجر وبورصة ومقعد في الأمم المتحدة وشبكة طرق وسكك حديدية ومدارس وجامعات ومستشفيات— ستحتاج وقتاً طويلاً لتحقيق ولكنه كان متحمساً بوضعهم للبذرة الأولى بحيث فكّر أن بإمكانه الموت براحة ليتابع غيره الحلم لتصير "شأبيب" حلماً لعرب العالم أجمعين بعد 100 عام وحينها ستكون الهجرة إليها معقدة ومشروطة لصغر مساحتها. وراح في الليلة الأولى تلك يردد آلاف المرات أنه سينجح وتجاهل صوته الداخلي الذي يجب كل مرة: "بل هو الفشل ولسوف تتوسل لإيرهارت ليجري ترتيبات عودة العرب لبلادهم البديلة؛ سيتذكر التاريخ كذّاب أضاع مستقبل آلاف"⁽¹⁾.

أما "محمد"، فكان مُحْبَطًا وغير مستريح في خيمته على الرمال وإن صمم ألا يهاجر مجدداً حتى لو عاد الجميع. زوجته الأسترالية بصحبته مستمتعة بمنظر النجوم دون أن تبدي أي ندم على شقاء التجربة أو حرارة ورطوبة الطقس. ولما أقنعت أنه يمارس معها الحب رغم أنهما في العراء بلا أمان، ووجد أنه استمتع، حصل على أمل أن تجربته في هذه الدولة لن تكون سيئة وقد فكر أن ذوبان زوجته بين ذراعيه أشبه بكونه يقهر الغرب بشكل ما: "إنها عقدة (موسم الهجرة للشمال) تتكرر معه بإلحاح.. لقد هزمت مصر فجعلته فاقدا لغريزة الحياة ثم أعادت أستراليا عصارة جسده"⁽¹⁾. أما ابنتا مكرم، فالكبرى افتقدت أسلوب حياتها السابق وترى مشروع الدولة جنوناً وأنها وأمها وأختها سافرن مجبوراً وراء أبيها لأنه يراهم سفينته التي هو ربانها ولا يجوز أن تتفكك، ولأن أمها تحبه وعجزت عن جعله يعدل عن أفكاره. وعلى الناحية الأخرى، تشوقت أختها الصغيرة للفكرة لعدم وجود مدارس ولرؤيتها أنها لعبة أو مغامرة كأفلام روبنسون كروسو.

أما بالنسبة للملامح "شأبيب" الليتوية، فمن الناحية السياسية، رغم أنه كان من الأجدى للمهاجرين لو بقي مكرم في الولايات المتحدة يباشرهم من هناك، فقد رأى أن من العدل أن يذهب ليشرك المهاجرين الأوائل التجربة على أن يبقى زميله "جونان إيرهارت" في الولايات المتحدة، لإيمانه بأن دور أعضاء الكونجرس والأثرياء العرب لا يحتاج وجودهم في الجزيرة. هكذا كان يبدو كالمستكشفين يحمل خريطة أينما حل وعيناه تتسعان بالسيطرة والنفوذ، وفعلًا تهيب منه الجميع وارتجفوا في حضرته، فوصفه توفيق: "هذه المغناطيسية التي راحت تنمو يوماً تلو الآخر جعلت الكل يصمد، لو كان أضعف أو أميل للاكتئاب، لانهار كل شيء"⁽²⁾، وسرعان ما نشأت الوزارات بصورة بدائية فاختر مكرم مهندساً زراعياً فلسطينياً وزيراً للزراعة بعدما عاين تربة الجزيرة البركانية وبشر أن خصوصيتها ستمكنهم من زراعتها وإطعام المستعمرة كما يمكنهم شق قناة للحصول على مياه النهر القريبة من المعسكر، ومازحه مكرم آنذاك أن كلمة "وزير" مضحكة نظراً للوضع البدائي الذي هم فيه. كما أنه اختار "سليم" نائباً له أو رئيس للوزراء عندما أعجب بحماسه في العمل وقدرته القيادية على إصدار الأوامر والتعليمات للآخرين، وعندما رأى حسن تصرفه لدى انهيار سقف أحد الأكواخ على بعض العاملين إذ أخرجهم وضمد جراحهم في الوقت الذي عجز مكرم عن التفكير. اختاره وهو مدرك أن لو كان هو -مكرم-

(1) المرجع السابق نفسه، ص 221.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 234، 237.

قد نالَ قدرته التأثيرية بسبب عمر تجاربه وهيبه شيخوخته وجلالة علمه، فسلیم قد وُلِدَ ليكونَ مؤثراً بقامته القويّة وصوته الرخيم وحسن تصرفه. ولَمَّا طلبَ مكرم من أمينة أنْ تقابل "وزير التعليم" -الذي كانَ مدير المدرسة- ليعينها كمُعَلِّمة، وجَدَتْ الحديث عن الوزارات مضحكاً فجاً بسبب بدائية الدولة التي رأتها قرية كبيرة مزدحمة وحسب، وشعرَتْ أنْ مكرم متفائلاً جداً أو أنه يخدع نفسه لرؤية الأمور كما يريدُها لا كما هي بالفعل، ولاحظ مكرم إحباطها ذاك وحدثها عن النمو التدريجي للدولة وعن وزارات العدل والدفاع والزراعة التي أنشأها. وجعلَ مهندساً سورياً "مطرب الدولة الجديدة" عندما سمعه ينشدُ بحماس إحدى قصائد "محمود درويش" عن العروبة، والتي تقول: "(سجّل أنا عربي، أنا اسم بلا لقب.. أبي من أسرة المحراث وجدي كان فلاحاً بلا حسب ونسب)"; لعلمه -على حدِّ وصف توفيق- أن كل ثورة ونظام سياسي جديد بحاجة للفن الذي يؤدي دوراً "دعائياً ديماجوجياً" جيداً⁽¹⁾.

من الناحية الدينية، أسسوا كوخين أحدهما ليكون مسجداً صغيراً يُرفع منه أذان المسلمين، والثاني ليكون كنيسة به قس أرثوذكسي وصورة العذراء والمسيح ومرشوش أمامه الماء المقدس؛ أملين أنْ تعمَّ روح التسامح بين الجميع. من الناحية الاقتصادية -الاجتماعية، كانَ الأثرياء العرب يبتاعونَ الإمدادات للجزيرة ويوصلونها إليهم عبر الأسطول السادس الأمريكي، وقد أنشأوا وحدة طبية مصغرة إمكانياتها محدودة ليجريها أحد الأطباء على أنْ يرسلوا الحالات القهرية للعالم المتحضر؛ كما عوّلوا على المهندسين العرب القادمين من ألمانيا من أجل الإنشاء. وتمَّ تعميم اللُغة العربية كلغة التفاهم نظراً لأصلهم العربي وكلفَ "مكرم" أمينة أنْ تتولى تدريسها مع التاريخ العربي والدين الإسلامي. وقد كانتَ المدرسة الوحيدة على الجزيرة عبارة عن كوخ خشبيّ غير مسقوف ليمرَّ الضوء إليها على أنْ يبنوا سقفها عندما تهطل الأمطار الاستوائية، ومديرها وزير التعليم ذاته، ولا تبحث عن مؤهلات بل كانَ يكفي المدير أنْ يكون الشخص قد درّس من قبل ولم يستهجن عندما أخبرته أمينة أنها لم تدرّس العربية قط وطمأنها أنْ التدريس مجرد نقل معلومة من رأس لأخرى بأي لغة، وبالفعل وجَدَتْ -أمينة- مُعَلِّمة أخرى للغة العربية جاءتْ من فرنسا ونطقها سيئ جداً، والطلاب لم يكن لهم سابق معرفة باللُغة قط وكانتْ مرتهم الأولى التي يسمعون فيها - حسب وصف توفيق - عن الفاعل ونائب الفاعل،

يسألون بلغاتٍ أجنبية كالصربية واليابانية فتجيبهم المعلمة باللغة العربية، وهو ما كان صعباً للغاية لشدة تعقيد اللُّغة.

وقد خضعَ تدريس التاريخ للأيديولوجية إذ قررتُ أمينة التعويل على كتاب "تاريخ لا يحكونه في المدارس" للتدليل على وجود الحضارة العربية على الجزيرة كما عزمتُ على أن تحكي للتلاميذ عن العرب الذين كانوا أكبر إمبراطورية في العالم وكادوا يفتحون "فرنسا" قبل أن يتفرقوا ويتصارعوا على مدى العصور حتى توقيع اتفاقية "سايكس بيكو 1917" بالتزامن مع تفكك الإمبراطورية العثمانية الفاسدة ليدخل العرب عصر الديكتاتوريات العسكرية التي حكمتُ بزعم دفاعهم عن فلسطين قبل أن ينهمك العرب في صراعات داخلية مع خصوم غير حقيقيين. قررتُ أن تحكي لهم عن اكتفاء العرب في العصر الحديث بشراء التكنولوجيا ببذخ لكونه أسهل من صنعها واختراعها، ودفعوا مبالغ لا يقدر عليها مخترع التكنولوجيا ذاته، ثم تفككوا أخيراً مع الغزو الاقتصادي والسياسي الغربي الذي استولى على ثرواتهم ليبدأ كل فردٍ بالبحث عن قوت يومه بمفرده، وبذلك بدأ عصر "الهجرة" بينما ظلَّ الكثير من العرب يعيشون في بلادهم الأصلية لولا أنهم يذوقون بشاعة المعاملة وفقر الحياة وصاروا كما وصفهم توفيق نموذجاً (لأكثرية الواهنة التي تسيطر عليها أقلية متقدمة تكنولوجياً)⁽¹⁾.

ومع الوقت شيّدوا بنايات حقيقية من الأسمنت والقرميد والحديد وظهرت الشوارع التي شبهها توفيق بشوارع أفلام "الغرب الأمريكي"، ووجدَ بقال وحلّاق ومستشفى، ازدهرت الزراعة بسبب التربة البركانية الخصبة ونهر "سبيك" - الذي هو أطول أنهار "بابوا غينيا" الممتد للجزر الأندونيسية منها - ونهر آخر لا اسمَ له أطلقوا عليه اسم "الرقراق" وزرعوا القلقاس والبطاطس قبل أن يدخلوا مزارعاً جديدة بعد حصولهم على أسمدة وبذور أخرى. وبعد وقت آخر، أنشأوا شبكة طرق تمر في الغابة بعدما أرسل الأثرياء العرب من الخارج أدوات شق الطرق والبلدوزرات؛ وبنوا مطاراً صغيراً وتم التبرع للدولة بثلاث طائرات صغيرة لأنها جزيرة تغطيها الجبال والغابات. أخذت الدولة في النمو والعرب في التدفق اليومي عليها لدرجة أن المدينة الصغيرة التي كانت نواة شأبيب لم تعد تتحمّل الأعداد الوافدة، مما دفع "مكرم" - وهو ملحم ديستوبي - لضرورة اللجوء للعنف ضد السكان الأصليين مؤكداً أنه "استعمار إحلالي"، وهنا اقتبس "توفيق" مقولة "بن

(1) المرجع السابق نفسه، ص 236-239.

جوريون" -أيام نشأة إسرائيل: "لا أعرف كيف يمكن عمل سلام مع العرب! الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان"⁽¹⁾.

وقد كان "مكرم" دائما على تواصل مع صديقه "جوناثن إيرهارت" يعطيه آخر الأنباء، فحدثه في إحدى الرسائل عن بعض مخاوفه قبل أن يبشره بالطرق المشيدة ومجاري النهر المشقوقة ونظام "البيسمارتانات" حيث الأشخاص الذين تلقوا تعليما طبيا سريعا يفحصون المرضى وأقنعوا السكان الأصليين أن عقاقير العرب القادمة من الخارج قادرة على تحقيق المعجزات كإزالة الحمى والتثام الجروح وتراجع الملاريا. حدثه عن المدراس البدائية التي يتعلم فيها العرب وبعض الأهالي الذين عرفوا العربية وصدق بعضهم وجود العرب في المنطقة. غير ذلك، فقد كان مكرم يعمل جاهدا لتنظيم زواج الفتيات والفتيان، لينشئ جيلا أولا للدولة الجديدة الذين سيدنيون بالولاء لها ويلقبونها بأرضهم هم ويجهلون العالم الغربي بكل ما فيه، وقد وصفه توفيق في هذا الأمر أنه سبق ودرس تجربة مهاجري أوروبا الذين أسسوا الولايات المتحدة وتجربة إسرائيل، ويذكر تجربة "جبل الصابرا" الإسرائيلية. لهذا، فقد فرح للغاية بحمل "جلاديس" -زوجة محمد- لمعرفة أن كل طفل يولد هناك سيكون مؤمنا بفكرته بحيث يصعب انتزاعهم من الأرض في المستقبل؛ وصنّف الزوجين من المواطنين المثاليين عندما أگنت عليه الزوجة أنه رغم صعوبة المشروع، فإنها مستبشرة أن ابنها سيجد حياته أفضل من حياتها، ليشعر مكرم أنها تذكرت كيف كانت أستراليا منفي للمساجين. وحتى بعد اغتيال "مكرم" وتولي "سليم" الحكم، لم تتوقف عجلة الإنتاج وشيدوا "مسجد الفيروز" في الموضع الذي ظنوا أن المسجد القديم في قصة "الحارث" قد تأسس فيه؛ واستخرجوا جواز سفر لدولة "شأبيب" طبعوه في أستراليا ونظر سليم مع أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولي للحصول على الاعتراف الدولي، كما بحث مع خبير جيولوجي لوضع خريطة للتنقيب عن الألومنيوم والحديد لتصديره على أن يكون المقابل أدوية وأقمشة، كما تحسنت العملية التعليمية بفضل "أمنية" والمعلمات الأخريات، وولد الجيل الأول للعرب في بابوا غينيا الجديدة وأخيرا ازدهرت الزراعة وصدروا منتجاتها⁽²⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 242-246.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 275-277، 279، 303، 304.

الفصل الثالث

التوازي بين اليوتوبيا والديستوبيا في الروايات



يختص هذا الفصل بتقصي الآليات التي من خلالها توارثت اليوتوبيا التي أرادها وتمناها أبطال الروايات مع عالم فاسد كربه يعج بالمساوي والآلام والتعاسة الحقيقية سواء لهؤلاء الأبطال أو لكل من يحيط بهم من أناس، والحق أن تنوع هذا التوازي بين توازن قامت بها قوى بشرية فحسب، وتوازن تدخلت فيها قوى خارقة للطبيعة تماشيًا مع دواعي تصنيف الروايات أنها للخيال العلمي، وفيما يلي توضيح لهذا الأمر:

توازن نابع من عوامل بشرية خالصة:

وقد تجلّى هذا العنصر خير تجلٍّ في روايتي "يوتوبيا" و"شأبيب"، ففي رواية "يوتوبيا"، فبينما كانت هناك مدينة "اليوتوبيا" التي يسكنها الأثرياء يعيشون فيها حياة الترف والبذخ، كان المجتمع المصري خارجها يعيش فقرًا مدقعًا. بمعنى آخر، لقد توارثت هذه اليوتوبيا مع ديستوبيا فعلية يحياها المجتمع ككل بحالة الاستقطاب الشديدة التي حدثت بين الفقراء والأغنياء، وقد وقع الأمر "تدرجيًا" لا فجائيًا شبهه "جابر" ك لحظة الغروب التي لا يمكن الإمساك بها بحيث يفصل المرء متى غابت الشمس بالضبط ومتى نزل الليل حتمًا؛ إذ كانت أوضاع العاصمة والمحافظات في سوء مستمر بينما الشعب يخنع ويرضى طالما قادرين على العيش، وذلك حتى استيقظوا يوما ليدركوا استحالة الحياة وأن الغلاء والظلم أعجزهم عن الظفر بقوت يومهم. وقد حدث جابر كلاً من "علاء" و"جيرمينال" عن آليات هذا التوازي التدريجي بوضوح.

أولاً: خلال العشر سنوات الأولى من القرن العشرين - لكون الرواية تدور عام 2023 - وقعت أزمات اقتصادية عديدة أهمها ضعف قطاع السياحة في مصر، وافتتاح إسرائيل لقناة بحرية لتكون بديلاً عن قناة السويس ففقدوا عائدات شركة قناة السويس، وتخلّى العالم عن بترول الخليج بعد اكتشاف "البايرول" ما أدى لطرد العمالة المصرية الوافدة في هذه الدول.

ثانياً: بدلاً من أن تتخذ الحكومة إجراءات متوازنة لحل هذه الأزمات بما ينفع الأغنياء والفقراء بالتساوي، أعفت نفسها من مسئولياتها تجاه الفقراء بحيث خصصت جميع الشركات وتوقفت -بعد وقت- عن تقديم الرواتب والخدمات لهؤلاء الفقراء وأعفتهم عن الضرائب -مما خدّر الفقراء عن حجم الكارثة في البداية- وتجاهلتهم الشرطة تماماً. وعلى الناحية الأخرى، زوّد الأثرياء نفوذهم بصنع حسابات مصرفية في الدول الأوروبية والحصول على قروض واحتكار جميع الصناعات، وهو ما وصفه "جابر" أنه بهذه الإجراءات تماسكت طبقة الأغنياء بينما هوى الفقراء للحضيض.

ثالثًا: نتيجة لهذه الأزمات والتعامل الحكومي غير العادل، تلاشت الطبقة الوسطى التي كانَ توفيق يشبهها في الرواية على لسانِ جابر أنَّها قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية التي تبطئ التفاعل لتحمي المفاعل من الانفجار، والتي دونها يصبح المجتمع قابلاً للانفجار في أي لحظة، هُنا استحَالَ المجتمع المصري لقطبين ومجتمعين متناقضين، وبعدَ وقتٍ قصيرٍ جزعَ الأثرياء من الحياة جوار الفقراء وعزلوا أنفسهم في مستعمراتٍ على الساحل الشمالي لنيل الحماية والأمان، ليقارنهم "توفيق" على لسانِ "جابر" أنَّهم كحُكَّام العصور الوسطى الذين أقاموا حفلاتهم الماجنة في قصورهم في الوقت الذي كانَ الطاعون يفتك بالفقراء خارجًا، لقد استعانوا برجال الماريينز لحمايتهم ثقةً في ولائهم وعدم ثقةً في رجال الأمن المصريين الفقراء، وأزقتهم دائماً فكرة "ثورة الأغيار" لعلمهم أنَّ الثورات تبدأ بذبح الأغنياء المترفين. تلخصتُ أهمية "عالم الأغيار" بأنَّه "سوق استهلاكية" حتَّى لو كانتُ سوقاً فقيرةً إذ يعلوُّون على عدد السكان الكبير الذي يغطِّي التكاليف. ومن ثمَّ، وعلى حدِّ قول "جابر"، تكوَّن مجتمعانِ أحدهما يملك كل شيء والآخر محروم من كل شيء.

وقد كانَ جابر يؤمنُ أنَّ من يشمُّ رائحة دخانٍ ولا يحذر رفاقه فهو قد ساهمَ في الحريق، فقد كانَ يستغرب أنَّ صحف العشر سنوات الأولى من القرن العشرين -باعتبار أنَّ أحداث الرواية تقع عام 2023- هذه كانتُ تعجُّ بالدخان الذي كانَ ينبغي للجميع أنْ يلتفتوا إليه وأنْ يحذروا بعضهم بعضاً بينما لم يحدث ذلك، وشعرَ أنَّ هذا التجاهل كانَ بسبب تواطؤ الكلِّ على الفقراء. ومن جانبه، فقد تذكَّر في أكثر من موضع بالرواية أنه ذاته كانَ ينذر جيرانه وأهله وأصحابه خلال هذه الأحداث حولَ ضرورة التحرك ضدَّ الأثرياء الذين يحتكرون الصناعات جميعها وطالتُ أياديهم أذرع الاقتصاد حتَّى لا يسودوا، لكن هؤلاء المحيطون صمُّوا آذانهم عن تحذيراته، فكانَ يتذكر أنَّه: "كنتُ أقول لهم: (ها أنتم أولاء يا كلاب قد انحدرَ بكم الحال حتَّى صرتم تأكلون الكلاب! لقد أنذرتكم ألف مرة، حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أوريل و"ه.ج. ويلز" لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشائش والخمر الرخيصة وتنامون.. الآن أنا أثارُجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن تعرفون.. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم.. أنني ألعنكم يا بلهاء) لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق.. إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية، ولا

يشعرون بما وصلوا إليه"⁽¹⁾، هكذا للأسف لم يحدث أي تحرك، وبذلك وقع الاستقطاب الشديد ونشأت مدينة اليوتوبيا تواجهها دنيا الأغيار.

أما في رواية "شآبيب"، أفرَدَ "توفيق" فصلاً كاملاً لأهمّ الحوارات التي دارَتْ على متن السفينة المتجهة للدولة الوليدة بين المهاجرين، على هيئة مسرحية مكوّنة من فصل واحد أسماها "الرّواد"، مركزاً على الاختلافات الفكرية الجذرية بينهم الصعب التوفيق بينها.

فأولاً: ناقشَ "الفجوة بين البالغين والشباب" بطريقة مبتكرة بحيثُ وضح خلاف المغامرات التي يتحمسُ لها الشباب ويخافها البالغون، تفاءلتُ أمينة وتوجّستُ ابنتها، حنّت الأم لصوت النوارس الدالة على قرب الوصول متحدثة عن مميزات التقدم في العمر وهي "تعلُّم الحلم" محتذية بالمهاجرين لأمريكا الذين امتلأوا بالأحلام التي ضاقتُ بها أوروبا آنذاك ونفّت احتمالية العودة لتونس إذ لا تذكرها. على الجانب الآخر، لم تلتقط ابنتها صوت النوارس وملّت من طول الرحلة تردد أنهم داروا حول العالم ليجدوا ذواتهم وهويّاتهم فيما هي تشعر أنهم لن يجدوا شيئاً في النهاية، واستغربت حديث أمها عن أنّ الكبار أقدر من المراهقين على الحلم؛ وكانتُ مقتنعة بحكمة أبيها في بقاءه في أوصلو حيث الأصدقاء والمدرسة والغد. بل لقد أبدتُ ندمها على مصاحبة أمها إلى (اللا مكان) - يمكن ملاحظة أنه المعنى العربي للفظ اليوتوبيا - مفضلة الذهاب لتونس على السفر لمكانٍ مجهول.

وثانياً: تطرق إلى "الخلاف على الدولة الدينية"، وذلك عندما قابلتُ أمينة رجلاً ملتحمياً اعتاد العيش في إنجلترا شاهداً على مجون الأجانب وكفرهم بصمتٍ إذ كان من ناحية عاجزاً عن العودة لبلاده التي كانتُ بدورها ماجنة؛ ومن ناحية كان يقبلُ فحش غير المسلمين على فحش المسلمين. حدّثها هذا الرجل عن آماله في إحياء دولة الخلافة داعياً إياها بالكلمة الحسنة لتنضم إليه؛ ومحاجبا إياها أنّ الأفكار الصحيحة -على غرار فكرة دولة الخلافة الإسلامية- لا تموت حتى لو انهزمت أحياناً وأنّ الأمر مصير أمة وليس لعبة تتغير قوانينها مع الوقت؛ ومخبراً إياها أن مقاومتها تعني أنه أخطأ في توجيه الدعوة لها مراهناً أنّ الزمن سيبرهن لها على صحة كلامه. وعلى الجانب الآخر، هي لم تقتنع باضطراره للإقامة في بلد لا تعجبه أخلاقها إذ كان بإمكانه السفر لأي بلد آخر وأبدت نفورها من فكرة "دولة الخلافة" إذ ترى أنه لا يجوز الحديث عن هذه الفكرة بينما يُسحق العرب في العالم ويعتمدون بالكامل على الغرب في هجرتهم هذه أصلاً. ترى الفكرة مجرد حلم يصحو في

الأمة العربية بين الآن والآخر مسيلاً دماءً قبل أن يفشل ثم يعاد بعثه بعد أعوام مع أحد يقول إن خسارتهم للحرب فيما مضى كان لقلعة إيمانهم، آمنت أن قوانين اللعبة تغيرت والفكرة أثبتت فشلها- على حد قول توفيق- كالسلعة التي يساء استعمالها على مر التاريخ مما يعني أن العيب والخطأ في السلعة -أو الفكرة ذاتها- لا في الناس.

ثالثاً: تحدّث "عن الجواسيس لصالح الحكومات"، وذلك عندماتسمّع رجل -رأفت- على حوار أمينة مع الإسلامي -عبد المنعم- قبل أن يطلب من الأخير أن يكرر قوله عن الخلافة الإسلامية سائلاً إياه إن كان هو وأعوانه يملكون خطة وعمّن يقود مجموعته طالباً أن يعرفه عليه حين الوصول لشايب. على الناحية الأخرى، فقد أجابه الإسلامي بصفاء نية أن الوقت باكراً على الحديث عن خطوات إنشاء الخلافة وأنه ومجموعته كانوا يعملون فحسب في بلاد المهجر على تربية الأطفال على الفكرة؛ وأبلغه عن أنه من بريستول حيث جالية كبيرة من أمثاله ستفد معه لشايب وأنه ليس داعياً إذ إنه ليس مؤهلاً - بعد - للأمر بل أمر بالمعروف وناه عن المنكر ومنتم بعمق للإسلام. عرّفه عن قائد مجموعته وهو "الشيخ سراج" داعياً له بالبركة. رجل -رأفت- راضياً ليقترّب من الإسلامي رجل آخر - ماهر - محذراً إياه من الإكثار في الحديث أمام رأفت إذ أنه وجميع الركاب يعرفون أنه - أي رأفت - مخبر ويستجوب الجميع. ورغم قول الإسلامي إنه لا أمن دولة أو وزارة داخلية موجودة في الجزيرة النائية الزاهبون إليها، أجابه ماهر: "العادات السيئة تموت بصعوبة؛ فهناك أناس خلّقوا مخبرين وهو لن يكف عن هذه العادة! يوماً ما ستكون هناك سلطة وسيبيع لها هذه المعلومات"⁽¹⁾.

ورابعاً: خاض في أمر "الصراع الأزلي بين العلمانيين والإسلاميين"، وهذا عندما ظنّ الإسلامي أن "ماهر" يحذره لكونهما من المعسكر ذاته؛ ليفاجئه الآخر أنهما عدوان لدودان، فماهر علماني يرى الإسلاميين سبب تخلف الأمة إذ إن أوروبا لم تتقدم إلا بنسب سلطة الكنيسة، ويؤمن أن تدين أغلب العرب ليس حقيقياً بل يعيق التفكير الحر ويسلم مقاليد العقل لمن يجيد القلقلة والبلاغة وأن الإسلاميين حملوا البادية للغرب ومهما مكثوا في هذه الدول المتقدمة، فلن يتحرروا، اقترح على الإسلامي البقاء في بلاده حيث النظام والمعاملة التي يستحقها تفكيره، مردداً أنه لا معنى لأن يذهب "للنور" -أي شايب الدولة الوليدة- ليبث فيها ظلامه إذ إن جوهر تفكير "المتأسلمين" -كما سمّاهم- هو قطع الرقاب. لم يكن يريد إلا دولة يكون التدين فيها حرية شخصية وعلاقة خاصة بين العبد وربّه.

على الصعيد الآخر، رأى الإسلامي أَنَّ الأمة تَخَلَّفَتْ يوم تَخَلَّتْ عن دينها وأنَّ الغرب قهروا العلمانيين بفرض الثقافة الغربية عليهم في حين أن الإسلاميين تمسكوا بمُثُلهم؛ وأنَّ ماهر سيندم يوماً على نعته بأنَّه ينشر الظلام؛ وأنَّه لو كَانَ جوهر تفكير الإسلاميين هو قطع الرقاب فالعلمانيون الماديون جوهر تفكيرهم هو التحلل التام؛ وأنَّ واجبهم - كمسلمين- هو القضاء على الملاحدة. انتهى حوارهما باتفاقهما على الابتعاد عن بعضهما بعضاً عند الوصول لشأبيب إذ إنه لا جدوى من محاولة أيهما إقناع الآخر وأي لقاء سيُحْدِثُ شرّاً يشعل الجزيرة. ويمكن القول إنَّ هذا الأمر يدلُّ على جمود الطرفين وبالأخص الإسلاميين وكأنَّ توفيق مدرّكاً لحالة مصر التي انقضت فيها حُكم الإخوان.

خامساً: انتهى الفصل بالمرور على مسألة مهمة وهو "الوسائل السلمية في مواجهة العنف"، فبعدما أسيء معاملته سليم وقُتِلَتْ عائلته، ماتت الرحمة في قلبه وآمنَ بوحشية البشر ورفض تسامح "أمنية" وامتنانها للغرب ورؤيتها لهم أنَّهم كانوا كرماء، ورغم أنَّها قَصَدَتْ أوروبا وليس ليبيريا الفقيرة والمتخلفة والمتعصبة كالعرب، بَقِيَ الآخر غاضباً دون أن يفسر لها غضبه إذ تشعل القصة روحه مقررًا أنه لن يغفر لذاته يوماً لخدلانه أحياءه، أخبرها أنه ورث غضباً مجنوناً سيحرق به الآخرين كيلا يحرقه، وأن البشر لو وُلِدوا بخلايا رحيمة، فقد زالتْ خلاياه، وفي الوقت الذي توقَّع الكثير من العناء والعرق والدم في نشأة دولة شأبيب؛ توقَّعتْ ابتداء فصل جديد لحياتهم تائقة لرؤية حالهم بعد عام.

ويمكن القول إنَّ "السكان الأصليين لجزيرة بابوا غينيا الجديدة" هم الألية السادسة التي أدَّتْ إلى توازي اليوتوبيا المنشودة مع الديستوبيا، كان "مكرم" يفكر فيهم منذ البداية بطريقة دلَّلتْ على تأثر "توفيق" بما يجري في فلسطين، "العروس جميلة؛ لكن لها زوجاً.. العبارة نفسها التي قالها اليهود الذين ذهبوا لفلسطين أول مرة بعد وعد بلفور اللعين.. كانوا يعتقدون أنه لا يوجد ناس هُناك، لكنهم وجدوا الفلسطينيين، أرسلوا هذه الرسالة إلى مُجْمَعهم في أوروبا، فكانتْ الإجابة هي أن يقتلوا الفلسطينيين! فهل سيكون عليهم قتل سكان بابوا غينيا الجديدة؟"⁽¹⁾، وقد بدأ تفاعل السكان الأصليين معهم بفضولهم ناحيتهم، فأرسلوا بعض أبنائهم للمدرسة العربية، ولقد استقبلتهم "أمنية" هناك تنفيذاً لأمر المدير إذ كان يعلم رغبة "مكرم" في اجتذابهم بنقل ثقافتهم وتاريخهم إليهم وكذلك معالجتهم، قال لها المدير آنذاك إنَّ هذا ما يفعله المستعمرون جميعهم حتى يشعر كلُّ منهم أنه عربي،

وأنّ هذه هي القوّة الناعمة. ولكن ظلّ "مكرم" خائفاً منهم، وهو ما وصفه توفيق بقوله " كان مكرم يمرُّ بعقدة الاستيطان: الخوف وفقدان الحماية، كانَ يدرك يقيناً من دراساته التاريخية أنّ أي استعمار غير إحلالي يبوء بالفشل، لأنه سرعان ما يتزايد عدد السكان الأصليين فيصير المحتل في خطر حقيقي.. القنبلة الديمغرافية.. هو ومن معه من أساتذة يعرفون جيّداً أنه احتلال، فقط المواطن الساذج العادي يعتقد أنه يحاول استرداد ما كان حقاً له يوماً ما"⁽¹⁾.

كانَ دوما يشعر أنّ لحظة الصدام ستأتي بمجرد أنّ ينتهي فضول السكان الأصليين، وكانَ مدرّكاً أنّ الصدام سيكون مدوياً لأنّ الأرض ستحارب مع (أصحابها الأصليين). وهكذا، فلمّا ذكره أحد معاونيه أنهم أتوا الجزيرة لتحقيق حلمهم في البوتوبيا لا من أجل القتال، أجابه "مكرم" -مخفياً أمر الاحتلال- أنّ السكان الأصليين لا يفهمون هذه النوايا الطيبة. كما أنّه وتوجه في تفكيره لضرورة التسليح الهجومي للمهاجرين وراسل "جوناثن إيرهارت" لإحضار أسلحة متقدمة وتدريب المهاجرين على القتال مردداً أنّه بذلك سيعلّم السكان الأصليين أنّ ثمن دفاعهم عن أرضهم سيكون غالياً جدّاً، وتجلّت شراسته بسبب هذه المشكلة على وجه التحديد، بحيث أجابَ "العربي" -الذي أخبره أنّ الأرض غير خالية وبها فلاحون ورعاة وقبائل- بأنّ الحلوى بحاجة للنار وأنّ الولايات المتحدة نشأت بسبب حروب "الآباشي" و"الشيبيين" والاستعانة "بالبطاطين الملوثة بالجُدري"، وأنّه رغم هذا الثمن الإنساني الباهظ الذي دفعوه فقد أنشأوا الولايات المتحدة القويّة، بل ذكرَ أنّه لولا انقراض "الجُدري" عام 1974، ما توانى - هو ذاته - عن توزيع بطاطين ملوثة به، وهو الكلام الذي سبّب رجفة الرجل أمامه وكل من شاهدوه، ووصفه توفيق أنّهم رأوا فيه الدم والصراخ والألم وأنّ أقسى الرجال هم من تسيطر عليهم فكرة ما إذ حينها سيودّع الرحمة والشفقة والضعف الإنساني كله⁽²⁾. والجدير بالذكر أنّ كل هذه العوامل ستتضخّم مع الوقت لتصير سمة من سمات الديستوبيا وهو ما تم توضيحه بالتفصيل في الجزء الثالث من الكتاب.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 242.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 243-245.

توازن نابع من قوى خارقة للطبيعة (أو طبيعية) خالطتها عوامل بشرية:

تجسّد هذا العنصر في كلّ من روايتيّ "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران". ففي الرواية الأولى، فعلى الرغم من أنّ مطالعة السجلات الأكاشية ومعرفة الغيب صنعت "حالة" يوتوبية لمحمود كما ذكر الفصل السابق، فهذا لم يكن ينفي قط حقيقة أنّ هذه المعرفة كانت تنهكه في البداية، وأنها - حتّى بعدما استساع إنهابها - حولت حياته إلى مجموعة مطاردات لا نهائية وعدمت أمانه تمامًا. بدأ هذا الأمر عندما طالع السجلات للمرة الأولى، إذ هاله كمّ الفضاء التي شاهدها تحدث في المستقبل، فبات يفرز الخيوط العنكبوتية دائمًا، ولم يعد يأكل أو يشرب أو يغفو أو يعمل أو يعبا بزوجه بل صار يمكث في غرفته طويلاً يحرق في الحائط بعينين جاحظتين يردّد أرقاماً أو عبارة "انفجروا أو موتوا"⁽¹⁾، أو يكذب، وقد نحف وضعت بنيته لدرجة إضافة ثقبين في حزامه ليطوّق خصره ويلبس أضيق قمصانه وتتسع الياقة حول عنقه النحيف الهزيل، كما أنه ألقي مسؤولية بيته على زوجته دون أن يعبا بأنها كانت تقترض الطعام والمال من نوبها حتّى امتنعت عندما وجدته لا يأكل واكتفت بشطائر الفول لنفسها، كما بات يقتني الصحف القديمة بهوس يقطع أخباراً من صفحات وفياتها بالأخص سبق وشاهدها تحدث في السجلات الأكاشية ليتيقن من أنّ هذه السجلات الحقيقية. في البداية ظنّته زوجته صار مجنوناً ومريضاً بعدوى فطرية وحسبته يحصل على هذه الصحف القديمة استرضاء لوسواس قهري يجعله يستحب قراءة صفحات النعي ليشعر أنه فاز على الموت. وذلك حتّى طالعت مفكرته يوماً - بعدما أقنعت بالخروج لنزهة واستسلم لها - وقرأت أسماء ناس لا يمتون بصلة له وقد شطب على بعضها بالقلم الأحمر، ووجدت في كراس رسم آخر القصاصات المقتطعة من الجرائد، لتجد أنّ هذه الأسماء المشطوبة كانت لموتى توفوا بحوادث أليمة أو بمرض مزمن. حسبته معتلاً نفسياً يحب جمع أسماء الموتى إذ لم تستطع أن تستوعب أنه يمكن أن يكون قد تنبأ بموتهم وكتب أسماءهم قبل مطالعة الجرائد. وذلك حتّى فجّعها عندما عاد في هذا اليوم - وقد سبق وأعدت أغراضه لمكانها- وبدأها بكلمات غير مفهومة البتة⁽²⁾ قبل أن يأمرها همسا ألا

(1) هي عبارة مقتبسة من مسرحية "مأساة الحلاج" لصالح عبد الصبور.

(2) أخبرها ألا تصغ لنداء الأبالسة، وأنّ الخطر موجود في كلّ مكان (المنعطفات والسهول والأخاديد والأخوار المنسية)، وأنّ شرّ الأكوام كل يوم ينتصر بينما لا يظنّ الناس أحياء إلا لأملهم الواهي بالانتصار يوماً، وأنّ الضعفاء منذ بداية الخليقة يشتهون نصراً واحداً وبذلك استمرّت الحياة التي ليست سوى خدعة وراء الخدعة ولولا هذا الأمل، لما توانى الجميع عن قتل بعضهم بعضاً. كما أخبرها في عبارة أخرى غاية في الأهمية: "((هناك في كوخ قفر عند أطراف برية منسية، يغفو مفتاح اللغز، بينما ترصده الضياع وجيوش المغول وجواسيس الوالي، لو تجاسر على الخروج من الكوخ. لمؤقّه ألف ناب وألف سوط وألف سيف))" وهي التي جسّدت مصيره السوداوي بأنّه سيتحول لنبوءة متحركة تطارده جهات سيادية مصرية وعالمية اشتهاه لمعرفة ما بحوزته ويسهل عليهم قتله في أية لحظة (المصدر: أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 67، 68).

تعبث في أوراقه لأنها لن تفهم مكوناتها أبدًا وأنكرَ عليها حق إنكارِ فعلتها، فاضطرت للإذعانِ كما أمرها وقد تيقنت أنه يعلم بما فعلت دون أن تفقه كيف فعلها.

وبعنها حاول الانتحار أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يفعلها وهو يُبديها أنها ميتة عادية مثل النوبة القلبية أو السقوط من سطح داره، واستنتج طبيبه النفسي أسبابه في إخفاء محاولات الانتحار -المستمدّة من الواقع المصري الاجتماعي- أنه لم يرغب في أن يلعبه الآخرون ويتهموه بالكفر، ولكيلا يفصح زوجته وأسرته. وكان في كل مرة يُنقذ بسهولة، وهو ما جعل الزوجة تختلف مع طبيبه النفسي حول مدى جدية هذه المحاولات، ظنتها غير جادة لأنها تؤمن أن باب الموت مفتوح لمن يشتهيهِ حقًا وأنها تعتقدُ في وجود خيط رفيع يربط محمود بالعالم، بينما يرى الطبيب أنها مساع حقيقية عندما تُقارنُ بمحاولات الصبيان غير الناضجين، إذ لم يحاول محمود إبرازها كمحاولة انتحار، كما رأى الطبيب أنه يحاول الانتحار في أماكن منعزلة لكيلا تُهان زوجته بسمعة زوجها المنتحر. وكانت هي بالفعل تخشى انتحاره إذ - في كلمات توفيق على لسانها - " (لا توجد فرص كثيرة أمام زوجة انتحر زوجها بعد أشهر من الزواج، هي في نظر المجتمع قاتلة لم يُقبض عليها، أو مجنونة لم يُشخص الأطباء حالتها، أو عاهرة لا يعرف سرها سوى زوجها، أو نحس تمشي على قدمين وقد تعلّم زوجها هذا بالطريقة الصعبة) " (1).

ثم نزلت عليه حالة "الوسواس القهري" إذ منع زوجته عن الخروج سواء لعملها أو لأمها أو للسوق أو لجاراتها وأمرها بإيصاد الأبواب وألا تعود إذا خرجت يومًا لأنّ -على قوله- الحياة خطيرة والبشر سيلوثونها بوباء لا ينبغي أن تنقله له، مرددًا أن "الطريق مظلمة موحلة، والغابة مفزعة تترصدُ فيها الذئاب تتشمم بحثًا عن رائحة الدم، فمن لم تظفر به الذئاب وجدته الأشباح وامتنعت دمه لتتركه مفرغًا بلا قطرة دم في العروق، الطرق تغص بمن فقدوا السبيل فاستحالوا غيلان، في الخارج يتربص مولوخ وبعل ينتظران الضحايا البشرية، في الشارع ألف عاهرة أتى بهنّ للعالم ألف مغتصب صنعهم ألف متحرش بالأطفال" (2). هنا، فقد استسلم لزوجته التي صحبتها للمصحة النفسية التي يعمل بها الطبيب النفسي راوي الحكاية، والذي وصف محمود في البداية أنه رجلٌ مذعور مشتمرٌ من كل ما يحيطه وقائط وضائع كطفل تاه عن أبويه في مولد، ناحلٌ عنقه كعنق سلحفاة ضعيفة؛ شائب الشعر ومجدع الوجه رغم صغر سنه، واستغربَ خيوط العنكبوت التي استلذَّ محمود بتمزيقها خلال حديثه مع أي أحد.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 69.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 34.

وبسبب صمتِ محمود الزائد وشرويه ونظرته الحادة المخيفة وجلوسه في الظلام لساعات، شعر العاملون بالمصحة أنه مجنون أو ممسوس أو يمتلك قوّة خارقة أو يعرف أكثر مما ينبغي، بينما رآه الطبيب مجرد مريض اكتئاب خاصةً عندما قيّمته التقارير بكونه مسالماً هادئاً وجعله يقيمُ في حجرة لطيفة بلا أي أدوات تصلح للانتحار، كما لم يعد محمود يثق في أحد ولم يعقب عندما أتاه الطبيب يعرض مساعدته، وأجاب سؤاله عن دواعي انتحاره، بأبيات من قصيدة "صلاح عبد الصبور" تقول إنّ هناك رعباً أكبر سوف يحلُّ ولن ينجو منه أحد سواء اعتصموا الجبال العالية أو لجأوا للغابات. وراح يكرر عبارة "انفجروا أو موتوا" مراراً لدرجة أنّ ظنّه الطبيب مريضاً بالبارانويا التي تجعله يحسب ذاته المهدي المنتظر أو "برادشاي". بعد ذلك، بدأ محمود في ترديد الحديث المشفر على هيئة أرقام متتالية مثل (6-160-19-7) مع "حكمة ما" ويتركه بلا فهم، ليظنه الطبيب مريضاً بـ "السكيزوفرينيا" التي يبتكر مريضها لغته الخاصة بقواعد مختلفة، لكنه سرعان ما رجّح أنه اكتئاب الفلاسفة والشعراء الذي يزهدهم في الحياة.

داوّم محمود على قصّ أخبار بيده من صفحات الوفيات من الجرائد البائتة، والتي اكتشفَ الطبيب -كالزوجة- أنّها نعي لأشخاص من ديانات مختلفة وأنّ الأخبار كانت لكوارث طبيعية أو بشرية. حسبها أخباراً عادية وذلك حتى طالع أوراق محمود القديمة ليجد أنّه كان قد كتب عن فيضان وعن موت بعض الأشخاص قبل حدوثه. مع ذلك، ظلّ رافضاً لفكرة أن محمود قادر على التنبؤ وحسبه يتلاعب بهم أو أنّ هناك خطأ في الترتيب. وذلك حتّى استطاع أن يحلّ - بمعاونة زوجة محمود- إحدى شفرات الأرقام التي يتلوها محمود غيبياً. لقد لاحظتِ الزوجة دوائر داخل كتبه لتعرف أنّ أول أرقام النبوءة يكون رقم الكتاب، والرقم الثاني هو رقم الصفحة، والرقم الثالث هو رقم السطر، والرقم الرابع هو رقم الكلمة في السطر، ولم يكن فكّ الشفرات يوماً سهلاً إذ لم تكن الكلمات بالضرورة تعني معناها المباشر وإنما محمود كان يستعمل الأبجدية المتاحة له للإشارة للظواهر المعنية التي لا يجد اسمها في كتبه، فمثلاً تنبأ بثوران بركان "مونالوا" في "هاواي"، وعبر عنها بعبارة (منى، لواء، أبريل، 8، هوائي)، أو مثلاً أنّ قطارا في دمنهور سيقع له حادثٌ أليم، فعبر عنها بعبارة (قطار، أنهار، مايو، 16، دماء).

وقد استنتجتِ الزوجة أنّ زوجها ليس عَرافاً أو يستغل معرفته، بل شَفَر كلماته لكيلا يحلها أحدٌ، فأجابت سؤال الطبيب الجازع عن سبب ألا يحذرهم بصراحة من هذه الحوادث، أنّه لا يريدُ أن يحذرهم بل لا يريدُ شيئاً على الإطلاق. وبالفعل، لقد صار محمود في المصحة أهذاً وأطيع تجذبه أبسط المشاهد كقطة تدنو من عصفور يلتقط رزقه، ولا يكف عن إزالة خيوطه الحريرية ويدندن أشعار أمل دنقل وصلاح عبد الصبور ونبذ فكرة الانتحار وإنّ ظلّ يوحى للجميع أنّه يدرك كل ما

يقع في العالم مدعيًا عدم المعرفة، فالحق أنه في المرحلة التالية على مطالعة السجلات الأكاشية وفضائتها، قنط من كل شيء وتيقن من حدوث القدر بأبشع الطرق بغض النظر عن تحذيراته. ولمَّا سأله الطبيب إنْ كَانَ يَقْدُرُ على التنبؤ، أجابه محمود أنه سؤال سخيّف وأنه لا يوجد أي أحد يستطيع أن يتنبأ. وبعد ساعة عسيرة من استجواب الطبيب له، أخبره عن السجلات الأكاشية أنها جعلته يعرف الكثير مما لا يفيد أحدًا أو يمنع شرًا أو يزيد خيرًا، فمثلاً رغم معرفة محمود والطبيب بأمر احتمالية حادثه "قطار دمنهور"، فقد وقع لأنَّ الطبيب خشي أن يبلغ فلا يصدقه أحدٌ، كما كان مدركًا أنَّ محمود ذاته لم يكن يعرف يقينًا إنْ كَانَ الحادث سيتمُّ.

وعلى الرغم من خنوع "محمود" للحالة واستساغتها - مثلما سبق الذكر في الفصل السابق، فسرعان ما أصبحت حياته جحيماً بمعرفة الجهات السيادية المصرية والأمريكية به. وتفصيل ذلك أنَّ الطبيب النفسي أرادَ التيقنَ من صدق "محمود"، فراسلَ بعض أصدقائه الأمريكيين يسألهم عن نبوءتين خطيرتين قالهما محمود، وعندما وقعت النبوءتان كما سألهم بالضبط، أبلغ هؤلاء الأصدقاء السلطات الأمريكية. هنا، استدعته المخابرات المصرية ومعهما شرطيّان من الـ FBI يعملان في السفارة الأمريكية بالقاهرة يستجوبونه، ومن الجدير بالإشارة في هذا الاستجواب هو التعبير اللغوي الذي استخدمه "الطبيب" في وصف الشرطي الأمريكي خلال سؤاله له عن هويته وإنْ كَانَ منضمًّا لشبكة إرهابية عالمية أو كَانَ تناسخًا لنوستراداموس، "توهجت عينه الزرقاء القاسية! هذا هو الأمريكي القبيح عندما يكف عن اللطف! لا بدّ من نظرة مماثلة كانت تلمع في عيونهم وهم يحرقون الأطفال بالنابالم في قرية تراج بانج الفيتنامية"⁽¹⁾.

ولم يجد عندئذٍ إلا أنْ يبدأ في إخبارهم بقصة محمود الطويلة بكلّ تفاصيلها. وبذلك أدخل محمود في مرحلة جديدة وهي احتفاظ الجهات الأمنية ومكاتب الاستخبارات المركزية الأمريكية باسمه مدركًا أنَّ لو عرفَ محمود بهذا التحول وأنَّ جهات سيادية تراه عرّافًا، فلسوف ينسف رأسه من الخوف، وبالفعل فسرعان ما نشرتْ إحدى الجرائد الأمريكية مقالًا عن تنبؤ محمود باغتيال بابا الفاتيكان وانفجار مترو الأنفاق بنيويورك ووصل الخبر لوسائل التواصل الاجتماعي المصرية، وهو ما ضايق الطبيب النفسي للغاية إذ يرى -في كلمات توفيق الساخرة- أنَّ الأمريكيين مزعجون بشفافية سياساتهم، فيقول: "عندما يتعلق الأمر بأسرار

أمنية، فنحن أقدر منهم بمراحل وأكثر كتماناً، والساسة لديهم يعرفون أنك تتبادل حواراً هامساً في أي مفاوضات مع أي منهم لتجد موضوع الحادثة في كل الصحف بعد يومين⁽¹⁾.

ولعلّ وتيرة هذه الديستوبيا زادت مع مسألة المطاردات التي تعرّض لها محمود، وقد بدأت هذه المطاردات عندما أبلغ طبيبه المخابرات العامة المصرية بنبوءته أنّ المُفدّي "المُفدّي الديب" -حاكم مصر آنذاك- سيتعرض لمحاولة اغتيال ونجحت السلطات في إبطال المخطط بتغيير موكب القائد، ورضوا عن محمود⁽²⁾. فما حدث أنّ "المُفدّي الديب" شُغفَ بقدرة محمود على أن يتوقع كل ما خفي عنه مما يعزز سلطته، وأعطى تعليماته لرئيس المخابرات أن يستجوبوه وهو ما لم يقدر طبيبه على منعه خوفاً من البطش، ولأنّ السلطات ربطت بين إحضار محمود وبين الواجب الوطني، أخذوه حملاً على الأعناق. وزوجته ارتجفت عندما علمت مرددة أنّ محمود ليس أنبوب معجون أسنان يخرج ما فيه بالضغط، بل زهرة عليها ندى يجب انتظار سقوط قطراتها، ليجيها الطبيب أنّهم حمقى وسيدمرون الزهرة تدميراً. وفعلًا، تعرّض محمود في مقر المخابرات لأقسى أنواع التعذيب بسبب جموده وصمته أمام أسئلة رئيس المخابرات - الذي ودّ التقرب من المُفدّي بالحصول على أكبر قدر من النبوءات - ونظراته المتهمة المخيفة التي كان يرنو بها لمعذبيه. صفعوا قذاله -قفاه- وسكبوا عليه ماءً بارداً وحرقوا عنقه وذراعه بلهب السجائر وكهربوه كهربة رجّت أعصابه وهو لا يتوسل أو يبكي أو يشتكي وإنما يردد قصائد صلاح عبد الصبور مما أثار جنونهم ليعلق توفيق -على لسان الراوي: "أنت تهيئ جلاذك وتجرح شعوره عندما تأبى أن تصرخ، ولن تقدر على محو الإهانة مهما اعتذرت بعد ذلك، مهما صرخت ومهما طلبت الصفح"⁽³⁾. وهذا حتّى نطق محمود بنبوءة واحدة لم يفهموها وهي أنّ الذئب المنتصر سقط عن سرجه وتمزّق قلبه إرباً؛ وهي أنّ المُفدّي (منصور الديب) مات، لكنهم ظنوه يستهزأ بهم وصعدوا تعذيبهم حتّى فرّ منهم بحالة الحرمان الحسي ودخل السجلات الأكاشية التي جعلتهم يظنونهم مات، وألقوه في الصحراء مغطيين إياه بنباتات ورمال متوقعين أنّ الكلاب سيلتهمون جثته قريباً؛ وقد تمّ التطرق لهذه الحادثة في الجزء الثالث من الكتاب بالتفصيل في فكرة "الاستبداد".

(1) المرجع السابق نفسه، ص 143.

(2) لقد أبلغهم الطبيب لأنّه كان يشعر بهاجس أنّ المخابرات المصرية والأمريكية زعرو أجهزة تنصّت في جسده وفي مكتبه وفي المصحة لتشككهم في حكاية محمود بحيث أنّه شعر أنّ لو لم يبلغ، فلسوف يتهمونوه بمحاولة الاغتيال. كان يخشى استبداد الحاكم وطفيلياته لدرجة أنّه كان يتذكر فيلم "الكرك" حينما انتقد بعض أساتذة الكلية أمام سعد حسني وصمّت لتجد نفسها في اليوم نفسه تحت رحمة "خالد صفوان" -ضابط المباحث- يسألها لماذا لم تكتب تقريراً عنه (المصدر: المرجع السابق نفسه، ص 158-160).

(3) المرجع السابق نفسه، ص 201، 202.

وعلى الرغم من تهريب "البنتاجون" له إلى الولايات المتحدة حيث أقام في "جبل شاستا" - كما وردَ في الفصل السابق- ومساعدته لبعض المُعذِّبين، فلم يكن لينتهي من مطاردة الجنرالات الأمريكيين الذين أرادوا أن يستغلوا قدراته. فبعدَ وقتٍ من إقامته هُناك، أعدتْ له السلطات الأمريكية استجواباً مفصلاً ولائحة بها ألف سؤال تقريباً، فما كان منه -بعدَ رحيل دواير ومعرفته بموته-، إلا أن هُشِمَ عظام يديه وقطعَ لسانه ثم هربَ عائداً لمصر من جديد حيثُ سكنُ بناية حقيرة في إحدى الحارات الشعبية ترعاها خادمة ولم يخبر أحداً بمكانه سوى طبيبه النفسي - الذي كانَ محمود يعلم أنه استدرجَ زوجته وأقام معها علاقة غير شرعية قبل أن يتركها بلا اهتمام - لما أتاه الطبيب حيثُ يسكنُ، فُجِعَ بمنظره ذاك بل وناله الجزع أن قد ظلَّ لدى محمود الرغبة في مطالعة السجلات الأكاشية وإخباره بما يجد باستخدام أصابع قديمه. حكى له "محمود" عن كل ما مرَّ به وما شاهده، بل وأخبره عن مطاردة الجميع له - فرييس المخابرات المصري ظلَّ يرغب في إيجاده ليعاقبه على خداعهم خاصة وقد ماتَ "المُفدَّى" الذي كانَ مؤمناً به-، مؤكداً أن لا نجاة له، بل ولم يتورع محمود عن أن يخبر هذا الطبيب أن مصيره -أي مصير هذا الطبيب- هو الوحدة والضياع الأبديين، وذلك لكي يحرضه على قتله، فمحمود كان قد طالع العالم بعدَ عامين ولم يجد نفسه، وعرف أنه سيموت قريباً وأراد أن يعاقب الطبيب على جريمته مع زوجته بأن يجعله قاتله "أداة انتحاره" -متلماً سيرد في مآلات الديستوبيا بالفصل الرابع من الرواية. هكذا، قتله الطبيب واعترفَ على جريمته ليقينه أنه-على حد قول توفيق- فعلَ معروفاً في العالم بأن أعادَ غلق "صندوق باندورة" بشروره ولأنَّ محمود ذاته كانَ سيلقى حتفه سواء شاء أم لم يشأ بعد أن أفسد القانون الطبيعى القائم على أن هناك بعض الأمور ينبغي أن تظلَّ مخفية ولا تُعرف.

أمَّا في رواية "في ممر الفئران"، فقد توارثت هذه اليوتوبيا النسبية (ذكريات النور) مع ديستوبيا مُحققة من خلال سقوط النيزك وآثاره البيئية والاجتماعية من ناحية وسيادة القومندان على العالم من الناحية الأخرى. بمعنى آخر، وقعَ هذا التوازي من خلال عناصر طبيعية تمثَّلت في سقوط النيزك، صحبتها عناصر بشرية تجسَّدت في تعامل البشر مع كارثة النيزك ثم سيادة القومندان وقومِهِ واحتكارهم للنور المتبقي في العالم، والحق أن توفيق استعرضَ مراحل سقوط هذا النيزك بدقة شديدة ابتداءً بالتلقي الأول لأمره ثم التعامل العلمي معه ثم التعامل المجتمعي المصري والعالمي مع تفاقم الأزمة، وأخيراً بعدَ سقوطه.

أولاً: بدأ الأمر كإشاعة ظنُّها البعض مُزحة أو هراء سخيف مما يملأ الشبكة العنكبوتية، حتَّى تجسَّدَ الكابوس في نيزك يقترب من الأرض بسرعة جنونية يمكن رؤيته

وقياس أبعاده وإشعاعه الحراري، ولا يعرفُ خبراء وكالة ناسا للفضاء مصدره ولا سبب اقترابه مكتفين بتوقعهم أنَّ اصطدام كتلته بالكوكب تعني نهاية الحضارة إذ كَانَ قَطْرُهُ يوازي المحيط الهادي. وقد سخر "توفيق" في سرده من كلمة "نهاية الحضارة" أنَّها تعبير محبب للغرب وأَنَّهُ كَانَ حُلْمَ كِتَاب الخيال العلمي وصنَّاع الأفلام وقد تحقق.

ثانيًا: تحدَّثت الرواية عن محاولة وكالة "ناسا" البطولية الأخيرة التي سُمِّوها باسم "مشروع ماتادور"، وهو صاروخ مُحمَّل برأس هيدروجيني يهدف لتفتيت النيزك في الفضاء الخارجي أو تغيير مساره، وهو ما سخر منه "توفيق" أيضًا في سرده إذ يقول إِنَّهُم سَمُّوه باسم "ماتادور" لتعني "مصارع الثيران" التي يقصد بها الأمريكيون أنَّ على المصارع الأمريكي صدَّ هجمة الثور الفضائي. والحق أنَّ هذه المحاولة الأخيرة وحَدَّتْ العالم أجمع الذي حبس أنفاسه خلال مراقبته لصعود الصاروخ على شاشات التلفزيون، لدرجة أنَّ "توفيق" ذكر أنَّ العالم العربي دعا أدعية غريبة مثل (فلينصر الله أمريكا) باعتبارها من المرات القليلة جدًّا التي تدافع فيها أمريكا عن العالم كله وإنَّ كَانَ يدرك أَنَّها تدافع عن نفسها قبل أي أحدٍ آخر، وفشلت المحاولة لتحمل النيزك للانفجار الهيدروجيني، وظهر الرئيس الأمريكي يقول إنه يشعر بالقلق، ليعود توفيق ويسخر في سرده أنَّ هذا الرئيس الأمريكي دومًا إمَّا يشعر "بالتفاؤل المشوب بالحدز" عندما تتحسن الأمور أو يشعر "بالقلق" عندما تسوء الأمور. بل وفي هذا الجزء كتب توفيق عن إيمانه الشخصي بأنَّ تاريخ البشرية ليس إلا مجموعة من المصائب بحيث يتطور العلم بما لا يساعد الأخلاقيات وإنما يجعل البشر أكثر إفسادًا ودل على ذلك بالفارق بين الآثار المترتبة على "حرب طروادة" و"الحرب العالمية الثانية". وعلى أي حال، كَانَ د. مصطفى (رمز العلم بالرواية) متوقعًا فشل المحاولة ويراها مجرد وسيلة تلهي البؤساء بدلا من البكاء ولم يكن متدينا أو يتوقع حسن الحياة الأخرى وتوقع إبتان النهاية الحتمي معتقدا أنَّ أسوأ السيناريوهات سيقع؛ وبذلك أخفق العلماء عن حل الأزمة واكتفوا بأنه نهاية الكوكب.

ثالثًا: من ناحية المجتمع، فقد خرج متدينون يتحدثون عن أنَّ الشرَّ والخبث الذي عمَّ العالم هو ما دفع الله لإزهابهم لاستحضار خلق جديد، بينما خرج فيلسوف يخطبُ في الناس ألا يقلقوا لأنَّ الكون شاسع وأَنَّهُ إذا فَنَّتْ الحياة على كوكب الأرض، فستبقى حياة في الكون ذاته ويستمرُّ الذكاء الكوني على إحدى المجرات الأخرى بحيث تنتهي المسرحية على خشبتنا لتبدأ على خشبة أخرى بعيدة بُعد ملايين السنين الضوئية، فلعلَّ المستمعون نظرتهم الشاملة لاقتصر نظرهم للحياة على ما يعيشونه ويرونه، وأن مادام زمانهم ومكانهم الحاليان مهديين، فلا قيمة لديمومة الكون من دونهم، فيفكرون -على حدِّ وصف توفيق:

"لا يعنيني فناء الكون أو بقاؤه بعد رحيلي، خُلِقَت النجوم لأُنظر إليها ليلاً؛ فإذا رحلتُ أنا، فلن يغريني أن تظل النجوم تتوهج بعدي"⁽¹⁾. هذا قبل أن تتلاشى نبرة السخرية من العالم ليحلَّ الرعب التام ويتابع الجميع أخبار النيزك بكآبة وهستيريا إذ يتكلمون بمرحٍ قبل أن يجهشوا بالبكاء ويتعانقون ويتباكون، كما شاعتُ الإجابات غير الدقيقة حول الدمار المرتقب، كما أنَّ هذه الكارثة دفعتُ البعض للتدين الشديد والبعض الآخر للإلحاد والمجون غير المعقول كما انتشرتُ أناشيد الكنائس الزنجية في (نيو أورلينز) الداعية وماجتُ الشوارع بالدعاة الذين يذكرون الناس بالنهاية وضرورة التوبة وعلا القرآن وأجراس الكنائس، كانَ هناك شباب كافر بالنجاة يقود سياراته بسرعاتٍ جنونية يعاقرون الخمر ويترنمون بأغاني سيد درويش الكئيبة أو أغنية "ذا دروز" السوداوية، وشاعَ انتحار من يخشون الانتظار بالرصاص أو الوثوب من البنايات العالية أو ابتلاع السم.

وقد باعَ البعض أملاكهم بأثمانٍ بخس لينتفعوا بالمال في الصدقات أو اللهو بينما حافظَ بعضهم على تماسك أعصابهم وجمعوا الذهب والفضة يتأملون أنَّهم سيصيرون من أثرى الأثرياء ويقلبون السلم الاجتماعي كله إذا نجوا، كذلك ظهرت مجالس الصلح في الأحياء يتسامح فيها المتخاصمون متجاهلين أسباب الخصام مهما كانتُ فادحة -كالخيانة الزوجية أو الإساءة للسمعة- وكثرت المجالس العرفية ومراسم "تقديم الكفن" في الصعيد. ولقد اعترفَ توفيق أنه لم يخترع هذه الأجواء بل من وقائع تاريخية كالتى حدثتُ عندما تنبأ الكثيرون بنهاية العالم عام 1000 واحتشد البشر في كاتدرائية كبرى بالفاتيكان انتظارا للحظة الحاسمة، إذ عند بلوغ أول دقيقة في العام الجديد ماتَ الكثيرون بأزماتٍ قلبية نجمتُ عن هلعهم.

كذلك، فلقد تيسَّرتُ شروط وإجراءات الزواج بمصر، فتقدَّم "رامي" "لفاتن" من دون قلق من إهانته لعلَّه أنَّ شُح الوقت ألغى الطموحات وأنَّ الوالد سيتمنى أن تذوق ابنته مذاق الزواج قبل النهاية. وسرعان ما وافق الأبوان وعجلاً من الزفاف بلا خطبة، ورخصتُ أثمان الشقق واستطاعا التحصُّل على واحدة بسهولة، وإنَّ لم تكن سعادة حقيقية لأنَّ الجميع كانَ ينتظر الموت. كما أورثت الأزيمة جزءاً في قلوب البعض أوصلهم للخطيئة كما أنَّ أخت رامي الكبرى التي فكَّرتُ في البداية أن لا بأس من الموت لأن حياتها لم تكن سعيدة، لكنها جرَّعتُ بعد وقتٍ وقبلتُ الزواج من زميل لها بالمدرسة التي تعمل فيها كانت قد سبق ورفضته لدماة وجهه وقصر يده إلا أنه رفضها مؤكداً أنه لم يكن يريد لها يوماً

وإنما أرادَ البيت والأسرة وهي كانتُ فرصة جيدة، وأنها برفضها قتلت رغبته في الزواج عموماً. جرى حوارهما ذلك في المدرسة التي كان يعملان بها والتي صارت -بسبب اقتراب سقوط النيزك- خاوية من الجميع. تركها تلحق كرامتها المهذرة قبل أن يأتيا عامل المدرسة المتدني عن هذا الزميل في كل شيء، لكنها وافقتُ أن يكون شريكها في علاقة مُحَرَّمة فقط لتجربَها ولو مرة قبل الموت وفعلتها في المدرسة المهجورة.

رابعاً: وقد ارتطمَ النيزك بالأرض دونَ أن يدمرها، ليظنَّ البشر أنهم نجوا وتعالَتْ تكبيرات المساجد وأجراس الكنيسة والألعاب النارية وخرجَ الناس للشوارع يرقصون وانتَحَر من باع ممتلكاتهم بأثمان بخسة وعادت الضغينة ونسى العديدون توبتهم راجعين للإثم، ووصل الفُحش لذاه خلال هذه الليلة في العالم الغربي بركض الفتيات عاريات وإقامتهن علاقات مع أي أحد. من جهة أخرى، لاحظ العلماء - منهم مصطفى - أن السماء باتت حمرة بلمسة رمادية غامضة وأن الموجات الاستاتيكية تعطلت تاركة التلفاز والمذياع والإنترنت بلا روح. ومع اليوم التالي وقد استمرَّ احمرار السماء وغياب الشمس كأيام الشتاء وibatَ النور خافتاً كأنه يأتي من خلال سحابات كثيفة، أعلمتهم الطائرات العائدة من الغرب أن النيزك وقع على الأمريكيَّتين ماحياً إياهما من الوجود واستقرَّ في المحيط الهادئ مسبباً فيضانات هائلة فيه وفي المحيط الأطلنطي مع تغيرات مناخية وسحب غبار كثيفة في السماء حجبَّ الشمس؛ بينما نجت القارات الأخرى. رغم سعادة الجميع، أصيب "مصطفى" بالذعر مردداً أن السيناريو الأسوأ هو القادم إذ إن الموت سيحلُّ لكن ببطء وبقسوة.

بعد أشهر من عدم إشراق الشمس، ظنَّ بعضهم أنه من علامات يوم القيامة ودار جدل بين أهل الفقه حوله إن كانت هذه هي العلامة التالية على الضباب الذي سيعمي الناس عدا المؤمنين أم سابقة عليه. لكن مصطفى شرح لـ "رامي" أن هذه الغيوم لن تتجلي وأنَّ سيناريو انقراض الديناصورات سيتكرر من جديد؛ حيث زالت بعدما سادت الأرض لـ 160 مليون عام وأعقبها الفئران التي هي أحقر الثدييات. شبَّه مصطفى الأمر بالقنبلة الذرية التي يقتل انفجارها 100 ألف بينما تقتل آثارها الإشعاعية مليوناً على مدى سنوات، كان ذلك نتيجة للأمطار الحمضية والظلام الشامل وكثافة نسبة الإيريديوم في التربة عقب سقوط النيزك القديم؛ وآخرون تحدَّثوا أن بسبب هذا النيزك، تعاقبت انفجارات بركانية ملأت السماء بالسحب السوداء وشلت الحياة مما أفرغَ الحياة تماماً وأعيد تشكيل النظام البيئي من جديد. أمَّا بالنسبة للنيزك الجديد، فرأى أن الاصطدام في المحيط يولّد موجات هائلة على السواحل وانتثار الماء في الجو وغرق قارات؛ أمَّا لو كان في اليابسة فسينتج زلازل وحرائق

غابات في المركز بسبب حرارة الصدمة، وأنَّ الفئات الناجمة ستنتشر في الفضاء؛ وتتفاعل بعض الصخور التي تعاود السقوط من جديد بينما يبقى بعضها عالقًا في الجو حاجبًا نور الشمس لسنواتٍ مما سيميت النباتات ويقتل الحياة. وأنهى شرحه أنَّهم سيموتون ببطء كما ماتت الديناصورات بالظلام الدامس وأنَّهم سيحسدون من أبادهم النيزك. وفعلًا في هذه الأثناء، سادتْ الزلازل وتساقط بعض النيازك مسببة آثارًا مدمرة نجتْ منها مصر لابتعادها عن مركز الارتطام لتعاني فقط من الظلام وبعض الزلازل الخفيفة⁽¹⁾. بذلك، فقد اختفتْ الولايات المتحدة من الوجود ووصفَ توفيق أنَّ العالم لم يأس على هذا الاختفاء لاعتمادهم على أوروبا ولتضخُّم مكانة ألمانيا والصين واليابان بينما تحولتْ إسرائيل - من دون حليفاتها الكبّرى- إلى "قط مُحاصر منزوٍ جوار الجدار"⁽²⁾.

سادسًا: سيادة القومندان على العالم بأسره واحتكاره - وقومه - للنور المتبقي في الأرض بسكناهم أعلى قمم التبت والتي تعلو على مستوى سُحب الظلام، وكذلك احتكارهم مصادر الطاقة قاطبةً؛ وبذلك انقسمَ العالم إلى أغلبية تعيش في الظلام وأقلية تعيش في النور تتحكَّم في مصائر الجميع، وهو ما تمَّ تفسيرُهُ بدقّة في الجزء الثالث من الكتاب.

(1) للرجع السابق نفسه، ص 142-149؛ ملحوظة هامشية: من هذا الشرع نستنتج أيضًا أنَّ السبب في تسعية الديستوبيا أنَّها "ممر الفئران" هو أنَّ الفئران كانت أحقر الثدييات التي احتلت الأرض بعد الديناصورات؛ وهؤلاء الناجون من النيزك الآن نجوا ليعيشوا كالفئران حقراء وجبناء بلا نور. بل يمكن القول إنَّ الفئران تفضل الظلام والبيئات الظليلة لحساسيتها تجاه النور الجامح، هكذا بات البشر يخافون النور والمعرفة -إذا شَبهنا المعرفة بالنور.

(2) للرجع السابق نفسه، ص 140؛ الجدير بالذكر أنَّ هذه الرواية الوحيدة التي يناقش فيها توفيق مصرير الولايات المتحدة البائس، ففي رواية مثل إيكاروس أيضًا ذكر أنَّ محمود رأى في السجلات الأكاشية أن "الصين المنسية ستصحو" وستتغلب عليها، بل ذكر أنَّ بعد ملايين السنين، ستصير نيويورك مجموعة من المستنقعات والأدغال بلا ملمح تقدُّمٍ واحد، (المصدر: أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 249، 250).

الجزء الثالث

الديستوبيا

في روايات أحمد خالد توفيق



انتهى الجزء الثاني من الكتاب إلى أن بداية روايات أحمد خالد توفيق الأربعة المعنيات، قد شهدت إمامًا وجود الأبطال فيما يُطلق عليه الآخرون مسمى "اليوتوبيا" أو "المدينة الفاضلة" كما حدث في رواية "يوتوبيا"؛ أو أن هؤلاء الأبطال وجدوا في واقعهم بؤسا وضياعا لأحلامهم، مما حدا بهم إلى التفكير في إحياء هذه اليوتوبيا في عالمهم سواء باختراق "السجلات الأكاشية" كرواية "مثل إيكاروس" أو بالاستسلام للغيبوبة والانتقال إلى بُعد آخر كرواية "في ممر الفئران"، أو بتزييف الحقائق واختلاق وطنٍ للعرب المضطهدين في "بابوا غينيا الجديدة" كما حدث في رواية "شأبيب". وعمل الجزء على ترسيم ملامح هذه اليوتوبيا المنشودة؛ مع تأكيد أن وجودها كان في هذه الروايات إمامًا وهميًا كرواية "يوتوبيا" أو قصير الأمد كما وقع في روايات "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران" و"شأبيب". ففي جميع هذه الروايات، وقّع ما جعل هذه اليوتوبيات تتوازى مع ديستوبيا شنيعة، ومن ثمّ ففي هذا الجزء الثالث، يغوص الكتاب في ملامح هذه الديستوبيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية إذ إنها تشغل مساحة كبرى من هذه الروايات. وأخيرًا، يهتمّ الجزء في النهاية بإيضاح محاولات مقاومة هذه الديستوبيات ومآلات الديستوبيا في كلّ رواية من هذه الروايات الأربعة، مع السعي لتفسير هذه المآلات والدلالات التي تريدُ إيصالها إلى القارئ.

ولهذا، ينقسم الجزء إلى ثلاثة فصول. في الفصل الأول منه استعراض للملامح الديستوبيا السياسية والقانونية في الروايات، بينما يستغرق الفصل الثاني في إيضاح ملامح الديستوبيا الاقتصادية والاجتماعية، ويأتي الفصل الثالث لكي يسلط الضوء على ما في الروايات من محاولات المقاومة ومآلات هذه الديستوبيات.

الفصل التمهيدي

الديستوبيا



كما الحال في الجزء الثاني من الكتاب، لا يمكن الخوض فيما يتعلق بملامح الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق دونَ التطرق إلى ما يخص مفهوم الديستوبيا بالشكل العام الذي يليق به. ولهذا، يعمل هذا الفصل التمهيدي على إيضاح معنى المفهوم.

لغويًا: من الناحية اللغوية، فالديستوبيا كلمة مشتقة من اللغة الإغريقية القديمة. وإنها تتضمن جزأين (كحال اليوتوبيا). فأما الجزء الأول فهو: "Dys" أي "سيئ"، وكلمة "Topos"، وهو المكان. وتعني "مكان أو وضع حيث كل شيء ممكن بأسوأ الطرق الممكنة". وأول من استخدمها على هذا النحو كان "جون ستيوارت ميل" عام 1868 في أحد خطاباته البرلمانية حينما ندد بسياسة الحكومة في تعاملها مع الأراضي الأيرلندية، فقال: "أن يدعوهم المرء باليوتوبيين، فهذه مبالغة في الإطراء؛ بل ينبغي أن يُطلقَ عليهم اسم (ديستوبيين) أو (كاكوتوبيين). فقد درجت العادة على إطلاق "اليوتوبية" على الأمور التي تكون جيدة أكثر من تقبل التطبيق؛ لكن يبدو أنهم ينحازون إلى ما هو أسوأ من أن يمكن تطبيقه"⁽¹⁾. وفي اللغة العربية، إنَّها تعني "مدينة الدمار" أو "المدينة الفاسدة".

اصطلاحياً: كما هو واضحٌ من المفهوم اللغوي، فالديستوبيا هي "نقيض" اليوتوبيا. العجيب أنَّ بعضهم يرى أنَّ الديستوبيا ليست سوى إحدى نتائج اليوتوبيا. فاليوتوبيا تقومُ على أساس إقصاء جميع من لديهم ميول شريرة. لذا، فهؤلاء الأشرار يخلقون الديستوبيا. فأما بالنسبة إلى شكل هذا المجتمع الديستوبي.

فهو من **الناحية الأخلاقية** مجتمعٌ لا يعرفُ الخير ولا السلام؛ بل الخوف والسلب والاعتصاب وترويع الأفراد الآمنين لأغراض دنيئة.

من **الناحية الاجتماعية**، فهو مجتمع فوضوي غير مرغوب فيه، ومستقبله غير واضح. ينتشر فيه الخيانة وضياع الثقة. هي تجسيد لانتهيار النظام الاجتماعي.

(1) "Dystopia", Oxford English Dictionary. accessed on July 2nd, 2020. available at:

<https://www.oed.com/oed2/00071444;jsessionid=CE8626BAD189967AFAC47986695715F2>

من الناحية الدينية، يغيب الدين ويجنح البشر إلى إحلال الحكومة محل الإله؛ هذه الحكومة التي تقيد كل حركات المواطنين.

من الناحية السياسية، فهؤلاء المواطنون لا يملكون حق الاختيار. فهذا النظام الديستوبي السائد يدمر فردية المرء ويتحكم في المعلومات التي تصله، ويلجأ إلى الأساليب الاستعبادية إذ تفرض الحكومات رقابة دائمة على هؤلاء الأشخاص وتحرمهم من المعارضة.

من ناحية أهل المدينة، فإنهم يعيشون في خوف وانعدام للإنسانية، وشاغلهم الشاغل هو "البقاء"، ويخشون العالم الخارجي. وبعض منهم يسعى باستمرار إلى الهروب من هذا العالم باعتبار أنه نظام لا يمكن الثقة فيه، ولأن مؤسساته تروج لأخلاقيات خاطئة. وهكذا، وبينما تعرض اليوتوبيا الجنة على الأرض، فالديستوبيا تعرض خلاف ذلك تماماً حيث تصف الجحيم على الأرض⁽¹⁾.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) Stancuta Ramona Dima-Laza, Op. Cit., p. 13

الفصل الأول

ملاحم الديستوبيا السياسية والقانونية في الروايات



الحقُّ أنَّ الروايات التي كتبها توفيق يسهل تصنيفها ضمن نمط الأدب الديستوبي، لما تحمله من ملامح ديستوبية شديدة الفضاءة للمستقبل سواء القريب أو البعيد، ومن خلال القراءة الدقيقة، فقد كان من الممكن استخراج بعض الأفكار التي تكاد تكون موجودة بوضوح في كلٍّ من هذه الروايات، وكأنَّه يودُّ تأكيد أنَّ أي فسادٍ سيلحق بكوكب الأرض عامة أو بمصر خاصة، فلسوف يكونُ بسبب هذه الأمور. سيتم التطرق إلى الأفكار السياسية القانونية في ديستوبيا الروايات الأربعة، وهذا على النحو الآتي:

1- مصير كابوسي للعرب والمنطقة العربية: ناقش توفيق معالم النظام السياسي العربي، وحال العرب عامة. ففي رواية يوتوبيا كان الفقراء يؤمنون أنَّ تصالح أهل اليوتوبيا مع الإسرائيليين لم يكن سوى موافقة معهم على مشروع "الشرق الأوسط الجديد" المنبني على مال الخليج، وذكاء إسرائيل، واليد العاملة المصرية الرخيصة⁽¹⁾. هذا بينما في رواية "مثل إيكاروس"، ومع مطالعة "محمود" للسجلات الأكاشية، فقد شاهد أنَّ بعدَ مئات السنين، فمِنطقة الشرق الأوسط وبالأخص المنطقة العربية قد تدمرتُ بالكامل، وأصبحتُ بسبب الحروب الأهلية مجرد مدينة ملاء يسافر إليها الأجانب من الدول الأوروبية من أجل التسلية برياضة الصيد ورؤية السكان الأصليين، وهُم مرتعبون من تحليق الطائرات الهليكوبتر فوق أراضيهم. لقد انعدمت مظاهر الحضارة من هذه المنطقة وآلت ملكية المناطق الغنية وآثارها الثمينة التي تبقتُ إلى "الاتحاد اليوروأمریکی" - وهو تطور للاتحاد الأوروبي كما توقعه توفيق بانضمام الولايات المتحدة إليه - بادعاء أنها آثار تخص الكوكب، ولأن أصحابها ضيعوها وبددوا ثرواتهم بحروب لا طائل منها. بالفعل لم تعد المنطقة سوى مدينة ملاء يستطيعون الحصول على تذكرة السفر إليها ببضع دولارات قليلة تتضمَّنُ جولةً بهليكوبتر ووجبة ساخنة وإقامة لليلة واحدة في فندق بغداد. ولم يعد هناك أي مدعاة للخوف بالنسبة لهؤلاء الزوّار: "لا تخف، لم يعد لدى هؤلاء القوم صواريخ يتقاذفونها على الطائرات كما كان يحدث في الماضي السحيق! لم يعد لديهم شيء على الإطلاق!"⁽²⁾.

وهذا هو ما منح الزوّار شعوراً بالتفوق وهُم يستمتعون بمشهد السكان يتراكمون خوفاً من الطائرات؛ بل إن بعضاً من هؤلاء الزوار لم يكونوا في البداية يتوانون عن إطلاق رصاص عشوائي عليهم، إلى أن حرَّم الاتحاد الأوروبي هذا الأمر وخرَجَ أحد المبشرين يدعو إلى ضرورة اعتبار سكان هذه المنطقة البدائيين إخوة في البشرية، وهو ما استصعبه

(1) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 108.

(2) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 163-165.

بعضهم. هكذا وَجَدَ الأجانب متعتهم معاملة الأسر كأنهم حيوانات؛ فالتقطوا لهم الصور وأعطوهم شطائر الهامبورجر وعلب اللبن، مع الحرص ألا يتركونهم يتنازعون على هذه الهبات. كل هذا وقع بعد أن سبق وَمُنِحَ لأفريقيا والعالم العربي الفرصة للنهوض والتخلص من قبضة الغرب، ولكنهم دمروها بفعل الحروب القبلية والأهلية التي أثبتت أنانيتهم وانخفاض معدلات ذكائهم الذي دفعهم للتقاتل حد الفناء؛ بل لاتسام العرب بالغرور والتعالي وتعاملهم من الأجناس السوداء والصفراء بتعالٍ حتى حضرت حقبة امتلأت الأراضي بالسلاح والمثمين. رأى توفيق أن هؤلاء العرب لم يستعدوا يوماً للبناء والتعليم وشق القنوات وزرع الأراضي، وإنما استهواهم إطلاق الكلاشنكوف وتلغيم الطرقات، "...كلهم يعتبر قتل أخيه مهمة ذات أولوية عن قتل العدو ويتصور أنه سيصل إلى وضع التجانس النهائي"⁽¹⁾. وبالطبع فهذه الحروب لم تنتهِ لانتصار طرفٍ على الآخر، وإنما بسبب نفاد السلاح والرجال القادرين على القتال وانتهاء الأشجار والآبار والأزهار والأطفال الذين يمكن العصف بهم. فيما على الصعيد الآخر، ظلَّ الغرب متقدماً علمياً واقتصادياً محتفظاً بحدوده بعد أن اكتفى بدور المتفرج على تحول العالم العربي إلى هذه الغابة، بل وفي البداية شهدت الساحة الدولية جدلاً في مدى صحة السفر للمنطقة كمدينة ملاه، وأنه يُعدُّ عُنصرية، حتى انتظمت الرحلات ليشاهدوا هؤلاء الذين يعدونهم لم يتطوروا وعلى وشك الانقراض كالديناصورات. والجدير بالذكر أنَّ هذا لم يعن قطَّ تخلص العرب من ضغينتهم جهتهم مهما ضعفوا، فكانوا ينظرون إليهم أنهم السبب في تعاستهم، وكانوا يذبحونهم كلما تمكنوا منهم حتى وعى الأجانب أن عليهم التعامل معهم بحذر مثل التعامل مع عشيرة الضباع⁽²⁾.

وفي افتتاحية روايته "في ممر الفئران"، فقد برَّر أنَّ الرواية أصلاً هي معالجة أطول وأعمق لعددٍ من سلسلة "ما وراء الطبيعة" بعنوان "أسطورة أرض الظلام"، وذلك ليعكس السياق السياسي للدول العربية في أعقاب ثورات الربيع العربي، "ولعلَّ السبب الذي دفعني لهذه المعالجة، هو أنَّ الفكرة بدتْ في رمزيتهام ملائمة للواقع السياسي الذي تحياه شعوبنا العربية حالياً في مخاضها نحو الحرية والقيم الإنسانية العالمية؛ فهي بذلك تربة صالحة وملائمة لاستخدامها بشكل أعمق من أن تكون قصيرة مقتضبة"⁽³⁾، أمَّا في

(1) المرجع السابق نفسه، ص 164، 165.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 163-165.

(3) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص5

رواية "شأبيب"، أصبح العرب المهاجرون للدول الأوروبية والأفريقية أشبه بيهود الشتات، يعيشون في جيتو شبيه بالجيتو اليهودي أيام تشتتهم في البلاد، يمارسون فيه طقوسهم العربية الخاصة من أكل طعام عربي، ووجود المتاجر العربية وانتشار الأبخرة العربية، وحرية ممارسة الطقوس الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية الأرثوذكسية، ويتعرضون للاعتداءات من سكان الدول ويتم استغلال وجودهم في الخطابات السياسية للشعبيين فيها. وهذا على غرار شخصية "أمنية" المدرسة المحترمة التي تتلقّى توبيخا دائما من مديرتها لأنها تمتنع عن تشويه التاريخ العربي والإسلامي، ومثل شخصية "سليم" الذي قُتِلَت أسرته أجمع بسبب عنصرية بعض سكان "لبيريا"، وشخصية "مكرم ميخائيل" الذي رغم أنه مسيحي لكن جذوره العربية سببت له ولابنته الكثير من المتاعب.

2- الاستبداد: على الرغم من أن رواية يوتوبيا لم توضّح طبيعة النظام السياسي الذي كان يحكم البلاد في ظل هذا الانقسام المجتمعي بين الأثرياء والفقراء، فيمكن تكهّن الطبيعة الديكتاتورية لحاكم مثل هذه الدولة الذي يفرض على الفقراء قبول هذه الحياة المزرية التي بلا طعم، كما أنه شخص ضعيف يقبلُ بمشاركة رجال الأعمال لسلطته الذين أسسوا مدينة اليوتوبيا بكل ما فيها من رفاهية واحتكار للصناعات جميعها. على الناحية الأخرى، لم يتورّع عن إيضاح هذه الرنة الديكتاتورية في رواياته الأخرى. فعلى سبيل المثال تدور أحداث رواية "مثل إيكاروس" - الصادرة عام 2015- في العام 2020 - أي المستقبل القريب- وتنبأ "توفيق" فيها بأن ثورة 25 يناير 2011 قد أخفقت وطحنها المستبدُ القائد (المُفدَى منصور الديب) الذي تعمّد أن يصفه كخليط لجميع الديكتاتوريين السابقين. له شارب كث معقوص للأعلى من الجانبين تيمنا بـ (ستالين) وله وصفاء يساعدونه على ارتداء ملابسه ويهوى مطالعة صورته في المرآة، فاردا صدره وشامخا بعنقه عاشقا نظرته لنفسه لما فيها من قوّة. لديه زهو دائم لكونه الذكر الأبدي في أذهان النساء، متمنيا لو كان بمقدوره تقليد "موسيليني" الذي جاب شوارع روما على ظهر حصان عاري الصدر لتثار به النساء، لولا اختلاف الثقافات والأعراف. خلفيته عسكرية لولا أنه لم يعبأ بالتمارين الجسدية إلا بعدما ووصل للسلطة ولاحظَ وهنَ بنيته وأدركَ أن جسده تحمله طوال رحلة الصعود للسلطة، لكنه قد لا يصبر معه خلال السلطة، فامتنع عن تدخين السجائر الذي كان يحبه لكونه يذكره بجنرالات أمريكا اللاتينية الديكتاتوريين. يرددُ دوما كلمة أنه أبدي وخالد، ولن يموت لكونه خاض رحلة تسلق سلم السلطة الطويلة دوناً عن سائر أبناء وطنه، دون أن يُعدم أو يموت أو يسجن، وبعد أن سحق خصومه

جميعهم ونجا من جميع محاولات الانقلابات، حسبها مزايا تجعله الأقوى والأفضل وتُعجز الوطن عن ولادة مثيله، وما الدين لديه إلا تظاهر لكونه يؤمنُ فقط بألوهيته الخاصة، وأنه يحيي ويميت ويرزق ويحرم. حَرَّمَ على نفسه النساء متذكراً كيف أَنَّهُنَّ ضَيَعْنَ "عبيدي أمين" و"بوكاسا" و"سوكارنو" مكتفياً بزواجه التي تزوّجها منذ 25 عاماً والتي منحته الأطفال والمظهر الاجتماعي اللائق. آمَنَ بالعرافين وبقدرتهم على الاطلاع على ما وراء الغيب تيمناً بـ "أدولف هتلر" (1).

أحاطَ نفسه بحاشية فاسدة يرهبهم ويذلهم؛ فكانَ يستدعيهم في النهار الباكر كيلا يناموا ليلاً، لأن رؤيته أعينهم المحمرة وجفونهم المنتفخة لقلة النوم تعطيه قوة وسيطرة، فكانَ رئيس المخابرات رغمَ شراسة نظراته، يرتعد منه خوفاً ويتقبل إهاناته بصمتٍ كقطٍ وديع، كانَ القائد يوقفه نهائراً بلا اهتمامٍ به بينما يتناول فطوره في بطءٍ ويرميه بنظرة ثاقبة خارقة كأنها طلقة كل دقيقتين قبل أن يرتدَ لطعامه، اختارهم فاسدين بعدما تعلّم من الديكتاتوريين السابقين، ليعرف تاريخهم المُشين ويخزن فضائحهم حتّى يطيح بهم متى هددوا بقاءه، بل ويدعهم يراقبون بعضهم بعضاً، فيقول توفيق في وصفه: "تعلّم القائد المُفدّى منصور أحمد الديب الدرس مبكراً من كل ديكتاتور يحترم نفسه: لا تُحط نفسك إلا برجال قدرين ملوثين لتحفظ دليل إدانة كل منهم، دعهم يراقبون بعضهم ويتجسسون على بعض، هذه القشرة المُحكمة العفنة لا تتفكك أبداً إلا بغزو خارجي كما حدث مع صدام حسين" (2). آمَنَ أَنَّ دولة "الظلم" يحميها لا الجيوش أو الأجهزة الأمنية؛ وإنما طبقة المنتفعين والمنافقين ذوي الثراء والنفوذ الذين يحرصون على وجودهم والحفاظ على امتيازاتهم من أجل أبنائهم. وفي هذا النظام، فلا معارضة أو رأي عامٍ حرٍّ أو انتخاباتٍ نزيهة، فعندما آمَنَ بأهمية "محمود" بعدما أبلغه طبيبه النفسي أَنَّهُ قرأ في السجلات الأكاشية أَنَّ القائد سيكونُ ضحية محاولة اغتيال، مؤكداً أَنَّهُ سيكونُ مُهماً للتنبؤ بمحاولات الاغتيالات وبمن يفرُّ عبر الحدود ومحاولات تأليب العمال والطلاب على الحكومة ومن سيفوز بالانتخابات، نبهه رئيس المخابرات أَنَّ الحزب الحاكم يفوز دائماً، وأنَّ المعارضة غير موجودة لاعتقالهم أو لذوبانهم في الحمض، وأن الحكومة هي التي تصنع الرأي العام ببرامجها وصُحفها. مع ذلك، فرغمَ تتبعه لسير الديكتاتوريين، فلم يكن ير

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 153-156، 166، 167.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 156، 157.

نفسه ديكتاتورًا وإنما يؤمن بأنَّ حقًا إلهيًا اختاره لأداء مهمته، وأنَّ هذا الحق يعوزه الكثير من العنف والظلم والغلظة لحمايته⁽¹⁾.

ومثلما يختارُ القائد رجاله فاسدين، يختارُ رئيس المخابرات رجاله أيضًا بضميرٍ ميّ، وهو ما دفعه - عندما لم يجدوا جثة محمود في الصحراء - ألا يتشكك في أن رجله أطلقا سراحه، وذلك لأنَّهُ يدرك أنَّ الكذب غير وارد لاحتياجه لحد أدنى من الإرادة المستقلة والذكاء بينما هو يختارهم لضميرهم الغائب ولغبائهم⁽²⁾. والمفارقة أنَّه على الرغم من سمات هذا القائد شديدة الغلظة، فقد جعله "توفيق" يموت ميتةً عاديةً جدًّا، وهي أن كان في قلبه جزء واهن في جيب الشرايين التاجية ووقع به تكيس انفجر بتماديه في تمارينه الرياضية الليلية. ورغم الفوضى التي عمّت البلاد لفترة عقب موته، أدرك رئيس المخابرات أنَّ عليه وعلى المسؤولين الآخرين أن يحشدوا تركيزهم للعهد الجديد الذي سيبدأ، والذي ينبغي إما أن يصنعوه أو أن يكونوا به أو أن يتقوا بطشه. ويلاحظ أنَّ القائد التالي كان أيضًا ديكتاتورًا من خلفية عسكرية كان في البداية يستكين بين صفوف الجيش حتَّى وجدَ مناصرين بايعوه، وقد قامَ بتعديلاتٍ كثيرة وأزال الكثير من المسؤولين مستبقياً رئيس المخابرات لسيطرته الشديدة على المخابرات ومعرفته بخباياها وكذلك لملكاته الفاضحة بالفساد والفضائح بحيث يضغط به عليه. وفقًا لوصف "توفيق"، فلم يكن هناك أي أمل في هذا العهد الجديد وأنَّ مصر بلد تعس ربما يحمل بداخله جينات فشله، بحيث لا يمكن أن يتحرر منها، وأن الشعب لم يعد يرغب سوى ألا يُعتقل وأن يبقى حيًّا يأكل ويتنفس ويقبض راتبه ويستمتع ببعض الفنون. كما اختفى الولاء للقائد الميت بحيث يُقال عنه: "مات الكلب المسعور منصور الديب واليوم يمكن للواء رئيس المخابرات أن يحكي الكثير عن الطاغية الذي ولَّى والذي عذَّب وأهان وقتل من كانوا حوله"⁽³⁾.

في رواية "في ممر الفئران"، لم يتطرق "توفيق" لشكل النظم المحلية، لأنَّهُ كان يركِّز على أنَّ هناك "القومندان" الذي يسكنُ وقومُه أعلى قمم التبت التي تعلو على مستوى سُحب الغبار المسببة للظلام، وأنَّ هؤلاء القوم يسودون العالم بأسره ويهيمنون على جميع النظم السياسية في العالم. لقد سمَّى توفيق الديستوبيا في هذه الرواية باسم (ممر الفئران)

(1) المرجع السابق نفسه، ص 156-158، 165-167.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 207، 208.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 210-212.

تيمناً بقصيدة "أرض الخراب" لـ (ت.س. إليوت)⁽¹⁾ ليشير إلى بشرٍ أحياء ماتت أحلامهم يعيشون بلا أدمغة تفكر. وفي موضع آخر في منتصف الرواية وصفَ هذه الديستوبيا الشاملة بقصيدة أخرى، أنها مكان به صخر وطريق رملي متعرج بينَ الجبال مع رعدٍ جاف بلا أمطار، لا يجوز فيه التوقف ولا الفكر ولا الوحدة المتألمة ولا مياه للشرب. وتطرق في جزء آخر من الرواية لأسطورة "أرض الظلام" حيثُ أرضٌ لَدَى غاباتٍ إنجازيا في جورجيا يغطيها الظلام بها قوم يُزعم أنهم أحفاد ملك فارسي أتى لهذه الأرض ليطنى على المسيحيين، فدعوا الله أن ينتقم منه فسُجنَ وأتباعه في هذه الأرض في ظلمة كاملة لا يمكن تبديدها، كذلك أشارَ توفيق إلى أنَّ مملكة الظلمات في الأساطير الإغريقية هي مملكة الموتى التي يعبرون نهر "ستيكس" الواصل بين عالم الأحياء وعالم الأموات للوصول إليها؛ ويحكمها "بلوتو" الرهيب وخادمه "شارون"، فما حدثُ بالرواية هو أنَّه بعدَ سقوط النيزك الذي قضى على الأمريكتين، انتهَى عهد العولة واستحال الطيران وعادتُ البلدان للانغلاق على نفسها وطبع صحفها المحلية بطريقة برايل، كما استمرتُ ظاهرة اغتيال النوابغ لخدمة مصالح مجهولة، فأُغتيلَ العالم الألماني الذي اكتشفَ بكتريا تولّد الحرارة وكان موشكاً على اكتشاف بكتريا تولّد الضوء ووجدوا جثته في غابة مظلمة قريبة من داره بعدَ استلامه لجائزة نوبل في الفيزياء وعودته لألمانيا، وبسبب صعوبة نقل الأخبار في الظلام، تباطأ التحقيق وربطُ موته بإنجازاته، وعندما وصلَ خبر موته للعالم كانوا قد نسوا إنجازَه وانطلتُ عليهم خدعة أنَّه مات في سطو مسلح. وقد وصفَ توفيق الحادثة بصورة طبيعية إدراكاً منه لكثرة الاغتيالات، ويقيناً منه أنها بفعل أشخاص ذوي مصلحة في السيطرة على العالم.

وبالفعل كانَ هذا الاغتيال يفيدُ القومندانَ وقومَه، والذين لم يكن الناس يعرفون عنهم أي شيء طيلة سنواتٍ قبل أن يقرروا الظهور للعيان، فبعد بضع سنواتٍ من سقوط النيزك، صحا الناس في العالم على مُكبرات صوتٍ تجوب البلدان تنشر "بيان القومندان الأول"، وتلصقه على الجدران مكتوباً بطريقة برايل، وهو البيان الذي بنى على أساسه شرعيته، كما سيتضح في فكرة "أسس زائفة للشرعية". ولمدة سنوات، لم يعرف أحدٌ هويته وحولَه الجميع لرمزٍ وكأَنَّهُ -على حدِّ وصف توفيق- الأخ الأكبر في رواية 1984 لجورج أوريل الذي يراقب كل شيء،

(1) تقول القصيدة: أفكر أننا في ممر الجردان حيث فقدَ الموتى عظامهم! أي ضوضاء هذه؟ إنها الريح تحتُ الباب! ((وما هذه الضوضاء الآن؟ ماذا تفعل الريح؟)) لا شيء، نعم لا شيء! ((ألا ترى شيئاً؟ ألا تذكر شيئاً؟)) بل أذكر: هاتان اللؤلؤتان كانتا من قبل عيني! ((أحي أنت لم لستَ حياً؟ اليس في جمجمتك شيء؟))"، المصدر: أحمد خالد توفيق. رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص7.

يعرفون فقط - من البيان - أنه يسكن الهيمالايا التي هي أعلى من طبقة سحب الغبار المحيطة بالأرض، فيرى ضوء الشمس ولديه صواريخ يمكن أن يدمر بها أي دولة متمردة، ومحمي من جنرالات روس وصينيين يديرون له الأمور ويخبرونه بالتفاصيل، ولقد وصفه الناس بالساحر الطاغي أو أحد رهبان التبت أو أنه نصف إله، بعدما تنكَّب سلطة العالم، ثم أخضع حكومات الدول وزوَّد أجهزة شرطتهم بوسائل الرؤية في الظلام والتي توفر صورة دقيقة للغاية للشخص كأنهم يرونه في وضوح النهار، لولا أنها تكون صورة مخضبة باللون الأخضر على أن ترتبط بإشارة إلكترونية تصدر عنه شخصياً ولا يمكن العمل دونها، وبذلك تقوم الشرطة بمهامها التقليدية، بالإضافة إلى ضبط جرائم التعامل مع النار والنور وتجبي ضرائب هائلة وتسدها للقومندان، كما أمدهم القومندان بالخلايا البيولوجية التي تشغل السيارات في الظلام والتي كان العالم الألماني المُغتال قد حاول تطويرها قبل موته، مما ذكّر الناس أنه "برومثيوس" الذي اقترب من سرّ الآلهة حتى أجهزوا عليه، أي إن القومندان أدى دوراً في اغتيال الرجل ليمنعه من تشتيت الظلام لأنّ الظلام هو أقوى سلاح في يد هذا الطاغي، هكذا فلم يفضل من إنجازات العالم إلا البكتريا التي تساعد البشر على تسخين الطعام وتبريده؛ وهو ما عقب عليه توفيق أن في هذا العالم يُسمح للناس بأن يأكلوا لكن لا يسمح لهم بالرؤية، كما لم يستطع الناس معرفة معايير اختيار رجال الشرطة الذين كانوا يصفونهم إما بأنهم شياطين حلّت من السماء أو أنهم كائنات فضائية. لهذا استطاعت الشرطة رغم الظلام والجموع أن تتعقب "الشرقاوي" عند فتحه لعداحته في أحد الفنادق. وكطعن آخر في شرعية النظم المحلية، كان هناك "التجنيد الإجباري العالمي" إذ لا بُد للجميع أن يعملوا خادمين عند القومندان لبعض الوقت، وبالطبع كان جنرالات القومندان يشعرون أنهم سادة العالم، وهو ما وصفه أحدهم عندما قال لراقصة لم يسبق لها رؤية الصباح لولادتها في الظلام، وانفجرت في البكاء عندما رآته من شرفة القلعة: "(نعم، نعم، أعرف ما تشعرين به، هذا البهاء لنا وحدنا! كان من حق الجميع، فصار من حق الصفوة، إننا سادة العالم بلا مبالغة)"⁽¹⁾.

أمّا الحقيقة وراء هذا القومندان -وهو ما عرفه الشرقاوي في نهاية الرواية- أنه ليس شخصاً أبداً، بل مجتمع الثروة والقوة، فبعد سقوط النيزك، جمع أصحاب الثراء والنفوذ خاصة جنرالات الصين وروسيا وبعض الدول الأوروبية والأثرياء العرب أنفسهم وصعدوا إلى قمم الهيمالايا، وخلقوا مجتمعا خاصاً يسيطرون على العالم، ولعلمهم أن الشعوب تميل للفكرة المجردة، أنشأوا اسم "القومندان" بحيث يصدر عن قراراتهم جماعية ويضعون

عليها اسمه، وصفَ أحد الأثرياء العرب الأمر لراقصة إيطالية، أنَّهم بعدَ سقوط النيزك خطر لهم الصعود لهذا المكان ليكونوا فوق آلام العالم ومخاوفه وأخبرها أن الدائرة المقربة فحسب تستطيع رؤية القومندان، الذي: "يتصرف كإله لكنه لم يخلق النور بل انتفع بغيابه، لم يقل (ليكن النور) لكنه قال: (ليكن الظلام)⁽¹⁾"; بينما حدثها الجنرال الروسي السابق ذكره أنَّ القومندان راهب من التبت لا يظهر للعامة كثيرًا، ويحبُّ التأمل ويشبه "الدَّلاي لاما"، أي إنَّهما لم يطلعاهما على حقيقة أنَّ القومندان فكرة وحسب، لأن هذه الحقيقة هي سرُّ وجودهم وسلطتهم.

وعلى الرغم من ملامح اليوتوبيا في دولة "شآبيب"، فإنَّها لم تكن تخلو من معالم ديستوبية، فقد اعتمدت الدولة في إدارة أمورها على "مجلس للحكماء" يتزعمه "البروفسور مكرم ميخائيل" والذي كان يُقام في رقعة عشبية قُطعتُ الأشجار حولها لتبدو كملعب ضخم محاطة بجذوع أشجار تبدو كعواميد خيمة مغطاة بمظلة من قماش مخطط يجلس أعضاؤه أرضًا. يتكوَّن من فيلسوف مسلم وشاعر روائي وأستاذ للعلوم السياسية وآخر في القانون الدولي وطبيب وأديب ويتفرع منه مجلس حربي مصغر يتكون من "سليم" ورجل آخر ضخم الجثة أشبه بجنرالات الحرب الأمريكيين. مع ذلك، فقد ذكر "توفيق" في السرد أنَّ مكرم شكَّله مكرها واضطرَّ لقبول بعض آراء الأعضاء في القضايا الكبرى فقط لتثبيت الشكل الخارجي للدولة ولإستعادة التفاصيل التي كتبها مع رفاقه في كتابهم "تاريخ لا يحكونه في المدارس" عن "شآبيب" القديمة. يجتمع المجلس أسبوعيًّا للنظر في أهم القضايا ولسن القوانين وقراراته ملزمة إلا فيما يخصُّ شئ الحرب أو وقفها والقرار النهائي يكمنُ في قبضة "مكرم" و"المجلس الحربي"، ورغم الشكل الديمقراطي للمجلس، فقد انطوى على ديكتاتورية جامحة إذ كان مكرم يختار الأعضاء الذين سيكونون على هواه ويرون ما يراه؛ معترفًا بداخله أنَّه لم يعد مُحِبًّا للديمقراطية ويراها خطرًا على حلمه الذي بدأ في التآلف والتشكُّل: "أنت تحتاج إلى أن تطأ بعض الناس في الطريق لهدفك، ولو تركتُ مصيرك وقرارتك للآخرين، فلسوف تضيع! ليست الغالبية هي الأحكم دائمًا! ألمانيا انتخبت هتلر الذي دمرها؛ أمريكا كانت تحارب تحرير الرق؛ الأحكم من كل الحكماء هو أنت، أنت وحدك تعرف ما تريد وكيف يتحقق... مكرم في الطور الحالي من حياته يعيش بمشاعر وخلجات ديكتاتور"⁽²⁾. وفي نظر المجلس للمذبحة التي أقامها "سليم" في السكان الأصليين -التي

(1) المرجع السابق نفسه، ص 277.

(2) أحمد خالد توفيق، رواية شآبيب، مرجع سبق ذكره، ص 254، 255.

سيرد ذكر تفاصيليها في الجزء القادم- تجلّت سطوة مكرم على الموجودين بتوصيته أن تكون المذبحة الأخيرة وتجاهل آراء المعارضين الذين رأوا وجودهم في الجزيرة احتلال إحلالي يستوجب إبادة الوطنيين، وأنهى الأمر بإصدار قرار نهائي بعدم القيام بأي عملية حماسية دون إذنه وإذن مجلس الحرب، بل أصبح ديكتاتوراً حقيقياً يصدر قرارات الموت والحياة كما فعل مع أحد السكان الأصليين - كما سيتقدم الذكر - المصاب بفيروس "كورونا" الذي أصدر الأمر بقتله؛ مطالباً أمانة-التي اعترضت - أن تتذكر أنه القائد الذي يعرف ما ينبغي عمله، وكان الجميع - بما فيهم الأطباء - يؤدون التحية العسكرية له: "رأى الطبيب مكرم فأدى له التحية العسكرية! لم يكن لهذا داع فمكرم ليس جنراً والطبيب ليس جندياً؛ لكن هناك طابع عسكري عام في المكان"⁽¹⁾.

وجاء "سليم" بعد اغتيال "مكرم" على يد السكان الأصليين ليلغي تماماً فكرة الديمقراطية، حتى لو كانت زائفة كما كان الأمر في عهد مكرم، فبدأ حكمه في اليوم التالي على اغتيال "مكرم" ليخترق هواجس ومخاوف المهاجرين من القادم خارجاً إليهم بملابسه الممزقة وعضلاته البارزة ولحيته الطويلة وقسماته الخشنة صاعداً لإحدى المنصات، مذكراً إياهم أن مكرم مات وجزيرتهم سفينة طافية في المحيط تحتاج رباناً جديداً في أسرع وقت. اقترح أن يتولى المنصب وبداخله يقين أنهم سيبيعونه لعدم وجود أي مرشح محتمل بعد مكرم ولعلمه أن مشاعر الجميع مضطربة ولن يرشح أحد نفسه في أي انتخابات قد يجبرونها خاصة والدولة في مراحلها الأولى. هكذا لم يعارضه أحد وأصبح هو القائد الجديد يضافه الجميع ويهللون له، بينما علّق توفيق: "هذا أسلوب عجيب لاختيار رئيس! لا بد من انتخابات يتم ترتيبها لكنه فرض نفسه بطريقة أشبه بالمبايعة! اختطف الموافقة قبل أن يستوعب أحد الأمر"⁽²⁾، وعلمت أمانة -رغم حبها له- أنه شاب جامح يحمل غضبا داخليا كبيرا وسيجلب الكثير من المتاعب بينما وصفت ابنتها تنصيبه بأن حكم (جبلاية القروود) لا يستدعي كل هذا التهليل. وصدقت ظنونها، وحكم سليم بعنف شديد وكبّل قدرة "مجلس الحكماء" تماماً فلم يعد للمجلس سلطة منعه عن الغزوات الدائمة على السكان الأصليين، إذ كان هو -سليم- زعيم مجلس الحرب الذي يملك قرار الحرب وحده، والذي كان مستعداً للحرب كل ساعة. بعث لנائب الرئيس الأمريكي كاذباً أن قد تمّ انتخابه وأنه يسعى لاتباع نهج الديمقراطية الذي بدأه "مكرم" وأنّ أصدقاءه يساعدونه، وأنه بحاجة للمزيد من

(1) المرجع السابق نفسه، ص 265، 266.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 285-287.

السلاح لهزم المقاومة المحيطة بهم. ومع استمراره في قتل السكان الأصليين وحرق أكواخهم، عمّر هو ورفاقه الجزيرة وأنشأوا أسواراً خارجية للحماية وربّوا الماشية التي خلفها البدائيون، بات يقابل الناس في كوخٍ مسقوف اعتبروه مركز القيادة ومسدسه بجوزته لا يزايله وبمكتبه خريطة دائمة لشآبيب ومعسكراتها وتسلسل الشيب لرأسه، بسبب غضبه المستمر وطموحه المكتوم ونُدْرَ ضحكه ومقت الترف والبهرجة ودأب على قراءة الكتب السياسية والأدبية ليحسن إدارته وأتقن اللغة الإنجليزية.

3- مصادر زائفة للشرعية: تجلّى هذا العنصر في رواية "في ممر الفئران" مع البيان الذي من خلاله ثبّت "القومندان" سيطرته على العالم، إذ جابّت مكبرات الصوت وسط الناس ترده، "إلى رعايا القومندان في أرجاء البلاد، هناك في أصقاع سيبيريا وشوارع لندن وأزقة إسطنبول ومعابد التبت ومساجد القاهرة وغابات أفريقيا وصحاري أستراليا... اعلّموا أنّ القومندان هو القلب الراعي لكم ويعني بكم ويوفر لكم حياة كريمة؛ لكنّه الآن ذاته يحكم العالم وليس بوسع أحد أن يقاومه؛ إنّه لا يطالبكم بالتخلي عن وطنك أو دينك أو مالك... فقط يطلب أن تقدموا له نسبة من منتوج بلادكم مقابل حمايتكم وأن تقبلوا بسلطته.. المكفوفون في عالم قاسٍ سريع الإيقاع هم أقرب لأطفال يتخبطون ويحتاجون لحمايته. الظلام يجعل المرء هشاً بلا أنياب ولا أسرار.. القومندان يرى لهذا يقدر على حمايتكم كما يقدر على إيذاكم، إنّه دأن من الشمس ولديه موارد الطاقة والنباتات التي استزرعها في قمة الجبل.. لكن القومندان اختار لكم الظلام، عقيدتكم الظلام.. الظلام مقدس طاهر ويجب أن تعيشوا فيه أبداً... النور دَنس يلوث الظلام ولهذا يحرم عليكم البحث عنه.. لا أحد يشعل النار حتى لو كان هذا ممكناً؛ فالنار حق أصيل للقومندان وليس من حقّ سواه"⁽¹⁾، بل تابع البيان يذكرهم بأسطورة "برومثيوس" الإغريقية الذي عُوقِبَ لمحاولته لنقل النار للبشر بإجباره على صعود جبل يومياً ليأكل نسر كبده. وفي هذا التذكير تخويف للبشر من أنّ عقاب مستعملي النار والباحثين عنها لن يقل قسوة إذ سيعدّونه كفراً يستوجب التعذيب والقتل، كما لم يطالبهم بالتنازل عن دينهم أو معتقداتهم أو كرامتهم وإنما عن كبريائهم الساعي للفهم والتمرد أمرهم أن يطيعوه ويدينون بالولاء الكامل له.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 182، 183.

يتضح من البيان عالميته وأنَّ سطوة القومندان وقوانينه تمتد للعالم كله؛ وأنه شرعُ القرارات القمعية بالترغيب أولاً من خلال تأكيد عدم المساس بالملكية والدين والقومية والعرض، علماً أنها مسببات الثورة؛ وعدَّ لهم أسباب وجوب طاعته وتوليته سلطاناً عليهم إذ يقدر على الرؤية ويمتلك موارد الطاقة ويدنو من الشمس. ثم رسَّخ القرارات بالترهيب بأنَّ رؤيته تمكَّنه من الحماية والأذى في وقت واحد مع استخدامه لألفاظ دينية كما "الطهر"، "الدنس"، "الكفر" مخاطباً المتدينين الخائفين من عقاب الله على الأرض، وبحديثه عن بشاعة العقوبة للمخالفين. هو بيان لفرض وشرعنة سيطرته بالترغيب والترهيب وإن تغلبت نبرة الترهيب لكونها الأكثر منطقية، لكونه المبصر الوحيد وسط عالم أعمى.

كانت هذه الفكرة تسيطر على رواية "شأبيب" إذ كان "مكرم" يعتمد في توطيد شرعية نظامه السياسي في الدولة الوليدة على نشر الأكاذيب والشائعات، وهو ما وصفها "توفيق" في إحدى المواضع: "...حول النار يتم تناقل الأخبار والقصص والأكاذيب. نعم، لا بدَّ من الأكاذيب! إنها طعام الطموح ووقود الحماسة. إنها الأقدر على تحريك الجماهير وهي المادة الخام للأحلام... الصدق كثيب مخيب للآمال كنهار خريف، بينما الأكاذيب تحلق بك في سماء ربيعية ثم تهبط بك فوق وسائد المجد المتخيل"⁽¹⁾.

وكذلك عوّل على الحسّ الوطني باختياره لقصيدة من الكتاب التاريخي الذي زيفوا فيه حقائق عن وجود العرب والمسلمين في جزيرة بابوا غينيا، لتكون نشيداً وطنياً والذي لقي قبولاً مجتمعياً كبيراً وذلك لإدراك مكرم لأهمية الأغنية القومية في صنع جو وطني يدفع الناس للتضحية، وجعل ملحن النشيد -وهو مهندس سوري- مطرباً للثورة خاصة وأنه كان يصدّق ما يغنيه، والحق أنّ بعض هذه الأكاذيب كان على وشك الانكشاف عندما بدأ عالم آثار عربي عمليات الحفر في الجزيرة لاستخراج أطلال دولة شأبيب القديمة، مؤمناً أنه من المحال إزالة عاصمة كاملة دون ترك جدار حتى. اضطرَّ مكرم بداية أن يعطيه الحرية لتثبيت أذوبته، لكن عندما لم يجدوا سوى إناء فخاري مهشم عليه زخرفة عربية وتشكك العالم منها، لأن الخط كان مغريباً غير شائع في عهد "الحارث" واقترح إرسال الإناء للولايات المتحدة لتقدير عمره بالكربون المشع؛ هنا فزع مكرم لعلمه أن مساعده هو من ابتاع الإناء من أحد الأسواق ونزع عنه لاصق "صُنِع في الصين" ودفنه في التراب بأمر من مكرم ووزع آثار شبيهة تحت الثرى في أول يوم للقوم في الجزيرة.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 229، 230.

اشتعلت نفمة مكرم على دقة العلماء، فاضطرَّ بدايةً لأن يُفهمُ العالم الذي كان يسعى للحقيقة العلمية؛ أنَّه يحتاج لإثارة حماسة المهاجرين وشعورهم بالانتماء وأنَّه -العالم- بتشكيكه في أصل الإناء يقاتل لإثبات أنَّهم كاذبون. وعندما استمرت علميات البحث دون إيجاد أي أثر ذي قيمة واستنتج العالم أنَّه لم تكن هناك عاصمة للعرب في هذه الجزيرة، وأنَّ الأمر لا يعدو عن كونه أسطورة؛ هده مكرم أنَّه سيعد كلماته تلك في هذه الظروف العصيبة خيانة صريحة؛ وطلب منه تلفيق أثر أو اثنين ليقنع المهاجرون أنَّ لهم حقاً تاريخياً في الجزيرة. ولما أبى "العالم" رعبه أن يكون الأمر مفضوحاً، أجابه مكرم: "بالعكس! من يجرؤ على التشكيك؟! فقط رتب لي سيناريو استخراج بقايا بناية وسوف نعلن أننا وجدنا مسجد الفيروز الذي هدمه العباسيون"⁽¹⁾، بل وكان يكاتب نائب الرئيس الأمريكي بمخاوفه، وأنَّه أسس الدولة على أساس ورقي قبل أن يراهن على أنَّ البنايات التي سينشدها عليه من حجر وقرميد فوقه سيثبت هذا الأساس الواعي؛ معترفاً أنَّ الكذب بات عادة وأنَّه يخرس أصوات المتشككين ويعاملهم كالملاحدين، وأنَّه يلعب لعبة خطيرة، إلا أنَّه كان يؤمن بأنَّ هدفه سام ورجا لو تتذكره الأجيال القادمة باحترام كما يتذكرون "بيسمارك" و"ماتيزيني" مختاراً أبدية روحه حتَّى لو فنى جسده.

4- العنف السياسي: ظهرَ هذا البُعد الديستوبي في رواية "شآبيب" على وجه الخصوص فقد تعامل النظم السياسية التي حكمت الدولة الوليدة مع ملف "السكان الأصليين للجزيرة". خلال حُكم "مكرم"، فكان هناك خلاف في منهج التعامل بينه وبين "سليم"، فعلى الرغم من مخاوف "مكرم" منهم فإنَّه لم يتعجل المواجهة وفضَّل أن يكون ردَّ فعل وليس فعلاً، على الجانب الآخر، كان نائبه "سليم" لا يتوانى عن التواجه معهم لإيمانه بأنَّ المهاجرين يحتاجون الجزيرة بأكملها، وأنَّ إبادة السكان الأصليين ضرورية لأنَّهم يعيقونهم ولأنَّهم قررة بلا أهمية لن يخسر أحد شيئاً بموتهم، كان هذا انعكاس لإيمانه بأنَّ البشر شرُّ والأخيار متخاذلون والقسوة هي كلمة السر للسعادة والانتصار والهيمنة، بدا هذا في مشاجرته مع بعض حمالي القبائل الذين طلبوا زيادة أجورهم (الملح والخرز والقواقع)، إذ لم يتحملهم وانهال عليهم ضرباً بعصاه معوّلاً على غضبته الجامحة التي غلبته عليهم.

وهنا عَقَبَ "توفيق" ضمناً عن العامل النفسي للحكم السياسي، "برغم أن بوسعهم أن يمزقوه لو أرادوا، فهناك حاجز نفسي يقيه منهم؛ كما مُدْرَب الأسود يفرض سلطة على أربعة أسود قادرة على تمزيقه. حاجز الهيبة يحميك لكنه ينهار بسهولة جمّة وعندها ينتهي كل شيء! أحشاء ماجلان التي لوَثَّت رمال شاطئ مَلَقَة تشهد على ذلك"⁽¹⁾، بل ودون الحصول على إذن "مكرم" أغار -مع رفاقه- على مجموعة من هؤلاء السكّان خلال احتفالهم بعيد ديني اسمه (عيد الخنزير) يتناولون خلاله كميات كبيرة من لحم الخنزير والخمر ويرقصون ويمارسون الإباحية، كانت هذه المجموعة تسكُن منطقة محاطة بسلسلة جبال حفظتهم منذ بداية الخليقة عن أي اعتداء ووصل إليهم سليم بعد تسلق ليوم كامل. لم يكونوا على علم بالأسلحة النارية لانزعالهم وراء جبالهم، واستغلّ سليم ذلك، فأطلق النار في الهواء أولاً لإربابهم خلال خمولهم بعد السُكر، قبل أن يصنع مذبحة بالسنج والسيوف ويشعل النار. لم يغتصب ورفاقه نساءهم لقدارتهم ومرضهم بدءاً (الياوز) المُعدي. من قسوته، داس على من يتعثر من الأهالي الهاربين، وأعلن النصر حينما هرب الأحياء مردداً أن طرد الأهالي كان ضرورياً لإنشاء مستعمرة جديدة. وعندما عاد المغيرون ملوثين بالدماء، استقبلهم قومهم بالطعام والماء والشعور العام بالفخر الوطني فراح يتغنّى بإنجازه. وأجاب "أمانة" عن سؤالها عما جناه هؤلاء السكّان ليستحقوه قسوته، أن زوجته وطفليه لم يذنبا كذلك وماتا لاختلافهما وأن هذه: "هي رسالة العنف التي نأخذها وننقلها بأمانة وصدق لآخرين. هناك فتى هرب من القبيلة هذه الليلة وهو يحمل ذكرى دامية لما فعلناه ولسوف يعذب ويذبح آخرين فيما بعد عندما يصير أقوى وهكذا إلى يوم الدين، إنّه ميراث مقدس يجب ألا ينقطع"⁽²⁾.

هكذا كان قاسياً ومتحفظاً بعضلاته وفكرته أنه لم يبدأ سلسال الدم، وإنما المضطهدون الأجانب وأنه يقبل الحياة ظالماً على أن يكون مظلوماً. وهذه الفعلة الأخيرة قد تسببت في استياء مكرم الذي لم يفتخر به وطالبه بإيقاف عملياته في أسرع وقت. ولما استنكر سليم أنه ينفذ فكرة "مكرم" نفسه أن الولايات المتحدة نشأت على أنقاض الهنود الحمر، أجابه مكرم أن يكتفوا بعملية واحدة ولو كرروها، فهذا سيزيد ثأر الدم الذي سيضطرون لدفعه مجرد تمكّن السكان منهم، كما عُرِضَت المسألة في "مجلس الحكماء" ليعاود مكرم بالتوصية ألا يكرروا المذبحة حتى لو ستكون نتيجتها في صالحهم؛ وأجاب استنكار أستاذ العلوم السياسية -الذي كان عضواً بالمجلس- الذي كان يعرف أن مكرم سبق وحسم أن

(1) المرجع السابق نفسه، ص 246.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 250-252.

وجودهم احتلال إحلالي يحتم إبادة السكان الأصليين؛ أنَّهُم ما زالوا ضعفاء وقد يحتاجون للعنف في المستقبل، وأنَّهُ حتَّى هذه الحالة سيعد دماء الأهالي الذين لم يعتدوا على أحد مقدسةً. هُنا بدَّت البغضاء بينه وبين سليم وفي يوم آخر تشادًا مع بعضهما في مشادة يرى سليم أنَّهُ على صواب وأنَّهُ لم يختَر مكرم حاكمًا أصلًا، بينما مكرم يفهمه أنَّ عناده سيضيعهم وأنَّهُ اختاره زعيمًا لما قبل بفكرة دولة "شآبيب" التي هي فكرته؛ فخنَع سليم آنذاك. وقد وصفه مكرم في إحدى رسائله التي يبعثها بانتظام لنائب الرئيس الأمريكي أنَّهُ جواد حنون حانق من الغرب، ويوجه غضبه نحو السكان الأصليين، وأنَّهُ -مكرم- يكبله بكل ما أوتى ويبقيه وزيرًا للحربية لذكائه وقوته ونشاطه⁽¹⁾.

وقد كان لمكرم نزعاته العنيفة جهة السكان الأصليين أيضًا، فكانت مدن شآبيب تنمو على أنقاض القرى التي كان الأهالي المذعورون يخلونها، وكان يستغل الظروف لدس الرعب في قلوبهم لتكبير ثورتهم، فمثلاً؛ أمر حارسه بإطلاق الرصاص على رب أسرة من السكان الأصليين كان مصابًا بفيروس اسمه "كورو"⁽²⁾ بعدما عرف من الطبيب ألا أمل في شفائه. قتله رغم استهجان "أمينة" التي كانت معه وأجابه أنَّهُ يريحه من عذابه من ناحية ومن ناحية أخرى فعلها لتركض زوجة الرجل مذعورة تحدثهم عن جنون (الشياطين القادمين من البحر) الذين يذبحون بلا رحمة ليخلوا المزيد من القرى. ومع حُكم "سليم" -بعد اغتيال مكرم- فقد استغل شعارات مكرم أنَّ (الحاجة للخلوى يحتاج نازًا) و(أبيد الهنود الحمر لإنشاء الولايات المتحدة) وتصاعدت وتيرة العنف السياسي جهة السكان الأصليين؛ فكثر الهجوم والجرحى وإشعال الأكواخ، "هناك وحش في أعماق كل الناس يتحرر في ظروف خاصة لتدرك أنه موجود! أنت موظف أصلع نحيل هادئ الطابع شديد التدين والرومانسية ثم تجد نفسك فجأة في غمار حرب وأنت قادر على سحق خصمك؛ عندها يتحرر وحشك الغافي وترتكب فظائع لم تتصور قط أنك قادر عليها"⁽³⁾، بل كان يلح دومًا على نائب الرئيس الأمريكي بإرسال أسلحة لهزم المقاومة؛ وطلب منه في إحدى المرات طائرات أمريكية تحرق الحاجز الذي يحاربه رجال القبائل من وراءه بشراسة. تقبل النائب لإيمانه أنَّ على الولايات المتحدة مساعدتهم، ولما تمتَّ عملية هدم الحاجز، راقبه سليم راضيًا بينما أخبرته أمينة أنَّهُ بات مستعمرًا حقيقيًا يبذر الهلاك والنار، ليفكر أنَّهُ - بهذا القصف - قد كفاه شهرًا من القتال وعلى من يلومه أنَّ يفهمه.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 250-253، 255-257، 261، 277، 278.

(2) وهو فيروس ينتج عن عادة أهالي "بابوا غينيا الجديدة" في أكل مَخ الموتى للحصول على حكمتهم وقوتهم؛ من أعراضه التسبب في الضحك للمريض حتَّى الموت، (المصدر: المرجع السابق نفسه، ص 266).

(3) المرجع السابق نفسه، ص 289.

5- الخلط بين النظام السياسي والوطن مع النظرة الأبوية للقائد: بدا هذا واضحاً في رواية "مثل إيكاروس" إذ يخلطون بين القائد المُفدَّى وبين الوطن، فعندما حضر رجال المخابرات لأخذ "محمود" لاستجوابه ونبههم طبيبه أنه لا يقدم النبوءات إلا عندما يريد، فقد، "بَدَتْ نظرة وطنية غاضبة لها لون العلم في وجه الضابط وقال: "(ما نريدُه واجب وطني من أجل مصر، ليس من حقه أن يختار وإلا لكان من حقه أن ترفض التجنيد الإجباري).. هو الخلط الأبدي بين الوطن والقائد المُفدَّى.. يجب أن يخبرهم محمود بمزيد من محاولات الاغتيال وألعاب المعارضة وإلا فهو يخون الوطن"⁽¹⁾. وهذا ما يفسر الارتباك الشديد الذي عمّ مبنى المخابرات العامة وخروج ضباطه من مكاتبتهم شاحبين مذعورين متعرقين لمعرفتهم بموت القائد المُفدَّى لدرجة أنَّ أحد عاملي المبنى ارتعب مما حدث مذهولاً من أنَّ القائد يموت مثلاً يموتون بعدما حسبوه لا يموت أبداً، واصفاً موته أنه أبوهم وربان سفينتهم الذي حماهم من الفوضى والشيوعية والتطرف الديني والجوع. ورغم موته منذ أربع ساعات، لم يقوَ رئيس المخابرات على إعلان الخبر وظل مع الأطباء يحاولون بعثه للحياة، وهو ما علّق عليه توفيق: "...سوف يستمرون في المحاولة إلى يوم الدين أو حتى يأمرهم زعيم مفدى آخر بالتوقف"⁽²⁾. وفي أثناء أيام الحداد عليه، ساد المجتمع توتر مفرغ مع انعدام توازن، وهو ما وصفه توفيق، بأنَّ البلاد كزوجة خاضعة: "كان زوجها يجلدها ويضربها ثم اختفى فجأة، لكنها لا تشعر بالسعادة ولا تستطيع المشي من غير أصفاد ثقيلة تكبل قدميها. عقدة الأب الشهيرة والشعور بالذنب، العقدة التي وصفها إليا إهرنبوج في ذوبان الجليد واصفاً لحظات موت ستالين وتأثير هذا على سجناء الرأي في سيبيريا، لقد بكوه بحرارة"⁽³⁾.

وعادَ توفيق لذكر هذه الفكرة من جديد في رواية شأبيب إذ كان المهاجرون العرب يعدون "مكرم ميخائيل" زعيماً وأبو الدولة كلها لدرجة أنَّهم لم يعرفوا أنَّه مسيحي إلا عندما صلّى على جثته قسّ. عندما اغتيل، سالت دموعهم بحسرة وذاقوا مرارة التكل وشعروا نحوه بالذنب، متسائلين إن كانوا هم من تخلّوا عنه أو إذا كان بأيديهم منع الأمر من الحدوث بزيادة حراسه والتخطيط لحمايته من هذا اليوم. وانتابهم الخوف والتشكك في المستقبل بعدما كانوا يظنونهم لا يموت؛ وهو ما وصفه توفيق أنَّه ظاهرة "الحاكم الأب

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 193. 194.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 206، 207.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 210.

والإله" محتارين في الخطوة التالية. ولم يستطع سليم أن يخلصهم من هذه العقدة، عقدة "شيخ القبيلة الذي يؤمنون أنه يعرف كل شيء، فمنذ موت مكرم وسادت حالات اضطرابات وتفشت شكوك من كانوا يتقنون به، فوصفه شاب مغربي أنه كان دائماً موجوداً ليصحح أخطاءهم ويعالج خلافاتهم وكان يعامل الكثيرين بغلظة كالأب الذي يبتغي الخير لأولاده وكانوا يتفهمونه. ذلك في حين أكد شاب سوداني أنه الوحيد الذي خطرَ في باله فكرة أن يوجد وطن قومي لعرب الشتات لذا هو من أخرج الفكرة من الظلام والوحيد الذي كان يعرف الخطوات الموصلة لهذا الهدف وبموته فقد خسروا البوصلة⁽¹⁾. لكم تمنى "سليم" لو يقضي على هذه الفكرة، لكنه فشل: "... مثلما يصر كل ما يرتفع على أن يلبي نداء الجاذبية، فالعرب يصرون على أن يعودوا في كل مرة لعقيدة الأب الإله الذي يعرف كل شيء ويسهر من أجل الجميع ويرى الغد كما لا يراه أحد"⁽²⁾.

6- التوظيف الانتهازي للدين لأغراض سياسية: كان هذا العنصر من ضمن ما تناولته الروايات الأربع بصور مختلفة: فكان يظهر إما من خلال استخدام الطبقة الحاكمة للدين أو نبذهم له من أجل أغراض سياسية؛ أو استخدام جماعات معينة للدين للوصول للسلطة وحشد المناصرين. ففي رواية يوتوبيا، -كما سيتقدم الذكر في الفصل القادم- يتدين أهل اليوتوبيا تدينًا ظاهريًا فقط من أجل أن يحفظ الله لهم ما هم فيه من امتيازات، فيصلون ويؤدون العمرات أكثر من مرة سنويًا، بينما يمارسون أشد المجون في الباطن⁽³⁾. وفي رواية "مثل إيكاروس"، مثلما استعرض الفصل السابق، عاشت شخصية "مصطفى أبو الحسن" في فترة سبعينيات القرن العشرين وشهد تصاعد سطوة الإسلاميين على الجامعة حتى جعلوه يتحول من ميوله الشبه شيوعية ليكون أحد أعضائهم ويتطبع بطباعهم، حتى بدأت هذه السطوة في التهاوي مع الاحتلال الروسي لأفغانستان والنظر للمجاهدين منهم نظرة سوء، ثم وصولهم للسلطة بعد ثورة 2011 قبل أن تُسحب منهم في 2013 ودخول بعض قادتهم في طور التصالح مع الحكومة بما ينافي قواعدهم التي عرفهم مصطفى بها.

وتطرقت الرواية إلى شكوكه -مصطفى- بعد هذه الفترة وتحول رفاقه عليه وعلى أفكارهم السابقين. لقد أطلق المدونة باسم "لا أدري"، وكتب فيها مقالاً يوضح تشككه في

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 285، 298، 299.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 299.

(3) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 21.

قيمة الإسلام السياسي عامّة، فَرى أنَّ الدولة الدينية إذا تحققت، فستشابه الدولة المدنية في ديكتاتوريتها والفارق هو الأسماء، فرئيس الجمهورية سيكون خليفة ووزارة المالية ستكون بيت المال، كما ستنطوي على تكميم الأفواه وتكفير المعارض وإخراجه عن الملة مع إنشاء جيش فقهاء يبررون كل شيء ويقطعون يد سارق أو رجم زان ما دام ليس له سند لمجرد إرضاء الجماهير، ويتحول الصحفيون إلى محامين شرسين للدين. رأى أن معظم المسؤولين في مصر يستعملون الدين بصفته مبررا لقسوتهم ولضيق أفقهم بما فيهم ضباط المباحث الذين خبر أنَّهم يحتفظون بنسخة من المصحف ومسبحة في مكاتبهم، وفهم بعد ذلك مدى اتساق الظاهرة، إذ إنهم بحاجة ليسامحهم الله على الجرائم التي يرتكبونها في حق المعارضين. وإذا كان في ماضيه يستبشر لاعتقال الحكومة له ظاناً أنَّهم يزيدون حسناته وكان يجهز حقيبته ليلاً وينهض مع المخبرين بفخر، فبعد ثورة 2013، بات يستغرب إذا أخذوه للاستجواب لفقدانه لإيمانه السابق وهجره للكفاح. ويلاحظ تطرق توفيق لطبيعة العلاقة بين "مصطفى" - كأحد أعضاء الجماعات الإسلامية- وضابط أمن الدولة إذ بعد عشرات الاستجابات انتفت الندية والخصومة، وبقي الود بحيث لا هو يؤدي دور البطل ولا الضابط يؤدي دور رجل المباحث الشرس وكان طبيعياً أن يتصل بالضابط طالبا منه وساطة لأحد أقربائه أو للبحث عن ابن صديق معتقل.

وفي رواية "في ممر الفئران"، احتاجت عملية إقناع المواطنين بتقبل الظلام إلى اعتبارها أنها عملية تربوية معقدة تبدأ منذ الطفولة بإنشاء الأطفال على أنَّ الظلام هو الطبيعي، والنور خدعة يحدثهم عنها الخونة المنافقون الذين يريدون إهلاكهم. كما ظهر القصص شبه الديني الذي يكرر أسطورة "بروميثيوس" الوغد الهرطيق الذي لم يرض بقدراته البشرية واستحق العقاب الشنيع. واستعانوا برجال دين (شيوخ وقساوسة وحاخامات) وظهر "كهنة الظلام" الداعون الناس إلى محبة نعمة الظلام بحجة أنَّه إرادة الله الذي لو أراد أن يعيشهم في النور، لما حجزهم وراء الغيوم. بذلك جندوا البشر ضد الثورة وأن ينظروا لأي محاولة إيصال النور إليهم أنها خيانة تستوجب الفتك بفاعلها. أما في رواية "شآبيب"، فتجلى هذا التوظيف السياسي للدين في أفكار "محمد عدنان" الذي كان مُنضمّاً في شبابه لجماعة الشيوعيين بالجامعة لحبه إحدى التأثيرات منهم، إذ كان مُدركاً أنَّه بينما كانت أفكار اليساريين غير منطقية في المجتمع المصري الحديث، فإنَّ الإسلاميين كانوا أكثر تنظيماً ووجوداً في الشارع بتوظيفهم للدعوى الدينية بغرض حشد المناصرين، وأنَّ مشكلتهم تكمن في معرفة الحكومة بنفوذهم ومحاولتها سحقهم بحيث لم يبق إلا قطاعات

حذرة لا تتكلم بل تسمع وحسب، بل بعدما قُبِضَ عليه واعتُقلَ في زنزانه مع بعض الإسلاميين، شاهدَ مُعاملة الحكومة معهم بعدما سقطوا عن الحُكم، بحيث ما دام لم يعودوا بحاجة إليهم، فقد عملوا على كسر شوكتهم بتجاهل مرضاهم ومعاملتهم أقسى المُعاملة، فتباطأت إدارة السجن في معالجة أحدهم الذي أصيبَ بذبحة صدرية حتَّى ماتَ، وهو ما هيجَ ثورته التي أحمدها مما تسبب في صدمة شديدة له وعدم ثقة بالحكومة دفعته للهجرة لأستراليا بعدها بسنوات، كذلك تجلَّى هذا التوظيف السياسي للدين من قِبَل الجماعات الدينية وتردي علاقتهم بالعلمانيين الشيوعيين في الحوار الذي دارَ بينَ "عبد المنعم" مع أُمْنِيَة ومع ماهر العلماني، والذي جاءَ الكتابُ عليه بالتفصيل في الجزء الثاني منه. ورغمَ أحلام "مكرم" في تحقيق حرية الأديان وتسامحها في دولته، خاف من المسلمين المتعصبين، ملاحظاً أنَّ هُناك داعيةً سورياً يجمع مريديه منذ بداية الدولة، وفكَّر: "شبح الدولة الدينية يتوهَّجُ من تحت الرماد دائماً! كلما حسبت أنك دفنته، يطل برأسه"⁽¹⁾.

وبالفعل بعدَ موته -مكرم- ظهرَ وحشهم الكامن وهاجموا الأجانب المسالين الموجودين في الجزيرة بدافع تطهير البلاد، وطالبوا "سليم" بتسليمهم مقاليد مسجد الجزيرة لكونهم أحقاً منه بقيادته، ونشروا كلاماً عن تطبيق الشريعة رغمَ عدم مواءمته مع ضعف الدولة الوليدة، وكانَ يحدثهم عن ضرورة إنشاء الدولة قبل أن يتحدثوا عن نوعية الحُكم. انتبه لداعيَهم السوري وعرفَ أنَّه كانَ مهندساً مدنياً في سوريا قبل أن يفرَّ من الاضطهاد لبريطانيا حيث صارَ داعية، جلبابه أسود ونظراته ثاقبة وكاريزمتة عالية يحشد بها الكثيرين يحدد لهم الحق من الباطل، ويزرع في فكرهم نظرية المؤامرة، وأنَّ العالم يريد القضاء على الإسلام، والدهماء حوله ينبهرون به ويعدونه مقدساً. كانَ "سليم" - السياسة- قد قرَّرَ أنَّ يبقى مستتبداً بالسياسة حتى تستقرَّ الأحوال ويجعلها دولة ديمقراطية أو ليبرالية، لكنه كانَ يرفضُ الدولة الدينية تماماً إذ يدرك أنَّه: "عندما يعتقد بعضهم أنهم يتكلمون بلسان السماء، فالنقاش معهم مستحيل ولسوف يتحول المجتمع إلى فرق تعتقد كل فرقة أنها وريثة الرب في الأرض...التطرف الديني لا يزول متى ولدا! إنَّه ينكمشُ ثم يظهر في مكانٍ آخر ويتمدد وكالعادة يطالب بكل شيء، وليس على استعدادٍ للتعايش مع الآخر أو قبوله أو حتَّى تقسيم الحكم"⁽²⁾. ولهذا كان هو من أصدر قراراً باغتيال هذا الداعية للحد من انتشار أفكاره، فهوجم الرجل إحدى الصباحات بعدما أدى

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص226.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 305، 309.

صلاة الفجر ولم يستطع مريدوه القبض على الجاني وإن ظنوه من السكان الأصليين بسبب أسلوب القتل البدائي، واحتسبوا شيخهم شهيداً قبل أن تعثرهم الشكوك في أن يكون سليم وجماعته من قتلوه، لأن السكان الأصليين لا يعرفون الداعية ولن يستفيدوا من قتله، بخلاف سليم والعلمانيين الذين سيتخلصون من مصدر معارضة مزعج كان -في نظر الإسلاميين- يتكلم بالمنطق ولا يقبل بأنصاف الحلول وتثير اللعبة السياسية اشمئزازه، مع ذلك لم يملكو أدلة ليدينوهم وباعوا أميراً آخر⁽¹⁾.

7- فساد القانون وغيابه: الواضح من الروايات الأربع -بصورة أو بأخرى- أن القانون إما بات فاسداً أو أنه غاب من الأساس، ففي رواية يوتوبيا، تعاهد مؤسسو اليوتوبيا على أن يتوحدوا في مواجهة الأغيار ويعتمدوا على أنفسهم في حل مشكلاتهم وتسويتها ودياً دون إقحام مؤسسة خارجية بحيث إذا وقع نزاع، عُقدت جلسة عائلية حضرها عليه قوم المدينة لإرضاء الأطراف جميعهم، وبصورة عامة كان دوماً التفاهم والاستعداد للترضية متوافرين لانعدام رغبة الجميع في إخراج الخلافات عن اليوتوبيا. أما في عالم الأغيار، فقد انعدم القانون وتحول المجتمع إلى غابة تخضع للسنجة والبلطجية وتنتشر فيه الخلافات التي تستوجب القتال والتي تكون بعضها من أجل الطعام، مثلاً أحاطت مجموعة بلطجية بصديق جابر ليسلبوا "جثة الكلب" التي صاهاها الرجل ليطعم زملاءه، تقاتلت المجموعتان باستماتة خاصة أن الكلاب والقطط والفئران لم تعد متوافرة في الشوارع، ما يدل بالطبع على اضمحلال الحالة الاقتصادية. وقد يتقاتلون من أجل المخدرات "الفلوجستين"، لم يكن في هذا العالم قانون أو شرطة لحماية لضعاف البنية والمتقنين -كجابر مثلاً- مما حتم على هؤلاء الالتحاق بفرقة من فرق البلطجية لحمايتهم. لحق "جابر" بفريق أحد البلطجية -وهو عبد الظاهر- بعد أن أقنعهم أنه ضروري لهم وكسب مودتهم، لكنه كان يدرى بحدوده بحيث لم يكن يلتصق بهم كثيراً كيلا يفقد حياته، ولكي يفر حينما يستشعر أن فرقته ستنهزم في المعركة. وإن ظل يخشى على علاقته بهذا البلطجي باعتباره مصدر حمايته ونفوذه، ولسوف يضيع إذا انقلب عليه؛ فسارع -في نهاية الرواية - بتهريب "علاء" و "جيرمينال" قبلما ينكشف أمرهما أمام هذا البلطجي الكاره لليوتوبيا.

وفي رواية "مثل إيكاروس"، فقد تسبَّبَ الحديث العالمي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان في إزعاج القائد المُفدَّى الدكتاتور لأنه يحجِّم رغبته في أن يقضى على خصومه بالحمض والرصاص وتلزمه بمحاكمات ولو صورية. مع ذلك، كانَ قادراً على التلاعب بالقانون بما يحقق له أغراضه الخاصة، مثلما أقام محاكمةً قصيرةً جداً وصورية لأحد الطيَّارين الذين حاولَ اغتياله قبل أن يأمر بقتله، وكما يسجن ويقتل المعارضة⁽¹⁾. بل لم يتورع رئيس المخابرات ذاك عن اعتقال محمود وتعذيبه حتَّى حصل على نبوءات تقوُّبه من القائد المُفدَّى. والحق كانتْ أساليب تعذيبهم غشيمة وصفَّها طبيب محمود النفسي لزوجته -التي أدمعت عندما عرفت باعتقال زوجها لكونه كالزهرة التي تقطر ندى وليس معجون أسنان يعطي بالضغط-أنَّهُم حمقى وفضاظتهم بشعة وأغبياء وخرقاء وبلهاء وقساء وأنَّهُم سيعتصرون زهرة محمود حتَّى تتدمر، بحيث لن ينجو منهم. وفعلًا خلال الاعتقال وفي ظلِّ صمتِ محمود وعدم بكائه أو شكواه، صعدُوا أساليب التعذيب من ماء مسكوب على الرأس وصفعات على القذال وحرق بزهرة لهب السجائر إلى نزع الأظافر وكهربته مبدِّين استمئاعهم، وهو ما وصفه الطبيب النفسي: "لا شكَّ أنهم يحبون هذا، لا يريدون المعرفة بل سماع الصرخات، يريدون لذَّة القدرة! وراء هذه الإجراءات والغموض والسرية والتظاهر بالأهمية، فلا يوجد شيء، سادية تمتد كصحراء مظلمة إلى مرمى البصر، صبية يتلذذون بتعذيب سحلية وجدوها لا أكثر"⁽²⁾. عذوبه طويلاً حتَّى قرَّر إدخال نفسه في حالة متطورة من الحرمان الحسي هارباً بين السجلات الأكاشية فظنوه مات، فأدركوا استغيباهم في تعذيبهم له وفزعوا، وراحَ رئيس المخابرات يصيحُ طالباً الطبيب: "(هاتوا الطبيب حالاً، فلتحقنه بألف عقار ولتعطه ألف صدمة كهربية ولتضع فوق أنفه ألف كمامة، أعدِه لنا.... الويل! لن أعود للقائد المُفدَّى منصور الديب لأخبره أن رجالِي قتلوا العرَّاف الصادق الوحيد، لأنهم حمقى قساء القلوب كالثيران)"⁽³⁾.

ذكرَ توفيق أنَّ عقب يأسهم من حالة محمود وإيمانهم بموته، فقد بدأ سيناريو نقل المعتقلين الموتى المتكرر وهو التخلص من الجثة في الصحراء أو وضعها أسفل أساسات بناية تحت التشييد، مع إلقاء الأسمنت والخرسانة فوقها؛ فحملوا جثة محمود الملفوفة

(1) فلما كانَ هذا المستبد يحدثُ رئيس المخابرات عن أهمية محمود بالنسبة إليهم، أنه سيتمكن من معرفة خطط المعارضة، أجابه رئيس المخابرات: "(لا توجد معارضة كما تعرفون، كلهم في السجن أو ذابوا في الحمض)" (المصدر: أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص167).

(2) المرجع السابق نفسه، ص 158، 196، 197، 200-202.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 203-205.

بملاءات إلى سيارة أمام مبنى المخابرات ناقلينها للطريق الصحراوي حيث ألقيوها في الصحراء وواروها بالرمال وبعض النباتات الجافة، مخمنين أنَّ الكلاب والذئاب سيلتهمونها كالعادة. ويُلاحظُ شعور هؤلاء الرجال بالنشوة خلال قيامهم بهذا السيناريو، إذ يؤمنون أنَّ هؤلاء المعتقلين الموتى كانوا أعداء للقائد المُفدَّى، وإلا ما تلقوا التعذيب الفَتَاك وأن كانَ عليهم انتقاء يوم تلقى جثثهم للكلاب في الصحراء والظلام وألا يغضبوا القائد ذا القلب العامر بالخير والنبيل.

بل مع تطور وسائل التواصل الاجتماعي، تطوَّر جهاز الشرطة، وافتتح فرع "شرطة الإنترنت" القادرة على إيجاد كل من يتكلم بما لا يلاءم الحكومة على الإنترنت، واستطاعوا التوصل لدونة "مصطفى أبو الحسن" (لا أدري) ومعرفة أنَّه كاتبها وحذروه بإمكانية توجيه العديد من الاتهامات له بسببه. وقد أرادتُ الحكومة استغلال الدونة التي يصل إليها الكثير من الأطياف السياسية في البلد سواء المتدينين أو الشيوعيين، فطلبوا من مصطفى مراسلة الجميع وصنع قاعدة بيانات لكل من يتصل به لحصر متطرفي ملحدِي مصر. ولم يكن بإمكان مصطفى الرفض، وإلا فقد توقع أن يلقوا له قضية "ازدراء أديان متكاملة" إما أن تزج به في السجن أو أن تتسبب في اغتياله على يد أحد المتدينين الذي سيظن أن قتله سيبنِّي قصراً له في الجنة. برَّر له الضابط هذه الخطوة أن البلاد تمرُّ بظروف عصيبة أشبه بالحرب ومن ليس معهم فسيكون ضدهم، وهو ما علق عليه توفيق بلسان مصطفى الذي فكَّر به مع نفسه: "ظروف عصيبة! في كل العصور هناك ظروف عصيبة تستأهل إجراءات استثنائية. الكلمات نفسها كان يقولها أي ضابط في قلم البوليس السياسي قبل الثورة، ثمَّ في مخابرات صلاح نصر بعدها! دائماً الثورة مهددة، دائماً البلاد مستهدفة! والأهم أنَّهم برغم هذه الخطورة لا يعرفون الحقائق ومشغولون بالبعوضة على الجدار، فلا يدركون أن الشعبان تسلل في ركن الغرفة، ومشغولون بالتظاهر بأنَّهم يعرفون كل شيء فلا وقت لديهم كي يعرفوا أي شيء"⁽¹⁾.

ومثلما أوضح توفيق أنَّ القانون في هذه الرواية كانَ جائزاً في المستقبل القريب عام 2020، فقد أوضح أيضاً أنَّ القانون ظلَّ فاسداً في المستقبل البعيد الذي طالعه محمود في "السجلات الأكاشية"، فقد رأى بعد عشرات الأعوام أنَّ طاغية يُدعى "ميرشوك" فرضَ على الهواء النقي ضريبة (20 جريفنيا لكل 100 لتر من الهواء) بعدما حسبوا متوسط

(1) المرجع السابق نفسه، ص 220-224.

الاستهلاك البشري على أن تقل الضريبة على كبار السن ومرضى الصدر لقلة استهلاكهم من الهواء، بينما تعلق الضريبة على الرياضيين والأصحاء والشباب لاستهلاكهم العالي من الهواء. وفقاً له، فهذه الضرب واجبة بعدما تفاقم التلوث الصناعي الذي يحتّم على الدولة دفع مبالغ طائلة لتنقية الهواء. الكارثي أن هذه الضريبة جاءت بعد فرض ضريبة على الجنس وضريبة على التدخين. وفي حالة عدم الدفع، فلسوف تطلق الحكومة العنان للهواء الملوث الذي هو أقرب لدخان حرق زفت الأسفلت، إلا أن سادة القوم لن يعانون لأن قصورهم تحتوي على أنظف الهواء. ولصعوبة دفع هذه الضريبة، توقع محمود ألا ثورات ستنجح وفي الوقت نفسه لن يدفعها أحد وسيتلوث الهواء تماماً بحيث من لم يمت في الثورة تحت جنازير الدبابات، سيصاب بسرطان الرئة أو الإمفيزيما، وعلّق توفيق: "كُنْ سعيداً يا ميرشوك، هذه مذبحة تزري بكل مذابح التاريخ"⁽¹⁾.

وعند الحديث عن القانون والجريمة والعقاب في "ديستوبيا" رواية "في ممر الفئران"، فالأمر بات أكثر فجاجة مع الديكتاتورية العالمية الممثلة في القومندان المخضعة للنظم السياسية والقانونية في العالم أجمع ومن بينها مصر بالتأكيد. من ناحية، لم يكن من السهل على الأفراد أن يرتكبوا جريمة قتل بسبب الظلام؛ لكن لو فعلوها وألقوا بالجنة في النيل مثلاً فسيكون اكتشافها أمراً مستحيلاً على البشر العاديين، "في عالم من المكفوفين، سيستغرق الأمر دهماً إلى أن يجدوا الجنة ودهراً إلى أن يعرفوا صاحبها ودهراً إلى أن يشكّو في الفاعل... في هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللازم"⁽²⁾. وبعد منشور القومندان، اختلفت نوعية الجرائم إذ بات "استعمال أي مصدر للضوء أو النار" جريمة تدخل مرتكبها حيز الخيانة العظمى والكفر والتمرد واجب العقاب. فما إن تدارك المحيطون بالشرقاوي في الفندق أنه أشعل قذاحة، حتى بدأوا يصرخون أنه متمرد، كافر، زنديق، مجذّف، هرطيق، أنه ملوث للظلام. بالطبع كان ذاهلاً إذ لم يكن على علم أنه اقترف هذه الآثام جميعها وتيقن أن عقابه سيفوق السجن، إذ كان يعرف أن مصير الزنادقة منذ قديم الأزل هو الحرق أو قطع الرقبة، بل لقد بات الناس يلقبون المسؤولين عن جريمة الظلام بالـ"كهنة" وهو تأثراً من الناس بأسطورة "بروميثوس" التي ذكرها القومندان، هذه الجريمة على وجه التحديد لا يمكن الاستعانة فيها بمحام ولا تُعقد لها محاكمة، والإعدام قد يحدث خلال أيام أو شهور أو في التوّ واللحظة. ويكون عقابها آية في التوحّش وانعدام

(1) المرجع السابق نفسه، ص 98، 99، 101.

(2) أحمد خالد توفيق، رواية "في ممر الفئران"، مرجع سبق ذكره، ص 208.

الإنسانية إذ يتم تعذيب الخائن بحرقه أو سلخ جلده أو إجباره على أكل أذنه في الشارع أمام العامة قبل قتله قتلًا متوحشًا له صوت مقرز ومستفز للأذن. يبتغون بهذا التوحش تحقيق العبرة والردع لعالم الظلام، حيث لا يرى فيه أحد، والعظة تأتيهم بسماعهم صرخات وأنين المجرم المُعذَّب واستنشاقهم لرائحة جلده المحترق.

وقد شهدَ الشرقاوي الكثير من عمليات الإعدام أولًا كما كانت عملية إعدام بالحمض في اليوم الأول لولوجه لممر الفئران، حيث سمعَ صرخة وصفها توفيق أنها طويلة عميقة أليمة متحشجة قاسية عالية مهزومة متوسلة مذهولة متوجعة تستجدي الرحمة قبل أن يسمع صوت "فششش" فظنه في البداية مسمار ملتهب ألقاه أحد في دلو ماء! كما شهدَ على عملية إعدام "نجوان" -وهي إحدى الثوار كما سيتقدم الحديث- بعد استخدامها لبصمة أذن زائفة لإجراءات طلب العبودية في قلعة القومندان. انعقدتُ عملية الإعدام بمجرد معرفة الجرم ومن دون أي محاكمة، وراح رجال الشرطة يجمعون الناس حولهم للاستماع لمصير الهرطقة ونهاية المجدفين -على حدِّ وصفهم- وقرأوا عليها بيانًا أنَّ بأمْر القومندان، فـ "الهرطقة" نجوان ارتكبتُ جريمة تحتم عليها تلقى عقابها بأن تقطع أذنها وتأكلها غصبا قبل أن يسلخوا جسدها وهي حية. وللعلم كانت هذه هي أبطأ ميتة لديهم.

8- غياب الوعي السياسي والصحافة المتملقة: كانَ هذا العنصر حاضرا وبقوة في تحديد استجابة الجماهير للاستبداد القائم عليهم. ففي رواية "يوتوبيا" غابَ الوعي السياسي عن مدينة "يوتوبيا" بحيثُ صادقَ أهلها الإسرائيليون مثل "علاء" الذي يتجاذب الحوار دوما مع الطبيب "إيلي" بحيثُ صارتُ حرب أكتوبر 1973 مجرد واقعة تاريخية اكتفى (إيلي) بذكر أنَّ أباه أصيبَ بجرحٍ غائر فيها؛ و(علاء) أجابه بعَمِّه الذي تُوفي في أثنائها دون أن يعرف أي تفاصيل عنها لمُرور أكثر من 50 عامًا عليها، بل كانَ يفكر في الأسباب التي دفعت المصريين لكرهية الإسرائيليين في حقبة ما. كما كانَ يجهل الفارق بين "فيتنام" و"العراق" وآخر ما يعرفه عنهما أنَّ للأمريكيين تجارب قاسيةً فيهما مما أعجزه عن محاجة أحد الحُرَّاس الأمريكيين الذي أقرَّ بخطأ الولايات في احتلال العراق فقط لأنَّ عدد سكانها كبير، ويرى أنها انتصرتُ ما دامتُ حققتُ أهداف الاحتلال الرئيسية والتي كانتُ -كما عددها الحارس- الإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل البلد إلى أشلاء. فعلى الرغم من عشق "علاء" للقراءة في الدين والفلسفة والرواية وعلى الإنترنت أولاً ليكون مختلفًا عن أبويه وأقرانه الذين لا يقرأون قبل أن يحبها، فلم يكن يستحب القراءة في السياسة والتاريخ إذ لم تكن الكتب سوى مخدرات رخيصة تغيب وعيه لا أكثر

وبسببها ظنَّ أنه مثقف. وهذا على خلاف "الأغيار" الذين -رغم فقرهم- لم يفقدوا إيمانهم بخصومة مصر مع إسرائيل، ويرى "جابر" معيشة الإسرائيليين في اليوتوبيا أنها بسبب تحزُّب أهل المدينة مع مشروع الشرق الأوسط الجديد المنبني على مال الخليج وذكاء إسرائيل واليد العاملة المصرية الرخيصة، وأجاب جهل "علاء" لأسباب العداوة بقوله: "إنَّ نصف ما أعرفه لا تعرفه، والنصف الآخر لا يهْمُك أن تعرفه"⁽¹⁾.

ولم تكن الصحافة في ديستوبيا "توفيق" منعدمة، ولكنها كانت عادةً ما تنقل أخبار السادة وحسب. ففي رواية "يوتوبيا" حوَّت أخبارًا سخيصة عن اجتماعات اليوتوبيا فلم يعد أحدٌ يفرط في دقِيقَة من وقته لقراءتها؛ بل لم يكن رئيس تحرير صحف المدينة يقتني الكتب سوى لتجميل منظر مكتبه، بل وللطعن في صورة الصحفي، وصفه "علاء" أنه رجل يتظاهر بالخل، لكنه بلا عاطفة ووجهه ميت متصلب بعيون تذكره بالقتلة بحوار متكرر وصوت رنان وولاءه لليوتوبيا وحدها، يقتني منه "علاء" الكتب في مقابل إعطائه أدوية للعلاقات الحميمة، كذلك كان الحال في عالم "الأغيار" الذين لا يقرأون الصحف بل يقايضون نحو خمس كيلوجرامات منها ببيضة، إذ فسّر "جابر" -بطل الرواية في الأغيار- أنها تدور فقط حول الجن والجنس وخرافات الدين ونظريات المؤامرة مع شيوع كلمات مثل (كشف المستور) و(في الغرف المغلقة) في عناوين الصحف الرئيسية وتضمن صور إباحية داخل الجرائد فيبتاعها الشباب، ليس من أجل التثقيف بل لرؤية الحسناوات بدلًا من عاهرات الأغيار القبيحات، كما أنَّ الموضوع الأهم لكل الصحف هو تملُّق الحكام؛ فيسطر بعض الصحفيين -الذين انضمُّوا حديثًا لأهل اليوتوبيا بعدما كانوا فقراء عراة- رسائل حبِّ للحكام لكونهم مفعمين بالعرفان والامتنان والتهيب، وهو ما وصفه "جابر": "مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفًا مشويًا ينز منه الدهن، لا يقرأها إلا الحكام وحدهم"⁽²⁾، وفي رواية مثل إيكاروس، عندما أخبر المستبد (المُفدَّى) رئيس المخابرات أنَّ محمود يستطيع التنبؤ باتجاه الرأي العام، أجابه الآخر: "(لا يوجد رأي عام كما تعرفون، نحن نصنعه، الرأي العام هو ما تقوله صحفك وبرامجك)"⁽³⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 14، 15، 16، 32، 108.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 125-127.

(3) أحمد خالد توفيق، رواية "مثل إيكاروس"، مرجع سبق ذكره، ص 167.

الفصل الثاني

ملاحم الديستوبيا

الاقتصادية والاجتماعية في الروايات



إذا كانت الديستوبيا السياسية والقانونية تتخلص في الاستبداد الطاغوي وغياب القانون أو سيادة قانون المستبد، فمما لا ريب فيه أنها انعكست على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية في هذه المدن الفاسدة، وبالفعل فلم يغفل توفيق عن التطرق إلى هذه الملامح الاقتصادية-الاجتماعية الفاسدة، والتي كانت صدئ لهذه النظم السياسية الدولية والمحلية الطاغية. ومن المهم الإشارة إلى أنه كان يركز على هذه الملامح في مصر على وجه التحديد كانعكاس لأي تغيرات دولية أو إقليمية (ما عدا في رواية شأبيب إذ ركز على دولة شأبيب المتخيلة بصورة أكبر)، لهذا سيكون تركيز هذا الفصل على أهم القضايا الاقتصادية-الاجتماعية الديستوبية المطروحة محلياً أيضاً في الروايات الأربع. وهذا على الشكل الآتي:

1- أزمة الطاقة: لمحت أكثر من رواية ولو بصورة وجيزة، لأمر "الطاقة" وأزماتها في العالم المستقبلي، فمثلاً في رواية "يوتوبيا"، ففي العشرين عاماً السابقة على الرواية، خاضت دول العالم حروباً من أجل النفط حتى اخترع كيميائي أمريكي "البايرو" عوضاً عنه حاصداً بسببه جائزة نوبل. ومن أهم تداعيات هذا التحول هو رخص سعر البترول وأصبح كالماء؛ وانسحبت الولايات المتحدة من الشرق الأوسط وانتهت سطوة "الخليج العربي" واستطاع العالم أن يعرب عن احتقارهم لهم، وباعت مصر للأمريكيين آثاراً قيمة مقابل عقد لمدة 50 عاماً يضمن لمدينة "يوتوبيا" البايرو لتحريك سيارتها وطائراتها.

وتجلت هذه الأزمة في رواية "في ممر الفئران" بصورة أخرى أكثر عالمية وأكثر بشاعة. فبعد انهيار النيزك، لم تسطع الشمس مجدداً وتضاءل النور الخافت الذي كان يتسلل إلى الناس عبر الغيوم الكثيفة، حتى حلّ الظلام الكثيف على الأرض جميعها وصارت العواصف الرعدية ببرقها الهاوي وحدها ما يذكر الناس بالنور السماوي. في بدء هذه الحياة، ظلت الكهرباء بالمنازل واستخدام الناس المصابيح الشمسية التي توفر الدفء والوهج، لكن مع الوقت غلا ثمنها واقتناها الأثرياء وحدهم، ثم انتهى أمرها مع بدء فناء الطاقة تماماً من الكوكب. لم يعد الخشب قادراً على إشعال النيران وفقد البترول أهميته، وفسر العلماء أن الطاقة بكل صورها تنبع من طاقة الشمس الحرارية ودونها فالأرض تخسر كل ما تخزنه من طاقة حركية وضوئية وصوتية وحركية، بذلك أظلمت البيوت والشوارع وهمدت محركات السيارات وعجزت النار عن التسخين والإنارة واختفت القذاحات وأعواد الثقاب من المتاجر لعدم جدواها وعول الناس على "الزمبلك" من جديد، وباتت المروحة التي تعمل به تساوي عشرة مراوح كهربية. ثم اكتشفت ألمانيا بكتريا تنمو في الظلام تقدر على إنتاج تفاعل

حراري يُستخدم في الطهو والتدفئة، ونال المخترع جائزة نوبل في الفيزياء في حفلٍ مظلم اصطدم فيه الرجل بملك السويد الذي كان يبحث عن يده ليعطيه الجائزة. كان المخترع يعمل على إنتاج بكتريا لتوليد الضوء مما سيعيد الإبصار للجميع، لكنه اغتيل -كما سلف الذكر- وهكذا بقي الظلام لكل العالم، وكذلك انتشر البرد الشديد طوال الوقت مثلما وجد الشرقاوي بمجرد دخوله لممر الفئران. مع ذلك، فلأن قلعة القومندان مُقامة على قمم الهيمالايا، فكانت فوق مستوى السحاب الظلام ونعمت بكل أشكال الطاقة سواء الشمسية أو الحرارية أو الكهربائية أو الوضعية أو الحركية أو الذرية وتستنفد نفطاً يكفي دولة صغيرة لعدة أعوام. بالقلعة تدفئة كاملة وإضاءة شمسية صناعية لصعوبة فتح الشرفات لكيلا يتجمدوا بسبب وجودهم في أعلى نقطة في العالم. وهناك، فالطيران قائم طبيعياً إذ يستخدم الطيارون وقوداً بيولوجياً بعدما فقد البترول قيمته.

2- أزمة الفقر في مواجهة البذخ: فأما في رواية "يوتوبيا"، فقد كانت تدور بالأساس حول غياب العدالة الاجتماعية في المجتمع المصري، وهو ما يبدو واضحاً في المقارنة الفجة في أحوال الفقر والغنى بين أهل مدينة "اليوتوبيا" وبين بقية الشعب "الأغيار". فمن ناحية، لم تنشأ مدينة "اليوتوبيا" إلا على أكتاف رجال أعمال استطاع كل منهم احتكار صناعة أو حرفة كبرى، وعجّت المدينة بقصورهم والتي أشار إليها "علاء" بسخرية في بداية الرواية أن هذا هو قصر "ملك الحديد" وهذا هو قصر "ملك اللحوم" وهذا قصر "ملك الأدوية". وبديهيًا، كان هؤلاء الأثرياء يغفرون كل الأخطاء إلا أن يمس أحدهم ملكيتهم الفردية بالتدمير أو السطو. والحق خلت المدينة من السارقين لثراء الجميع وإن كان من الممكن أن تتدمر الملكية بأن يسرقها شخص مصاب بمرض (الكلبتومانيا أي الولع بالسرقة) أو شخص مجنون أو سكران. كما عاش اليوتوبيون في ترف وبذخ، فكان "علاء" في روتينه اليومي يطهو خليطاً من البيض قبل أن يتخلص منه ويأكل كثيراً قبل أن يتقيأ ما أكله ليأكل المزيد، كما تتسوّق والدته من أغلى المتاجر لقتل الوقت وكسر الملل قبل أن تتخلص من أغلب ما ابتاعته. أيضاً، فإنهم يربّون كلاب الحراسة للتدليل؛ ويأكلون الفول والطعمية من باب التغيير فقط، بينما على الناحية الأخرى يعيش الأغيار فقراً مدقعاً حتى شحبت وجوههم من الجوع والعطش وطغى ذلك على مأكلمهم ودوائهم وردائهم. وبسبب التضخم الهائل الذي أوصل الدولار الأمريكي لـ 30 جنيهاً، والارتفاع الهائل للأسعار، عاد الفقراء للمقايضة في صفقات البيع والشراء.

كانت تُباع السلع الغذائية بأثمانٍ بخسٍ دليل على سوء جودتها، وأصبحوا يبيعون جلود الدجاج وأرجلها لتكون "الزفر" الذي يأكله الفقراء مع الخضار بينما بات الدجاج ذاته مجرد عظام مكسوة ببعض الجلد، كما بات الناس يتغذون على الكلاب لكونها مصدرا رخيصا للبروتين، وظلّت وجبات "القول والطعمية" شائعة إلا أنهم أصبحوا يقسمون الوجبة الواحدة على أكثر من مرة. وليتلافوا المذاق الرديء للطعام الفاسد ولبقايا طعامهم التي يقاتونها لأيام عدة، فيخلطونها ببعضها بعضاً ويضيفون عليها الزيت والتوابل، خاصة وأن سعر التوابل لم يرتفع من أجل - كما وصف "جابر" - إبقاء البشر أحياء. يعمل بعضهم في ساحة أحد باعة الدجاج فقط لينالوا دجاجة بعد إنهاءهم العمل؛ وهو عملٌ غير مضمون إذ قد يكتفى البائع بعدد معين من العاملين لا يزيد عليه، كما انتشر باعة السمك الفاسد، والخمور الرخيصة الرديئة وباعوا "الكحول المثيلي" رغم أنه يسبب العمى، وهو ما وصفه "علاء" المذهول: "لو كانت معدتهم من حجر، فكبدهم من فولاذ وعصبهم البصري كابل كهرباء"⁽¹⁾.

وعولوا في دوائهم تماماً على الأعشاب والوصفات الشعبية لاحتكار أحد رجال الأعمال للأدوية ورفع أسعارها للسماء؛ وتحولت الممرضات لطبيبات يعالجن بأثمان زهيدة مستخدمات العسل والوصفات الشعبية والأعشاب والأدوية التي هجرها أهل اليوتوبيا، كذلك سرق بعض العاملين في اليوتوبيا مسكنات ومضادات حيوية يبيعونها في عالم الأغيار بأسعار غالية، اكتأب الأطباء المثقفون وبعضهم أدمى المخدرات كالمورفين حتى الموت بجرعة زائدة، اعتاد الأغيار على أمراضهم مهما خطر مثل "صفية" -أخت جابر- المصابة بمرض "الذرن" والذي لا تفعل حياله سوى تعاطي منقوع الأعشاب التي تصنعه لها جارتها وتدفئ صدرها وهي مدركة أنها ستموت وسط بركة دمائها في القريب لعلمها أن الأدوية الشافية في اليوتوبيا وحسب. غابت الرقابة على بيع الأدوية في مدن الأغيار بحيث يقف باعة في السوق معهم زجاجات بها سوائل ملونة يرؤجون أنها للعلاج التام للذرن والسرطان وأنهم صنعوها ويعجز السارقون من اليوتوبيا أن يكتشفوا سرها، والتي عقب "علاء" أن الفقراء يبتاعونها لرخص ثمنها كيلا ينتظروا الموت عاجزين. بالنسبة للابسههم، فالباعة يبيعون ثيابا مستعملة بـ 100 جنيه للقطعة وهو ما فسرهُ علاء أنه بسبب التضخم المخيف، إذ إن أحد القمصان المباعة لم يكن يتجاوز ثمنه الربع دولار، ويلبس القوم عادة "أسمالاً" التصقت بها القذارة لدرجة جعلها خشنه صلبة مثل رداء "صفية".

(1) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 49، 50.

بل بعد رحيل الأثرياء لليوتوبيا، أُهملت البنية التحتية للأغيار، فتحوّل المترو -مثلاً- لمكانٍ يقتحمه المشردون أبوابه بمسمارٍ وحجرٍ ويقيمون فيه وصارت عرباته هياكل غير مستعملة لاتعدام الكهرباء والصيانة. شعر "جابر" جهته بالحنين لعلّمه أنّه كان أحد أعظم إنجازات الحكومة قبل 50 عامًا. صارت بيوت الفقراء مزرية، فما بيتُ "جابر" وصفية" إلا كوخ صغير صنعه من أجزاء هيكل سيارة مفككة ومن صحف وأشياء متفرقة ويستعمل إطاري سيارة كمقعدين ويستعين بموقد كيوسين صغير، ويحصل على الكهرباء من مصباحٍ واهن متصل ببطارية سيارة عتيقة سلّكهُ معلق على عصا من الخشب وإضاءته -كما وصفه- علاء سقيمة تليق على المحتضرين الذين ينطقون كلماتهم الأخيرة بحيث يجمّل الظلام عنه. باتت مشكلات الكهرباء والماء مشكلاتٍ فردية وبُورِكَ من استطاع أن يحظى بمولدٍ أو بئرٍ. احتكر أحد رجال الأعمال صناعة الاتصالات، وألغى شركات الاتصالات الأخرى، وبأية حال لم يعد الأغيار يحتاجون الجوّالات. عوّلت البيوت في مجاريهم على "الترنشات" التي تكسحها إحدى العربات وتتخلص من محتوياتها في مكان قريب من هذه البيوت، أي انتهت شبكات المجاري. فلمّا أرادتُ "جيرمينال" -صديقة علاء- أن تقضى حاجتها، أشار لها "جابر" إلى أن تفعلها في أي مكان. لم يعد أحدٌ يشتكي -كما فسر "جابر"- لأنّهم كانوا يشتكون من انقطاع الكهرباء أو اتصال الهواتف أو الماء عندما كانوا يمتلكون الشقق وأجهزة الهواتف والثلاجات والحمامات، فلمّا فقدوا كل ذلك ووجدوا أنّ الدولة تهملهم تمامًا لصالح أهل اليوتوبيا الذين يمولونها، عرفوا ألا حاجة للشكوى وفهموا قوانين اللعبة.

كذا في رواية "في ممر الفئران"، تواجدت هذه المفارقة لكنها كانت قلعة القومندان (مثلها مثل اليوتوبيا) وباقي العالم كله (مثل الأغيار)، فبينما لم يكن في قلعة القومندان أي مشكلة في التعامل المالي لكونهم يعيشون في نورٍ وضياء، فإنّ الناس في باقي العالم -وبالأخص مصر- الذين يعيشون في الظلام، اضطروا للاعتماد أولاً على النقود البارزة حتى وجدوها مكلفة، فلجأوا للأوراق المالية واتفقوا على ثنيها بطرق تدل على قيمتها بحيث لن يكون من صالح أحد أن يغش، لأنّ هذا كان يعني أنّ هناك من سيغش هذا الغشاش. هكذا عندما أخرج "الشرقاوي" -الذي حضر بعد عشرين عامًا من بداية الديستوبيا- ورقة أدرك بحاسة لمسه أنها لا تزيد عن 10 جنيهات، وأعطاهم لبائع شطائر اللحم، ظنها البائع 100 جنيه وأعطاه باقي المال على هيئة أوراق بعضها مطوي بالطول والآخر مطوي بالعرض أو على هيئة أذن الكلب، فعرف أنّ كل ثنية تعني فئة مالية مما ذكره بفيلم طوى بطله

العملات ليعرفها باللمس. وبالطبع لم يكتشف أحد استغلال الشرقاوي للبائع، ولا أنه دفع ثمن تذكرة المتحف المصري بثلاثة جنيهات بطريقة تبدو كأنها ثلاثمائة جنيه وحصل على الباقي على هيئة أوراق مطوية بصور مختلفة. فكر آنذاك أن لعل هذه الأوراق بدورها مغشوشة، ولكنه عاد وقال في نفسه: "لا بأس، تغش الآخرين وهم يغشونك، الكل يغش الكل! يبدو هذا تصويرا للحياة ذاتها، وكذا تبقى الثروة موزعة بنسب ثابتة.. في الغرب القديم كان الفارس يترك حصانه في الحانة ويختار حصاناً أكثر لياقة وكان هناك من يأخذ حصانه وهكذا يبقى توازن الخيول ثابتاً"⁽¹⁾.

وبينما يأكلون في قلعة القومندان أفضل الطعام، وصحتهم جيدة لتوافر الشمس دائماً، ففي بقية العالم لم تعد النباتات تنمو مع غياب الشمس فأكلوا بداية الحيوانات بحذر حتى بدأت الحيوانات تنقرض لعدم وجود نباتات تتغذى عليها. وتم حل هذه الأزمة على يد علماء يابانيين الذين خلقوا أعلاف تأكلها الحيوانات وصدروها للعالم. وحدث تغير لخريطة الأمراض بغياب الشمس وبتغير طبيعة الطعام الأساسي، فاعتمدوا على اللحوم أغلب الوقت، شاع الإمساك ونقص الألياف المهد لسرطان القولون. وبسبب الظلام، انتشرت أمراض معينة مثل "الكساح" بعدما لانت عظام الأطفال الذين لم يتعرضوا لطاقة الشمس، وزادت الأمراض المعدية بعدما اختفى التأثير المطهر للشمس. تطور الطب السريري واختفت أجهزة الأشعة ورجع الأطباء يعتمدون على اللمس والسمع والدق، لم يعد لطب الأمراض الجلدية أي أهمية إذ لم تعد إصابة الجلد ببثور أو قروح خطيرة في هذا العالم المظلم، وأصبح العون يُقدم في حالات الشعور بالحكة أو الألم أو الالتهاب. كما انقرض طب العيون من العالم أجمع بسبب عدم جدوى النظر في الظلام وتم إلحاق أعراض العيون بقسم الجراحة العامة.

لهذا سألوا الشرقاوي في المشفى وهو يطلب طبيب عيون -قبلما يفهم حقيقة الأمور- إن كان يعني جراحاً، وإن كان يعاني من آلام في العين أو أورام أو احتقان أو حكاك أو ذرف دموع أو ارتجاج جفون ولم تفهم قوله أنه يشعر بالعمى. ثم عاينته طبيبة بتحسس وجهه والضغط على محجريه بإبهاميهما قبل أن تطئمنه أنه ليس أعمى ولكنه مصاب باكتئاب الظلام كحال من يأبى التصديق وهو عرض معتاد وعليه أن يتقبل الحقيقة. وعندما فهم، علم منطقية تفحصها لعينيه بتحسس محجريه بأناملها وأنه لم

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 106.

يكن كفيّاً ولكنه الظلام السائد⁽¹⁾. في هذه الرواية، من أجل التعاملات الحكومية والبنية التحتية، فقد استبدل توقيع اليد ليصبح ببصمة الأذن. لهذا، وليكتمل حيز الشرقاوي في الفندق الذي ارتاده، أمسك موظف الاستقبال برأسه ملصقاً أذنيه في لوح لزج بارد إذ حصل على طبعة من صوان أذنه على الصلصال؛ بينما تنادي المؤسسات الحكومية على ذاتها عبر مكبرات للصوت لكيلا يخطئها المأزون، فالمستشفى تهتف بين الآن والآخر (إلي يا ذوي السقم، إلي يا طالب العون! المستشفى من هنا)، وكذا يفعل الفندق الذي يروّج لذاته بالرائحة الزكية والراحة للزبائن.

وكذا واجهت رواية "شأبيب" مشكلة الأمراض والأوبئة بصورة مختلفة إذ قرنتها مع فكرة "الدولة الوليدة"، ففي الأيام الأولى لوصول المهاجرين للجزيرة، لم يتمكنوا من تفادي الأمراض وإحدى المهاجرات عانت الهزال والإنهاك والقيء ولم يستطع الطبيب تخمين مرضها لبعضهم عن المختبرات واعتمادهم على الحدس. كان الطب بدائياً لبداية الدولة وعولوا على الإمدادات الطبية الفقيرة كالمضادات الحيوية ومخفضات الحرارة، ثم أرسلوها لأقرب مركز عناية طبية مطورة، كان "مكرم" يخشى كل الخشية لو تفشى وباء مثل الطاعون، لأنّ ساعتها ستنتهي فكرة الدولة قبل ميلادها. وقد ماتت السيدة دون معرفة نوعية مرضها وإن لم يتسبب موتها بأي وباء، وعاش السكان جميعهم على تطعيمات الملايا واللقاحات الأخرى وإلا ماتوا. ومن ناحية البنية التحتية، فالدولة في أيامها الأولى عانت من بيئة الجزيرة الصعبة كطقسها الحار الرطب دون وجود مراوح أو أجهزة تكييف؛ وكانت الدولة عبارة عن معسكرات من أكواخ بدائية كمعسكرات الجيوش تحيطها الغابات والبركان ووسطها دورات مياه كل منها مسيخ لضمان الخصوصية وبداخلها إناء ماء مع أوراق تواليت والدورات غير موصولة بمجارٍ وإنما بحفر عميقة. مع الوقت عمّروها بعض الشيء وإن ظلّ الطريق طويلاً حتى النهاية.

3- أزمة في التعليم بأنواعه وفي سوق العمل: في رواية اليوتوبيا، وبينما يسافر أبناء مدينة "يوتوبيا" إلى الكليات الأوروبية لتلقي التعليم، فقد انتهى أمر التعليم تماماً في دنيا الأغنياء بسبب الإهمال التام لمدارسهم. والطلاب الذين تخرّجوا في الجامعات -كجابر- فلم يجدوا عملاً ولم يُفيدوا مما تعلموه، إذ لم تعد الفرص متاحة إلا لمن يعمل أبائهم في جهاز الشرطة أو ريادة الأعمال أو لديهم تجارة يورثونها لهم، عمل الشباب الآخرون في شبكة

مترو الأنفاق أو في باحات المعلمين لتشفية الدجاج وصف جابر إحداها أنها مقبضة كالمقابر الجماعية، محاطة بسياج ويوظف معلمها بلطجية لإرهاب العاملين. وهناك من يعمل في مدينة اليوتوبيا فرّانين أو جامعي قمامة أو صائدي قوارض أو خدامين يقضون أكثر من 10 ساعات في العمل ولا يتاح لهم سوى وقت قصير للغاية يمضونه بين ظهرانيهم، وصفهم "علاء" أنهم ممتنعون الوجوه تلوح الهزيمة والوهن عليهم. وقد ضاع أغلب شباب الأغيار بين الكُلة والمخدرات، فرأت "جيرمينال" بعضهم في أحد الأزقة، ليطمئنهم جابر أنهم لن يؤذوها ولن يشعروا بوجودها لكونهم فقدوا رجولتهم وأدميتهم بفعل المخدرات. غير ذلك، فالعمل مقدس في عالم الأغيار سواء كان عملاً قذراً أو حراماً أو غير قانوني، فالحياة هناك غابة تُحتم على كل شخص أن يبقى وحده وألا يعبأ بأحد.

كذلك يواجه التعليم في رواية "في ممر الفئران" صعوبات جمّة بسبب الظلام الدامس ورغم استخدامهم للغة "برایل" ذات البروز والثقوب المخصصة للمكفوفين. فأوضح معاناة أستاذ اللغة العربية وهو يشرح قصيدة قديمة لأنّ الطلاب لم يكونوا يستوعبون معنى لفظة "الشمس" أو "بقايا الديار" أو "مشية الظباء" أو "العيون في طرفها حور" لعدم رؤيتهم للنور أصلاً، فكانوا يجلسون ينبهرون ثم ينسون تماماً كأنّه -على حدّ وصف توفيق- يصف لمبصرين أنّ القبائل القديمة كانت تستعمل التخاطر الفكري. والحق أن كانت مشكلته هينة لأنّ اللغة يمكن سماعها، والكارثة الحقيقية كانت في التعليم التقني كالأحياء والفيزياء والكيمياء التي لا يمكن الاستغناء عن البصر والرؤية فيها، ولهذا تراجعت العلوم في ممر الفئران بصورة خطيرة.

4- غياب الوازع الديني وفساد الأخلاقيات: هذه كانت قضية شديدة الأهمية تناولها في أكثر من رواية بصور مختلفة؛ في رواية "اليوتوبيا" اتسم كل من اليوتوبيين والأغيار بغياب الوازع الديني والفساد الأخلاقي. فبالنسبة لليوتوبيين، فقد أنفقوا أموالاً طائلة ليشيّدوا دور عبادة للديانات السماوية الثلاثة -يمكن ملاحظة أنهم اهتموا بمعابد اليهود لوجود إسرائيليين معهم. ولكن في سريرتهم لم يؤمنوا بأي دين سواء الكبار أو الشباب. فالكبار تشبّثوا بالدين ظاهرياً لأكثر من سبب في وجهة نظر "علاء"، أولها هي أنّهم يخشون فقدان كل تميزهم وممتلكاتهم في لحظة، فيقول: "إنهم لم يشعروا بعد أنهم يستحقون ما هم فيه"⁽¹⁾. وثاني هذه الأسباب هو أنّ هؤلاء الكبار كانوا مهووسين بأنّ

(1) أحمد خالد توفيق، رواية اليوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص21

يجمعوا بين "الورع" و"الثراء"، وصفهم علاء: "الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور، صورة الحاج (عبد السميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعبادة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين واليسار وعلى وجهه ابتسامة وقور متئدة، ورائحة عطره الثمين ومسبحته الذهبية!"⁽¹⁾. هذا بينما في الخفاء كانوا يعاقرون الخمر ويغتصبون نساء الفقراء وبعضهم شوان جنسياً. أما الشباب، فعلى عكس الآباء، ترعرعوا وهم يعدون أن كل ما هم فيه من حقهم، لذا لم يكونوا خائفين من أن يزول، كما أنهم يرون أن تدين أهاليهم ليس سوى تدين ظاهري لا يردع النفوس عن الرذائل، وهكذا ذكر "علاء" أنهم تخلصوا من "عادة" مخاطبة ذات عليا لا يرونها. أما في عالم الأغيار، ظل بعضهم مؤمناً أن الدين كان أملهم الأخير والوحيد في إيجاد حياة أفضل بعد الموت. لكن تغير الوضع الديني باستخدام الجميع لأسماء لا تدل على دينهم فصعب معرفة دين الشخص إلا إذا أقسم (المسيح الحي أو والله) أو لو صلى على النبي ﷺ، وهو ما سخر منه "جابر" أن الفقر ساوى بين الجميع اجتماعياً وطائفيًا إذ لم تعد هناك تفرقة دينية. وفي الوقت ذاته فقد الدين قسمته وبات القسم بالله علكة لا يصدقها أحد؛ فعندما أقسم جابر -كاذباً- أنه لا يعرف علاء وجيرمينال، قاطعه أحدهم: "كُفَّ عن القسم؛ فكل الناس تقسم طيلة الوقت)"⁽²⁾.

بالنسبة للانحلال الأخلاقي، والذي كان نتيجة لغياب الوازع الديني، فبالتبعية طال اليوتوبيين والأغيار؛ ولكن لأسباب مختلفة؛ أما اليوتوبيون، فبسبب الملل لسهولة توافر كل احتياجاتهم، قاموا بكل أشكال الآثام ما دامت في الخفاء. فكان الشباب يخلق شعورهم مثل "هنود الموهيكان" ويعرُّون صدورهم واضعين قلائد عملاقة على هيئة جماجم وأيقونات سحر "الفودو"، ويدقون الأوشام ويلبسون الأقراط في ألسنتهم وحواجبهم وأنوفهم؛ ويلونون أسنانهم بأصباغ غير سامة، ويلصقون بأعينهم عدسات بيضاء، ويصنعون جروحا شنيعة في أجسادهم ويظهرونها لدرجة وجود متخصصون لهذا الأمر. أدمنوا أنواع المخدرات بدءاً بالماريجوانا ثم إكستازي وأخيراً الفلوجستين وهو نوع جديد أتاهم من الدنمارك وعفوا عن "البانجو" لردائه ولأن الأغيار يتناولونه. ورغم بهائلة ثمن "الفلوجستين"، فالشباب لم يشعروا بمعنى كلمة "الغلو"، ويرون ألا ضرر من الإدمان وأن مشكلة المخدرات الوحيدة أنها متاحة مما يخسرها متعتها، فبالنسبة إلى علاء مثلاً، فالتحريم والنُدرة يجعلان اللعبة أمتع

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 21، 55، 56، 156.

عندما يتعاطون الجرعات خائفاً ويقلقون على الجرعة التالية⁽¹⁾. غير ذلك، فقد صارت العلاقات الحميمة دون زواج روتيناً بين الشباب وتكرر ذهاب "علاء" -مثلاً- ليخطر أمه أن صديقتها حامل، وهو ما وصفه بأنه: "ما من فتاة فوق الثانية عشرة لم تجرب هذه الأعراض... لا تستعصى أي فتاة عليك هنا أكثر من ثلاثة أيام، وعندما تخضع لك، لن تصدق مدى ما هي على استعداد لقبوله بسبب السأم"⁽²⁾. صار الإجهاض متاحاً وسهلاً لا يكلف الفتاة إلا جراحة بسيطة وتوقف لشهرين عن هذه العلاقات وحسب. وانتشرت هذه العلاقات بين الكبار أيضاً، فكان لرجل أعمال منهم جيش من الجوّاري، وهذا بسبب الأدوية الجديدة التي تأتيهم من الخارج وتجعلهم لا يشيخون ولا يهرمون وتزيد شهوتهم للنساء كآلهة الإغريق. لكل بيت تلفزيون خاص يعرض لهم ما يشاءون؛ والإقبال كان على أفلام "الجنس" و"الجريمة والعنف"، بل ورغم خطورة موقفه في عالم الأغيار، لم يتورّع "علاء" أن يصارح صديقه عن رغبته في مواعدة "صفية" أخت جابر لاختلافها عن فتيات اليوتوبيا بوشومهنّ وشعورهنّ الحريرية، وبالفعل ورغم تحذير صديقه أن الوقت غير مناسب، اعتدى على صفية في غياب جابر في نهاية الرواية ليجرد أن يحصل على تذكّار من هذا العالم. والأدهى أن بعد عودته لليوتوبيا وقد اغتصب الفتاة وقتل أخاها، فقد عاد لحالة الملل والفراغ ذاتها لدرجة أن كرر "توفيق" صفحتي روتين الفتى في أول الرواية مرة أخرى مما يدل على انتهاء آدميته بفطر الانفلات الأخلاقي.

غير ذلك، أدمن أهل اليوتوبيا مشاهد القتل وقَدّسوا الموت، فتغنّى "علاء" في بداية الرواية عندما قتل رجال المارينز أحد الأغيار المقتحمين لليوتوبيا واعتبره مشهداً جمالياً فنياً وفاتناً وقاسياً، بل وقارنه مع صديقه -جيرمينال- مع مشهد بفيلم "الفصيلة" الأجنبي؛ بل واحتقر محاولات هذا المسكين للنجاة بنفسه لأنه كان يراه مجرد صرصور على حائط المطبخ بلا قيمة، كان أيضاً لا يبالي لو كانت أصباغ الأسنان سامة، ولم يفكر في حكاية إحدى العاملات الفقيرات التي تخلصت من ابنها غير الشرعي سوى أنه ينتشى ويلتهب خياله لكل هذا الألم والقتل والشقاء والموت، بسبب التقدم الطبي والمروري الهائل، لم يعد اليوتوبيون يموتون بالمرض أو بالحوادث مما أشعرهم أنهم أعلى من الموت، كما أنهم تنزّهوا عن فكرة الانتحار لكونها تذكرهم بالضعف ويرونها أليق على الفقراء الذين ينتحرون لفشلهم في إطعام أطفالهم أو في علاقاتهم العاطفية، فيرى الفتى أن أهل

(1) المرجع السابق نفسه، ص 17، 18، 26.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 18.

اليوتوبيا أرقى وأكبر من هذا الهزل وموتهم يجب أن يكون أنيقاً مسرحياً. ليس هذا وحسب بل لقد أدمن الشباب أغاني "الأورجازم" وهي صراخٌ مجنونٌ يفوق الهيفي ميتال والديت ديتال تتغزلُ كلماتها في الموت والشیطان، فإحداها تقولُ إنَّ عندما تفتتحُ المقابر وتخرج الشياطين ويُطاح بجماجم الأطفال في السهول ويتلوث الملائكة بالدم، عندها يمكن للمرء أن يغمض عينه مستريحاً ويموت؛ وأخرى كأنَّ الشيطان يغني لفاتة أن تنظر إليه وأنه سيعانقها عناقاً يهشُمُ روحها بحيثُ عندما تموت وتصعد هذه الروح للسماء ويسألها الملائكة عمّا حلَّ بها، فلسوف تخبرهم أنها "نامت" مع الشيطان ذاته. وعلى أنغام هذه الأغاني يرقصُ الشباب بمجون، فرقصتُ إحدى الفتيات على أغنية يغنيها الشيطان يطلب من فتاة أن تضع رأسها على صخرة وتنظر لنصل السكين الهابط على وريدها؛ رقصة تميل فيها رأسها كأنها بالفعل تنيمه على صخرة وطوّحت شعرها كالمخبولة وسقطت أرضاً كمن يتأهب للذبح، والكل حولها تخردهم جرعات "الفلوجستين".

انتشرت بين شبابهم "المازوخية" أي حب الضحية لقاهرها، ويلعبون لعبة يأمر فيها الشاب الفتاة أوامر عليها تنفيذها مهما كانت، فوصفَ علاء صديقه جيرمينال أنها تحبه وهو يصدر الأوامر، وهذا لأنه: "عندما لا يصدر أحدهم أمراً لك طيلة حياتك.. عندما يدلك الجميع وعندما تتحقق أتفه أحلامك، فإنك تعشق من يرغبك على شيء"⁽¹⁾. كما توجّهوا للشذوذ واستحضار الأرواح والعبث ليلاً في المقابر وممارسة (النكروفيليا) وتجلّى عليهم الاستهتار الجامح في مغامرات الأصدقاء بقيادةهم الجنونية لسيارتهم مستمتعين بتعريض الفقراء الموجودين على الطريق لخطر الدهم، وصفَ علاء إحدى هذه المغامرات أن صديقاً له اندفع ليوشك على صدم أحد الأغيار العاملين، إلا أن هذا الفقير: "...الأحمق وثب على الرصيف المرتفع... انطلقت ماهي تلاحق سيارة راسم؛ على الأرجح ستدمرُ السيارتان اليوم؛ لكن المشكلة أننا لا نموت... من حينٍ لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب غالباً ما تنقلب سيارة أو اثنتان، وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة"⁽²⁾. الكارثة أنهم ورغم ما يملكون، كانوا يشعرون بالملل وبأنهم مسجونون في المدينة كمعتقلي المعسكرات النازية بينما من بخارج المدينة حر. ومن هنا اخترعوا لعبة "الصيد" أي أن يخرج شاب يوتوبي لعالم الأغيار المخيف يأتي بفقير للمدينة يعذبه حتى الموت؛ أو يأتون من هؤلاء الفقراء بتذكّار إما ذراع أو يد أو رأس. وقد برز علاء الأمر أن كان "صيد قبائل البوشمن"

(1) المرجع السابق نفسه، ص 37.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 30.

مباحًا كنشاط رياضي في القرن الـ 17 حتى انقرضوا؛ كما لم يردعهم الكبار طالما يتم الأمر في الخفاء وبلا اعتداء على ملكية الآخر؛ ووصل الأمر إلى حدود اعتبار الصيد مؤثراً على رجولة الفتى بحيث ينبغي أن يقوم به الشاب ليزاع أنه رجل.

أمّا في عالم الأغيار، فظهر الانفلات الأخلاقي بوصفه نتيجة منطقية للفقر المدقع، فانتشر "البغاء" وصار حقيقة أقوى من أي قانون أو عرف، وامتلات الشوارع بعشش تطل منها غانيات يبحثن عن عمل وأجرتهن بخسة لا تتجاوز 200 جنيه؛ يحميهن قوادون يستولون على أموالهن، أحدهم كان أشيب الشعر بعين تالفة وبوجهه جرح طولي، وفي حزامه مديّة عملاقة ويده سيف مصنوع من سوستة سيارة، بل لم يعد الحرمان الجنسي مشكلة في هذا العالم بعدما انهار حاجز الأخلاق ورخص البغاء وسهل وإذا استعصى على أحدهم فلا بأس بالاغتصاب. كما تؤدي المخدرات دوراً كبيراً في هذا العالم ليس من أجل قتل الملل، وإنما لتغيب الفقراء عن أحوالهم المزرية واشتهر "البانجو" و"الحشيش"، وقد فقد الأخير تأثيره في أغلبهم فوصف جابر صديقه أنه بحاجة لطن حشيش لينبسط وقتياً. كذلك، فهم يشتهون "الفلوجستين" الذي يعجزون عن نطقه، فيلخصونه بكلمة "فلوك"، وقد ذكر توفيق أن هذه عادة المصريين لتسهيل الكلام. كان غالباً بحيث لا يتوافر لهم بسهولة عكس حال مدينة اليوتوبيا الذي يعلم "جابر" أنهم يأكلونه ويشربونه يغسلون أقدامهم به ويسقون كلابهم منه، وتوقع أن الثورة إذا حدثت فستكون لطلب المحرومين لحقهم الطبيعي في الفلوجستين. يصلون له من خلال خادما اليوتوبيا اللاتي تسرقنه لهن، وأضحى ظفر القوم بقطرات منه كنزا قد يغنيهم عن معاقبة رجل أنى امرأة من معشرهم، فأنقذ "جابر" علاء في أول لقاء لهما من هؤلاء الذين أرادوا النيل منه لضربه عاهرة مسكينة بأن أخذ ما معه من فلوجستين وألقاه في وجه المعتدين. فنسوا أمر "علاء" وتكالبوا على المخدر، كما أغرى به "جابر" هذه العاهرة لكيلا تفشى أن علاء ضربها، وعندما أراد التملص من عمله رشى الحارس ببعض منه.

علاوة إلى ذلك، انتشر الغش لدرجة أن جابر -وهو مثقف هذا العالم- كان يضيف الليمون على الفلوجستين ليزيد كميته ويبيعه للشباب بسعر باهظ وإذا تشككوا في أمره أخبرهم أنه لا يغش وإنما إيمانهم أفقدهم التأثير بأي شيء، ويبرر لنفسه: "غش؟ وماذا في ذلك؟ أفضل الغشاشين طرا هو من يغش المخدرات؛ فهو قديس يعمل لمصلحة الناس وينعم

بالمال⁽²⁾. نَدَّرَ الحوار في هذا العالم وصارت لغتهم شبيهة بالتلغرافية بعدما رأوا كل شيء ولم يعودوا يندهشون بشيء، فنصح جابر كلاً من علاء وصديقه أن يقللا كلامهما ولا يسألا عن ثمن ما يعجبهم، وإنما أن يمسا بالسلعة لغلظة وينظران بشدة للبائع معلقين سؤالهما في أعينهما بحيث سيفهمهما البائع وسيخبرهما السعر مجرداً بلا زيادة أو نقصان. بل طلب منهما بعد أن يعرفا الثمن أن يقوموا بحركة بذئنة بأصبعهما أو يطلقا صوتاً من حلقيهما قبل أن يعطياه نصف الثمن ويرحلا. بل كان يؤكد لهما أن العادات المحمودة في عالم الأغيار معدومة والناس تبصق على الأرض دائماً ويتحسسون أعضاءهم التناسلية من فوق الثياب ويهرشون في صدورهم لاحتوائها على البراغيث ورءوسهم لإصابتها بالقمل. ويفرط الشباب في الإشارة للعنف والشهوة فأراد بعضهم معاقبة جيرمينال على سرقة المحمول بالاغتصاب، ووصفهم علاء أنهم كائنات غير بشرية يتحركون للجنس والعنف ويحبون الاغتصاب لكفله الأمرين لهم. بات الباعة المتجولون يبيعون الخمر علناً وبسفور، وهو ما لم يكن ممكناً في قبل 20 عاماً لولا الفقر الذي أسقط الأخلاق.

في رواية "في ممر الفئران"، برز هذا العنصر في قلعة القومندان. هناك، حيث الضوء، يوظفون من ممر الفئران خدما وعبداً وجواري. فجميلات نساء العالم يُستدعين لتعملن راقصات أو داعرات. بلا مبالغة، لا يتردد أحد في أن يضحي بمبادئه في سبيل إطالة بقاءه هناك. فقد وصفت طبيبة من جماعة ثوار ماهر، والتي سبق وصعدت للقلعة للعمل، أنها كانت تحس في الضوء بأنها: "كلي القدرة، بالغ القدرة، ربما أنت أقوى من الموت نفسه، كيف يقهر الموت شخصاً يزي؟ الغالبية سيكون من الهيبة وبعضهم يجنون، وفي النهاية يقاوم الجميع حتى لا يعودوا للظلام، فيحملهم رجال الشرطة حملاً للطائرة وهم يصرخون ويتلوون. وكذا قبلت الراقصة الإيطالية "باولا" بعض التقزز والانتهاك بإقامة علاقات مع الجنرالات وبعض الأثرياء العرب لتبقى في الضوء راضية أنها أكثر حظاً من الراقصات القبيحات اللاتي يعيدونهن لممر الفئران سريعاً، كان أحد هؤلاء الأثرياء العرب خليجي رآته بديناً بنظرة شريرة ومسحة خمول مع شهوانية مفرطة ذكرها بصورة هارون الرشيد وشهريار المعروفة لدى الغرب. قبلت العلاقة معه وكانت على استعداد للبقاء معه لولا أنه كان على علم ألا يجوز أن يستبقى فتاة معينة معه بناءً على أوامر من هم أكبر منه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أما في رواية "شآبيب"، فلا بُدَّ من القول إنَّ "مكرم" مثلاً واجه صعوبةً كبيرةً في الحفاظ على أخلاقيات ابنتيه وعرس القيم العربية فيهما في ظلَّ المُجتمع الأمريكي الذي كان يفرض نفسه عليه، ويغري الفتاتين باتِّباع قيمه المنفتحة - كمصاحبة الرجال وإقامة العلاقات العاطفية معهم - المناقضة للأخلاقيات العربية، كما وضَّح في الفصل السابق. كذلك في هذه الرواية، فبسبب قسوة بيئة دولة "شآبيب" الوليدة ذات الظروف الصعبة، اضطربت أخلاقيات الكثيرين وتطبَّعت بطباع الغلبة الاستوائية الحادة حولهم. تحوَّلت "أمينة" من معلمة فاضلة ذات أخلاقيات رفيعة وتدين في أوُسُلُو إلى امرأة عنيدة بادية التصميم خشنة ذات شفاه مزمومة وتجعيدة طولية بين حاجبيها، ولم تنفر من "سليم" رغم شراسة وجهه ولم تشمئز من وجهه المخضب بالدماء عقب المذبحة التي فتك فيها ببعض السكان الأصليين. وقد رأته طفلاً يحتاج رعاية، منحته ذاتها في علاقة غير شرعية بين أشجار الغابة ناسيةً ماضيها وابنتها وعاجزةً عن التحكم في غرائزها، وهي تفكر: "لا تعرف كيف حدث هذا ولا متى! لم يكن شيء كهذا ليخترق أكثر أحلامها جموحاً وشهوانية! لم تكن من هذا الطراز؛ لكن جموح التجربة وغرابتها هناك عند أطراف الأرض، حيث لو تقلبت في نومك لسقطت في القطب الجنوبي؛ هناك يصير المستحيل ممكناً. أنت شخص آخر وماضيك لم يعد له وجود والتزاماتك وعاداتك كلها هباء؛ حتَّى لفظة (سقوط) لا معنى لها فأنت لا ترتقين جبل"⁽¹⁾. كذا سليم وبعدها كان رجلاً مهذباً في مونروفيا (ليبيريا)، استجاب لعلاقته الحميمة مع أمينة، معترفاً أنَّه يجد في شآبيب متنفساً لمشاعره المضطربة الجانحة للعنف والانتقام بعد مقتل زوجته وطفليه، مقررًا أنه رغم عدم إجرام السكان الأصليين في حقه أو حق أسرته، فهو شاهد عنفاً شديداً وتدمرت حياته وسوف يكون مواطناً بهذه الجزيرة وسيقتل كل من يعرقله، صار رجلاً غاضباً كلما عرقل أي شيء مشروع الدم الذي أراده بحيث يتصرف بهمجية كأنَّ يُعمل سيفه فجأةً قاضعاً غصن شجرة، أو يقذف نصله بلا وجهة ودون أن يفكر في نوعية الفريسة، فقتل في مرة واحداً من "كانجرو الأشجار" وهو حيوان مسالم نادر موشك على الانقراض. أحبته أمينة وتمنَّت الزواج منه لتعمر معه الجزيرة وتلد أولاده رغم معرفتها أنَّ طباعه سيئة ولن يكون أباً جيداً لابنتها، وأقامت معه الكثير من العلاقات الحميمة بين الدغل دون اهتمام بعدم زواجهما، وتجاهلت ابنتها التي سكنها الحزن والحيرة لعلها بفجور أمها، وهو ما وصفه توفيق: "المعلمة المهذبة

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شآبيب، مرجع سبق ذكره، ص 257.

الأم قد تَغَيَّرَتْ كثيرًا! لعلها غرابة التجربة الجذرية بدَّلَتْ كل شيء فيها. تحطَّمتْ تابوهات كثيرة مع عالم المغامرة والتحدى والتضحية بما هو مألوف ومضمون⁽¹⁾.

5- اضطراب العلاقات الأسرية وأزمة الزواج وتنامي فجوة الأجيال: لأسباب مختلفة في كلِّ رواية، كانت العلاقات الأسرية مضطربة بصورة أو بأخرى، ووجدت فجوة الأجيال بين الآباء وأبنائهم. ففي رواية اليوتوبيا، توافر هذا العنصر لدى كلِّ من اليوتوبيين والأغيار وإن كان لدواعٍ متباينة. في مدينة اليوتوبيا، لم تكن سلوكيات الشباب المنحرفة سوى انعكاس لانعدام الرقابة الأبوية عليهم وسوء علاقة الآباء بهم. فقالها "علاء" صراحةً إن أبويه لا يتدخلان في حياته وأنه حر لتعاطي ما يشاء وإلا ما كانَ عليهما أن ينجباه؛ بل كان يُلخص دور الأب في أنه الذكر في العلاقة الحميمة ويكره أباه ويتجاهل كونه "شاذًا" ويرجو ألا يرجع من سفرياته أبدًا ويكتفي بإرسال النقود إليهم، باعتباره ليس إلا مصدرًا للأوامر التي يرفضها الفتى ومورداً للمال الوفير. كان الأبناء ينادون آباءهم بأسمائهم، وكانت والدته "علاء" مثل صديقه تنهره نهزًا ناعماً لا يؤثر به، وكان يفكر في علاقتها الحميمة مع أبيه بسفور، مؤكدًا أنها تدمن المخدرات، وحشر أنفها فيما لا يعينها، وتتبضع أغراضًا لا تريديها بسبب علاقتها السيئة مع أبيها. وكان يذكر صراحةً أنه يملُّ أمه ويرغب في التخلص منها، بل كانت لا ترفض انفلاته الأخلاقي إذ عندما حاولت أن تخرج فكرة "الصيد" عن رأسه، ذكَّرتَه أنَّ لديهم المال الفاحش والفتيات والفتيان ليشبع شهواته فيهم، لم يكن للآباء أن يصفعوا أبناءهم أو يضربونهم، وعندما ضربه أباه، ردَّ الصفعه له دون أي تأنيب ضمير، إذ كان يرى أنَّ أباه لا يتفضل عليه بالأبوة وعليه أن يتحمل مسؤوليته بشجاعة ما دام أنجبه.

تعرَّضت أيضًا منظومة الأسرة في عالم الأغيار لمشكلات عدة؛ ففي بداية التحولات المجتمعية ارتفع سن الزواج ليصير أربعين عامًا للمرأة ومفتوحًا بلا سقف للرجل، لكن مع مرور الوقت انخفض هذا السن بعدما تسهَّلت شروط الزواج بحيث بات المرء يكتفى بإيجاد من تقبل به دون النظر للسكن أو الراتب باعتبار أنَّ كلاً من الزوجين سيهتم بأمير نفسه وأطفالهما سيجدون رزقهم بصورة ما. ويُنسَت الفتيات من زواجٍ مميز فكانَ علاء مدرِّكًا أنَّ رغم ملاحه وجهه "صفية" فلسوف تتزوَّج بلطجيًّا يوسعها ضربًا حتى تموت في إحدى نوبات هيجانه. وبينما وصل معدل الخصوبة في اليوتوبيا لصفر، فقد ارتفع معدل

الخصوبة لدى الأغيار. فلقد حاولت الحكومة أن تحدّ من هذا المعدل المرتفع لديهم، فكانتُ تنشرُ أولاً فرق إخصاء لتعقيم الفتيان ليلاً، وبعدها حرّم متدينو اليوتوبيا هذه المسألة، استبدلوها بالطعام الملوث بجرعة عالية من مادة "الجوسيبول" المعقمة. مع ذلك، ظلّ الأغيار يتكاثرون مثل -حسب وصف جابر- البكتريا التي لا يمكن القضاء عليها مهما استخدموا مضادات حيوية. فكانَ الزوجان ينجبان عشرة أبناء يموت نصفهم لانعدام الرعاية الطبية. فالتكاثر -كما فسر جابر- هو رفاهية الفقراء، إذ يأملون لو يكبر أحد أبنائهم ليغير كل شيء، مع العلم أنّ هذا الأمل لم يتحقق مع أي أحدٍ والأطفال إما يموتون أو يدمنون الكلة ويبدء ونسجلهم الإجرامي منذ سن مبكر.

ظهر هذا العنصر من جديد في رواية "في ممر الفئران"، وكانَ السبب في كل الأزمات الأسرية هو "الظلام". بسبب الظلام، سهّل تفكك الأسر وأن يفقد المرء زوجته أو ابنه أو أخته. وهكذا تشّتت أسرة رامي وفقد أخته وأخاه، إذ هربتُ أخته الكبرى بعدما صارتُ حبلى بسبب علاقة عابرة بعامل في مدرستها وأنجبت طفلاً وبعدَ عشرين عاماً مرضتُ بالسرطان وتوفت بين يدي هذا الابن. أما أخته "علياء"، فأنحلتُ وصارتُ متعددة العلاقات، إذ بعدَ سنواتٍ من هروبها من البيت، حكّا "ماهر" لرامي عن عشيقته "نرمين" التي يدعى أمامها أنه مهندس اسمه "باسم"، والحق أنها لم تكن سوى "علياء". وسهّل الظلام حدوث هذا الخداع، وسمعه رامي مستمتعا بفكرة العاشقين المنتحلين لهويتين زائفتين وتيقن أنها "عاهرة" مسلية وتساءل عمّن أهلها يا ترى؟ والحق أنّ بعدَ صعوده لقلعة القومندان، كانتُ هي أيضاً صعدتُ كعاهرة بشعة المنظر وفي لحظة خاطفة توقّف هو عن عمله ورنّا إليها سائلاً عن اسمها لتجيبه أن اسمها علياء، ولما ناداه ماهر باسمه "رامي"، ليدعها لكونها تشبه المجانين ولعلها مريضة، فتصلبت نظراتها نحوه وتأمّلته وفعل الشيء ذاته، "بدا كأن ذكرى باهتة شاحبة تتسلل لهما كأنها لوحة تبدو ألوانها شاحبة تحت طلاء لوحة أخرى! لربما لو معك قطنة مبللة بسائل التنر وواصلت المسح قليلاً، لظهرت اللوحة القديمة، لكن لا أحد يريدُ ذلك!" رحلتُ بلا كلمة وواصل الآخر عمله في صمت وقد أدرك الشرقاوي أنها أخته المفقودة، وأنّ لا مبالاة رامي نابعة عن أن جهازه العصبي لم يتحمل الصدمة فلم يستوعبها⁽¹⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران. مرجع سبق ذكره، ص 176-178، 195، 359، 360.

فبسبب الظلام، لم تعد بعض الكلمات مفهومة لمن وُلِدَ فيه عكس من عاشوا في الفترة السابقة عليه. فكلمات مثل "صباح الخير" و"نهارك سعيد"، باتت مثارًا للسخرية ثم مجلبًا للشؤم وغير مفهومة، واختفت لغة الألوان والعبارات التي تستخدمها مثل "اصفر وجهه من الفرع" و "احمر غيظًا"، واضطرَّ الكبار أن يعاملوا أبناءهم كالمكفوفين ويصفون لهم الألوان بأشياء أخرى مثل قصيدة أمريكية شبه الشاعر لفتاة ضريرة اللون الأبيض بخواطر الملائكة. لم تعد الفجوة بين الأجيال بسبب اختلاف في القيم وإنما هو معرفة النور من عدمه، فكان الآباء يقصون حكايات النور لأبنائهم فلا يفهمونهم ويسأمونهم، مثل رامي الذي أحب أن يقصص لابنه بعد العشاء أنهم كانوا يستيقظون من النوم ليروا الشمس متوهجة عملاقة قادمة من الشرق، فيسأله الابن عن معنى كلمة "متوهجة"، فيجيبه أنها تعنى "بائعة لنور قوي"، فيخل الفتى من الاستفسار عن معنى كلمة "النور". ثم يثور الصغير عندما يستطرد الأب حوارَه عن الشمس متسائلًا عما يعنيه، فيشرح له رامي بلا جدوى. عَقِبَ توفيق أنَّ هكذا كان: "كان حوار الطرشان عدة ساعات! إنَّه في الواقع يعذب الصبي الذي يصغي تأدبًا، بينما أبوه يكرر لعبة الأجداد والآباء الخالدة منذ فجر التاريخ ألا وهي استعراض بضاعة ذكريات صدئة لم يعد لها ثمن.... لكن جده كان يحكي له عن الدجاجة التي سعرها مليم بينما هو يحكي لابنه عن وهم اسمه (الشمس) و(النور)"⁽¹⁾. وبينما يهدد زوجته الموشكة على الجنون من الظلام، فلم يفهم ابنهما نصف قولهما، ليجيبه رامي أنهما يتحدثان عن: " (...الكون الذي انتهى وعن الجنة التي كنا فيها ثم طردنا لا من أجل تفاحة، لكن بسبب نيزك!) "⁽²⁾.

تكرَّر الأمر بين أخت رامي الكبرى التي بينما كانت تحتضر بين يدي ابنها، هتفت أنها أخيرًا ترى النور، فيما ابنها الذي لم يعرف النور قط لم يفهمها وظنها تقلد القصص التي قرأها في الكتب البارزة حيث اعتاد المحتضرين أن يقولوا إنهم وجدوا النور. رآه الفتى سخرًا إذ لم يكن يؤمن أن وراء الظلام سوى المزيد من الظلام. المؤلم أنَّ في قلعة القومندان على الناحية المقبلة، كان بإمكانهم رؤية الصباح لارتفاعهم عن السحب المغبرة، بل ويشعرون أنَّهم يمتلكونه، فقال أحد الجنرالات لراقصة إيطالية وُلِدَتْ في الظلام عندما شاهدتُ الصبح للمرة الأولى": (هناك كلمة ستسمعينها لأول مرة نقولها في هذه الظروف وهي صباح الخير؛ هذا هو الصباح لذا تتمنين لأصدقائك أن يكون جميلًا) أول صباح تراه

(1) المرجع السابق نفسه، ص150-153، 165-168.

(2) المرجع السابق نفسه، ص169.

في حياتها وهذه لحظات أسطورية.... انفجرت في البكاء فقال في وقار: (نعم، نعم، أعرف ما تشعرين به، هذا البهاء لنا وحدنا! كَانَ من حق الجميع، فصارَ من حقِّ الصَّفوة، إننا سادة العالم بلا مبالغة)"⁽¹⁾.

6- ظاهرة استساغة القُبْح: رغم غرابة العنصر، لكنَّهُ كَانَ حاضراً في أكثر من موضع في الروايات؛ ففي رواية "يوتوبيا"، وبسبب تردّي أوضاع الأغيار الاقتصادية، فلقد طغى القبح على عالمهم حيثُ الشوارع العفنة المبللة دائماً بمياه المجاري والغسيل والوحل، وكانتُ العاهرات قبيحات بشعات المنظر عريضات المناكب وضخّمت العظام فيبيدين كالرجال. سارَ الناس بملابس متسخة ممزقة، تفوح من كل مكان الروائح الكريهة سواء العرق أو الوحل أو الفضلات البشرية أو الدماء أو المأكولات. صارَ طبيعياً أن يحمل رجلاً أسلحة بدائية فقيرة كالسيوف أو نصال مصنوعة من هياكل السيارات أو مواسير المياه. والمؤسف إن لم يعد هؤلاء القوم يخافون أو يشمئزون من شيء، بل لقد عرف "جابر" أن علاء وجيرمينال من مدينة اليوتوبيا لما رأى خوفهم واندھاشهم وتوجسهم من قُبْح عالم الأغيار وهي مشاعر دخيلة على قومه.

كذلك في رواية "في ممر الفئران"، تُطرّق إلى هذا العنصر، فمن ناحية، كَانَ بقلعة القومندان حدائق غناء أشبه بالجنة حيث الطواويس والنافورات والحسناوات بنات السادة المولودات في الشمس يرقدن على العشب يقرأن أو يعتلين الأراجيح أو ينثرن بتلات الأزهار يرتدين الغلات الخفيفة كإلهات إغريقية لا يجوز مغازلتهم وإلا ضرب المتغزل. هناك متحف يحوي لوحات عصر النهضة والآثار الآشورية والفرعونية ورأس أمانحتب الثالث وعمود عليه كتابة مسمارية وتمثال نهضة مصر وسوّاح بكاميرات تصوير. لقد تكوّنت أرستقراطية كاملة من القومندان وقومه وأسرهم، بحيث استحضرُوا لأنفسهم كل ما يجعل حياتهم لذينة كأثار الأمم الأخرى التي يجوز نقلها إذ كَانَ صعباً -كما خمنَ الشرقاوي- عليهم نقل الهرم أو برج إيفل أو تاج محل. على الناحية الأخرى، ففي بقية العالم وبعدما انتهى عهد النظر، انتشر القبح إذ لم يعد أحد يهتمُّ بهندامه أو عاداته الصحية وأصبح كل شيء يتعفن بسهولة ناشراً روائح مثيرة للاشمئزاز.

(1) المرجع السابق نفسه، ص272.

باتَ غسيل الوجه وحلاقة شعر الرأس أمورًا نادرة، وهذا ما ألفاه "الشرقاوي" حينما أشعل قداحته في بهو أحد الفنادق فرأى أناسًا بشعور مشعثة وملابس غير مرتبة. لم يعد الباعة والفنادق يروّجون بالمعايير الجمالية وإنما بالرائحة. فبائع اللحم المشوي يزيد من رائحة لحمه الشهي، والفندق ينادي بكونه مريحًا للزبون ورائحة الغرف زكية، وهو ما فكر فيه الشرقاوي ألا معنى للجمال البصري في عالم مظلم ولن يطلب أحدُ غرفة تطل على النيل، وإنما سيطلب غرفة مريحة رائحتها حلوة. في بداية العتمة، كانَ يُسمَح للعريس الذهاب لبيت عروسته مع أهله، حيث تمرُّ الفتاة على الجميع ليمسوا جسدها لتحديد جمالها والتأكد من تناسق ملامحها وحسنها، لكن بسبب عدم آدمية هذه العادة، ظهرتُ الصور المجسمة للجسد التي هي أقرب لتمثال يلمسه العريس ليتيقن من جمالها. باتَ تذوق الجمال باللمس، وتُنقد اللوحات بمدى تناغم مزج الخشونة والنعومة بحيث بعدَ مرور الوقت تتعلم أطراف الأعصاب في الأنامل كيف ترى وتميز أنواع عدة من البروزات. ولم يعد هناك اعتناء بجمال وأناقة البيوت، فعلى ضوء القداحة شاهدَ "الشرقاوي" مدى رداءة ذوق بيت "رامي" بلوحات الجدار القذرة والستائر المتسخة الممزقة والمناضد المتوسخة بفتات الخبز والأكواب والكتب بحروف البرايل.

والحق أن الاستغناء عن قيمة الجمال في هذا العالم سبب جنونًا لجميلات مثل شخصية "فاتن" التي كانت تهوس الرجال في فترة النور، والتي صارتُ تصاب بهستيريا من آن لآخر شاعرة بإطباق الظلام على روحها وتصرخ أنها كانت رائعة الجمال تلاحقها نظرات المتحرشين كدكتور مصطفى، وتردد أنها خائفة من فقدان وجهها في الظلام، وأنها متأهبة لإعطاء نفسها للشيطان مقابل لحظة نور واحد. فكان يجيئها زوجها رامي: "(الشهوات ماتت، الفكر مات، العلم مات، كل هذا صار ترابا يعبث فيه الدود، لقد انتهى فصل كامل من مسرحية حياتنا، الفصل التالي ديكور مختلف)"⁽¹⁾. وقد رآها الشرقاوي على ضوء قداحته امرأة شائبة الشعر جرحتُ عنقها بأناملها في ظل إحدى نوبات هستيريتها، بينما هي هُوستُ بالضوء المتراقص لدرجة الضحك المجنون، وبعدما هدأها زوجها ونيمها فسر له أنها كانت ممن عرفوا النور في شبابهم وأنها تخشى الظلام ولا تستطيع الانسجام معه. وبالفعل فقد انتهى مصيرها بأن سرقَت القداحة في نهايات الرواية وصنعتُ بها جذوة نار عملاقة وخرجتُ للشارع تحرق صفحات من كتب وتلقيها أرضًا صارخة في الناس أن هذا هو النور والنار اللذين جرمهما السادة عليهما تدعو الجميع ليمتعوا أبصارهم بهما، بينما

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر القتران، مرجع سبق ذكره، ص169.

يرون أن لو كانت النار جريمة وكفر مثلما يقال لهم، فهي سفاحة وزنديقة لم يُرَ في جراتها. ولم ينجح رامي في إيقافها بعدما استولت عليها ما أسماه الشرقاوي (نشوة النيران المقدسة)، بحيث استحال انتشار سفيتها الغارقة، وسحب هارين لكلا يؤخذا بذنبها، وفعلًا أَلقت الشرطة القبض عليها وأرجأوا محاكمتها لحين استجوابها ومعرفة مصدر القداحة، وهكذا خسر رامي وخسر حياته في مصر، وهو ما عقب عليه توفيق: "هناك قاعدة يجب أن تتذكرها في تجاربك القادمة، لو كانت لك تجارب قادمة: ليس من الحكمة ترك قَدَاحَة مع امرأة أصيبت بحالة من الهستيريا بسبب الظلام"⁽¹⁾.

7- **أزمة المثقف:** يمكن القول إنَّ أغلب روايات توفيق تعرَّضتْ لأزمة المثقف في المجتمع المصري على وجه الخصوص، الحالم بالغدِّ الأفضل. في رواية "اليوتوبيا"، كان كلُّ من "جابر" و"علاء" مثقفين بحكم قراءاتهم المتوسعة واختلافًا بذلك عمَّن حولهما. فأما جابر، فرغم ظروفه المتعسرة والجهل المسيطر على رفاقه، كان يحتفظ بعادة القراءة النهمة لكونها مخدرًا يغيبُ بها عقله متحملاً سخرية حبيباته والتي قالت إحداهُنَّ له بالحرف الواحد "اتنيل" تعقيباً على قوله عن أهمية القراءة. حسُّ النقدِ عال يستخدمه في كل مواقفهِ مثل عندما طعنه بلطجي أراد تزوُّج حبيبة جابر؛ طعنه أفقده إحدى قرنيتيه، فكان يفكر آنذاك: "لقد فقدت قرنيتي، البلهَاء يقولون (عينه باظت) لأنهم لا يعرفون ما القرنية! أنا أعرف أشياء كثيرة.. حتى والنصل يمزق عيني، كنت أدرك الفارق التشرحي بين القرنية والعين كلها"⁽²⁾.

وعندما اكتشف انتماء علاء وصديقه لليوتوبيا من شواهد بسيطة كارتعابهم واشمئزازهم ولاصطحاب الفتى لصديقه وهو ذاهب للاتفاق مع بائعة هوى، ولاختياره أقرب امرأة في العشش والتي يتفادها الجميع لكلا يحتكوا بعمها القواد القاسي. توقع منذ البداية ألا يكون اسم الفتى "علاء" وأنَّه مجرد اسم زائف كيلا يعرف هويته. رفض أن يتزوَّج بائعة سمك فقيرة لإدراكه أنَّ الناس يتزوجون للإتيان بأطفال أفضل وأجمل وأغنى وأقوى منهم، فلا جدوى من أن يتزوجها وهما مثالا للشقاء. وبذلك يستحق أهل اليوتوبيا -في نظره- الزواج والإنجاب لقوتهم ولأنهم يحددون معايير الفساد والوضاعة. وكانت أخته هي حافزه الوحيد كيلا يموت، وكان يسعى ليزوَّجها زيجة جيدة إذ خشى أن تتوجَّه للإجرام أو للانحراف عندئذ لسدِّ قوت يومها.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 293.

(2) خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 72، 73.

كَانَ يَبْحَثُ دَائِمًا عَنِ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ فِي الْقِمَامَةِ، هَذِهِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ سَلْعَةً يُمْكِنُ بَيْعُهَا وَأَلْقَتْ فِي الشَّوَارِعِ لِسَنَوَاتٍ دُونَ سَرَقَتِهَا لِعَدَمِ اهْتِمَامِ أَحَدٍ بِالْقِرَاءَةِ. وَبِسَبَبِ قِرَاءَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَوَعْيِهِ الْعَالِي، شَعَرَ بِالْإِغْتِرَابِ لِعَدَمِ انْتِمَائِهِ لِقَوْمِ الْأَغْيَارِ الْبُلْهَاءِ أَوْ قَوْمِ يُوْتُوبِيَا الْفَاسِدِينَ الْمُتَرَفِينَ، كَانَ مُحِبِّطًا دَائِمًا لَوْعْيِهِ الشَّدِيدِ بِمَا آلَتْ وَمَا سَتْتَوِلُ إِلَيْهِ أَوْضَاعُ بِلَادِهِ، وَكَانَ يَحْلُمُ دَوْمًا "بِمَا بَعْدَ الْجِنْسِ" أَيِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَةِ الَّتِي تَرْتَقِي بِالْعَقْلِ وَالَّتِي تَجْعَلُ الرَّجُلَ يَحِبُّ امْرَأَةً لِعَقْلِهَا لَا مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْحَمِيمَةِ، وَذَلِكَ بَدَلًا مِنْ حَيَاةِ الْأَغْيَارِ الَّتِي لَمْ تَعُدْ تَبَالِي إِلَّا بِالْمَأْكَلِ وَالْجِنْسِ. لَمْ يَثِقْ قَطُّ فِي عِلَاءٍ وَجِيرَمِينَالٍ لِمَعْرِفَتِهِ أَنَّ أَهْلَ الْيُوْتُوبِيَا يَعَامِلُونَ الْأَغْيَارَ كَأَنَّهُمْ حَيَوَانَاتٌ يُمْكِنُ الْكُذْبُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَكْذِبُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْخُرُوفِ؛ كَمَا امْتَلَكَ عَزَّةَ نَفْسٍ بِحَيْثُ رَفَضَ تَمَامًا التَّعْوِيضَ الَّذِي وَعَدَهُ عِلَاءٌ بِجَعْلِ أَبِيهِ يَمْنَحُهُ إِيَّاهُ لِلْمَالِ الَّذِي تَكْبَّدَهُ جَابِرٌ فِي تَهْرِيبِهِمَا، وَقَالَ لَهُ إِنَّهُ لَا يَرِيدُ سَمَاعَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَنْ أَبِيهِ. كَانَ يَأْتِسُّ لِمَعْرِفَتِهِ أَنَّ أَيَّ قَرَارٍ سِيَاسِيٍّ أَوْ اقْتِصَادِيٍّ يُؤْخَذُ فِي مِصْرَ، فَهُوَ سَيُضِرُّ بِالْفُقَرَاءِ، فَعَقَّبَ عَلَى قَرَارِ الْإِلْغَاءِ الْجِمَارِ عَلَى الْخَشَبِ الْمُسْتَوْرَدِ مِنَ الْإِتِّحَادِ الْأَوْرُوبِيِّ بِأَنَّهُ: "لَا أَفْهَمُ مَعْنَى هَذَا كُلِّهِ، لَكِنَّهُ مُؤْذٍ لَنَا وَخِلَاصٌ! أَيُّ قَرَارٍ يَتَّخَذُ فِي أَيِّ وَقْتٍ هُوَ ضِدُنَا"⁽¹⁾.

كَذَلِكَ، جَعَلَتْهُ ثِقَافَتُهُ -كَيْلَا يَسِيرَ مَعَ قَطِيعِ الْأَغْيَارِ- يَحْتَفِظُ بِسْمَتِي التَّسَامُحِ وَالسَّلْمِيَةِ بِاعْتِبَارِهِمَا أَرْقَى الْخِصَالِ الْإِنْسَانِيَةِ، فَكَانَ يَنْقُذُ "عِلَاءً" وَ"جِيرَمِينَالًا" طِيلَةَ يَوْمِي إِقَامَتِهِمَا فِي عَالَمِ الْأَغْيَارِ رَغْمَ أَنَّهُمَا يُوْتُوبِيَانِ. لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُمَا أَوْ يُؤْذِيهِمَا أَوْ يُلُومُهُمَا عَلَى تَفْكِيرِهِمَا الصَّافِقِ وَسُلُوكِيَاتِهِمَا الْمُتَكَبِّرَةِ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابٍ عَدَّةٍ. مِنْ نَاحِيَةٍ، رَأَاهُمَا جَاهِلَانِ كِ"جِرْذَيْنِ يَسْرِقَانِ خَبْرًا دُونَ أَنْ يَعْرِفَا عَوَاقِبَ ذَلِكَ" وَحَاوَلَ أَنْ يَفْهَمَهُمَا أَوْضَاعَ الْبِلَادِ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، فَقَدْ كَرِهَهُمَا بِصَدَقٍ، وَبِذَلِكَ مَنَحَاهُ فُرْصَةً لِيَكْرَهُ بِحَقٍّ وَحَرَارَةٍ بَعْدَمَا قَضَى سَنَوَاتٍ لَا يَشْعُرُ بِأَيِّ شَيْءٍ سِوَى الْإِسْمِئْزَانِ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ، فَقَدْ كَانَ يَرْفُضُ الْعُنْفَ بِكُلِّ أَشْكَالِهِ وَمِنْ جَمِيعِ الْأَطْرَافِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اعْتَبَرَ الْقَتْلَ وَالْدَّمَاءَ إِمَارَتَيْنِ حَيَوَانِيَّتَيْنِ لَا يُمْكِنُ الْقِيَامُ بِهِمَا وَإِلَّا فَقَدْ آدَمِيَّتُهُ وَصَارَ كَقَوْمِهِ وَكَأَهْلِ الْيُوْتُوبِيَا. فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ قَوْمَهُ هَمَجِيَيْنِ وَوَصَفَ إِحْدَى الدَّاعِرَاتِ أَنَّهَا غَبِيَّةٌ كَحَيَوَانٍ بَلِيدٍ يَهْرَشُ رَأْسَهُ بِلَا تَوَقُّفٍ بِحَيْثُ لَنْ يَسْتَغْرِبَ لَوْ قُضِّتْ حَاجَتُهَا فِي الشَّارِعِ. وَقَدْ أَوْضَحَ هَذِهِ الْأُمُورَ فِي عِبَارَتِهِ لِهَمَا: "بِرَغْمِ كِرَاهِيَّتِي، لَا أَنْوِي قَتْلَهُمَا! لَا أُرِيدُ دَمًا أَوْ قَتْلًا! هَذِهِ النُّقْطَةُ الَّتِي تَحْدُدُ كُلَّ شَيْءٍ وَهِيَ

الدليل الوحيد الذي يخبرني أنني ما زلت آدمياً، ولم أتحول لضبعٍ وأناى أنفوق فى ذلك على أهلى وجيرانى، أنفوق على ما كنهه أمس" (1).

رغم تخديره لجيرمينال ليغتصبها وشجعتة أخته مبررة أنه يستحق امرأة ثرية ناعمة نظيفة، قرر أن ينفذ الأمر، مفكراً أن قهر الفتاة اليوتوبية على يد أحد الأغيار سيكون قهراً لطبقة كاملة ونصراً وحيداً قد يحققه، ورغم أن علاء لم يكن فى الأنحاء، إذ سبق وتركه فى ساحة أحد معلمي الدجاج، فتوقف فى اللحظة الأخيرة واكتفى بصفعها بضع صفعات غليظة وجذب خصلات شعرها قليلاً، ثم رحل عنها نابذاً الفكرة برمتها. ترك "توفيق" قراءه دون حسم لسببه فى التوقف، وما إذا كان ذلك بسبب الحاجز النفسى الذى صنعتة سلطة "اليوتوبيا" بداخله أم ضميره الذى هذبتة الثقافة الحقيقية بحيث بات يرى وجه أخته فى كل امرأة مغلوبة على أمرها. لم يحسم توفيق الأمر مكتفياً بتذكر جابر لواقعة وقوف نابليون بونابرت أمام الجنود الآتين لاعتقاله وفتحه لصدره لهم يطالبهم بأن يقتلوه حتى لو كان إمبراطورهم، هنا هيبته أعجزت الجنود وجعلتهم يجثون أمامه باكين. كما أخفى جابر هذه الحادثة كلية عن علاء كيلا يظن الأخير أنه عاجز عن أديتها خوفاً وتهيباً من اليوتوبيا مردداً: "الفتى ليس بونابرت بل حيوان شهنانى من يوتوبيا بلا هيبة! المشكلة أن يكون قد خلق حاجزاً نفسياً من العبودية بداخلى! أنا عاجز عن قتلها والسؤال هو: هل لأن يوتوبيا أقوى منى أم لأنى أنا أقوى منى" (2).

كما دافع عن الفتاة عندما أراد قواد أخذها للعمل فى الدعارة، رغم أنه لو تركها كان ليكون أعظم انتصار له على اليوتوبيا. أخفاها لديه وفى أثناء تهريبها لليوتوبيا، أكد للرجال الذين يساعدونه فى مهمة التهريب أنه يضمنهما كنفه وقادهما لنفق يوصلهما لمدينتهما رغم خطورة معرفتهما بهذه الطرق، وشرح لهما الدرب حتى يعودا لبيتيهما، وأجاب سؤال علاء عن سبب مساعدتهما لهما باقتباس من قصيدة "عبد الرحمن الأبنودى: (إحنا شعبين شعبين، شوف الأول فىن والثانى فىن، وأدى الخط ما بين الاتنين بيفوت)، متمنياً لو يغير فهمهما لوضع البلاد أى شيء فى سلوكياتهما، ودعهما دون أن يوبخهما، بل أخبرهما أنهما فى أمان ولن يلحق بهما ونصحهما ألا يعودا للأغيار أو يحاولا اصطياذ أحد آخر منهم، إذ حينها لن يكون موجوداً لمساعدتهما.

(1) المرجع السابق نفسه، ص131.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 148، 149، 152.

أما علاء، فالغريب أن توفيق لم يكتفِ بوصفه بأنه مثقف من مدينة "اليوتوبيا" متفاخر بقراءته لكل ما طالته يداه على خلاف أبناء جيله؛ بل جعله نموذجاً للمثقف المزيف الذي لم تهذب ثقافته أخلاقه أو تزينه بالرحمة والتسامح والمسالمة -عكس جابر- الذي كُلِّمَ وُضِعَ في موقفٍ يهدد وضعه -كأحد ساكني مدينة اليوتوبيا المرفهة- تغلَّبَ جشعه على هذه الثقافة وأعمى عينيه -عمداً- عن رؤية الحقيقة. فمن ناحية، لم يحب علاء جابراً وإنما رآه خروفاً مفكراً سيكون خطراً على نفسه وعلى من حوله. وكلما رأى حجم ما يلاقيه الفقراء من ظلم، عرفَ قيمة ما يملكه المحظوظون وما يمكن أن يفقدوه وبات أكثر تعنتاً نحو هؤلاء المظلومين. ثقافته اختلطت بأخلاقيات اليوتوبيا فكان غيوراً، متوحشاً، متكبراً، يرغب في الثأر لكرامته، فقاوم شرح جابر للأوضاع معقّباً مرّة في عنف: "كُفَّ عن الدروس الأخلاقية فقد سمعتُ منها ما يكفيني"، ولم يستنتج من مغامرته في هذا العالم الفقير سوى أنهم استحقوا قهرهم لأنهم خنعوا أمام طواير الرواتب في المصالح الحكومية متذرعين بالإيمان بالله والرضا بقضائه ولم يثوروا أو يقتنصوا الفرص كآبيه وأهل اليوتوبيا، فكَّرَ عندما أجابت صفية سؤاله حول مرضها بالدرن ألا علاج له، أنه لن يكذب عليها ويطمئننها أنه سيجلب لها الدواء من أبيه الذي يحتكر سوق الدواء كله. وبينما عجز "جابر" عن اغتصاب جيرمينال المخدرة ذات الصولات والجولات في العلاقات الحميمة، لم يجد علاء أي رادع عن اغتصاب صفية العذراء المسكينة وهي متيقظة بعدما قيدها في غياب جابر⁽¹⁾، اغتصبها وهو يردد: "أنتم لم تفهموا اللعبة مبكراً، فهو يتم إلى حيث لا يوجد قاع! ما ذنبنا نحن.. أنتم أقل منا في كل شيء؛ هذه سنة الحياة التي يجب أن تقبلوه"⁽²⁾.

تغلَّبَتْ خصال مدينة اليوتوبيا على ثقافته التي كان ينبغي أن تجعله منفتحاً وعادلاً، وزادته هذه الخصال تبريراً لوضعهم المتفوق على الضعفاء وملأته ترفعاً، كان يخاف دوماً أن يغدر به جابر لكفره بشهامه البشر، وبدا هذا عندما أوصله جابر لليوتوبيا بأمان، فظل يشعر أن معرفته كبير ومؤكد سينطوي على ثمن يطلبه إما مال أو منصب أو جسد أو حتى قصة يتفاخر بها أمام أصدقائه، وكان علاء يرفض ذلك بتاتا، فلم يكدر يستدر جابر راحلاً بكشافه في النفق المضي لليوتوبيا بعدما نصحهما ألا يعيدا مغامرتهم كيلا يتضررا، عاجله "علاء" بضربة على رأسه بصخرة أماتته فوراً مجيباً استنكار جيرمينال أنه كان أحق وكان ينبغي أن يدفع ثمن حماقته، وقطع يد جابر بالفعل ليكون تذكاره الثمين، وبمجرد عودته

(1) المرجع السابق نفسه، ص 109، 148، 162، 164، 165.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 165.

لمدينته عانق صديقه مفكراً أنهما دخلا الجحيم وخرجا منها سالمين، وبذلك تمت مغامرتهم بلا خسائر. وبعدَ تقريع بسيط من أبويهما، بدأت احتفالات الخمر والفلوجستين لرجوعهما سالمين كبطلين يحكي لأصدقائه عن جابر الأحق الذي لم يفهم قواعد اللعبة، وعن صفية التي قاومت اغتصابه كلها كأنها الملكة كليوباترا، ثم يشربون جميعاً الخمر في نخب الأخوين وعالم الأغيار، وبعد أيام قليلة رجع لسأمة من جديد.

وقد عادَ توفيق لتناول قضية "أزمة المثقف الحالم" من جديد في رواية "في ممر الفئران"، إذ لم يحمل الشرقاوي على الدخول في الغيبوبة سوى انهزامه في واقعه المعاصر وعدم تقدير ثقافته وأفكاره الوجودية المستمرة، فحلم بعالم يعيش فيه طموحاته جمعاء، وهذا ما تناوله الجزء السابق من الكتاب. أمّا بداخل الديستوبيا التي رآها، فقد قابلَ كلاً من رامي وماهر ونجوان ومها، جميعهم مثقفون لم يتقبلوا سطوة القومندان قط، وسعوا إلى الثورة عليه حتى لو تباينت آمالهم حول جدوى الثورة، كما كان هناك من لم يتقبل فكرة "الظلام" قط مهما عاش فيه، هؤلاء وصفهم توفيق أنه بعدما كانوا يرون الفراشات الملحقة فوق الجداول والضفادع الواقفة على جزر طافية من ورد النيل، باتوا لا يرون أي شيء، ولن يتسامحوا مع الظلام، فهؤلاء لو وُلدوا مكفوفين أو مرضت عيونهم، لم يكونوا ليتعذبوا، لكنهم يتعذبون لأنهم كانوا يرون ثم سلبَ منهم هذا الحق رغم أن لديهم عيوناً سليمة، هؤلاء متعطشون للنور وسيدفعون أي شيء مقابل لحظة نظر. هذا على غرار "فاتن" التي تأتيها هستيريا الظلام من حين لآخر، ورامي الذي لم يمل من الحديث عن الضوء لابنه، والذي استولى على نظارة الرؤية الليلية التي أعاره إياها "ماهر" -كما سيتقدم الذكر في الفصل القادم- وتحده أنه لن يعيدها له حتى لو نعتة بالأثاني الجشع⁽¹⁾. هناك من هؤلاء اليائسين من قد يقبل بالعبودية في القصر فقط من أجل الوصول للنور، أو يفكرون في محاولة الثورة الانتحارية أو حتى أن يقبلوا الديستوبيا كلها ليوتوبيا مثل الشرقاوي الذي كان في غيبوبته يتقلب فزعاً بين الآن والآخر كلما تضاءلت احتمالات نجاح الثورة، يخشى أن تكون هذه هي حياته الحقيقية وأن حياته كمهندس متزوج كانت الحلم، وأنه سيعيش أبداً الأبد في الظلام، وهذا ما سيتم ذكره في مآل ديستوبيا (ممر الفئران).

(1) لقد فُكّر أنه استغنى عن صديقه عندما سرى عينيه وأنه بذلك خائن: لكنه برّر لذاته أنه بدوريه "ضحية بانسة" بحيث ليس عليه أن يحرص على أي قيم أخلاقية، وهو ما وصفه "توفيق" أنه الغريق الذي لا يروم لإغراق من يتمسك بساقيه، وإنما يرغب في النجاة أولاً بزيادة سقوطه. والحق أن ماهر كان على وعي بذلك بعدما أخفق في استردادها بالقوة، طلب إليه أن يعيدها عندما يشبع من رؤية العالم. وعده رامي لولا معرفته أن ظمأه ذاك لن يرتوي قط.

وفي رواية "شآبيب" يمكن القول إنَّ شخصية "مكرم" تُعَبِّرُ أيضًا بطموحاتها في إلغاء الاضطهاد والتمييز العنصري ضد العرب من ناحية، وفي إلغاء سطوة الغرب الثقافية على المهاجرين العرب، عن أزمة "المثقف العربي" الذي هو على دراية بما يعانيه عالمه العربي من أزماتٍ بينما يعجزُ عن إنقاذِه بالطرق السلمية، ما حداً به إلى الطريق المتطرف وهي السعي لإقامة دولة كاملة يعيشُ فيها أقليات العرب بسلام وتحقق لذكراه الشخصية الخلود.

8- **توتر العلاقة بين الطبقات:** ظهرَ هذا العنصر في رواية "يوتوبيا" كون الرواية تدور بالأساس حول الانقسام الطبقي الذي حلَّ على الشعب المصري عام 2023 نتيجة لغياب العدالة الاجتماعية، كلَّ طبقة كرهتُ الأخرى بشكلٍ ما. أمَّا اليوتوبيون، فقد عاملوا موظفي "الأغيار" الموجودين في المدينة بلا رحمة، فحملوهم الأعمال الشاقة وكانوا ينقلونهم صباحًا بالحافلة من مناطقهم ويعيدونهم ليلاً إليها مع وضعهم تحت الرقابة المشددة، بحيث لا يحق لهم الحديث أو رفع أصيحتهم في الأنحاء أو في وجه أسيادهم، ويعاملون نساءهنَّ كالجاريات يقمن معهنَّ العلاقات غير المشروعة غير عابئين بحملهنَّ أو موتهنَّ حتى، يراهنَّ "علاء" مجرد كائنات أخذت آدميتهم تتأكل يومياً حتى باتوا كائنات مريضة، لم يأس عليهم عندما قام هو وجيرمينال بخداع اثنين منهم وأعطاهما شطيرتين يأكلانهما قبل أن يضرباهما بحجر ويتنكران في هيتتهما للخروج من المدينة بقصد "الصيد"، فكرا خلال رحلة الحافلة أنه رغم الرائحة الكريهة التي تفوح من أبدان الفقراء المتعبين، فهي مغامرة، كما كانا مطمئنين في بداية مغامرتهما أنَّهما لو أرادا الرجوع من عالم الأغيار فسيصلان بأبي علاء ليرسل حراساً يعيدهما، كانا مطمئنين لأنَّه سبق وحوصر صديقٌ لهما في منطقة "العتبة"، فاتصل بوالده الذي أحضر له هليكوبتر المارينز والتي حلقت فوق المكان وأطلقت رصاصاً على الرءوس وتدلَّى الحراس بالحبال حاملين الفتى وصيده وعادوا به للمدينة.

شبه الفتى أخت جابر "صفية" وهي تتأمل "جيرمينال" النائمة بقرد في حديقة حيوان اليوتوبيا سبق ومدَّ يده يتحسس وجه "علاء" بوجل، وأكَّد أنها كالقردة وأن جيناتهما حيوانية عندما كادت "جيرمينال" تصحو ووثبت صفية للخلف خوفاً، ووصفها في موضع آخر بالثور في ثنائبه، وبالحشرات النشطة وهي تقوم بأعمال المنزل بهمة، أعجب بها ولكن اشمئز منها للملابسة القذرة ومرضى "الدرن" الذي يجعلها تسعل دماً، ورغم شهامة جابر معه طيلة الرواية، ظلَّ يراه رجلاً فقيراً أذناه مليئتان بالصماخ وعينه تالفة ونظاراته ملحومة بالنار وأصابع قدميه متقرحة وقومه غواثيون وطعامه فاسد ومستقبله أسود،

وكتبه مهترته، كان "علاء" غاضباً جداً أنه رغم فقر جابر، كان شهماً ولم يخافهما أو يتوسل إليهما بل صفع جيرمينال في لحظة معينة ليحميهم من بطش قومه، ورآه "علاء" مجرد ساذج. بل وفي أثناء اغتصابه لصفية، كان ينظف كل جزء منها قبل أن يمسه؛ واستغرب مقاومتها له إذ ظن أن كان عليها أن تشكره أنه -وهو رجل يوتوبيي ينعم بالشمس الساطعة والرياضة التي تحافظ على حيويته- قد اشتهاها بعدما فسدت رجولة رجال الأغيار بالطعام الفاسد.

لم يثق "علاء" يوماً بجابر وتوقع غدره طوال الوقت رغم مرورهما بالكثير من المواقف التي دافع "جابر" فيها عنهما، وفي نهاية الرواية وبينما جابر يوصلهما لليوتوبيا عبر نفق، ظنه علاء أنه سيقتلها ويتخلص من جثتيهما في الصحراء، كان متشككاً ومتربحاً وتراوده أفكار أن لو هاجمها جابر، فلسوف ينتصر هو -علاء عليهما، "إذ لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر"⁽¹⁾، بالإضافة إلى ذلك، كان اليوتوبيون يخافون الأغيار جداً، فتحوّلت "جيرمينال" بمجرد وطئها لعالمهم إلى طفلة معذبة تريد أمها بعدما كانت ملولة ثائرة دائماً، وشاهدتها في موقف آخر عندما هاجمها بعض الشباب لسرقته لمحمول أرادت به الاتصال بأبيها أنها ارتجفت برعب فظيع وهرشت صدرها وشعرها بغلظة هستيرية، لتفهمهم أنها من الأغيار كما علّمها جابر أن تفعل.

على الجانب الآخر، فاحت عيون هؤلاء الفقراء بالغضب والمقت والخبث، يسبون الأثرياء ويعقبون بين بعضهم بعضاً عما يجري في بيوتهم، ويتحاكون عن جذور هؤلاء الأغنياء القذرة، وهو ما فسرتة عاملة: "كلهم جاء من أسفل أسفل الطبقات، لكننا وأهلنا كنا أغنياء كالبهائم بينما عرفوا هم كيف يعصرون من الزلط دهناً"⁽²⁾، وتوافق نساء الأغيار على العلاقات مع هؤلاء الغيلان خوفاً من سطوتهم وتحمسا أن يرغب عملاق ثري فيهن، وهو ما فسرتة العاملة ذاتها: "لا تقولي يا شابة إن من يفعلن هذا مرغمت طيلة الوقت، لا وحياتك، للشرف حدود يتهاوى بعدها"⁽³⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص 171، 172.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 46.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 46.

بالنسبة للأغيار الذين لا يعيشون في اليوتوبيا، فبعضهم تملكه الفضول نحوهم مثل صفية التي كانت تتساءل عن شكل الأثرياء المقيمين في مستعمراتهم، والتي ناداهما أخوها كي تتفرج على "علاء" و"جيرمينال" بعد لقائه بهما، كما راقبت جيرمينال خلال نومها ولمست شعرها مستكشفة. غير ذلك، كان الأغيار على علم بعادة "الصيد" بحيث خبر جابر "علاء" في بداية لقائهما عن معرفته أنه أتى للعالم الفقير لينال تذكارا فريداً، ونهره عند محاولة الإنكار أنهم يعرفون بما يفعله المترفون عند تسللهم إلى عالم الأغيار، وأن طائرات المارينز تنفذهم، وسأله بسخرية: (ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟ كخ؟ عيب؟ يا للقسوة!)⁽¹⁾، فقد سبق وقتل ثلاثة فتية من يوتوبيا أحد أصدقائه وقطعوا ساعده ليكون تذكارا يروونه لأصدقائهم والتقطتهم طائرة المارينز بحبالها، بعدما أطلقت رصاصا عشوائيا على الفقراء قاتلةً منهم الكثيرين، ووصف جابر الأمر في فقرة مؤثرة ختمها بأن: (ابتعدت الطائرة تاركةً مزيداً من الحقد الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها! أقسم أخو عزوز -المقتول-.. ليقطع ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو وقع بين يديه بأسنانه لا بالسكين.. الفرصة لم تأت وظل الجميع ينتظر بشغف كيف يحدث هذا، يعرفون أنه سينفذ الانتقام حرفياً لكن مع أي تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة)⁽²⁾.

وقال الرجل الذي كانت جيرمينال قد سرقت جواله مدعية أنها من الفقراء وتريد الاطمئنان على أخيها الذي ذهب لليوتوبيا، أنه لن يرجع إذ سيتسلى عليه شباب اليوتوبيا ويقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة طالبين مغفرة الله. وقد ذهب أحد البلطجية لجابر بعد بعض الوقت ليخبره أنه لاحظ قيامه بإلقاء الفلوجستين للرجال ليتقاتلوا وليلتهاوا عن "علاء وجيرمينال" كأنه يتستر عليهما، وأنه تيقن أنهما من أهل اليوتوبيا ولا يعملان فيها، فقال بذكاء: "أيام كانت هناك كلاب، كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي لكنه لم يبدُ مثلي في أي لحظة.. عاش كلباً ومات كلباً! الغبي ابن الغبي هو من يخلط بين الكلب وصاحبه وهذان ليسا كلبين بل يملكان الكلاب"⁽³⁾، هنا حذره من الاستمرار في التستر عليهما وإلا المنطقة سيأتون لداره ينالون حقوقهم، بينما أخبره واحد آخر أنهم سيبحثون على أصلهما ولو اكتشفا أنهما من اليوتوبيا فسيلعبان بهما ويخفيانهما فلا يجدهما الذباب الأزرق.

(1) المرجع السابق نفسه، ص. 99.

(2) المرجع السابق نفسه، ص. 103.

(3) المرجع السابق نفسه، ص. 152، 153.

بل إنَّ بعض بلطجية الأغنياء يحفرون أنفاقاً لليوتوبيا ليسرقوا ما يشاءون ويؤجرون هذه الأنفاق لمن يدفع مالا ومخدرات، وبينما جابر يعيدهما لليوتوبيا عبر أحد هذه الأنفاق المتصلة مباشرةً بقلب المدينة الساحلية، أخبرهما، أنه يعرف (Elite Mall) هناك حيث: (ينتشر أمثالكم كالضباع بحثاً عن فريسة! العبيد والجواري من عندنا ينتظرون تلبية طلباتكم، عبد يجلب العصير وجارية تساعد في اختيار الثوب المناسب، خصي يقف على باب المرقص)⁽¹⁾.

في رواية "في ممر الفئران"، كانت هناك طبقية بالطبع بين قوم "القومندان" وبين العالم أجمع، أقل تجليات لهذه الطبقية أنه بينما تُحرّم النار وكل مصادرها في ممر الفئران، فلدى القومندان يدخلون ويستخدمون القذّاحات طبيعياً. من أجل أن يحصل أحد الأفراد في ممر الفئران على وظيفة هناك، فعليه أن يقدم طلب "عبودية في القلعة" لهيئة "الموارد البشرية" في بلادهم. هنا تظهر سخرية توفيق إذ بعدما كانت هذه الهيئة تعمل لتوفير وظائف تلتزم بحقوق الإنسان، صارت تقنن العبودية التي هي تنافي حقوق الإنسان تماماً. وفي الهيئة، يُوجه للشخص الذي يريد العبودية أسئلة معينة، مثل إن كانت لديه تحفظات دينية أو صحية، وإن كان يقدر أن يتسلق 200 درجة من السلم، وأخيراً إن كان يقبل تربية الخنازير وهو مسلم أو يهودي أو يقبل بإهانة الصليب وهو مسيحي، وينبغي أن يجيبوا ألا تحفظات لديهم ويقبلون بكل شيء، وهو ما عقب عليه توفيق: "عبارة محفوظة هي لكل من يتقدم، تذكر الشرقاوي في سخرية طلب الحصول على تأشيرة من الولايات المتحدة أو دول الاتحاد الأوروبي: (هل تشجع الإرهاب؟ هل تنوي التخريب أو تنفيذ عمليات إرهابية؟) كأنّ الإرهابي سيقول في خجل أنه كان ينوي ذلك، لا أحد يعترف بأن لديه موانع دينية"⁽²⁾.

كما يخضعون للكشف الطبي الذي أصبح يُجرى للرجال والنساء في معا في المكان ذاته بسبب الظلام، وإن نُوّه توفيق أنّ من الممكن تخيل وجود رجال يقفون وسطهم يضعون نظارات رؤية ويتفرجون على العُراة، رغم كل هذه الإهانة كان هناك صفٌ طويل يقدمون طلباتهم، وهو ما عقب عليه رامي للشرقاوي أنهم يريدون النور الذي في سبيله سيقدّمون أرواحهم وكرامتهم، كما يتمّ معاملتهم بخشونة المدرب مع المجندين أو السجّان مع الأسرى، يسّرونهم في صفٍّ لا يخلو من الضرب والسباب في الظلام يحصلون على أوراقهم بتعنت قبل أن يقتادوهم لطائرة لم يكن أغلبهم - الذين لم يسبق لهم رؤية الضوء -

(1) المرجع السابق نفسه، ص 174.

(2) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 315.

معرفة معناها وأجلسوهم فيها في ظلامٍ مطبقٍ ذكّرُ الشرقاوي بالقصص القديمة عن الطائرات السوفيتية العتيقة التي كانتْ تقلُّ الجنود المصريين للكونغو في فترة الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر؛ وهي الجلسة التي تضخُّ اليأس في النفوس إذ كانَ الظلام محتملاً على الأرض، لكن ليس في السماء، ومن تناثر الكلام بينَ الجالسين، فقد كانَ هناك القلقُ والمشتاق للوجهة، لم يكن هناك حزام أمان دليل الامتثال؛ هذا غير رداءة الأطعمة والمشروبات المقدمة. خلاصة، كانتْ رحلة غير آدمية شَبَّهها توفيق برحلات القطارات المصرية لولا أنها أصعب إذ تدوم لأيام لتوقّف الطائرة في أكثر من مطار سامحين "للمساجين" - على حدِّ وصفه - بالنزول في الظلام لتحريك أبدانهم المتخشبة، ولم تكلف السلطات نفسها لتشرح للمسافرين كيفية قيادة الطائرة في الظلام تاركين إياهم لتخميناتهم. قابلَ امرأةً أخبرته أنها ذاهبة لتكون "عاهرة" في القصر، ليعقّب أن جميعهم مسافرون لبيع أمرٍ ما وينبغي لهم أن يعرفوا ما يمتلكونه قبل بيعه؛ وأن هناك مَنْ يبيع عرقه وهناك من يبيع كلمات وهناك من يبيع أفكار أو مبادئ، وأن الجسد سلعة تفسد سريعاً كبائع السمك.

وبعد أيام من التحليق بشرهم الطيّار باقترابهم من النور إذ تسلّقتْ الطائرة السحاب بزاوية بالغة الحدة وتعرّسَ التنفس، هنا اكتشفوا أن الظلام لم يكن متجانساً وإنما سحب متكاثفة بمجرد أن تباعدتْ ظهرتْ السماء الزرقاء، بينَ صيحات الانبهار والبكاء والصلوات أمرهم الطيّار بإلقاء نظرة على يسارهم ففجّعوا بمشهد قمتي جبلين متقاربتين بينهما جنازير متينة تدلّ منها رجال باسطو أذرعهم كالنسور تمنع تجمدهم شعلة نار جانبهم؛ وهو التجسيد الفعلي لأسطورة "بروميثيوس" ليفكر الشرقاوي أن لو كانَ "هرقل" قد أنقذ "بروميثيوس"، فلا أحد يستطيع إنقاذ هؤلاء الثوار الذين حاولوا سرقة النور لممر الفئران، ليخرجَ باستنتاج أن القومندان يتصرف وكأنه الإله زيوس وقلعته هي الأوليمب وأنه اختار الميئة تلك لتكون شاعرية.

في القلعة ممر طائراتٍ مما يؤكد جبروت القومندان؛ ويُعامل الوافدون بغير آدمية بالباس الرجال ثياباً متسخة والنساء كراقصاتٍ ويُزجّ بهم إلى ممر يحفُّه حراسُ شرسو المظهر مسلحون ببنادق خوذتهم تغطي أعينهم بالكامل فلا يظهر سوى فكهم السفلي، مما يوحي بالتأهب للقتل وهذه هي -على حدِّ قول الرواية- الطريقة النازية. ولكن لم يحتج أحد على هذه المعاملة لانبهارهم بالضوء، ولما شاهدوا حدائق القلعة وآثار الأمم السابقة، فكّر الشرقاوي في حال الفقراء في ممر الفئران ففهم أنه قد: "حدث الاستقطاب

بشكل قاسٍ للغاية، وكما حلم به كُتَّابُ الخيال العلمي مرارًا: سادة مترفون وعبيد معذبون! الفارق هنا هو أنَّ العبيد همُ العالم كله والفارق أن هذا لم يحدث نتيجة تطور دارويني طبيعي بل هو لعبة قاسية أحدثها نيزك هاو⁽¹⁾، يعملُ العبيد عملاً يدوياً بصرف النظر عن مهنتهم الأصلية؛ فأجبروا الشرقاوي على نسيان كفاحه الفكري ومهنته كمهندس وخسارته للياقته البدنية، بعدما صار في الأربعين وجعلوه يعمل سبَّانًا (تسليك البالوعات)، ويخصص لهم بعدَ إنهاء مهامهم مسكنٌ للعمال هو خليط من السجن ومسكن و"بالوعة مجاري" بعنبره الطويل الذي يصطف على جانبيه أسرة الطابقيين ويضاء إضاءة شاحبة وتفوح منه رائحة العرق والأقدام القذرة والأنفاس الكريهة، كما كانَ يشترط على الراقصات والداعرات ألا يحملن ولا يحملن بالبقاء الأبدي وألا يتحدثن عما يحصل هنالك حينما يُعدن للظلام، وإلا سيتم إعدامهن.

الغريب وهو ما أرادَ توفيق أن يدلل عليه في رواية "شآبيب" أنه على الرغم من أن دولة "شآبيب" هي دولة وليدة أنشأها العرب كلهم على مبادئ المساواة والعدالة التامة بين المواطنين جميعهم، فالعنصرية والانقسام والطبقية احتلها أيضًا، فبعدما "حكّم" سليم الجزيرة بعنفه، فقد أطلق الوحوش الكامنة بداخل المهاجرين، فهدد بعضهم زوجة "محمد" الأسترالية الحامل بأن ترحل عن بلادهم التي ستكون حصراً للعرب، ولما تجاهلتهم انفردوا بها في الغابة وأوسعوها ضرباً وركلاً تاركين إيها تنزف لكي تجهض، أعادها سليم مع زوجها لأستراليا لتلتقى الرعاية الطبية، ثم أصدر تعليماته بالقبض على الجناة إذ كانَ يتفهم أن توجيه الكراهية للمؤذين من الأجانب، لكن ضرب زوجة حامل مسالمة كانت حالة مبالغاً فيها من كراهية الأجانب، وحقد عبثي ينفجر في الاتجاهات الخاطئة.

وكذا حدث الأمر مع المهاجرين العرب أنفسهم الذين في أولى أيامهم على الجزيرة وحول النار حيث كانوا يتسلون بالأغاني الحماسية، نشأت مجموعات متقاربة يسمون أنفسهم باسم البلد القادمون منها كجماعة الفرنسيين أو جماعة الأمريكان، وبعدما كانَ مكرم بكاريزمته قادراً على تذويب الفوارق قدر الإمكان، فتحت قيادة سليم، تجذّر الانقسام ونشأت الطبقة بينهم. ففي أحد الأيام، هاجمَ بعض العمال العرب القادمين من أوروبا عمالاً عرباً قادمين من إفريقيا، ونشب شجارٌ عنيف تلاكموا فيه وتبادلوا السباب حتى رفعوا الأنصال وقتل رجلان بعضهما بعضاً، بل والأدهى أن استعان بعض العرب بحلفاء

(1) المرجع السابق نفسه، ص 337-343، 345.

من السكان الأصليين لتحقيق النصر على خصومهم العرب الآخرين، وهو ما علق عليه توفيق أنه على الرغم من أنهم جميعهم عرب، فهناك عربٌ ينظرون لأنفسهم أنهم عرب أكثر من سواهم، تكررَت الشجارات وتكونت قوة شرطية للفصل بينهم.

ولما خطبَ سليم فيهم بحزن لدى النصب المجاور لمقبرة مكرم، ذكرهم بأن الحضارة العربية سبق وضاعت بسبب: "رفض الآخر وتصفية الحسابات والاقتتال العربي-العربي! كان العالم كله يتحرك ونحن مصممون على تصفية حساباتنا أولاً ولم نخرج من تلك اللحظات قط! صراع بين أتباع الأديان السماوية ثم صراع بين أتباع الدين الواحد، ثم بين البيض والسمر؛ ثم بين الأغنياء والفقراء.. ثم بين مشجعي فرق الكرة.. عندما جئنا هنا حسبت أننا سنبدأ صفحة جديدة وتوليت القيادة بعد الزعيم لأنني لمحت دوراً أكيداً يمكن أن أعبه! ظننت هذه الخلافات العرقية بعيدة عنا، وأن أمامنا هدفاً واحداً وهو أن تكون شأبيب دولة! لكنكم أخرجتم معاولكم لتضربوا بعضكم بعضاً وهذه المعاول انهارت على دولتنا الوليدة"⁽¹⁾، وأخبرهم أنه أت من ليبيا حيث قتل المتعصبون أهله ولسوف يتحالف مع العرب جميعهم بصرف النظر عن منشأهم أو دينهم أو لونهم لبناء دولته، ولما جادله أحدهم أنه عربي مسلم أت من فرنسا، ضربه آخر عربي مسلم من فرنسا لمجرد اختلافهما في الرأي، هنا احتاج سليم أن مشكلاتهم سخيفة وأن عقابه سيكون هائلاً لمن سيعاود الجدل ذاته خاصة مع تربص القبائل بهم ليضربوهم. قُضت الخطبة وأمينة تفكر -بما يفكر فيه توفيق- أن الانقسام يتسرب للمهاجرين، وأنها "مشكلة العرب الدائمة هي أنهم لا ينتظرون حتى يثبتوا أقدامهم على أرضٍ إلا ويبدؤون الخلاف ومن ثغرات الخلاف يتسرب الخصوم ليقهروهم! السيناريو الممل الذي لا يكف عن التكرار"⁽²⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 306، 307.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 307، 308.

الفصل الثالث

مُحاولات المقاومة

ومآلات الديستوبيا في الروايات



في هذا الفصل، سيكون التركيز على مآلات هذه الديستوبيا في الروايات الأربع، ابتداءً من مصير أبرز محاولات مقاومة هذه الديستوبيات التي قامَ بها أبطال الروايات وغيرهم خلال أحداث الروايات، وانتهاءً بمآلات هذه الديستوبيات المذكورة في نهايات الروايات. فأمّا بالنسبة لمحاولات المقاومة، فالحقيقة أنَّ أغلبها كان يُخفق وأقل القليل هو ما كان يأتي بنتائج المرجوة وإن كانَ فاعلوها -حينها- يتلقون أبشع العذاب. وأمّا من ناحية المآلات، قد تنوعت ما بين ما يمنح الأمل في الغد، أو يلغيه كلية، وبين ما نشأ بسبب عنصر بشري أو بسبب عنصر خارجي طبيعي. وهذا كله على النحو الآتي:

أولاً: محاولات للمقاومة في الروايات: يمكن القول إنَّ هذا العنصر كانَ ملموساً في جميع الروايات الأربع؛ فمن ناحية، رَضَخَ أغلب البشر لهذه الديستوبيا رغمَ الظلم الشديد الذي تلحقه بهم. لكن من ناحية أخرى، كانتَ هناك شخصيات معينة على مدار أحداث الروايات لم يتقبلوا هذا الطغيان وتوطد أركان هذه الديستوبيا وأرادوا مقاومتها بأي طريقة وإنهائها. وهكذا تعددت أساليب المقاومة على مرَّ الأحداث ما بين تمرّداتٍ وانقلابات، بل ومحاولات للقيام بالثورة؛ لكن الجدير بالذكر أنَّ الغالبية العُظمى لهذه المحاولات كانتَ تنتهي بالفشل، وأقل القليل منها كانَ يأتي بنتائج المرجوة، إلا أنَّ فاعلها كانَ يتلقى أشدَّ أنواع العقاب. ومن ثمَّ فمصير هذه المقاومات - بصورة عامة- كانَ مصيراً مشئوماً، إما معدومة -كأغلب الشعب- أو مُخففة أو ناجحةً بمأساة. ففي رواية "يوتوبيا"، تباينت مواقف الجميع نحو المقاومة وفقاً لموقعهم في المجتمع. فبالنسبة لأهل اليوتوبيا، كانوا يعرفون أنَّ مدينتهم تأسست بفعل خلل مجتمعي وظلم الأغنياء للفقراء، والذي لا بدُّ أن يستمر لكيلا يفقد الأثرياء كل ما يملكون. هكذا، في بداية نشأة المدينة خافوا من ثورة الأغنياء مما حثهم على الاستعانة في الدفاع بقوَّات المارينز الأمريكيين المتقاعدين ذوي اللياقة البدنية العالية والذين بدأت الرواية بهم وهم يقتلون بالرصاص فقيراً من "الأغنياء" تجاسر على الاقتراب من المدينة، كما أنهم شيدوا مطارا داخلياً لصعوبة وصولهم لأي مطار خارجي في حالة حدوث ثورة جياع، ثمَّ خففت مخاوفهم مع مرور الوقت وخمول مقاومة الأغنياء وبات صنعهم للمطارات محض ترف؛ وإنَّ لم يتلاش الخوف من احتمالية الثورة لدرجة نزق "علاء" - ذي الـ 16 عاماً - من ترديدهم المستمر لكلمة "الأوضاع خطيرة" حتَّى أجابه أحد الحراس الأمريكيين، أن لو اجتمعت الخراف الغاضبة على طفل لمزقته، وأنَّ الأغنياء يعجزون عن الغضب ولكنهم يظلمون خرافاً قد تهيجُ بلا سبب. كانَ أهل اليوتوبيا يتخذون كل الإجراءات الاحترازية للحفاظ على الوضع الراهن تماماً مثل -وفقاً لوصف علاء الفتى اليوتوبي- الكارثية الأمريكية التي قضتْ على النزعات اليسارية في الولايات المتحدة تماماً منعا للثورة المهددة لكيانهم، وقد كانَ "علاء" يتحمس كثيراً في

بداية الرواية عند قراءته عن الثورات، وبالأخص الثورة الفرنسية؛ إذ جاب "الرعا" شوارع باريس حاملين "صدر" الأميرة "دي لا مابل" على رُمحين، والثورة الإيرانية عندما حاصرت الجموع أحد المديرين القدامى وحملوا سيارته حملًا حتى انتحر بمسدس، لكنه لم يكد يقضي ليلة في عالم "الأغيار" حتى اشمئز منهم وقرانهم بالدولارات التي يبعثرها يمنة ويسرة واكتشف استحالة تضحيته بهذه الرفاهية للفقراء متفهمًا إحاطة المدينة بأسوار عالية وحراس المارينز، مرددًا أنه لا يعرف كيف وصلت مصر لهذا الاستقطاب الاجتماعي، ولكن لا بد أن يستمر. وبعد عودته لليوتوبيا -بمساعدة جابر الذي جازاه بالقتل- ورددت "جيرمينال" -صديقتها- شعر الأبنوبي الذي كان جابر يتلوه بين الوقت والآخر: "إحنا شعبين.. شوف الأول فين والثاني فين!،" أجابها بأنه شاعر صادق، هذه الإجابة تؤكد فهم الفتى لمغزى الشعر، لكن ثقافته جعلته محافظًا كأهله يريد استمرار الوضع الراهن؛ لذا؛ فلا يوجد استثناء أو بذرة أمل في اليوتوبيا.

أما الأغيار، فاندثرت معارضتهم الصالحة الذين كانوا في البدء يشجبون الكُتّاب المنافيين حتى أدركوا عدم جدوى ما يفعلون وسلّموا للأمر الواقع، هكذا استكن أغلب الفقراء بينما احتفظ بعضهم بأحلام في المستقبل مثل "جابر" نفسه، والذي أصرّ على أنه يستقي القدرة على العيش من أحلامه، وإن كان يضطر أحيانًا لقتل روحه الحائلة هذه عندما يتيقن من استحالة التغيير ويقول لنفسه أن يكف عن أحلامه بالغد، وأن يقبل أن الأثرياء سرقوا هذا الغد منهم، كان يؤمن أن الثورة لن تحدث ولن تتكرر ثورات القرن العشرين الناجحة، لأن النخب الحالية تعلّمت من أخطاء السابقين بحيث لن يهرب الحاكم كشاه إيران أو يُقتل كشاوشيكو أو موسيليني، كما أن أجهزة الأمن تعقدت وتطورت لحماية الحُكّام، ومن ثمّ آمن أن أي ثورة ستكون "هوجة" سرعان ما ينتشت جمعها بإلقاء طائرات الهليكوبتر عليهم لعدة قنابل وطلقات. مع ذلك، كانت هناك قلة قليلة بقيت تخاطر بالتخطيط للثورة مثل (عبد الظاهر) البلطجي غير الهنجي المعروف بثوريته الذي كان دائمًا يحدثهم عن الثورة التي ستبدأ بالسيطرة على "البايرون"؛ والذي ظنوه جميعهم مجنونًا وظنوا خطته "استملاء فكريًا" لن يتحقق. الجدير بالإشارة في هذا الموضوع، أن خطة "عبد الظاهر" تحوّلت إلى ثورة كاملة ناجحة في نهاية الرواية كما سيأتي فيما بعد، وإن كانت هذه هي الحالة الوحيدة التي نجحت المقاومة في تحقيق أي تغيير جذري لم تتكرر في أي رواية أخرى، ولهذا دلالة بالرجوع لواقع "توفيق".

أما مصر المقاومة في رواية "مثل إيكاروس"، فكانَ مصيرًا مؤلماً بلا بصيص أمل، ففي المستقبل القريب (2020)، أحاطَ الديكتاتور (المفتى أحمد الديب) نفسه بطبقة منتفعة لا تضحي بغناها في سبيل مبدأ أو أحد، وهذا بعدما أفادَ من أخطاء نظامي "مبارك" و "الإخوان المسلمين" التي سبقَ وأتاحت الثورة عليهما، فيصفه توفيق "عندما يكون دخلك بالملايين وتضمن لذيتك أفضل الأماكن في البلد، وعندما يكون ملف فسادك ذا رائحة نتنة يخفيه الزعيم في خزانته، ثم يأتي شاب مخبول يحمل علماً ويطالبك بأن تسقط الزعيم وتتقاضى عُشر راتبك ويصير ابنك مواطناً عادياً كأبي شاب آخر، ثم تلوحُ بهذا العلم من أجل الحرية، فأول شيء ستفعله هو أن تدسَّ سارية هذا العلم في مؤخرة الفتى المخبول"⁽¹⁾، حتى محاولة الانقلاب الوحيدة التي كانت على يد طيار، ألت لل فشل بسبب وشاية طبيب محمود النفسي -الذي سمع محمود يتنبأ بها- للقائد بها خوفاً وجُبناً من أن يُتهم بالتآمر إذا التزم الصمت، أخبرهم الطبيب وكله يقين أن الخبر أرضى القائد ورئيس المخابرات، وأنه سيتسبب في مقتل الثوار وأنَّ الطيار سيتعرض لمحاكمة عسكرية لن تطول عن الربع ساعة قبل أن "يَمزَّق" صدره بالرصاص، فعلها الطبيب طالباً منهم -في المقابل- أن يتركوه لحاله وحسب، وأنَّ يبعدة القائد عن دائرته التي تحرق كل من يقترب منها، فمثلما للقائد القدرة على إثراء من يحبُّه وإغداقه بالقصور والطعام الجيد والخمر الراقية وبالهيبة التي تجعل الآخرين يأتونه طالباً قبساً منه، فهو قادر على أن يقتلع قرنية من يعارضونه. بذلك، فمحاولة "الانقلاب" انتهت بالفشل الذريع بسبب الخوف.

وحتى في المستقبل الأبعد، الذي طالعه "محمود" في السجلات الأكاشية، فلم يكن للمقاومة حظٌ من النجاح، فقد رأى احتجاجات في أوكرانيا -بعد عشرات السنوات- تقوم على الضريبة التي فرضتها الحكومة على الهواء النقي، إذ خرج الثوار للميدان البرتقالي بعواطفهم الجياشة التي هيجتها الخمر التي تجرعوها لتزيدهم "رعونة" وتهورا ليتمكنوا من المواجهة يصيحون أن الحكومة لن تسلبهم حياتهم، لم يفلح معهم رش بالماء أو غازات مسيلة للدموع؛ حتى قام الطاغية بإطلاق ثلاث مدرعات في الميدان غاصت أولاها في الأبدان مفجرة برك دماء وأطرافاً وحولت الثوار لعجين، رأى محمود امرأة تعثرت وسقطت بينما كانت تهرب قبل أن تشاهد جنزير دبابة مدججا بالمسامير يقترب منها، ومن صدمتها العصبية لم تستوعب انشطار جسدها لنصفين، وهكذا يتم قهر الثورات بدموية هائلة.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 158، 159.

وفي نبوءة أخرى شاهدَ محمود أنَّ الحكومات لم تعد تلجأ للإعلام الخادع والكاريزما والتدين الظاهري لمنع الثورة وحث الشعب على العمل، وإنما يخدرونهم صراحةً بالحشيش، يكونُ ذلك بمداخل موضوعة في مناطق حيوية تطلق من خلالها دخان الحشيش ثلاث مرات يوميًا وتخرج المواطنين لاستنشاقها حتَّى "يُسطلوا" ويعملون بحماسة وابتهاج وبلا تذمر، فعلتها الحكومة بعدما لاحظتُ تدخين المواطنين للحشيش أعقاب الثورات والانتفاضات الفاشلة لنسيان البطش السياسي والفقر، وكانَ طاغية البلاد في هذا العهد يشعُرُ أبخرة الحشيش أنَّها تنسي المواطنين فقر بلادهم وإرهاقهم البدني وتصفي ذهنهم؛ كما أنها أدَّتْ إلى انخفاض معدلات الجريمة وزيادة الإنتاج. والحق أنَّه لولا غلو ثمن (المخدرات) التي تجعل المرء يُدس يده في النار بلا تألم، لابتاعته الحكومة وكممت به معاناة المواطنين. في بداية هذا التقليد خرَّج رجال دين وصحفيون وأطباء يحتجون لكنهم توقفوا بعدُ أن "سُطِّلوا" هم كذلك، "عندما يشم الناس الأبخرة، ينسون مشاكلهم وينسون ما كانوا يريدون أن يثوروا من أجله وكل شيء يصبح قابلاً للتحمل"⁽¹⁾.

أمَّا رواية "في ممر الفئران"، فكانتُ بالأساس تدور حولَ مسألة المقاومة -على هيئة الثورة- وكوابحها، فعقب بيان القومندان مباشرةً هلعَ العالم أجمع وشعروا بالقيد لخضوعهم لنظام استبدادي قادر على نسفهم وتأهبوا للثورة، لكن بعدما وجدوه لا يطلب سوى المال والنفوذ لا أن يعبدوه مثلاً، حدثَ الانقسام حولَ دواعي المقاومة والثورة. فمن ناحية، خَنَعَ أغلب مواطني العالم وقبلوا بالوضع الذي سَمَّاهُ توفيق "المخ في وعاء زجاجي"، أي أن يعيشوا حياتهم الزائفة في انعزال تام عن مجريات العالم الخارجي سواء امتناناً لحماية القومندان لهم أو يأساً من أنَّ الظلام سائد سواء حَكَمَ القومندان أو لم يحكم. لقد صمتموا على نهب الثروات القومية خوفاً من قبضة الشرطة التي قد تكون تتنصت عليهم ويعاقبونهم. لقد أصبحت الشرطة تخدم أغراض القومندان وتنهب ممتلكات البلدان لتقدمها له، وبذلك -وحسب ما ذكر توفيق-، خوى كل من المتحف المصري ومتحف اللوفر من أغراضهما. وفي المتحف المصري مثلاً، كانتُ المرشدة السياحية تقود أفواجا من الأجانب والمصريين تصف لهم التماثيل وترتكهم يتلمسونها كي يفهموا ما تقول. كان هذا الأمر غريباً للشرقاوي في البداية بحيثُ انتظر خلو المكان وأشعل قداخته ليكتشف أنَّ التماثيل غير موجودها وبدلاً هنا وُضِعَتْ كُتَلٌ مصبوبة بالأسمنت ومطلية بمادة بَرَّاقة بها تجاويف تعطي انطباع الوجوه. والحق أنَّ توفيق ذكر في منتصف الرواية

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس. مرجع سبق ذكره، صر ص 190-192.

أنَّ بعض الناس بالفعل تشككوا في هذا الأمر، لكن خافوا من إذاعته ليكيلا ينالوا العقاب الشديد، كما أقنعتهم حكوماتهم ألا أهمية لهذه التماثيل أصلًا في عالم مظلّم يذهب لنهايته. والناس أنفسهم بعد سنوات اعتادوا على عقيدة الظلام وطاردوا كل من أشعل نازًا أو سعى للضوء مثلما طاردوا الشرقاوي عندما أشعل قداخته قائلين إنه لوَّثَ الظلام وأبْلغوا كهنة الظلام ليخلوا مسئوليتهم ويحملوها لمن هُم أكثر حكمة منهم.

ومن الناحية الأخرى ظهرَ المقاومون في الخفاء كبائع الجرائد الذي ساعدَ الشرقاوي على التنكر للهروب من سلطة الشرطة، داعيًا له أن يبقى حيًّا لبعض الوقت. ومن الناحية الثالثة ظهر النورانيون في العالم أجمع. في مصر، تزعمهم رجل ماركسي اسمه "ماهر" تحالفَ مع العميان في البلد الذين ظهرت مهاراتهم في الظلام إذ إنهم كانوا قد اعتادوه لعماهم واستطاعوا أن يرشدوا المبصرين الذين لم يألّفوه بعد، كأن ماهر قبل سقوط النيزك يتمنى أن ينتهي به العالم الظالم وتستأنف البشرية على أسس متساوية حتى لو لن يكون موجودًا، وبعد سقوطه، انسجم وعشيقته "نجوان" الماركسية مع الظلام طالما متوزعًا بعدالة على الجميع. لكن عقب بيان القومندان وجدا قضية يثوران لأجلها إذ لم يعد الظلام متوزعًا بالعدل، وقال ماهر عن هذا: (أن يملك أحدهم مزية الإبصار، أن يرى وأن يراقبنا، أن يظفر بالنور بينما نحن في ظلام مدلهم، هذه هي فكرتي عن الظلم والثورة؛ لكنني بحاجة لأرى ولو للحظة⁽¹⁾). وبسبب تحالفه مع العميان، حصل على أولى نظارات الرؤية إذ سلبها لأجله بعضُ منهم من مخبر كان يتنصت على حوارهم الثوري في بيته -ماهر- ولمَّا ارتداها ورأى، سُبِرَ بالضوء وتيقن من هدفه وهو أن ينعم العالم بتوزيع عادل للظلام، والعميان وافقوه لشعورهم أن وجود القومندان نفسه يكبلهم بالقيود.

وبذلك نشأت الجماعة بعدَ هذا الحوار بينه وبين العميان، وطفقوا ينتقون الأشخاص المناسبين وأخذوا يسلبون نظارات الرؤية من البصاصين والمخبرين بعدما يضربونهم بقضيب حديدي أو بلطة، ولكن تعسر الأمر فيما بعدَ عندما عرفت الحكومة وصنعت طرازًا أحدث من النظارات ينشر رائحة تكشف سارقها لهم ولكلابهم على خلاف النظارات القديمة التي لم تكن بها هذه الخاصية⁽²⁾، عرف الثوار وامتنعوا عن هذه الحركة لكيلا يموتوا. مع ذلك، ورغم ضرورة الثورة خاصة بعد رؤية "رامي" -الذي ضمّه ماهر إليه وأعطاه نظارته- لقدارة الشوارع ونهب الآثار المصرية والنصب على الموظفين بإعطائهم أوراقًا بيضاء بدلًا من راتبهم وذبح الكلاب لإطعام البشر واستمرار الطبقة بامتلاك الأثرياء لنظارات رؤية دون إخبار أحد، فلم تكن الثورة

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 101-104، 190-197.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 214، 215.

سهلة، فكل يوم يقرأون عن اعتقال ثوري وإعدامه رغم أنهم يكونون حريصين جدًا، وبصعوبة بالغة بعد عامين تعرّف رامي على نوراني آخر كان يسير في الشارع مرتديًا نظارة رؤية ولكن بسبب الخوف الشديد لم يطل الحوار بينهما سوى أن أخبرا بعضهما عن وظيفتهما ومتى صارا نورانيين وتبادلا العناوين وانصرفا، ولعل اللحظة الفاصلة في تاريخ النورانيين في مصر هو اكتشاف رامي للشرقاوي، ومعرفة أنه لا ينتمي لممر الفئران حيث أنقذه رامي من أكثر من ورطة قبل أن يقرر حمايته وإخراجه من هذا الظلام بعدما حكى له حكاية الإظلام وظهور القومندان، عرفه على الثوار الذين اعتبروه نبوءة تحققت وأنه أت من رحم اللا مكان وأن كل ما يخص قدومه ساحر، فانضم إليهم وهو لا يرى ذاته معجزة وأن إنجازهِ الوحيد أنه نام نومًا عميقًا، وذكره انبهارهم به بالأفلام السينمائية إذ ينتظر الناس المخلص من الآلام ويجدون رجلًا يعلقون عليه آمالهم قبل أن يكتشفوا ضعفه فتخبّ ظنونهم.

على الجانب الآخر، كانت مساعي الثورة بالفعل عالمية كما ذكرت نجوان، وكان من المتوقع التحامها لقهر الظلام في يوم ما، فصنع الإيطاليون بصمات أنن زائفة تساعد الثوار الذين يريدون خداع الحكومة واستعان بها ماهر لإتمام إجراءات الصعود لقلعة القومندان، وكان هناك "فيتوريو" الثائر قصير القامة بعين تالفة وصوت رخيم يوحى بالوسامة، ورث ميوله الثورية عن جده الذي كان معارضًا وأرداه الفاشيون الإيطاليون. كان فيتوريو حلقة الربط بين الضوئيين/ الثوار في العديد من الأماكن وجند راقصة صغيرة تدعى "باولا" اختارتها كاهنة من كهنة الظلام وهي في الثامنة من عمرها لتصبح راقصة تمتلكها قلعة القومندان، وذلك لتمتع الفتاة بمقومات الراقصة. كانت باولا قد ولدت في الظلام ولم تعرف عن الضوء إلا من حكايات العجائز، وكانت متدينة بطبعها وتطيع أوامر الكرادلة، وقد تلخصت حياتها بحكم هذه الكاهنة في تعلم فنون الرقص حتى احترفتها، وتنامت معها بذور الشعور بالقهر خاصة لما أحببت فيتوريو وأمرتها أمها ألا تتزوج أو تحمل منه لأن جسدها صار ملكًا للقومندان. لكن مع صعوبة للقلعة، خمدت مقاومتها إذ رأت النور وأغرمت به، بل وتعمدت الرقص بطرق تثير القوم هناك ليستأمنوها ويحبونها، ولما عرفت استحالة بقائها معهم، استمرت في مهامها الثورية التي كلفها بها فيتوريو، وهو ما وصفه توفيق بأنه: "لا يتعلق الأمر بخيانة أو إخلاص، لو منح أي منا هذه التجربة لاختار النور مهما كان الثمن، من السهل أن نتفلسف ونحن نجلس على الشط نبلل أقدامنا بمياه الغضب لكن لا نجسر على السباحة، الثائر الذي لم يُختبر يظل ثائرًا"⁽¹⁾.

أَجَزَتْ حوارات مع الجنرالات عرفت من خلالها آليات عمل القلعة، وعادتُ لحبيبها بعدَ وقتٍ بحكايات عديدة وصنعتُ مجسمًا للقلعة من أعواد الثقاب يمكن قراءته باللمس، والذي وصفَ مداخل ومخارج القلعة محدّدًا موضع الصواريخ النووية والبرج الذي يحرسونه بحراسة مكثفة والذي ظننت أن به مولدات طاقة القلعة كلها، كانَ الفتى فيتوريو يعوّلُ على رفاق من الألمان لعدم ثقته في الإيطاليين تذكرًا -وفق كلمات توفيق- لموسوليني الذي خذلَ هتلر مرارًا، حتّى حسب هتلر أنَّ شعب إيطاليا بلا إرادة، وهؤلاء الرفاق كانوا يملكون جميعهم نظارات رؤية لحماية أنفسهم من الاعتقال، ما إن تهيأ لهم المجسم حتّى أمرَ فيتوريو رفاقه بحفظ تفاصيله قبل أن يدمروا لأنّه كفيل بإعدامهم بلا مُحاكمة، وهو ما عقّب عليه توفيق، "كل شيء في هذا العالم يكفي لإعدامك بلا مُحاكمة، ربما باستثناء التنفس ولا شكَّ أنَّهُم سيمنعونه عمّا قريب"⁽¹⁾.

وقد تواصل الثوار في العالم الذي تراجعت تكنولوجيته، عبر الطريق البري وبأجهزة اللاسلكي الضعيفة التي تعمل بالبطاريات البيولوجية؛ وبسلالات الحمام الزاجل المولودة في الظلام التي تعرف طريقها فيه جيّدًا. وبعدهما حفظَ فيتوريو ورفاقه المجسم، راسلوا ثوار العالم عبر رسائل مشفرة بلغة برايل بعثوها مع الحمام الزاجل يبلغونهم بها بقرب موعد الثورة، فقد تقرر أن تقوم الثورة بضرب مولّدات الطاقة التي تغذّي قلعة القومندان، والحق أنَّ رسائل الثورة انتشرتْ بالفعل في أنحاء العالم، حيث أتى "توفيق" بأنَّ الرسالة وصلتْ لأستاذ اللغة العربية قبل أن ينقلها لدكتور صيدلاني الذي كلّم آخر في مكتب إنشاءات والذي تواصل مع الصعيد المصري والذي هاتف عاملًا في مطعم والذي أعلم رامي وهكذا، ما يوضح شمولية الثورة من ناحية المهنة والمستوى الاجتماعي والجغرافي وكذلك الديني (فأسماء هؤلاء المتواصلين كانت تتراوح بين الأسماء المسلمة والمسيحية)⁽²⁾.

مع ذلك، كان الشرقاوي يائسًا من هذه المساعي الثورية ورأها غير منطقية لأسباب عدّة. فالثورة مثلاً لن تعيد النظر ويستحيل أن يثور عميان على طاغية مبصر، وكذلك عقيدة الظلام صارتْ شبه دينية يطالب بها الجميع بعدما علّمهم تلقين القومندان المستمر وغارات الشرطة وحكايات الإعدامات اليومية أنَّ النور خطيئة، ففي إحدى عمليات الإعدام التي شهدّها الشرقاوي قام متهم بمحاولة توليد النور بخلايا بيولوجية، فقد كانَ جيرانه هم الواشون عليه وخلال الإعدام وبينما المجرم يتوسل أن يبيع أبناءه وأباه وأمه ليخففوا حكمه، فقد تعالتْ أصوات المتفرجين بكلمات من قبيل (يستحق)، و(لينصر الله القومندان) و(أنا راضي لتحقيق العدالة). ورغم بشاعة

(1) المرجع السابق نفسه، ص 306.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 306، 325-328.

العقوبة وهي أن تمزق الكلاب الضارية جسد المتهم، ارتفع شهيق إثارة: "الكل يلهث متحمسين.. وسمع من يقول: (فليتألم)، وآخر (فليتعب)، وآخر (فليتوجع)، وامرأة خشنة الصوت: (الإعدام بالكلاب ممتع؛ لكنني حضرت إعدامًا بالحمض وكان أكثر إثارة، يدلون به في إناء الحمض ببطء لدرجة أنه يشم رائحة لحمه المحترق)"⁽¹⁾، وهذا معناه عودتهم لمشاعر السادية وهي أقدم العواطف الإنسانية مما يؤكد استحالة تبدل حالهم المغمرة بالعبودية والاتصياغ، وفكر الشرقاوي آنذاك: "يقنعون أنفسهم أنهم يكرهون ما يكرهه الحاكم ويحبون ما يحبّه.. فإذا حاول أحد أن يوقظهم من غيبوبتهم، مزقوه تمزيقًا.. لماذا يجهد ماهر ونجوان نفسيهما إذن؟ سوف تمزقهما هذه الجموع في اللحظة التي تشم فيها رائحة الثورة من ثيابهما"⁽²⁾.

وفي تأثر برواية "1984" لجورج أوريل، شبّه "توفيق" حال الشرقاوي بعد حضوره لعدد كبير من عمليات الإعدام البشعة أنه تيقن أنه هالك مثل بطل "رواية 1984" لامتلاكه بنور الاعتراض والمقاومة وأنه بذلك يحكم على نفسه بالإعدام لأن الخيانة تبدأ بفكرة. كما تأكد عدم جدوى التغيير عندما وجد أن أبا بلغ السلطات أن أخاه يمتلك نظارات رؤية ليلية وأثناء إعدامه كان هذا الأخ الواشي يبكي بحرقة تارة ويهلل فرحًا تارة، كذلك شاركه "رامي اليقين وأخبره أن القبور تمتلئ بجثث من حاول التغيير مثل ماهر وأن: (لقد ولّى زمن طويل طويل على هذا الهراء السارترى الوجودي! سارتر نفسه أصيب بياس كاسح عندما صار كفيفا في نهاية حياته!)"⁽³⁾.

والجدير بالذكر أن كلاً من رامي وماهر كانا قد حاولا الصعود للقلعة والعمل فيها ولكنهما لم يفلحا لميولهما الثورية المعروفة، وعندما سخر منهما الشرقاوي لأنهما كانا يقبلان الذهاب للعمل في قلعة مستعبدية، أفهمه رامي أن لعب دور جيفارا للأبد لم يكن لينفعهما وأنهما أراد رؤية القلعة مهما رفضاها، وأن الثورة ليست إلا نوعاً راقياً من المخدرات يؤجل خطوة ماهر وأمثاله للانتحار. وبالفعل تقرر للشرقاوي أن يصعد للعمل في القلعة لأنه لم يكتسب حساسية الظلام ولا يمكنه العمل في ممر الفئران قط، ولكن بعدما جُنّت زوجة رامي "فاتن" وأشعلت النيران في الشارع، واعتقلت للاستجواب، خشوا مما ستدلي به وأنها ستكشف أمر الثوار، فقرر الرفاق جميعهم السفر معه للقلعة، وقد استطاعوا الإفلات أثناء تقديم طلب العبودية بعدما استخدموا بصمات الأذن الزائفة إذ لم يكن المراقب موجوداً آنذاك، لكن نجوان لم تفلت لعودة الرجل في الوقت الذي استعملتها فيه وقُبضَ عليها وسط صراختها ومقاومتها وركلاتها.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 247-250.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 250، 251.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 254.

يُلاحظُ هنا أنَّ موقفَ رفاقها السلبي عندما جَبُنُوا عن الاعتراف أنهم معها لعلمهم أن اعترافهم سيؤدي لتمزيقهم وقتل المزيد وليستمرروا في الثورة، قد زلزلهم زلزالاً وأشعرتهم بخستهم، وهذا ما بدأ في أفكار الشرقاوي، "نجوان لم تكن المسيح، بل مجرد ثائرة شجاعة ذات ميول ماركسية ورغبة عارفة في الموت وقد نالت ما تريد، إذن لماذا يشعر بهذا الألم العاصر في قلبه؟ يقول لنفسه: لو تكلمَ فيلسوف يلقى نهايةً مرعبة، ولو صمت لعاش ورأى النور! لكن أية حياة يعيشها بعد ذلك؟ أن تضطر لمرافقة هذا النذل الذي هو أنت؟ أن تتذكر كل مواقف الخيانة والتخلي عن الرفاق! عرف هذا كله وأن عقله سيعاقبه بقسوة فيما بعد، لكنه ظل صامئاً"⁽¹⁾. وبذلك أتموا خطتهم ولم يفقدوا إلا محارباً واحداً؛ واضطروا للإنصات لعملية إعدامها لجريمة "خرق الظلام" بأبطأ الميئات وهي إجبارها على التهام أذننها وسلخها حيّة، وسمعوا الجموع المؤيدة للقرار، ليفكّر الشرقاوي في أمر مُهمٍّ هو أساس الرواية، وهي أنَّ الثورات لا ينبغي أن تقومَ ضدَّ الطغاة، بل ضدَّ العامة الجاهلين أولاً، "عندما يصير ثلاثة أرباع الشعب ضدَّك وقد آمنوا أنَّ الطغيان أمر إلهي وأنَّهم أسعد حالاً تحتَ سلطة أبوية غاشمة، عندما يصيرون متأهين لرجلك"⁽²⁾، ورغم ألم السلخ والموت، راحت نجوان تلعن الجماهير ورجال الشرطة تخبرهم أنها تلعنهم وتزديريهم وتأمهم أن يعلموا أنَّ بعدَ الظلام نور، وأنهم لن يستطيعوا أن ينتصروا في ظل كراهية العالم أجمع لهم، ماتت بعدما عاشتَ لقضية وكتبت مراراً في قصائدها النثرية، "عندما أغيبُ وراء المغيب، فلا تقولوا إنني خضعت! لا تقولوا إنني تهللت للظالمين أو طلبت رافة غير مستحقة! إنكم إذا تقولون هذا تقتلونني مرتين تقتلون جسدي ثم تحرقون ذكري"⁽³⁾.

سافر الرفاق إلى القلعة وماهر يتذكر مفهوم "الخيانة التاريخي" ويلوم نفسه أنه كان عليه الموت معها، فيما أعلن الشرقاوي أنهم سينتقمون لها بالثورة رغم أنه كان بداخله يوقن ألا جدوى وأنها مأتى بلا هدف وشاركه رامي اليأس ذاته والإيمان أنهم يلهون. والحق أنَّ مع وصولهم للقلعة ورؤيتهم للرجال المعلقين بين الجبلين والامتيازات الهائلة التي يتمتع بها هؤلاء القوم، ولما قال ماهر إنَّ هذه الأوضاع المستقطبة لن تدومَ لأنَّ قانون المياه ألا يبقى في مكانٍ مرتفع وإنما أن يسقط أرضاً، هنا استحوذت على الشرقاوي فكرة استحالة نقل هذه العجائب للظلام ولا استجلاب كل الفقراء ليعيشوا في هذا النور، "هناك ثراء ووفرة ونور والأهم أنَّ هذه الأشياء مسلوبة من العالم كله، لا بدُّ أن يهبط هذا كله إلى

(1) المرجع السابق نفسه، ص 316-319.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 320.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 317، 320، 321.

حيث الفقر والشح والظلام، لكن هل ينعم بها هؤلاء الذين يعيشون في الظلام؟ وهل يتسع المكان في الظلام ليأتوا هنا؟ يبدو أن الماء لن يرتفع، ربما يهبط لنتساوى فيها جميعاً! عندما يعجز البشر عن توزيع الثراء، فإنهم يوزعون الفقر"⁽¹⁾.

هكذا صعدوا للقلعة، وقد ازداد غضب ماهر وضيق خلقه وطالَ حنقه كلاً من الظالمين وكذلك المظلومين العاجزين فعُلّق على عاهرة رآها تنقياً جانب منطقة عمله أنها ليست سوى بقايا كائن حي، وأنّ هناك غيرها الكثيرات اللاتي أتت من عالم الظالم بلا مهارة فعملن عاهرات بلا جدوى. وعلى الرغم من تشاؤم الشرقاوي، فقد قَبِلَ مصاحبة ماهر ورامي لساحة خالية بعد أحد أيام العمل المرهقة إذ التقوا بالثوار الإيطاليين، تبادلوا الكلام باللغة الإنجليزية الرديئة وشاهد انتقاد أعينهم بالغضب والثورة والتآمر أولاً، وبالأمل أن يكون -الشرقاوي- هو مخلصهم ومنجيهم بعدما سمعوا عن نظرية مجيئه من اللا مكان التي تعني اختيار الأقدار له لهدف سام وهو ما كان يراه سخفاً ولم يشاطرهم في إيمانهم بالثورة وثبت على موقفه أنها خطوة جنونية سيشاركهم فيها للتسلية، كان مؤمناً أن الظلم هو الذي سينتصر دائماً، "البشرية تبحث عن المخلص.. منذ بداية الخلق ويبدو أنهم قرروا أنه المناسب لهذا الدور! لا يختلف في هذا الحمق الغربيون عن الشرقيين.. النهايات السعيدة استنفدتها السينما فلم يعد باقياً منها ما يكفي لعالم الواقع! من الجميل أن تعتقد أن حياتك ليست عبثية وأن نهايتك المريعة كانت وقوداً للثورة، وأنه على الثرى المبلل بدمك سوف يمشى الأحرار نحو الغد والنور.. المشكلة الوحيدة هي أنه غير صحيح"⁽²⁾، والحق أن هذه الثورة فشلت فشلاً ذريعاً كما سيتضح في جزء مآلات الديستوبيا.

في رواية "شأبيب"، كان للمقاومة نصيبٌ كذلك، سواء مقاومة السكان الأصليين للوجود العرب على جزيرتهم أو مقاومة العرب المهاجرين أنفسهم المنهكين والمتشككين في فكرة الدولة، ولكل منهم مصير مختلف ولكن مؤلم. فمن ناحية، اعترف "مكرم" في رسالته لـ(جوناشن إيرهارت) أن السكان الأصليين يرغبون في طرد العرب الذين يرونهم كائنات بخسة جاءتهم من البحر وأنهم يغيرون على المعسكرات العربية، لكنه أخبره أيضاً أنه يكبحهم دوماً ويجعل خساراتهم أكبر من مكاسبهم، ويسمح في حدود ضيقة لسليم ورفاقه بمذابح فيهم والتمثيل بجثثهم ردعاً لهم. ومن ناحية أخرى، كان يرفض رفضاً قاطعاً طلبات أي مهاجر عربي في الرجوع لبلاده، فلما جاءت أم شامية مطلقاً بطفلها

(1) المرجع السابق نفسه، ص 325-328، 346، 347.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 354، 355، 358.

وقد اكتسبت الطابع الخشن القاسي من حياتها في الجزيرة، تطلب الرحيل لعدم قدرتها على التأقلم بعيداً عن حياتها المرفهة في أوروبا، كان رده بارداً أنه لم يخدعها وأنها قدّمت وهي واثقة أن الجزيرة بدائية لذا لا يحق لها الاعتراض، كانت العودة للأوطان الأصلية - بالنسبة إليه- متاحة فحسب للمرضى الذين يراهم بلا نفع لمخططه؛ أما المتخاذلون والضعفاء فلم يكن يسمح لهم بأي عودة معتبراً أنها مشكلاتهم الخاصة، رفض العودة لهؤلاء الأشخاص لعلمه أنه لو أتاح العودة لأي أحد، فلسوف يرحل الجميع وينهار المجتمع. غادرته المرأة تبكي، فبرر لـ "سليم" -جواره- أن القسوة ضرورية في بعض الأحيان؛ ليجيبه الأخير أنه لم يذق رفاهية الغرب على النحو الذي ذاقته المرأة المتزمنة، لذا فحياته في شأبيب هي ذاتها التي كانت في مونروفيا وأنه لا يتأثر بالمرأة وتخاذلها.

مع ذلك يمكن القول إن إحدى محاولات مقاومة السكان الأصليين نجحت حينما استطاع اثنان منهم أن يفتالا "مكرم" بعدما أتياه بجسدين شبه عاريين ملونين بطريقة احتفالهم بكرنفال (سنج سنج)؛ يدعيان أنهما يعرفانه ويعترفان به أنه من نسل الآلهة وسيكونان عبيدين له، فاستجاب لهما مفكراً أنه على الرغم من أنه لا يناسبه أن يكون إلهاً وثنيا لكنه سيوافق مادام سيضمن له ولاءهم، وفيما يزرجهما عن تقبيل حذائه، طعنه أحدهما في قلبه بخنجر وأماته، هكذا انتهى مكرم ولم يكن يتصور أن يموت بهذه البساطة جوار أكذوبته، وهو يفكر: "لا شك أن هذا مستحيل؛ ولا يحدث لي؛ الآخرون فقط بلهاء ويموتون، الآخرون تنغرس الخناجر في قلوبهم ويحترقون ويغرقون، أما أنا فلا!.. لقد حان وقت الرحيل والظلام يغمرنى وأنا الذي تمنيت عشر سنوات أخرى لأكمل الحلم"⁽¹⁾! إلا أنها كانت هذه المحاولة الأولى والأخيرة للتمرد من جانب أحد المظلومين في الرواية، فلمّا عثروا على القاتل، علّقه "سليم" حياً في خازوق مرتفع ليكون عبرة لقومه ورفض تقديم أي ماء له؛ على غرار ما فعله الفرنسيون -على حدّ وصف توفيق- في "سليمان الحلبي" الذي قتل كليبر، وصنع تمثالاً لمكرم في مكان اغتياله، مفكراً أنه: "هكذا يصنعون تاريخاً تدريجياً؛ تتراكم الأحداث مع الوقت لتصنع ذخيرة للجيل الجديد، يوماً ما سيحتفل الشباب بيوم استشهاده مكرم ويضعون أزهاراً على قبره؛ وقد يصير الضريح مزاراً مقدساً"⁽²⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شأبيب، مرجع سبق ذكره، ص 280-281.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 282-285.

وتحت حُكم سليم، حُرِّمَت فكرة الثورة والمقاومة على كل من السكان الأصليين أو المهاجرين العرب، فالسكان الأصليون إما رضوا لقوتهم أو تحمسوا لصداقة العرب وإن نظرت أرقامهم إلى هؤلاء الآخرين أنهم خونة وعملاء. أمَّا بالنسبة للعرب، فقد صارَ سليم يتهم كلَّ من يعارض أفكاره المتعصبة بالتخاذل والخيانة وهكذا لم يعد أحدٌ يجرؤ على طلب الرحيل منه، لم تنجح سوى زوجة مكرم التي أتته بعد وفاة زوجها طالبةً أن يتيح لها هي وابنتيها الرحيل للولايات المتحدة لأنها لم تتحمس يوماً لفكرة "شأبيب" وأتت فقط برفقة زوجها حباً له وانتفتحت حاجة البقاء بعد موته. هنا، رغم علم سليم أن مكرم كان ليرفض هذا الطلب كيلا يقلدهن أحدٌ، فقد وافق لأنَّ مكرم ميت ولأنَّه يحمل لأسرته واجباً وأخيراً لعلمه أن الأيام القادمة ستكون قاسية، بحيث لا ينبغي أن يبقى في الجزيرة إلا المتعصبين لفكرة الدولة الجديدة وخشى أن تصير -إن هو رفض طلبها- مصدر ضعف بشكواها التي ستحطم عزيمة الآخرين. مع ذلك، على ميناء الرحيل، ولما أخبرته أنه يحارب من أجل وهم، عاندها أنه ليس وهماً وأن الدولة موجودة بالفعل ورفض بحدة طلبها أن ينقلوا رفات مكرم معها قائلاً: "أمَّا هذا فلا! مكرم لا يخصك بل يخص هذا المجتمع بأكمله.. رفاته رمز يبقينا متماسكين؛ لم يعد من حقك طلب كهذا"⁽¹⁾.

إلا أنه ومع عنف سليم في الحكم وتشكك من كانوا يرون أن مكرم كان أبا الجزيرة الذي يعرف كل شيء، ومع ازدياد هجمات العرب على الأجانب والعنصرية بين العرب أنفسهم ومقتل قائد الإسلاميين، بدأت فرق صغيرة تتجمع في كهوف معزولة تُبدي مقاومتها وتشكك في دولة "شأبيب" نفسها. فقال أحدهم إنَّ الأدلة كلها تبرهن أنها أكذوبة وأنه محال أن تندثر حضارة كاملة بلا أثر حقيقي في كتب المؤرخين أو على جدران الكهوف أو في التراب. آخر أدلى أن مكرم أجاد صياغة الأكذوبة بإشعال روح "الشوفينية" و"الشعبوية" فيهم، وأن عليهم الثورة على سليم والرجوع لبلادهم وإلا فسيستمرون في الحياة الزائفة، ووصف توفيق هذه الاجتماعات السرية بقوله: "كان هذا هو الميلاد الأول لجماعة المتشككين الذين راحوا يرتابون في الأمر كله وبدأ عددهم يتزايد مع الوقت؛ يحملون أسئلتهم بصمتٍ ولا يتبادلون الآراء إلا عندما يقابلون من هم معهم"⁽²⁾، وبالفعل بدأوا في الاحتكاك بسليم إذ رفض أحدهم الخضوع لأمره -في أحد الأيام- مردداً أنه لا جدوى من أوامره التي يبينها على وهم، بل إنَّ أمانة سرعان ما انضمت إلى حزبهم متشككة في الأمر أن لعلَّ التاريخ مخطئ؛ ولما جادلها في استحالة التضحية بكل ما وصلوا

(1) المرجع السابق نفسه، ص 295، 296-312.313.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 313-315.

إليه أجابته بحذر لحبّها له: "كَانَ إيماني بكتاب مكرم مطلقاً، وصدقت كل كلمة حد البكاء؛ لكنني مع الوقت صرت أتساءل كالمؤمن الذي يتسرب الإلحاد إلى نفسه عندما لا يجد علامة واضحة من الله! كنت أبحث عن علامة واضحة أننا كنا هنا ولم أجد سوى آنية خزفية لا تدل على شيء!"⁽¹⁾، فلم يرَ في مقالاتها، إلا أنَّ التشكك كالكفر والردة وأنّه سيعيد كل المتشككين لحظيرته كـ "الابن الضال" الذي عادَ وسينتقم منهم انتقاماً حتّى لو كانت معهم؛ فأدركتُ أنَّ الفكرة استحوذت عليه ولن تستطيع إنقاذه⁽²⁾.

ثانياً: مآلات الديستوبيا في نهايات الروايات: أمّا وقد تم استعراض محاولات المقاومة على مدار الروايات حيث الخانعون والحايلون والمقاومون الحق الذين إما كانت تفشل محاولاتهم دون تحقيق أهدافهم أو يحققونها ثمّ يُعاقبون أشدّ العقاب، ففي هذا الجزء سيتمّ التطرق إلى مآلات هذه الديستوبيات المعروضة في نهايات الروايات الأربع. بعض هذه المآلات تبشر بخير وبعضها يلغي الأمل كليةً، بعض هذه المآلات كان من صُنع العوامل الطبيعية وبعضها كان من صُنع العوامل البشرية، وهذا على النحو الآتي:

1- ثورة الأغيار: انتهت رواية "يوتوبيا" (2008) بالثورة التي قام بها الأغيار على أهل اليوتوبيا، فلم يكن اغتصاب "علاء" لصفية العذراء وقتله لجابر الذي أعانه طيلة إقامته في عالم الأغيار وقطعه ليده ليأخذه كتذكّار يترنّم به مع أصدقائه ورجوعه لحياته الروتينية، سوى شعلة أوقدت ثورة هؤلاء الفقراء الذين استخفّ أهل اليوتوبيا طويلاً بذكائهم، فرغم تلقيب الجميع لخطط البلطجي الثائر (عبد الظاهر) أنها مجنونة ولن تحدث، فقد تحقّقت وهاجم بعض الأغيار قافلة تحملُ البايرول -الذي هو عصب اليوتوبيا- عبر الصحراء واحتجزوا سائقيها وأفرغوا البايرول وبدلوه بمياه المجاري، هكذا حاصروا أهل اليوتوبيا بتعطيل طائراتهم ومواصلاتهم، بل وتصاعدت عن محركاتهم رائحة الغائط العفنة، بحيث سيستغرق إصلاحهم وقتاً طويلاً، ولم تكن لطائرات الأسطول السادس لتصلهم قبل يومين. في البداية، استهترّ علاء وأخبر أباه أنّها ثورة سيخبو حماسها عمّا قريب، لكن لما عرف أنّ الثورة قامت بسبب واحد من اليوتوبيين قتل رجلاً من الأغيار بعدما ساعده وعيَّشه في منزله، وأنّ هذا اليوتوبي أيضاً اغتصب أخت الرجل العذراء ولما عرف أن هذه الحكاية أشعلت النفوس هناك، فقد صُعب، زاد انصعاقه عندما قالت الأم إنّ هذه الحادثة لن تشكل فارقاً مع الأغيار الذين فقدوا كل شيء، وأجاب زوجها -والد علاء-

(1) المرجع السابق نفسه، ص 315.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 315، 316.

أنَّ بالعكس، الثورات تقوم لأسباب كهذه مثل الصخرة التي تفتت عند الضربة الخمسين ليس بسببها، وإنما بسبب الضربات السابقة. وبالفعل تطوَّر الأمر سريعاً وأمر رجال المارينز بعدم الخروج من المنازل وأن يتأهب الجميع لاحتمالية أن يطالبوهم بالفراق الفوري؛ وذلك لأن الفقراء يزحفون في جموع منظمة عبر الصحراء. لأول مرة يشاهد علاء ارتجاف أبيه الذي ترجى الحراس أن يحموه بأي ثمن؛ وهذا بعدما كان يعتاده غاضباً محتقراً شاتماً قوياً، ركَّض الفتى شاقاً صفوف الجنود المتأهبين للقتال عند بوابات المدينة متجاهلاً نداءات أمه وصديقه؛ فرأى الجموع المتقدمة نحو المدينة بالمشاعل والصرخات الغاضبة، فكر أنه لن يتخلّى عن مدينته التي ورثها عن أبيه حتى لو كانت تقوم على الظلم ولن يدعها لفقراء متسولين وعاهرين، فانتشلَ بندقية آلية من يد حارس وراح يطلق النار عشوائياً. مع ذلك، فلم يكن لهذا أن يوقف الثَّوار الذين لم يعد يبالون سوى برفع الظلم، وكأنَّ توفيق يؤكد نجاح الثورة، أنه بينما ردد الفتى بيتاً من أغاني الأورجازم، فقد لحق البيت بيتاً آخر من شعر الأبنودي الثوري يقول: (سففني الحنضل واتعسني، رأينا خلف خلاف! احبسني أو أطلقني وادهسني، رأينا خلف خلاف)، منهياً به الرواية. لم يتصالح الأغيار واليوتوبيون قط والثورة الدموية هي المصير الوحيد لهذه الحالة.

2- استمرارية الديستوبيا الموجودة في السجلات الأكاشية وموت من اطلع عليها:

فأماً بالنسبة لرواية "مثل إيكاروس"، فكما ذُكر من قبل، هناك ديستوبيتان، أحدهما عاشها محمود في الواقع الذي تدور أحداثه عام 2020، والأخرى رآها في السجلات الأكاشية تدور في المستقبل البعيد، والحق أنَّ لكل من هاتين الديستوبيتين مآلاً معيناً، فأماً الديستوبيا التي طالعها في السجلات الأكاشية، فكان توفيق بين الآن والآخر يقتبس كلمات من أغنية "في العام 2525"⁽¹⁾ الشهيرة، والتي تحكي مصير العالم بشكل كابوسي مرعب، فتقول: "في العام 2525، لو ظل الرجل حياً، لو استطاعت المرأة أن تعيش، فلربما عرفنا الحقيقة! في عام 3535، لن تحتاج لقول الحقيقة ولا قول الأكاذيب، كل ما تفكر فيه أو تفعله أو تقوله هو في القرص الذي ابتلعه اليوم! في عام 4545، لن تحتاج لأسنانك وعينيك، فلن تجد شيئاً تمضغه وما من أحد سينظر لك! في عام 5555، نراعاك تتدليان مترهلتين إلى جانبك،

(1) والتي كانت إحدى أغاني ثنائي البوب روك الأمريكي "ريجز وإيفانز" الصادرة عام 1968 والتي وصلت لمراتب عليا في قوائم التصنيفات الموسيقية العالمية لفترات طويلة، وقد كان هذا الثنائي من أصحاب "العجائب" الذين ليس لهم إلا عملاً واحداً معروفاً وهو هذه الأغنية على وجه التحديد، بحيث في عام 2020 يصنفان أنهما الفنانان الوحيدان الحاصلان على مراتب أول في قوائم التصنيفات الموسيقية الأبرز على جانبي الأطلسي قبل أن يصنعا أي عمل سابق ذي أهمية، المصدر: "In 2525 by Zager and Evans", Song Facts, 27

November 2020, attained on April 18th, 2022, available at:

<https://web.archive.org/web/20201127225315/https://www.songfacts.com/facts/zager-evans/in-the-year-2525>

وقدماك ليس لديهما ما تعملان، هناك آلة تؤدي كل هذا لك! في العام 6565، لن تحتاجي لزوج ولن تحتاج لزوجة، ستختار ابنك، وابنتك، من قاع أنبوب اختبار، في العام 7510، ربما يكون وقت نهاية العالم! في العام 9595، أتساءل عما إذا كان الإنسان سيكون وقتها، قد أخذ كل ما استطاعت هذه الأرض العجوز أن تمنحه، ولم يرد لها شيئاً في المقابل! الآن مرت عشرة آلاف سنة وذرف الإنسان مليون دمة على ما لم يعرفه قط! الآن انتهى سلطان الإنسان، لكن عبر الليل الخالد يبدو بريق النجوم البعيد جداً كأنه بالأمس⁽¹⁾.

وهذا ما حدث بالضبط في رؤى محمود التي شاهدها في السجلات الأكاشية، فرأى بعد آلاف السنين (في عام 4300 ميلادياً) أن التقدم التكنولوجي طوّر الأسلحة وعقد الحروب وجعل الإنسان أقرب للآلة منعمة الرحمة واللين بعدما توقف منذ قرون عن سماع الألحان والقصائد المهدئة للنفس، ظهر طاغية مثل هتلر يحلم أن يسيطر على العالم له جيش امتلكت طائراته قنبلة (هكسا-كاي3) التي يقال إن السيطرة عليها تضمن التحكم في العالم والقدر، رأى محمود إحدى هذه الطائرات ترتفع فوق عاصمة أنك قومها من الحروب والدماء وتتأهب لإطلاق القنبلة عليها، وقبل الإطلاق انطلق دخان تعمّد هذا الطاغية أن يجعله على هيئة مولوخ (علامة دينية) ليوحي للناس بيوم قيامة قريب، وصف توفيق المشهد أنه يشبه "المطهر".

وفعلًا فقد تسببت القنبلة في فناء البشرية أجمع، فرأى محمود في نبوءة أخرى بعد مليون عام اندثار معالم الحضارة الإنسانية وأنّ الناس المتبقين أجبروا على التواري بين الصخور وقد فقدوا كل مشاعرهم الإنسانية عدا الذعر والرغبة في الحفاظ على البقاء، اختفت اللغة وتعامل الناس بأصوات حلقية مثل (أعع، عا، عوو،...) وفاحت منهم روائح كريهة وكست جلودهم خيوط لزجة، صارت نيويورك مجرد ساحة أشجار كتة ومستنقعات لا يظهر من تمثال الحرية إلا يد حجرية تخرج من مستنقع تحمل شعلة، وظنها القوم صنما كان السابقون يعبدونه، تزعم العالم الصراير المتطورة كبيرة الحجم (كل منها في حجم سيارة) ذات الروائح النتنة والشوارب الضخمة والأفهام المفتوحة للافتراس، لديها ذكاء عال ولغة متطورة وتميز أفعالها وأفعال المحيطين ولها تكوينات أشبه بالمشي البشري على رؤوسهم، تجردت هذه الصراير من الرحمة تمامًا كما كان الإنسان لا يحمل تعاطفًا مع الصراير، تتحرك في مجموعات وتغطي الأرض بحيث يصعب العثور على ثغرة بينها.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، ص 129.130.

رأى محمود أمّا تحمل رضيعاً تسعى مع رجل آخر لإسكات صراخه خوفاً من صرصور قريب قد يسمعه، ولما فشلت في إسكاته لم تتردد في قتله بتهشيم رأسه ليصمت، عارفة أنّ الحصول على غيره سيكون سهلاً ما دام رحمها موجوداً، وهو ما يثبت انتهاء غريزة الأمومة إذا هددت البقاء، وفعلًا بعد رحيل الصرصور المخيف، عصر الرجل في فمها بعض الثمار التي سبق وللمها من أحراش نيويورك احتفالاً بالنجاة قبل أن يقيما علاقة حميمة ⁽¹⁾، وهو ما وصفه توفيق: "في هذه اللحظة أدرك أن هناك نداء غريزيًا يحتم عليه أن يتكاثر كما ظلّ حيًّا، لقد رحلت الصراصير وفقدت المرأة طفلها، وحان وقت صنع طفل آخر! رائحتها كريهة جدًا لكن ما المشكلة، رائحته كريهة مثلها" ⁽²⁾. هكذا، فهذه الديستوبيا ستستمر إلى الأبد وستقضي على إنسانية البشر لا محالة.

أمّا بالنسبة للديستوبيا التي عاشها محمود - الذي اطلع على هذه السجلات - في حياته الواقعية، فالحقيقة هي أنّ الرواية تُدعى "مثل إيكاروس"، تيمناً بأسطورة إيكاروس الإغريقية. ذكر "توفيق" هذه الأسطورة في بداية الرواية وهي عن "إيكاروس" الذي صنع مع أبيه أجنحة من شمع ليتمكنّا من الهروب من بطش أحد الآلهة الطاغية، والذي لم ينصت لنصيحة أبيه ألا يعلو في طياره عن حدٍّ معين، وطار بالأجنحة الصناعية إلى أعلى ارتفاع ممكن وقد بهره صغر العالم الأرضي، وذلك حتى أذابت الشمس الأجنحة مسقطه إياه من هذا العلو إلى أخسف الأرض. أمّا محمود، فكما ورد في الجزء السابق، فقد أحيّلت حياته للجحيم بعينه بعدما ظنّ أن سعادته تكمن في المعرفة الزائدة. ذُكر في الجزء السابق أنه سعى إلى الانتحار مرارًا قبل أن يودعه في مصحة نفسية صمّت فيها وبدأ في التنبؤ حتى عرفت الجهات الأمنية المحلية والدولية به، واعتقلته قوات المخابرات المصرية وعذبوه حتى ادعى موته وفرّ منهم للولايات المتحدة، وهناك أخذ يحاول مساعدة الناس بإخبارهم ما يمكن أن ينهي حيرتهم في حياتهم، وذلك حتى طارده القوّات الأمريكيّة رغبةً في امتصاص جميع النبوءات التي يملكها، وجهزوا له لائحة بها ألف سؤال لجيبهم، لكنه استطاع الهروب بعد أن قطع لسانه وحطّم عظام يديه تمامًا كيلا يستقون منه أي إجابة، عاد لمصر وسكن حارة فقيرة بهذه التشوهات، إلا أنه لم يستطع الصمت واستدعى الطبيب النفسي الذي كان يرعاه وأخذ يخبره بأسرار أخرى من خلال الكتابة بأصابع قدمه، فأنبأه أن هذا الطبيب سيعيش حياة تعيسة ويموت وحيدًا بائسًا بلا حب ولا بهجة، كان محمود ينتقمُ منه لأن الطبيب خدع زوجة محمود ودفعها

(1) المرجع السابق نفسه، ص 217 - 220.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 220.

للخيانة ثم تخلص منها تمامًا، فأراد أن يحبط ويقتله. وبالفعل، لقد قتله الطبيب قتلاً شنيعاً، فيما كان محمود راضياً بهذا الموت تماماً بل كان يتوقعه وقد استراح أخيراً.

وعندما شاهد الطبيب الجثة في بداية الرواية - ولم يكن القراء يعرفون أنه القاتل بعد- لم يندش من فظاعة منظرها إذ كانت مطعونة 20 طعنة، وأمعائها خارج بطنها وعيناها مقتلعة وعظامها مهشمة، بل كان مؤمناً أنها نهاية محمود الوحيدة، "كنت أرى الموت في جبهته، كُتب على عينيه (أموتُ غداً)، كُلنا محكوم علينا بالإعدام كأبطال كافكا، لكنني كنت أدرك أن محمود سيموت قبلنا جميعاً وبأبشع الطرق"⁽¹⁾، ولما سأله الضابط عن قطع لسان القتيل وتهشيم أصابعه بهذه السادية، أجابه أنها إصابات قديمة ارتكبتها محمود بنفسه، وعلق بداخله: "هذا رجل أراد أن يعاقب نفسه بقسوة وأن يخرس فلا تتاح له فرصة الكلام، هذا رجل أراد أن يصدّم الموت عندما يلقاه، هذا رجل كره الحقيقة وكره ما يعرفه وكره نفسه"⁽²⁾. وحتى بعد قتله، فلم يندم الطبيب أيضاً وعدّ نفسه البطل الذي أعاد غلق الغطاء على الحقيقة العارية مرة أخرى، بحيث يستعيد الناس القدرة على الحلم والتمني كما لو أنه يغلق صندوق باندورا، خاصة أنه كان على علم أن محمود نفسه حاول البقاء لإخبار الناس بما عرفه حتى أدرك أن العالم لا يحتمل الهول الذي يحدثهم عنه وهو ذاته لم يكن يطيق رأسه المحمل بالكوابيس وكان يؤد الموت بأي طريقة ممكنة. لم يندم الطبيب لأنه عندما جاء لقتله، ابتسم محمود ما دلّ أنه أخبره بمستقبله المظلم ليجعله يتخذ قرار القتل، وليكون أداة انتحار محمود الأخيرة التي اختارها، فقتله ولم يكن قد أخفى بصماته أو تحركاته وقرر أن يعترف عندما يُسأل إذ لا جدوى من الفرار⁽³⁾، وآخر ما ذكره أن: "كنت أعرف أن محمود سيموت، للحظات خطر لي أن أنكر وأؤدي دور القاتل الذي تفتش عنه الشرطة، ثم أدركت أن الخير أن أتكلم.. لقد مات محمود لأنه اقترب من الحقيقة أكثر من اللازم، فلم يتحمل واحترق وذاب جناحاه، هوى من حلق ليغرق... مثل إيكاروس"⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 10، 11.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 11، 12.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 328-332.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 332-333.

3- تحقق سعادة الشرقاوي في المدى القريب وفناء البشرية في المدى البعيد: ينبغي القول قبل الحديث عن هذا المأل، إن الرواية كانت تتعرض لأثر الديستوبيا المظلمة على الشرقاوي سواء أفكاره أو هيئة جسده المُسجى في الغيبوبة، فلم تكن هناك أصلاً وسيلة فُضلى لإثبات بشاعة هذه الديستوبيا المظلمة من أن يوصفها "توفيق" بأعين الشرقاوي الذي كان يعيش في عالم مبصر مضيء ثم وقع -بلا مهادنات- في الظلام. عثر الرجل على ذاته فجأة غارقاً في الظلام وحيداً بلا تفسير ليفكر: "الظلام في كل صوب؛ ظلام متجانس مخملي يمكنك أن تلمسه وتحسسه لكن لا تقدر على تمييزه.. قال الرب: (ليكن نور)، لكنك جئت قبل تلك اللحظة المقدسة.. ظلام في كل صوب كغاز سام يتسرب عبر فتحات الأنف لروحك! روحك تظلم، تنطفئ.. ظلام العجز والوهن.. أنتَ واهن هش كجذك قبل أن يعرف النار؛ اللحظة التي نصير فيها مباحاً للوحوش والضباع"⁽¹⁾. ظلَّ أنه يعاني كابوساً بأنه كيف يراقبه الناس بعيون مشفقة أو ساخرة أو متهمكة من فزعهِ وخال أنَّ القرص المنوم أعماه كعرض جانبي مثل الدوار وفقدان التركيز والغثيان، ولما لمسه أحدهم لمسة وجلة، خطر له أنَّ الرجل لا يرى وتذكر رواية "ويلز" المُسمَّاة باسم "وادي العميان" متساؤلاً إن كانوا جميعاً أصيبوا بعدوى معينة.

ولكم صدم لما عرف أنهم ما زالوا في مصر وقد اكتسبت بالظلام الدامس، عرفها من رائحتها، ففكر: "السبب ما بدأت حاسة الشم تزدهر عنده؛ الرائحة (الحكومية) التي هي مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنائيات الخربة وأكاس الملقات والفئران ورائحة دورة المياه التي لم يتم إصلاحها منذ قرون.. أن تنتقل من عالم الحلم لهذا العالم فجأة لهو لعبة غير عادلة وثمة نوع من القسوة في هذا كله.. سوف ينهض ويصرخ وبالتأكيد سيكون غارقاً في العرق وستضمه زوجته لصدرها تالئة المعوذتين"⁽²⁾. قاوم في البداية وبحث عن طبيب يتفحص شبكيته ليطمئنه أنه عمى هستيري سيزول خلال ساعات، فقد كان في طفولته كلما اكتشف خللاً في جسده نام وكان عندما يصحو يجد الخلل قد زال، وصار متيقناً أنه كابوس. لكن بعد زيارته للمشفى حيث أكدت له الطبيبة أنَّ عليه اعتياد الأمر الواقع، فقد حلل الكثير من المعطيات أن الظلام غطى العالم، وقضى ليلته في أحد الفنادق محبطاً خائفاً لعدم فهمه أسباب هذا التحول، ونام بينما يفكر: "ليكون نوماً شنيعاً! كيف يكون نوم لا تفيق منه لترى نوراً؟! ظلام في ظلام في ظلام.. أن ينام المرء فيصحو ليجد الظلام

(1) أحمد خالد توفيق، رواية في ممر الفئران، مرجع سبق ذكره، ص 69.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 72.

مازال مطبقاً على الكون، قرأ في شبابه كتاباً عن علامات الساعة يحوي رؤى مفزعة لكن هذا كان أفضعها في رأيه.. لو كان الأمر كابوساً، فقد دخله وتاه فيه ولا يعرف كيف يفيق"⁽¹⁾.

وذلك حتى رأى البرق في السماء وعرف أن الشمس والنور موجودان، ولكنه وجده برقاً غريباً يضرب ذات المكان مرتين، قبل أن يرضى أن هذا البرق تسبب في حريق توهجت على إثره النار قبل أن تخبو، ليصل لحقيقة ألا يوجد عميان في العالم ولكن هناك سبب يحجب النور.

لم يكن الشرقاوي قد التقى برامي أو ماهر أو غيرهما بعد، فالرواية بدأت تعرض آثار ما يكتشفه في الديستوبيا على جسده الموجود في المشفى في الواقع يغرق في غيبوبته.

فمع اكتشاف أن الناس في العالم الغريب ليسوا عمياناً بل النور محجوب، ثار جسده في غيبوبته وتقلب ودارت عيناه خلف جفنيه وتساقطت رغبة جانب فمه كمن يرغب في الاستيقاظ أو الموت، وعرف طبيبه أنه يعاني لكن لا وسيلة لمساعدته. بعدها خمدت ثورته وكأنه قرر أن يحتمل الديستوبيا بشجاعة وأعانه خياله بوضع "قداحة" في جيبه وجدها في حلمه من دون أن يعلم عن وجودها أي شيء فيما سبق. أشعلها في ردهة الفندق ليرى قذارة "اللوبي" وبشاعة مظهر الناس حوله وقد سادتهم حالة من اضطراب الثياب وعدم الهندمة منكوشي الشعر طويلي الذقون. ولأنه اقترف "جريمة النور"، التي لم يكن يعرف عنها أي شيء، بدأت مرحلة المطاردات، وخلال اكتشافه لقبح هذا العالم وأثناء مطاردته، وصفه توفيق أنه يعاني من رهاب الأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)، ويرتعب منذ الصغر من عدم القدرة على التراجع: "هكذا يمكننا دون خطأ كبير أن نعتبر أن الشرقاوي عبر إلى ممر الفئران وغدا غير قادر على التراجع.. أين الشرقاوي الأصلي؟ أنه مشتاق إليه! قيل إن للسفر سبع فوائد لا يذكر منها واحدة لكنه يعرف أن السفر قد يجعلك تدرك أن حياتك كان لا بأس بها على الإطلاق، وهو مشتاق إلى الشرقاوي القديم والبيت والزوجة المملة والحيرة الوجودية والقبح والقمامة وانحدار الذوق.. إنها لنعمة أن تقدر على رؤية القبح والقذارة"⁽²⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 85، 86.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 98، 99.

بذلك، فالرجل - في حد وصف توفيق - دخل ديستوبيا حقيقية حققت جميع مخاوفه، واستمر عرض الرواية لحالة جسده الواقعي مع كل اكتشاف سيئ، فلمَّا فسَّر له رامي فيما بعد كيفية حلول هذا الظلام ووجود القومندان، شعرَ الشرقاوي أنه في كابوس تمنى لو يصحو منه على بسمه زوجته وأشعلَ قداحته في بيت رامي لرغبته في إشباع شبكيته من النور، وسأل إذا كانوا هالكين، فأجابه رامي بحكمة أنه لعله الهلاك إذ إن ما يعيشونه يشبه الموت حتى لو أنَّ قلوبهم ما زالت تنبض وإن أخبره أنها حقائق لا كابوس. هُنا، فالشرقاوي عادَ يحاول تخليص نفسه من غيبوبته وتشنُّج في فراشه واجتهدَ لنطق بعض الحروف التائهة مثل "الأااا" و"الهووور" وهما بالأساس "الظلام" و"النور"؛ إلا أنَّ زوجته التي تنبعت لكلماته هذه خاصة وأنهم نزعوا جهاز التنفس عنه بعدما أثبت قدرته على استخدام رثتيه، لم تستطع فهم شيء، وكل ما دعت به أنَّ يموت ليستريح.

بل مع رؤية الثوار أنه زعيمهم، فكرَ بيقين أنه مات وأنها حياة القبر التي لا يمكن لأحد أن يقصها وبذلك، فلن يتغير وضعه البائس أبداً وسيحتتم عليه الانتحار لينهي عذابه، وإن ظلَّ بداخله أمل خافت أنه كابوس سيفيق منه، ولمَّا حضر عملية إعدام أحد "الهراطقة" الذي وشى عليه أخوه وأخبره بعدها رامي أنَّ محاولات ماهر الثورية لن تجدي، آمنَ الشرقاوي أنَّ حياة الظلام هي حياته الحقيقية بينما حياته كمهندس متزوج لديه طفلان صحيحا الأبدان متسلية بأسئلته الوجودية هي الحلم، وكانعكاس على هذه الأفكار السوداوية، وجدَّه الأطباء في غيبوبته يفك القناة الوريدية لتسهيل دماؤه مغرقة الملاءة مما أنبأهم أنه يعيشَ حلماً عنيقاً تعيشاً لا يمكنهم استخراجهم منه⁽¹⁾، ولمَّا جُنَّت زوجة رامي وأشعلتُ النار في الشارع وقُبض عليها مما حتمَّ ضرورة الصعود لقلعة القومندان للهروب من الشرطة، فعلى أرض الواقع قلَّت إشارات استفاقة الشرقاوي من غيبوبته ويئست زوجته من عودته وفكرت: "من الواضح أنه لن يفيق أبداً! تعرف أنه لن يقدم لها مفاجآت سارة لو كان هذا بوسعه! مشكلة الأولاد، البيت، العثرات المادية، حساب المستشفى، لو كان ينوي أن يموت، فليفعل هذا حالا قبل أن يدمر حياته وحياة ولديها"⁽²⁾، والحق أنَّ لعلم عقله أنه لن يفيق من الكابوس، فقد أوجدَ له شخصية "دكتورة مها" التي أحبته ورعته في بيتها رعاية الأم لصغيرها وتجلب له الطعام وتضمُّه ليكفَّ عن ارتجافه وتردد أنه طفل وديع لا يضرَّ وأنَّ حدسها ينبئها أنه سيكون صاحب "شأن عظيم"، وأنه ينمو كالأطفال قبل أنَّ يحررهم جميعا. فكانَ يقارن ذلك ببرود زوجته الواقعية

(1) المرجع السابق نفسه، ص 255، 256.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 296، 297.

وأبنائه العاديين وحيثه الوجودية، فيخبرها أنها تعرف كيف تجعله متحمساً وراضياً عن نفسه وأنه معها لا يكون وحيداً⁽¹⁾. مع صعوده لقلعة القومندان، راح جسده يتلوى على فراش الغيبوبة يحرك قدمه كمن يسبح وزوجته ترمقه بكراهية تتمنى أن يفيق أو يموت بدلاً من تعليقها وتذكر أنه لم يكن يوماً راضياً عن حياته، وبالفعل لقد تحولت أفكاره آنذاك تماماً وتيقن أنه مكانه الأصلي وأن حاجته للنور هي التي جعلته هلوس وحلم أنه مهندس له زوجة وأطفال وتترف التفكير الوجودي، تأكد أنه كان في ممر الفئران منذ البداية⁽²⁾.

إذن، لقد انتهت أفكاره بالاستسلام للديستوبيا وأنها حياته الواقعية التي لا نجاة منها، وقرر معاشتها للنهاية، ولقد أحكم الثوار خططهم الثورية واستطاع "فيتوريو" ورفاقه من سرقة معدات تفجير من محجر قلعة القومندان ولغموا الأبراج المتحركة في طاقة القلعة، واتفقوا على أن يتم التفجير خلال إحدى احتفالات القوم الصاخبة التي يمرحون فيها ويتمتعون بالجمال والمجون والضوء على حساب الفئران العميان في العالم بأسره. وبالفعل حلت الحفلة واستعد الجميع للحظة التي سيبلغهم فيها "ماهر" أن يبدأوا التفجير الذي سيشل المكان، ويمكنهم من السيطرة على الجنرالات والأثرياء السكارى، ويعيدون توزيع الموارد بالعدل على العالم بأسره، وحضر الشرقاوي ورفاقه متأنقين وتواروا بين المدعويين ذوي الجنسيات المتعددة وتوزع عشرون ضوئياً غيرهم بالقاعة مثل -كما وصف توفيق- ما حدث في انقلاب "قاعة البيرة" الذي سعى هتلر به أن يستولى على حكم ألمانيا لولا أنه فشل وسُجن، لكن انقلب كل شيء عندما سأل الشرقاوي ماهر عن كيفية ضمان نجاح الثورة دون قتل أو تحييد القومندان، وأجابه أنه لا وجود للقومندان وأنه ليس سوى زمرة الجنرالات والعلماء الروسين والصينيين والأوروبيين والأثرياء العرب الذين خلقوا مجتمعاً خاصاً بهم ليسيطروا على العالم وأنهم خلقوا "القومندان" لعلمهم أن الشعوب تميل للفكرة المجردة، بينما الحق أن القرارات تصدر جماعية ويضعون عليها اسم القومندان. هنا تثبتت نظرة الشرقاوي حول فشل الثورة، فقد رأى أن رغم إحكام خطة التفجير، فالمحصلة ستكون الدمار ولن تتسع القلعة لتكفي كل من يعيش في الظلام والمرض وأن البشر منذ قديم الأزل كانوا يعجزون عن توزيع الثراء وكانوا يوزعون الفقر، لم ير سوى أن الثورة ستفشل وسيعثرون على أطراف المؤامرة ويسلخونهم أحياء ويرمون بقاياهم عن قمة الهيمالايا، فبدأ يتخذ قرار الانضمام لقوم القومندان ما دام عاجزاً عن قهرهم. بذلك، ضرب ماهر على رأسه وخطف جهاز اللاسلكي

(1) المرجع السابق نفسه، ص 310، 311.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 326، 328.

الذي كَانَ يتواصل به مع الثوار، ووشى عليهم لأحد الجنرالات⁽¹⁾، وقد وصفه توفيق بأنه: "أنت أديت دور يهوذا، بدران الذي خانَ أدهم الشرقاوي، لكنك برغم هذا اخترت الصندوق الصحيح، لعل هذا هو خيارك منذ جئتَ إلى هذا العالم لكنت لم تترك هذا إلا الآن! إن كَانَ لا منجى من الظلم، فمن الحكمة أن تكونَ مع الظالمين لا المظلومين. برغم قذارة الاختيار، فهو يشعر براحة عميقة وأنه شجاع، من يقبل أن يكون نذلًا رجيماً، فلا بد أنه شجاع"⁽²⁾.

بذلك فشلت الثورة وقتلوا الثوار الإيطاليين، بينما نظرَ إليه كلُّ من رامي وماهر بلا اتهام وهو ما أغضبه، إذ انتظرَ تقريريهما ليذكرهما بتخليهما عن نجوان فيما سبق، واعتلى أحد الجنرالات المهمين المسرح يطمئن قومه أن المؤامرة المحكمة لقتلهم أحبطت، واستدعى الشرقاوي ليتعرف عليه. المذهل أنه لما أخبره الشرقاوي أنه آت من دنيا الظلام ولا يدري من أين جاء بالضبط ويظنه حلمًا طويلًا قاسيًا، تفاجأ قوم القلعة لأن كلماته جسدت نبوءة كاهن بونزي أخبرهم أن رجلًا أربعينيًا سيأتيهم من الظلام وسينجيهم من الهلاك وسيكون قائدهم، ورددوا ذات تعليقات الثوار أنهم يرونه قادمًا من رحم اللا مكان وأنه كالوعد أو النبوءة المتحققة وأن كل شيء يخص قدومه ساحر. هكذا، لقد جاء الشرقاوي بالفعل لغاية معينة، لكن ليس من أجل الثوار والمظلومين، بل ليوطدَ سلطة الظالمين. لقد كُتبَ - في وصف توفيق الساخر - القدر له أن يكون طاغيةً وقاهرًا ومنتميًا للنور لا ضحية مقهورة، عاش طيلة حياته متعطشًا لشيء ما لم يعرف هويته أزهدة في الجنس والمال والدين والعلم وأشعره بالهزيمة والخنوع، ليكتشف أنه انتهى السلطة والسيطرة وأنه وجدهما في قلعة القومندان، ولكن انتشى وهو يشاهد الراقصات الجميلات وانحناء رءوس جنرالات العالم له وأنه سيجسد القومندان ويجعله حقيقيًا، ولتذكره رجال الشرطة وكهنة الظلام سيعملون في ممر الفئران لحسابه مكفرين الضوئيين ومرهبين الناس، وأنه امتلك القوة الخارقة وهي عدم العودة لممر الفئران. قررَ أن يدوس كل من يحيا في ممر الفئران، وبدأ بقتل كل رفاقه وتعليقهم بين الجبلين. أما في واقعه، فلم يصحُ من غيبوبته وإنْ علت ثغره ابتسامة رضا ظننتها إحدى المرضات أنه رأى الجنة، ورجعتُ أعضاؤه الحيوية للعمل بكفاءة دون أدوات الإحياء؛ ما أكد للطبيب أنه انتقلَ لبعد آخر ينعم فيه بالاكتمال والمجد ولن يفيق أبدًا، في البدء خافت زوجته قبل أن تجده أكثر إثارة وتكف عن طلب وقف الأجهزة وتأتيه تراقبه بانبهار وانتعاش وأحيانًا تقبله وتحتضنه، انتهت الرواية بتوفيق الذي يقول إنه لا مجال للأسئلة الميتافيزيقية التي بلا

(1) المرجع السابق نفسه، ص 366-371.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 371.

جواب حول مكانه وماذا يفعل⁽¹⁾، "سيموت الشرقاوي يوماً ثمّ تموت زوجته ثم يموت الطبيب، ربما في عالم آخر يجلس الجميع ليتبادلوا الحكايات ويفسروا كل شيء، أمّا اليوم، فالشرقاوي يبدو راضياً سعيداً.. دعوه إذن، لقد استحقّ هذا النصر"⁽²⁾.

بذلك، فلأن الشرقاوي يأس من الاستفاقة، وأقنع نفسه أنّ ممر الفئران هو حياته الحقيقية، فلم يتحمل أنّ ينتهي مصيره بالموت أو بالعيش في ممر الفئران، وتفاعل معه عقله بأن جعله في النهاية هو القومندان لكيلا يعود لحالة الألم والظلام. فإذا كان ينبغي أن يستقر في هذه الديستوبيا، فليكن في أفضل مكان فيها، بل ليكن زعيم الجزء اليوتوبي منها. وإذا كانت ديستوبيا "الشرقاوي" الخاصة انتهت بأن صار هو "القومندان"، فعلى المدى البعيد كان البروفسور الجيولوجي "مصطفى" يتوقع بعد سقوط النيزك العملاق أنّ حياة البشر لن تستمر طويلاً إذ ستذبل الحياة العضوية بغياب نور الشمس، مفنّداً اقتراح رامي أنّه لعل سحابة الغبار المحيطة للأرض ستنتشع عمّا قريب، مؤكداً أنّ فناء البشرية سيكون أسرع من انقشاعها، وبذلك سيتكرر سيناريو الديناصورات وقد تسيطر الكائنات الدقيقة كالصراصير والفئران على الأرض لبعض الوقت قبل أن يظهر كائنٌ آخر غير الإنسان يتزعم الأرض، كان يتوقع من الناحية العلمية بعدما توقف منذ فترة عن الإيمان بالله واليوم الآخر⁽³⁾.

4- فشل المشروع بعوامل طبيعية سبقتها عوامل بشرية: لم تكن نهاية "شأبيب" سوى أنّ البركان الجاثم على الجزيرة فاض بكل من فيها وقرر الانفجار بعد قرون من الخمود، في البدء ظنوا الزلزلة الأولية والدخان الأخضر نتاج زلزال، لكن العالم الجيولوجي قطع الشكوك بأنّه البركان الذي يمهلهم أسبوعاً ليجلوا المدينة، وإلا سيفغمرهم بحممه ويذيب قراهم ومبانيهم وأجسادهم، وحتى اقتراح أن يزحفوا لجانب الجزيرة الإندونيسي لم يكن مجدياً لأن هذا الطرف سيكون عرضة لموجات تسونامي قوية كرد فعل على ثورة البركان. واتصل جوناثن إيرهارت بسليم ليحذره من ذوبان شأبيب خلال أيام، وأبلغه أنّ مشروع شأبيب لا يمكن له الاستمرار، ولما خيّر سليم المهاجرين بين الرحيل والبقاء معه لإعادة بناء الدولة بعد البركان، وذلك لأن الموقف كان مهيباً بحيث لو فرض إرادته عليهم لمزقوه، فلم يأتيه أي أحد للوقوف معه لخوفهم من الموت، فعرف أن المشروع فشل بالفعل. الجدير بالذكر أنه بالفعل لم يرحل رغم أنّ أمانة أنّه ترجاه أن يرحل معها، أخبرته وهو عاكف في مكتبه أنها كانت من أوائل المؤمنين بالدولة حتى أنكرت أنها

(1) المرجع السابق نفسه، ص 366-379.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 379.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 174، 175.

كذبة، ولن يكون بإمكانها الاستمرار في تصديقها في ظلّ ثورة البركان، عاندها أنّ شآبيب بداية أحلامه الوحيدة ولا يمكنه أن يبدأ من جديد أو أن يحب أمانة في أي مكان آخر عداها، قرّرت الرحيل وسجّلتُ اسمها على متن السفينة الأمريكية المنقذة، وكررت له أن شآبيب أكلوبة، فعقب أن هذه الأكذوبة كانت على بداية الطريق وباعه حياته ومستقبله. هكذا كرّر توفيق المشهد الذي بدأت الرواية به وهو البركان المتأهب للثوران، مع مشهد "الإركاب العظيم" - الذي شبهه توفيق بعملية "إنزال نورماندي خلال الحرب العالمية الثانية" - إذ اصطفّ العرب في طابور طويل وصفه توفيق كما لو كانوا ينتظرون حسابهم يوم القيامة والسفن الأمريكية والأوروبية في البحر واقفة لتحملهم إلى أي بلد آخر، بينما جلس سليم - بعدما صعدت أمانة وابتنتها لإحدى السفن - على جذع شجرة يدخل ويراقب المشهد، ويتذكر موت أسرته قبل أن يخط بعصا على الرمال اسم شآبيب ثمّ ينهى لفافة التبغ ويقذفها بعيداً متوجّهاً للدغل فيما الضباب يتزايد. هكذا فشلت يوتوبيا وديستوبيا "شآبيب" بثورة البركان" بعد رحيل المهاجرين جميعاً إلى أوطانهم السابقة - ما عدا سليم - وإن كان عزاء سليم الأخير أنهم صنعوا تاريخاً في الجزيرة، بحيث أن لو صحّت فكرة شآبيب من جديد، فهذه المرة سيجدون أثاراً للعرب هناك يقوّى موقفهم تاريخياً وسيتعلمون من أخطاء السابقين⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أنّ البركان كان له الكلمة الأخيرة في إنهاء مشروع دولة "شآبيب"، فهذا لا ينفي أنّ العنصر البشري أدى دوراً كبيراً في فشل هذا المشروع قبلها. لقد كتب سليم رسالة لتبعثها أمانة لجوناثان إيرهارت شرح فيها أسباب انهيار شآبيب بحق. وفقاً لسليم ولتوفيق، فأول هذه الأسباب أن الدولة مبنية على أساس واه زائف، ألا وهو أكذوبة أن العرب سكنوا الجزيرة في عهد الخلافة العباسية، بل لقد اعترف سليم أنه كان مدركاً أن العرب لم يطئوا هذه الجزيرة يوماً. وثاني هذه الأسباب أن الاستعمار الإحلالي - أي محو شعب كامل بقتلهم أو تذيبهم عنوة في المجتمع الجديد - يورثُ القسوة والعنصرية حتّى لو سبق ونجحت حالاتٌ معينة منه، كما أنّه يقيم الدولة وسط محيط معادٍ، وفي كلتا الحالتين، فهذا فشل، فيقول: "إنشاء دولة على بقايا مجتمع آخر عملية جراحية لا تتطلب أي قدر من الرحمة؛ إننا نقفد قدرتنا على الحلم عندما نحاول جاهدين أن نحقق حلمًا كهذا، ثمة جزء من إنسانيتنا تذبل للأبد"، يرى الحل هو أن تندمج الشعوب في الدولة الواحدة ويتقبلوا اختلافاتهم. ثالث هذه الأسباب هو الخلافات الدينية والعرقية التي هي مشكلة العرب الدائمة، بحيث يسعى كل فريق لإبادة الفريق الآخر قبل التخلص من الخصوم، ما يؤدي لاستمرار قتالهم وتزايد قوّة العدو، ولهذا عليهم أن يتعلموا التعايش.

(1) أحمد خالد توفيق، رواية شآبيب، مرجع سبق ذكره، ص 316-325، 329.

رابعاً، فبيئة الجزيرة تعج بالزلازل والبراكين وموجات التسونامي والأمراض المعدية بحيث لا يمكن تشييد أي حضارة عليها إذ سيأس المواطنون من إعادة بنائها كلما تدمّرت. خامساً وأخيراً، فتوفيق -على لسان سليم- يرفض الهجرة كحل للاضطهاد بل استرداد الحق، ولهذا كان سليم راضياً أن المهاجرين سيجعون لأوطانهم وللوطن العربي بهدف ألا يُضطهدوا من جديد، إذ أخبره أحد المهاجرين أنه عندما يطرده أحدهم من بيته، فلسوف يسترده ولن يذهب لبناء بيت جديد في أرض جديدة⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 327، 328.

الخاتمة

ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا
فى روايات توفيق وسياقه

أما وقد تناول الجزء الأول والثاني من الكتاب ما يخص السياق الذي دارت فيه حياة أحمد خالد توفيق منذ ميلاده في عام 1962 وحتى مماته في عام 2018، ثم تناول الجزئان الثالث والرابع ما يخص ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في رواياته، فقد جاء دور الخاتمة لإيضاح أثر السياق على الثنائية. وهذا كله من أجل الإجابة على التساؤل حول السبب وراء حدوث توازن دائم في روايات أحمد خالد توفيق بين اليوتوبيا المُبتغاة والديستوبيا الواقعة، واختبار افتراض أن السبب قد يكون السياق الذي عاشه توفيق.

• يوتوبيا أحمد خالد توفيق وسياقه:

فبالنظر إلى رواية يوتوبيا والسعى وراء الابتعاد عن الفقراء، فقد سبق لتوفيق التردد في لقاءاته الصحفية أنه كان يخشى ازدياد الفجوة بين الفقراء والأغنياء في عهد محمد حسني مبارك خصوصاً مع ارتفاع معدلات البطالة والفقير من ناحية، وظهور المنتجات السياحية الثرية في الساحل الشمالي المصري الذي يمارس فيه الأثراء مجونهم وعنصريتهم مع احتكار رجال الأعمال لجميع الصناعات المهمة، وتخيل هو بلوغ مصر لأقصى حالات الاستقطاب الاجتماعي. ومن ناحية أخرى، فإن مسألة اتقاء التنمر والاضطهاد والبحث عن الذات والتميز، والتي تجلّت في روايات "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران" و"شأبيب"، فقد كانت تمس كلا من أزمة المثقف والصراع بين الشيوعيين والإسلاميين في مصر وكيفية تعامل الدولة معهما، وكذلك إشكالية هجرة العقول. هذا بالإضافة إلى أن التنمر الذي لاقاه محمود في حياته، خصوصاً في مرحلة المدرسة، فإن وسائل التواصل الاجتماعي بالفعل كانت في العقد الأخير تلتفت إليها لما فيها من آثار سلبية على ثقة الأطفال ونفسياتهم⁽¹⁾. ومن ناحية ثالثة، فإن قضية الخلاص من الاضطهاد العنصري والخوف من اندثار الثقافة العربية في بلاد المهجر، فإنها تلاقى انعكاسها في السياق سواء مسألة الإسلاموفوبيا والعرب فوبيا اللتين يوظفهما الشعبويون في خطاباتهم السياسية بالدول الأوروبية منذ واقعة 11 سبتمبر 2001 والاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق والتي تفاقمت عقب الهجرة العربية لأوروبا مع الثورات العربية المخفقة. وقد أخذ توفيق هذه المسألة لمنتهاها بتشبيه العرب بيهود الشتات الذين تعرضوا للاضطهاد والتميز العنصري بصورة فجّة قبل إقامة دولة "إسرائيل". كذلك في هذه الفكرة مناقشة لمسألة ضياع الهوية العربية في المجتمعات الغربية، والتي تمّت مناقشتها بالتفصيل في الجزء الثاني من الكتاب.

(1) أماني زايد، "التنمر.. ومن السخرية ما قتل"، جريدة الوفد، 15 يناير 2020، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، الساعة 11:30 ليلاً.

متاح على: <https://alwafd.news/article/2747875>

وبداخل فكرة "البحث وراء الحقائق المخفية"، عرضُ توفيرِ عددًا من القضايا المستقاة من واقعه مثل واقعة 11 سبتمبر 2001 والتي ما زالتْ تُثيرُ تساؤلَ العقلانيين الباحثين عن حل صريح لها؛ ومثل مسألة تدهور النظام الليبرالي الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية واحتماليات انهياره واستبداله بنظام تقوده الصين أو أوروبا في إطار الدولة الشاملة لصعود وسقوط القوى العالمية والتي هي معروفة في حقل العلاقات الدولية⁽¹⁾. هذا غير قضية الانتاج الأمريكي الغزير في مجال الخيال العلمي الذي يسعى لتخيل سيناريوهات انهيار، بل إن بداخل الولايات المتحدة عشرات المراكز البحثية النابغة في مجال الاستشراف أو Futurology المتخصصة في تكهن السيناريوهات المستقبلية لكل أزمة. هذا بالإضافة إلى قضية صعود جماعة الإخوان المسلمين في مصر خلال فترة السبعينيات والثمانينيات ونشاطهم السياسي حتّى وصولهم لِسُدّة الحكم عام 2012 ثمّ هبوطهم المدوّي مع ثورة يونيو 2013. وقد ناقشَ توفير هذه المسألة الأخيرة صراحة في لقاء له مع مدحت العدل عقب صدور رواية مثل إيكاروس، فذكر أنّه شاهدَ بعينه استغلال نظام السادات للإخوان المسلمين لضرب الشيوعيين. بل ولقد تتبّع توفير في الرواية مسارهم وآثار أحداث عالمية هامة -كالغزو السوفييتي لأفغانستان وتأيد الولايات المتحدة للجهاديين-، وأحداث إقليمية -كالثورة الإيرانية- وأحداث محلية -كثورتَي 2011 و2013 عليهم، وتطرّقَ لنشأتهم الريفية التي سبقَ وناقشتها دكتورة أمل حمادة ومصطفى عبيد في بعض أعمالهما المذكورة في الجزء الثاني من الكتاب.

ومن ناحية آليات بلوغ اليوتوبيا، فالحق أنّ مثلًا في رواية يوتوبيا، فتوفير انطلق مما لاحظته من مؤشرات الفقر والبطالة المتعالية والتي تهدد وجود الطبقة الوسطى. وفي رواية شأبيب، كان توفير يعترف بين طياتها تقليده لآليات كلا من الأمريكيين الأوائل خلال احتلالهم لأراضي الهنود الحمر، أو للحركة الصهيونية خلال احتلالها لأرض فلسطين. وفي هذا الإطار يمكن المرور السريع على أهم محطات نشأة دولة إسرائيل للتأكيد على مدى استقاء أفكار توفير منها. فمنذ قرون ظهرتْ في أوروبا "المسألة اليهودية" حيث الاضطهاد الشديد الذي عانى منه اليهود هناك، وناذتْ بعض الدول الأوروبية لإقامة دولة

(1) Richard H. Steinberg, "The Rise and decline of a liberal international order", in David L. Sloss (ed.), *Is the International Legal Order Unraveling?*, (Oxford University Press, 2022), available at: <https://www.washingtonpost.com/news/volokh-conspiracy/wp/2014/04/29/the-politics-of-science-fiction/>

يهودية في أرض فلسطين لسببين: التخلص منهم، والاستفادة منهم بزرعهم في مكان استراتيجي يحفظ مصالحهم. وفي عام 1896، كتب "هرتزل" كتابه بعنوان "الدولة اليهودية/ الدولة الصهيونية" والذي أعرب عن رغبته في شركة تنقل يهود العالم لفلسطين، وأخرى تشتري الأراضي الفلسطينية. ثم نشأت الحركة الصهيونية على يد "بن جوريون" المنبئية على أسس ثلاثة وهي ترحيل يهود العالم لدولة إسرائيل، ثم بناء مستوطنات في الأراضي الفلسطينية والتوسع فيها، ثم إنكار الأغيار أي تجاهل الشعب الفلسطيني. وأكد أحد زعماء الحركة أن حدودهم هي امكان الذي يتمكن جنودهم من الوصول إليهم. وأكد أن من لا يهاجر، فقد كفر بالله والتوراة والتلمود.

ثم في عام 1905 وعلى مدار سنتين، اجتمع رؤساء وزارات أوروبا ووزراء دفاعها وخارجيتها ليستنتجوا أن شعوب جنوب وشرق البحر المتوسط سيحلون محل الحضارة الأوروبية بسبب موقعهم الاستراتيجي ووحدة لغتهم وتاريخهم وحضارتهم ودينهم وثرواتهم الطبيعية. فقرروا إبقاء المنطقة مجزأة ومتناحرة بوضع اليهود هناك ليكونوا غرباء بينهم وحلفاء للغرب. وفي عام 1917 أصدر بلفور وعده الذي قال فيه أن بريطانيا "تنظر بعين العطف" لمطالب اليهود في الحصول على وطن قومي لهم في فلسطين، وذلك باعتبار أن بريطانيا كانت تحتل فلسطين خلال هذه الفترة. والجدير بالذكر أن بريطانيا لم تقم بذلك سوى بعد الحصول على موافقة الرئيس الأمريكي آنذاك "وودرو ويلسون"، وهو الوعد الذي تجاهل الفلسطينيين تمامًا محققًا ركن الحركة الصهيونية الثالث "نفى الأغيار". وفي عام 1922، صدر "صك الانتداب" البريطاني به 28 مادة منها 20 مادة تبحث في خطوات بناء الوطن اليهودي الجديد ولم تشر أي مادة لحقوق الشعب الفلسطيني، ووافقت عليه عصبة الأمم وقبلته الولايات المتحدة بعدما ضمنت بعض مصالحها في فلسطين⁽¹⁾.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) محمود عباس، "شهادة أبو مازن: محمود عباس" في توفيق أبو بكر (محرر)، مائة عام على الصهيونية: شهادات على القرن، (بيروت) مكان للنشر: مركز جنين للدراسات الاستراتيجية، (1997)، ص ص 13-17.

والحق أنه من أجل الحصول على الدعم لهذه الحركة، فقد زار هرتزل الكثير من القادة منهم وزير داخلية روسيا القيصرية ليجدَ ترحيباً إذ استعانَ بحجة أنَّ العداءَ للسامية هو ما يحفز لهجرة اليهود، وكانَ مسئولو روسيا من أعداء السامية بالفعل ويودون التخلص منهم. كما أنه طلبَ دعم "ويلهالم الثاني" -إمبراطور ألمانيا- متأملاً أنَّ تقدم ألمانيا ما تحتاجه الدولة الوليدة على أن يقضى هو مصالح للإمبراطورية الألمانية. وفي البدء بينما لم يتجاوب الكثير من اليهود مع فكرة الهجرة عموماً لكونهم يعيشون حياة رغبة في بلادهم، أو لاقتناعهم دينياً أنَّ شروط أرض الميعاد لم تتحقق ومحرمٌ عليهم الهجرة الجماعية واستعجال إرادة الله قبل رجوع المسيح المنتظر، ففي الجانب الآخر تحمس لها آخرون للتخلص من العداء لليهود. لقد هاجر اليهود لفلسطين في أكثر من موجة بدأت أولها عام 1880 بعدما اتهموا أنهم وراء اغتيال القيصر الروسي حيث ذهب 5 ملايين يهودي -على مدار 50 عاماً- لأوروبا الغربية حيث تطوَّعت المؤسسات اليهودية الغنية -كأسرة روتشيلد- بنقلهم خارج أوروبا لفلسطين ولغيرها لحمايتهم من الاضطهاد. بذلك كانت هجرتهم بالأساس قسرية مع وجود البعض ممن هاجر طواعيةً. وإنَّ من أهم داعمي الحركة هي الولايات المتحدة وهو الدعم الذي لم يتوقف إطلاقاً، لكون -على حدِّ قول كسينجر- إسرائيل هي "مصلحة حيوية وطنية أمريكية"، ومن ثمَّ تقدم لها الدعم الذي يجعلها تصمِّدُ لتحقيق أغراضها في المنطقة¹. وحتى عام 1997، فلم يكن لهذا الدعم أن يتزعزع قط لثلاثة أسبابٍ أولها وجود "اللوبي اليهودي" الذي يضغطُ على الحكومة الأمريكية بما يحقق مصلحة الحكومة الإسرائيلية وذلك في مواجهة "اللوبي العربي" الضعيف المنقسم؛ ثانيها أن متديني أمريكا المسيحيين يرون دينهم امتداداً -لا نقيض- للدين اليهودي فيما ينظرون للإسلام والعرب بريية، وثالثها هو وراثة الولايات المتحدة من بريطانيا معاداة الأحلام العربية في الوحدة والحقوق في البترول وضرورة إبقاء المنطقة العربية تحت هيمنتها⁽²⁾.

(1) نفس المرجع السابق، ص 18، 19، 22.

(2) جمال الشاعر، "شهادة د. جمال الشاعر"، في توفيق أبو بكر. مرجع سبق ذكره، ص 36.

وينبغي في هذا الجزء الإشارة إلى أنَّ توفيق لم يكن يهدف في رواية "شآبيب" إلى أن يزعم أنَّ إسرائيل دولة صالحة جيدة أو أنها نشأت نشأة شرعية، بل أراد أن يوَعِّي القراء وخصوصا الشباب -لأنهم الفئة الأكبر- ببداية دولة إسرائيل -وكذلك دولة الولايات المتحدة- في ظل مساعي تسوية الصراع العربي الإسرائيلي والإقبال النهم من العرب على الثقافة الأمريكية والثقافة الغربية. لم يكن سرُّه لهذا الأمر إعجاباً أو إيماناً بأنها السبل الأمثل لتأسيس الدولة، وإنما كان يذكرُّ قارئه بما كان من تاريخ إسرائيل الظالم. بل لم يكن حوار "مكرم" مع ضبَّاط المخابرات الأمريكية -قبل لقاء الرئيس- سوى رصد لكل ما تعاني منه المنطقة العربية والإسلامية من إرهاب واستبداد وثورات فاشلة وهجرة عقول وزرع إسرائيل -صاحبة فكرة الدولة الدينية- وسطهم وفرضها عليهم. وجميع هذه القضايا ناقشها الجزء الأول من الكتاب. كما استغلَّ توفيق بالفعل الحزين الذي يُكنَّه المسلمون نحو "الأندلس" وشبه "الحارث بن مسعود" -المُتخيل بالطبع- بـ "عبد الرحمن الداخل" الذي أسس الدولة الأموية بالأندلس عام 138هـ/755م⁽¹⁾.

وإذا كانت آليات الوصول لليوتوبيا في روايتي "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران" غير واقعية، فيمكن القول أنَّ هذا يبين مدى أزمة بطلي الروائيتين في عدم قدرتهما على تحقيق مدينتيهما الفاضلتين بأساليب واقعية فلجأً لأساليب غير واقعية. كما أن فكرة "السجلات الأكاشية" بالفعل مذكورة في العديد من كتابات الخيال العلمي⁽²⁾. أيضاً، فقد تطرق توفيق في هذا الجزء في رواية مثل إيكاروس إلى ضعف الإيمان في الولايات المتحدة الأمريكية الذي يدفع الشعب للبحث عن راحتهم الروحية بكل الطرق حتى لو من خلال أعمال سحر وشعوذة، وهذا ظهر في استطلاع أجرى عام 2007 هناك وجد أن حوالي 19% من الأمريكيان يؤمنون بالسحر والشعوذة⁽³⁾. حتى فكرة "الليموريا" التي ذكرها في ذات الرواية، فقد أورد في شرحها العديد من المفكرين الذين تحدثوا عنها من قبل سواء "هيلين بلافاتسكي" أو "ويليان سكوت إليس" أو "فريدريك سبنسر، أي لم يستقها من فراغ محض⁽⁴⁾.

(1) علي صدام نصر الله، "مبالغة الروايات في دور عبد الرحمن الداخل في تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس"، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، المجلد 42، العدد 6، 2017، صص 153-179، ص 153.

(2) David Pescovitz, "Cutting the Akashic Records", Institute for the future, May 27th, 2019, accessed on May 21st, 2022, at 10:30 a.m, available at: <https://www.iftf.org/future-now/article-detail/cutting-the-akashic-records/>.

(3) Ian Millhiser, "More Americans believe in Witchcraft than Agree with citizens united", Think Progress, April 24th, 2012, accessed on May 21st, 2022, at 11:30 a.m, available at: <https://archive.thinkprogress.org/more-americans-believe-in-witchcraft-than-agree-with-citizens-united-fe2c32ca7b58/>.

(4) أحمد خالد توفيق، رواية مثل إيكاروس، مرجع سبق ذكره، صص 245-247.

أما من ناحية أخرى، فبالنظر إلى ملامح اليوتوبيا في روايتي "مثل إيكاروس" و"في ممر الفئران"، والتي كانت عبارة عن حالة، فالحق أنها كانت يوتوبيا وهمية، على هيئة "استساعة الألم"، وجزء كبير منها مُستقى من الواقع. فحكم محمود السمنودي في رواية "مثل إيكاروس" مُستوحاة من "معضلة الشر" الفلسفية التي تعني أن الشر موجود منذ الأزل لحكمة إلهية مُعينة بينما الخير لا سبيل لانتصاره في هذه الحياة الدنيوية⁽¹⁾. ويوتوبيا سيد الشرقاوي، كانت عبارة عن سرد للحياة الواقعية المصرية بعثراتها ومشكلاتها مع تأكيد أن القادم سيكون أسوأ. وهذا يفسر تعقيب إحدى قارئات رواية "في ممر الفئران" تلك أن توفيق فقد قدرته على الحلم. فذكرت القارئة في مقال لها أن الرواية شديدة السوداوية كواقع المصريين والعرب وأن نهايتها التشاؤمية –بالنظر إلى أن الرواية هي إعادة صياغة لعدد من أعداد ما وراء الطبيعة والذي سبق وانتهى نهاية سعيدة- تعني "انتهاء عهد رومانسية أحمد خالد توفيق"، وذكرت أن الرواية "مؤثر" لقرب جفاف نبع تفاعل توفيق⁽²⁾. أما ملامح مدينة اليوتوبيا في رواية يوتوبيا، فهي مستوحاة من قصور الأثرياء التي تجلّت في عهد الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك، وأضاف عليها توفيق لمسات مثالية لتأكيد أنها يوتوبيا، ولامح دولة "شأبيب" كان يُعول فيها على النموذج الأمريكي والإسرائيلي عند بناء دولتهما الوليدة منذ الصفر.

أما بالنسبة لآليات حدوث التوازي بين اليوتوبيا والديستوبيا، فما زال يمكن إيجاد صداها في الواقع المحيط. فمثلا في رواية يوتوبيا، التوازي جاء نتيجة قراءة توفيق للاقتصاد العالمي والمصري في عهد محمد حسني مبارك حيث أزمت البترول، والتي تخيل توفيق تفاقمها لحدود الاستغناء عنه والتوجه لاختراع أمريكي وهو "البيرو"، وحيث سيطرة رجال الأعمال على الصناعات الكبرى وخصخصة الشركات العامة. في رواية شأبيب، اختصر توفيق مشكلات المنطقة العربية جميعها سواء ازدهار حلم إنشاء الدولة الإسلامية مع الثورات العربية ووصول الإسلاميين للحكم في مصر وتونس؛ والصراع بين العلمانيين والإسلاميين في المنطقة العربية. أما فكرة السكان الأصليين، فتوفيق كان يقر أخذها من آليات الأمريكان الأوائل مع الهنود الحمر، والصهاينة مع الفلسطينيين. فمع سفر المستوطنين الأوروبيين الأوائل لأمريكا في منتصف القرن الخامس عشر بحثا عن أحلامهم الذي عرفوها

(1) William Hasker, "Why is there so much Evil?", Review and Expositor, Vol. 1, no.6, 2014, pp. 238–243, pp. 238, 239

(2) إنجي إبراهيم، "في ممر الفئران: هل حقاً جف نبع الغراب؟"، إضاءات، 25 يوليو 2016، تم الوصول إليه في 20 ديسمبر 2021 الساعة 8 مساءً، متاح على: <https://www.ida2at.com/in-rats-jefi-really-does-sell-the-godfather/>

باسم "العالم الجديد"، اصطدموا بوجود سكان أصليين - الهنود الحمر-، وقرروا أنهم الأقوى والأصلح وعليهم إقصاء الهنود الحمر من الوجود. برروا قتلهم بأنه ضمانه للأمن والمصلحة، فأغاروا على قراهم وأحرقوا مزارعهم وذبحوا رجالهم ونسائهم وأطفالهم معتقدين أن الله انتقامهم ليهبهم ثروة القارة ويخلصها من الجهلاء الذين لم يستطيعوا الانتفاع بمواردها. وقد كانت هناك جماعة "البويريتان" التي وضعت لهؤلاء المستوطنين الأمريكيين مبررات معنوية وأخلاقية لجرائمهم؛ وفرضت أفكارها الدينية المتعصبة أنهم شعب الله المختار، ومارست حُكما أوتقراطيا بحيث لا يمكن للمرء نيل صفة المواطنة إذا تمردوا على دستورهم الكنسي. والحق أن دستورهم ذاك حول عبادة الله إلى عبادة العمل الذي يفرز لهم المزيد من المال، إذ كانت هناك مواد تربط بين العمل للثروة وبين الأخلاق البروتستانتية؛ وبين التقوى وتحقيق المكاسب الدنيوية. بذلك نشأت دولة الولايات المتحدة على فكر نفعي يسعى للمصلحة الذاتية، وعلى أنقاض الهنود الحمر الذين تمت إبادتهم من خلال حروب توالى لقرون ومن خلال أساليب غير إنسانية كنشر الأوبئة. بهذا بعدما كان الهنود الحمر يصل عددهم للملايين، فلم يعد يبقى منهم سوى ربع مليون في عام 2002، بل ودأبت الولايات المتحدة على تشويه سمعتهم زاعمين أنهم قوم متوحشون⁽¹⁾. والمثير للسخرية أن المستوطنين أصدروا "إعلان فيرجينيا" عام 1776، والذي هو أول تقنين لحقوق الإنسان، والذي صاغه "جورج ماسون" محتويا على حرية الصحافة والحرية الدينية ويحرم انتهاك حرية الفرد الشخصية. ثم ظهر "إعلان الاستقلال" عن الإمبراطورية البريطانية في نفس العام مؤكداً فيه أن البشر خلقوا متساويين وأن حق الحياة والحرية حق مقدس من الله لا يمكن التفريد فيه. وفي عام 1787 ظهر الدستور الأمريكي مع تعديلاته التالية لينص على حرية العقيدة وحرمة النفس والمال وتحريم الرق والمساواة في حق الانتخاب⁽²⁾. أما هرتزل حينما جاء فلسطين للمرة الأولى ووجد سگانها، أشار لضرورة تكليفهم بأعمال تبيدهم حتى تصبح فلسطين ارضا بلا شعب لشعب بلا أرض، وكان أساس حركتهم هو نفى الأغيار أي تجاهل السكان الأصليين⁽³⁾.

(1) عصام عبد الحسين نومان، "الفكر التوسعي الأمريكي: دراسة فلسفية في تأصيل المفهوم"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 3، العدد 2، 2013، ص ص 43-46.

منع العكس، حق التنصية بالآخر: أمريكا والإبادات الجماعية، ط1 (بدون مكان للنشر: رياض الريس للكتب والنشر، 2002)، ص ص 11، 12.

(2) عماد خليل إبراهيم، "تنظيم حقوق الإنسان في القانون الدولي"، مجلة الراافدين للحقوق، مجلد 9، عدد 34، 2007، ص ص 263-301، ص ص 273، 274.

(3) محمود عباس، "شهادة أبو مازن: محمود عباس" في توفيق أبو بكر (محرر)، مرجع سبق ذكره، ص ص 13-17.

في البدء، إذا تمَّ النظر إلى ملامح الديستوبيا السياسية والقانونية في الروايات، فمن السهل استنباط أنَّ ملحق "المصير الكابوسي للعرب والمنطقة العربية" والذي كانَ ظاهرًا في كلا من رواية مثل إيكاروس ورواية شأبيب، لم يكن سوى انعكاس لما تعيشه الشعوب العربية منذ ثورات عامي 2010-2011. فمن ناحية أولى، مرَّقت الحروب الأهلية الكثير من الدول العربية مثل اليمن وليبيا والعراق وسوريا، كما انتشرت النزاعات البينية مثل نزاع دولتي الجزائر والمغرب حول مدى استقلال منطقة الصحراء الغربية، والتي تشي بقرب مشكلات محتدمة⁽¹⁾. غير هذا، فقد انتشرت الجماعات الإرهابية التي استغلَّت الأوضاع المتوترة على غرار تنظيم "الدولة الإسلامية/داعش" الذي سيطر على مناطق عدَّة في سوريا والعراق قبل أن تنجح التحالفات الدولية وروسيا في القضاء عليه تقريبًا⁽²⁾. من ناحية أخرى، فقد تفاقمت الشعوبية في العالم الغربي منذ حادثة 11 سبتمبر 2001 والتي وجهت أصابع الاتهام نحو العرب والمسلمين، هذا غير سياسة الحرب على الإرهاب الدولي المصوبة نحو الدول العربية. هذه الشعوبية انتشرت أيضًا بعد الثورات العربية وموجة الهجرة لأوروبا هربًا من الحروب الأهلية، وتوضحت في خرائط اللعبة السياسية مثل إخراج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، و"مارين لوبان" رئيسة حزب الجبهة الوطنية، وفي النمسا وغيرهم. تأخذ الروايات هاتين الظاهرتين الواقعتين لأبعد نطاق لها، حيث مزقت الحروب الأهلية المنطقة كلها مقوِّية من خصومها في أوروبا، وحيث تحوَّل العرب ليكونوا عرب الشتات مثل يهود الشتات الذين على وشك إجراء "الهولوكوست" النازية (المحرقة) فيهم.

(1) عائشة عبد الحميد، "إشكالية النزاع الحدودي التاريخي الجزائري المغربي"، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، عدد 12، أبريل 2020، متاح على <https://www.ajrsp.com/vol/issue12.pdf>، ص 3,4.

(2) Ben Connable et al., "Beating the Islamic State: selecting a new strategy for Iraq and Syria", Rand Corporation, 2017, available at:

https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/research_reports/RR1500/RR1562/RAND_RR1562.pdf, pp. 2,3

من ناحية أخرى، فبالنسبة للمح "الاستبداد"، فبالفعل ظهرت نظريات ودراسات أكاديمية تسعى لتفسير أسباب انتشار النظم المستبدة في المنطقة العربية وبعضهم تساءلوا حول ما إن كان الدين الإسلامي خصيصاً للديمقراطية والحرية⁽¹⁾. كما أوضحت الثورات العربية مدى فساد الحُكُام وحواشيهم إذ اعتمدت النظم البائدة على إحاطة أنفسهم بحواش فاسدة كيلا ينقلبوا عليها، وعلى سبيل المثال، ففي الثورة المصرية 25 يناير 2011، خرجت تظاهرات مضادة من شخصيات معروف ارتباطها بالنظام السياسي القديم، وفي اليوم 2 فبراير 2011 حدثت موقعة "الجمل" بضرب داعمي الرئيس الأسبق مبارك للمتظاهرين⁽²⁾. غير هذا، فقد أذيع عقب هذه الثورة أنَّ نظام حُسني مبارك كان يمنح رجال الأعمال المقربين له الكثير من أراضي طريق "القاهرة-الإسكندرية" الصحراوي وأراضي توشكى والعوينات وشمال غرب خليج السويس دون معايير وبأوامر مباشرة وأسعار رخيصة ودون إلزامهم بزرعها أو إقامة مشروعات صناعية فيها في زمن محدد، ولم يكن هنالك عقاب لمن يعير منهم استخدامهما من التنمية الزراعية إلى التنمية العقارية⁽³⁾. وفي تونس خلال حكم الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي، فأيضاً كانت هنالك وقائع فساد عدّة مثل تحمّل المستشفى العسكري لنفقات علاج أقارب الرئيس ومن يوصى بهم، كما أمر الرئيس وزارة الدفاع عام 1998 بشراء يخت بقدر 910 آلاف جنيه لاستعماله الشخصي على أن تتولى الوزارة صيانته من ميزانيتها⁽⁴⁾. والأدهى أنَّ النظم السياسية التي حلت عقب الثورات العربية كانت أيضاً تقوم بتقييد للحريات إذ في مصر اعتبر الشعب أنَّ الجيش هو حامي الثورة، لكن مع الوقت وقع التوتر حول دوره وما إذا كان يعمل على استمرار تقييد حريات الصحافيين والنشطاء خاصة مع تعاملهم المتشدد مع المدنيين المحتجزين والمقبوض عليهم ووضع قيود على حرية الإعلام في استضافة رموز الثورة والعمل على عدم إذاعة أي أخبار تنتقد أداء المجلس العسكري⁽⁵⁾.

(1) John O. Voll, "Islam and Democracy: Is Modernization a barrier?", Religion Compass, vol. 1, no.1, 2007, pp.170-178, available at: https://www.diplomatie.gouv.fr/IMG/pdf/islam_democr.pdf, pp.170, 171

(2) Ghazala Irshad, "Timeline: Egypt's Political transition", The Cairo Review, July 28th, 2012, available at: <https://www.thecaireview.com/wp-content/uploads/2014/11/Egypt-Timeline.pdf>, p.216

(3) أحمد السيد النجار، "كوارث عصر مبارك التي ينبغي محاسبته عليها"، بوابة الأهرام، العدد 46753.8 ديسمبر 2014، تم الوصول إليه في 21 مايو 2022، الساعة 8:00 مساءً، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/daily/News/345098.aspx>

(4) منى هرموش، "الفساد في تونس خلال فترة حكم بن علي"، مجلة العلوم القانونية والسياسية، المجلد 8، العدد 1، ص 221-222، ص 217.

(5) Rasha Abdulla, "Egypt's Media in the Midst of Revolution", Carnegie, July 2014, available at: https://carnegieendowment.org/files/egypt_media_revolution.pdf, pp. 15, 16

من جانب آخر، بالنسبة للمح "الأسس الزائفة للشرعية"، فقد كان واضحاً إدراك توفيق لضرورة الشرعية لاستمرار النظام السياسي، وأن الشرعية قد تتأتى من خلال أسس غير حقّة. فكما جاء في الروايات الثلاث الأولى، يمكن للحُكّام الاعتماد على إشعار المواطنين بأنّ من الضروري طاعتهم وإلا فالبدل هو الفوضى، وهو ما كان يقع بالفعل عقب الثورات العربية 2010-2011 ووقع عدد من الدول العربية في أتون الحرب الأهلية، فذاعت لهجة بين بعض الحُكّام حول ضرورة حفاظ الشعوب لهم كيلا يحدث لهم مثلما جرى في سوريا وليبيا والعراق⁽¹⁾. أيضاً من جانب آخر، فكان توفيق واقعياً في ذكر كيفية انتقال السلطة من يد إلى يد خلال التغلب، وهو ما ذكره ابن خلدون مثلاً في مقدمته الشهيرة أنّ يكفي للعصبة الجديدة التغلب على العصبة الحاكمة لنيل الحكم وإخضاع الرعية لها⁽²⁾. وفي رواية "شأبيب"، وشرعية نظام "مكرم ميخائيل" القائمة على الأكاذيب، فقد كان توفيق يستدعي جهود الصهاينة لشرعنة وجودهم في فلسطين كمزاعمهم أن تحت المسجد الأقصى يوجد هيكل سليمان وأن هذا يعطيهم الحق في الاستحواذ على القدس. ولعل من دلائل الواقع المؤسف للصراع العربي الإسرائيلي هو العقاب الذي لاقاه الأكاديميون الغربيون الذين سعوا للدفاع عن حق الفلسطينيين في بلادهم، وإيضاح زيف أسس شرعية الحركة الصهيونية وإثبات توظيفها لذكريات "الهولوكوست" خلال الحرب العالمية الثانية لدفع العالم الغربي لمساندتها.

فمن أمثال هؤلاء الأكاديميين هو المؤرخ البريطاني "ديفيد إرفينج" الذي أنكر "المحرقة" النازية لليهود مؤكداً أنّ "التحليل الكيميائية" لم تثبت أن كان هناك "غاز ويكلون" في الأماكن التي ادعى اليهود أنها كانت أفران غاز، وتساءل عن كيفية تزايد عدد الناجين من المحرقة يومياً، واستفهم عن السبب الذي يدفع النازيين لنقل اليهود من أمستردام وبروكسيل لمعتقل "اشفيتز" الذي يبعد 500 كيلو لمجرد حرقهم بينما كان من الممكن فعلها في أي مكان آخر. ولقد أجاب من اتهمه بإنكار الهولوكوست أنه لا ينكرها لأنه ببساطة لا يوجد ما يُسمّى بالهولوكوست. لكن هذا الرجل بعد إلقاء محاضراته في النمسا، صدرت أوامر باعتقاله وصنفته عدد كبير من الدول أنه غير مرغوب فيه وانتشرت

(1) أيمن الصياد، "حتى لا نكون مثل سوريا والعراق"، جريدة الشروق، 20 نوفمبر 2016، تم الوصول إليه في 21 مايو 2022، الساعة 11:00، متاح على:

<https://www.shorouknews.com/columns/view.aspx?cdate=21112016&id=e8efb13e-c63d-4153-8c5c-622373e33e94>

(2) عزيز هادي، "مفهوم الدولة ونشوءها عند ابن خلدون"، مجلة العلوم القانونية والسياسية، العدد 37، 1977، ص 92، 93.

أخبار طرده من دولة وراء أخرى، واستدعته فرنسا للمحاكمة بمقتضى قانون "جيسو" الذي لا يسمح بالتشكك في وجود الهولوكوست فلم يذهب، وبعد الكثير من القضايا المرفوعة ضده، أشهر إفلاسه عام 2002 واعتقل في النمسا عام 2005 وحوكم حتى اضطّر للاعتذار وإظهار الندم مؤكداً أن النازيين أحرقوا ملايين اليهود، فلم يصدق القاضي ووصفه أنه مزيف للتاريخ ومثل "العاهرة" التي لا تغير أسلوبها، فصدر حكم عليه بالسجن، مما أعادته لآرائه القديمة لما وجد ألا فائدة من الإنكار⁽¹⁾. وعلى الجانب الآخر، فهناك المحامي الأمريكي آلان درشوفتزر وهو أستاذ التاريخ بجامعة هارفرد، والذي يدافع باستماتة عن إسرائيل وكلما اقترفت مذبحة كتب أنها في مقدمة الدول المهتمة بحقوق الإنسان وأنها ذات "أنقى" سجل حقوق إنسان مقارنة بدول الشرق الأوسط. لقد استهزأ بأساتذة جامعة هارفرد الذين كتبوا عريضة لمنع تقديم السلاح لإسرائيل مطالباً بمقاضاة كل من يوقع على العريضة، وكتب مقالا في "واشنطن بوست" يدعو إسرائيل لإبادة قرية فلسطينية إذا حدث خرق لوقف إطلاق النار. وكتب مقالا آخر أيد قتل إسرائيل لمدنيي لبنان في حرب 2006، مردداً أنَّ لفظة "مدني" تفقد معناها في خضم الحروب الحديثة وفي ظل الإرهاب المنتشر. لقد اشتهر بنظرية "القنبلة التي تتكثك" التي من خلالها يؤيد تعذيب الفلسطينيين ليعترفوا مؤكداً أنه ضد كل إرهاب يمارس ضد اليهود وحسب⁽²⁾. بل ولقد خرج ليتحدى جيمي كارتر عام 2006 في مناظرة علنية بعدما أصدر كارتر كتاباً يدين فيه إسرائيل، ولكن رفض كارتر هذه المناظرة لرؤيته أن درشوفتزر لا يفقه شيئاً في وضع الشرق الأوسط⁽³⁾.

(1) أحمد خالد توفيق، دماغي كذا، مرجع سبق ذكره، ص 41-43: _____. "محاكمة المؤرخ البريطاني الذي أنكر محرقة اليهود"، جريدة القبس، 20 فبراير 2006، تم الوصول إليها في 20 مايو 2022، متاح على: <https://alqabas.com/article/115159>

(2) أحمد خالد توفيق، دماغي كذا، مرجع سبق ذكره، ص 43-46: محمد الخولي، "محاولات لخنق الحريات الأكاديمية والسبب إسرائيل"، جريدة البيان، 6 إبريل 2006، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على:

<https://www.albayan.ae/opinions/2006-04-06-1.906749>

(3) _____. "Carter turns down invitation to debate outspoken professor Alan Dershowitz on Palestinian issue". Taiwan News, December 16th, 2006, accessed on May 20th, 2022, available at:

<https://www.taiwannews.com.tw/en/news/345813>

وبالنسبة إلى ملمح "العنف السياسي" والذي تبدَّى في رواية "شآبيب"، فقد أكد توفيق بين طيات الرواية أنَّ كلا من "سليم" و"مكرم" استقيا هذه الأساليب العنيفة في التعامل مع السكان الأصليين من التجربتين الأمريكية والإسرائيلية. فبالنسبة مثلا للتجربة الأخيرة، فكل يوم تقريبا تظهر مشاهد فظيعة للإسرائيليين وهم يقتلون ويطردون الفلسطينيين من أراضيهم من أجل الاستحواذ عليها لبناء مستعمراتهم، بل في الأيام الأولى من قيام دولة إسرائيل، وقعت مذابح شنيعة في الأراضي الفلسطينية مثل مذبحة "دير ياسين" وغيرها⁽¹⁾، وقامت حرب 1948 الشعواء بينها وبين بعض الجيوش العربية وسقط الكثير من الشهداء العرب فيها. هذا غير الحروب الدامية التي وقعت بين المستوطنين الأمريكيين والهنود الحمر على مدار عقود وقرون لإبادتهم والانتهاك منهم. وبالنسبة للملمح "الخلط بين النظام السياسي والوطن مع النظرة الأبوية للقائد"، فكان توفيق في سطور رواياته يردد أنَّ هذا الملمح أساسي في الدول العربية، ويمكن التأكيد على ذلك بالنظر للتظاهرات التي خرجت لتأييد الرئيس الأسبق حسني مبارك في ثورة 25 يناير 2011 والتي أكدت خطأ الثورة عليه لأنه كوالد الشعب. ومن المعروف أنَّ ومن المعروف أنَّ هذه النظرة الأبوية تعبر عن بدائية النظام السياسي واستبدادها، ففي الأيديولوجيات الفاشية، يعتمد المستبد على أنَّ يقنع شعبه بأنَّه كأبيهم الذي يعرف كل شيء ولا يمكنهم التحرك دون⁽²⁾. أمَّا بالنسبة لمسألة "التوظيف الانتهازي للدين لأغراض سياسية"، فقد لعب الإخوان المسلمون دورا كبيرا في التاريخ السياسي المصري بدءً من قائدهم "حسن البنا" مرورًا بسيد قطب وغيرهم، وتزايد دورهم في فترة الرئيس الأسبق حسني مبارك ودخلوا في الخريطة السياسية ووصلوا لسدة الحكم قبل انهيارهم وتجريم تنظيمهم عقب ثورة 2013. وقد ذكر توفيق صراحة في لقائه عقب إصدار رواية "مثل إيكاروس" أنَّه شاهد بؤم عينه ميزان القوى الذي كان يرجح نحو الإسلاميين لضرب سلطة الشيوعيين ثم كسر شوكتهم إذا ازدادت قبضتهم، ولاحظ سطوتهم الفكرية على العديد من الشباب. كما أنه كان يعلم بهجماتهم على شبه جزيرة سيناء في مصر بعدما خلَّعوا من الحكم وتمنى أن يكون هنالك تجديد

(1) عبد الوهاب الجندي، "دير ياسين شاهد على جرائم الصهاينة...الذكرى الـ 74 لمذبحة اليهود ضد الفلسطينيين"، اليوم السابع، 9 أبريل 2022، تم الوصول إليه في 21 مايو 2022، الساعة 10 مساءً، متاح على:

<https://www.youm7.com/story/2022/4/9/5721530>

(2) في هذه الأيديولوجيات، يعدون أنَّ البشر غير متساوين، وأنَّ الحاكم السلطوي هو "سوبر مان" أو الرجل الخارق الذي جسَّد الإرادة العامة للشعب وسيقود الأمة للمجد (المصدر:

Kevin Harrison, Tony Boyd, Understanding Political ideas and movements, (Manchester: Manchester University Press, 2003), p.264.

للخطاب الديني منعاً لعودتهم⁽¹⁾. أمّا استدعاء هذه الفكرة في رواية شآبيب، فيمكن القول أنه كانَ بذلك يشير إلى اليهود المتشددين في دولة إسرائيل الراغبين في دولة دينية يهودية خالصة لليهود وحدهم⁽²⁾.

أمّا بالنسبة للملح فساد القانون وغيابه، فيمكن القول أن الروايات استعرضت حالة متفاقمة من هذا الفساد، فعلى مر تاريخ البرلمان المصري قلماً خرجت قوانين تحد السلطة السياسية أو تستدعي الوزراء للمثول أمامه للمحاسبة. وفي حالة الظلام (رواية في ممر الفئران) حيث الجهل المطبق، كانَ لابد من عقاب مخيف جريء دموي لردع المواطنين من اقتراف جريمة "النور"، وهذا يمكن لمسه في واقع أوروبا خلال القرون الوسطى حينما حرّمت الكنيسة التفكير خارج سلطاتها ومن يسعى للحقيقة (كما لو كانوا يشعلون قداحة)، رمتهم بتهم الزندقة والكفر وقررت إعدامهم بطرق غير إنسانية كالسلخ والحرق وفصل أعضائه، ولعل سبب تقهقر ثقافة أوروبا خلال هذه المرحلة هو كون الكنيسة مصدر المعارف الوحيد المحتكر للبحث العلمي ولم يكن هناك سوى المدارس التي تؤهل الدين كأديرة الرهبان والمدارس الأسقفية. وفي رواية "مثل إيكاروس" ودعس الثوار بالبابات، فهذا يذكرُ بثورة "ميدان تيانانمين" الصينية عام 1989 وإبادة الثوار⁽³⁾. بل إن تعذيب المعتقلين في هذه الرواية يعيد القراء لعهد الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر الذي قيل أنه شهد أكثر الاعتقالات في تاريخ مصر المعاصر. ففي مطلع كتاب دكتور عبد العظيم رمضان بعنوان "عبد الناصر وحقوق الإنسان"، ذكر أنه كتبَ هذا الكتاب ليذكر نماذج تؤكد على مدى امتهان عهد جمال عبد الناصر لحرية الرأي، وأكد استغرابه حول الدراسات السابقة التي عملت على إثبات اعتداءات نظام الرئيس محمد أنور السادات وحسب فيما يعلم أن عهد جمال عبد الناصر كانَ الأسوأ⁽⁴⁾. وبالنظر للملح "غياب الوعي السياسي والصحافة المتملقة"، والذي ظهر بالأساس في رواية "يوتوبيا"، فقد سعى توفيق لإطلاق صفارة إنذار إذ ظهرت نقاشات خلال فترة الرئيس محمد حسني مبارك حول الروابط الاقتصادية والتطبيق مع إسرائيل ومنحها الغاز الطبيعي المصري، كما توطدت العلاقات المصرية الأمريكية رغم احتلال الولايات المتحدة للعراق، فأخذ توفيق الوضع لأقصاه حيث

(1) "الحلقة الكاملة: لقاء خاص مع الكاتب أحمد خالد توفيق -برنامج أنت حر"، CBC2، مرجع سبق ذكره.

(2) ساجدة نوفل، "البعد الديني للصراع العربي - الصهيوني (الدولة الدينية دراسة حالة)"، رسالة ماجستير، (عُمان: كلية الآداب والعلوم جامعة الشرق الأوسط، 2018)، متاح على: https://meu.edu.jo/libraryTheses/5c232c8744d2d_1.pdf، ص 127-129.

(3) Craig Calhoun, "Revolution and repression in Tiananmen square", Society, Vol. 26, no. 6, October 1989, pp.21-38, pp. 34-36

(4) عبد العظيم رمضان، عبد الناصر وحقوق الإنسان: قصة عبد الناصر والشيوعيين الجزء الأول، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1998) ص 5، 6.

التطبيع الكامل المصري مع إسرائيل لدرجة السماح للإسرائيليين بالبقاء في المدن المصرية المهمة جانب النخب السياسية والاقتصادية وغسل أدمغة الشباب الجديد الذي سيقبل وعيه السياسي وينسى العدو والصديق. أيضا في هذا الملح تذكر بظاهرة "التعليم الأجنبي" المطروحة في الجزء الثاني من الكتاب والذي يهدد لضياع قيم الطلاب الأصلية وتطبعهم بطباع أجنبية تعجزهم عن معرفة القضايا الرئيسية لبلادهم. كما أن وضع الصحافة المتملقة كان له صدق في الواقع إذ انتشرت الصحف المتملقة في عهد محمد حسني مبارك التي سعى صحافيوها للارتباط بالسلطة والثروة⁽¹⁾ بينما المعارضون الحقيقيون يأسوا وتعرضوا لمضايقات⁽²⁾.

أما فيما يخص الملامح الديستوبية الاقتصادية-الاجتماعية، فما يزال أغلبها يلقي صدها في السياق الخارجي المحيط. فمثلا قضية "ازمة الطاقة"، بها تأكيد على ملاحظة توفيق للدور الذي يلعبه البترول في صراعات العالم مثل أزمة النفط التي وقعت في سبعينيات القرن العشرين المذكورة في الجزء الثاني للكتاب بل وقد قررت الولايات المتحدة التواجد في منطقة الشرق الأوسط فقط للإفادة من النفط العربي. وقضية "الفقر المدقع في مواجهة البذخ"، فيمكن التأكيد على واقعيتهما من خلال مقارنة لهجة توفيق نفسه عقب صدور رواية يوتوبيا وصدور رواياته التالية. في الأولى كان يسعى للتحذير من الفجوة التي في طور الظهور في المجتمع المصري بين الفقر المتزايد من ناحية وازدياد ثروات رجال الأعمال من ناحية أخرى. أما في رواية "في ممر الفئران"، ناقش مسألة الفقر من ناحية عالمية أولا ثم قارنها بقلعة القومندان التي تملك الشمس، فإن هذا يذكر بمسألة "الفقر العالمي" في دول الجنوب مقارنة بثراء الدول المتقدمة وبعض الدول الخليجية (التابعة لهذا العالم المتقدم) التي لديها "العلم" و"الإمكانات" و"الأسواق" الذي يحسن أوضاعها جميعهم. ويمكن القول إن في إصرار توفيق على أن اليابانيين هم من صنعوا الأعلاف، وأن الألمان هم من اكتشفوا البكتريا

(1) فقد أصدر الكاتب الصحفي "حسن صلاح رشيد" عام 2012 كتابا بعنوان "المنافقون في عصر مبارك" مؤلف من 900 صفحة يشير فيه إلى أن أثناء عصر حسني مبارك، انتشر المنافقون سواء من الساسة أو الدبلوماسيين أو البرلمانيين أو كتّاب أو فنانيين أو نقاد ومن جميع الاتجاهات، فتحول النفاق إلى أسلوب حياة ويلقبونه بالزعيم والحكم والبطل والقائد. وقد هتف بعض الشعراء في مدح قائلين: "مبارك تهتف به الأكوان" وأنه "عنوان الزمان" وأنه "الروح للوجدان" وأنه "الحسن والإحسان"، وشاعر آخر أشنى على سوزان مبارك قائلاً: "سوزان مبارك.. جبينها ساطع.. نورها في القلوب.. شامخة بالعلم.. علمها الأهرامات هي أخت نفرتاري.. المرسومة على البرديات"، وهناك من يؤكد أن مبارك "صاحب البصيرة الثقافية والرؤية المستقبلية" وأن عهده كان "ملحمة من العطاء والتنمية" وأنه كان "بوصلة القيادة للسفينة العربية" (المصدر: صلاح صيام، "المنافقون في عصر مبارك"، جريدة الوفد، 21 فبراير 2012، تم الوصول إليه في 22 مايو 2022 الساعة 8 مساء، متاح على: <https://alwafd.news/article/166010>).

(2) محمد علي، "الصحافة في عهد مبارك: تاريخ من الأزمات.. وعقوبات مشددة.. وسلطات مطلقة"، بوابة الأهرام، 29 نوفمبر 2014، تم الوصول إليه في 22 مايو 2022، الساعة 8:30 مساء، متاح على: <https://gate.ahram.org.eg/News/566508.aspx>.

الحرارية تأكيد على هذه الفجوة بين العالم المتقدم والمتأخر، بحيث ظلَّ العالم المتأخر غير قادر على اختراع شيء، وما زالَ ينتظر العالم المتقدم ليتفَضَّلَ عليهم ببعض من اختراعاتهم. وبالنسبة للمح "أزمة التعليم وسوق العمل" برواية يوتوبيا، ففيها انعكاس لأزمات البطالة والتعليم في المجتمع المصري المذكورة في الجزء الأول من الكتاب ويرتبط بتدهور جودة التعليم في مصر بحيث لا يخرج الطالب مؤهلاً لسوق العمل والمنافسة مع السوق الأجنبية، هذا غير انتشار التعليم الأجنبي الذي يخرج طلاباً في يفقهون شيئاً في قضايا مجتمعاتهم المصري ويرتبطون بأوروبا والولايات المتحدة فكرياً وأخلاقياً.

أمَّا بالنظر للمح "غياب الوازع الديني وفساد الأخلاقيات"، ففيها فسر توفيق ظاهرة الانفلات الأخلاقي عمومًا. من ناحية فسرهما في بينَ أثرياء مدينة اليوتوبيا بأنها نتيجة للملل لتوافر كل شيء وهو ما يحدث في الدول الأوروبية المتقدمة التي مالَ أفرادها للانتحار والشذوذ الجنسي وعبادة الشيطان. وفي مصر كانت هناك أكثر من حادثة لشباب من أبناء النخب الثرية قاموا بها نتيجة لاستهتارهم أو للمللهم أو بسبب عدم خوفهم من القانون الذي يحمي آبائهم. ومن ناحية أخرى، يمكن تفسير هذه الظاهرة بين الفقراء نتيجة للفقير المدقع بدليل توجه العاهرات لهذه الوظيفة غير المشينة بسبب فقرهن. وظهرت أكثر من دراسة تؤكد أن تفاقم الفساد السياسي والظلم يؤدي إلى فقدان ثقة الحكوميين في حُكَّامهم وإلى انتشار الفساد الأخلاقي مثل الرشوة والغش في التجارة وغيره⁽¹⁾. ومن ناحية ثالثة، وفي رواية شأبيب، ذكر لسبب مهم للانفلات الأخلاقي وهو بشاعة التجربة، وهوما أكدته بعض الدراسات أن الصدمات النفسية تخلخل المعتقدات الدينية والأخلاقية⁽²⁾. وبالعودة لرواية يوتوبيا، فقد أورد توفيق داخلها خبراً كان منشوراً عام 2007 على موقع "مصرأوي" حول حادثة هروب جماعي منظم لبعض المعتمرين لمكة المكرمة، إذ هرب 72 معتمراً تاركين وراءهم جوازاتهم وتذاكر سفرهم. من ناحية يؤكد الخبر أنَّ بعض المصريين لم يعودوا متدينين ومن ناحية يؤكد أنَّ الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في البلاد دفعت بعضهم لاتباع العمرة ذريعة للهروب⁽³⁾.

(1) James Lewis, "Social impacts of corruption upon community resilience and poverty". Jambá: Journal of Disaster Risk Studies, Vol.9, no.1, 2017, pp.4-6

(2) Grant Hilary Brenner, "7 ways Trauma shapes Morality". Psychology Today, December 16th, 2020, accessed on May 22, 2022, at 10:00 am, available at:

<https://www.psychologytoday.com/us/blog/experimentations/202012/7-ways-trauma-shapes-morality#:~:text=Trauma%20can%20jam%20moral%20radar.blame%20rather%20than%20thoughtful%20inquiry.>

(3) أحمد خالد توفيق، رواية يوتوبيا، مرجع سبق ذكره، ص52.

في موضع آخر نشرَ توفيق نتائج تقرير صحفي بـ "ملتقى الحوار والتنمية وحقوق الإنسان" عن أنَّ نحو 172 جريمة عنف ارتكبت ضد المرأة المصرية خلال ثلاثة أشهر فحسب من عام 2005، منها 150 جريمة ما بين ذبح وحرق جثث وتمزيقها وإغراق الزوجة في مياه الترع أو غيره؛ وجرائم ضرب أو شروع في قتل؛ وتراوحت دوافع المرتكبين ما بين الشرف وتردي الأوضاع الاقتصادية والدجل والشعوذة والفسل في محاولات الاغتصاب أو الرغبة في الاستيلاء على أموال الضحية. نحو 146 جريمة اقترفها الزوج؛ و17 جريمة تجنُّها الأخوة والأقارب⁽¹⁾. وحول الإدمان، أشارَ توفيق لاكتشاف دكتور أحمد عكاشة -وهو أحد أشهر أطباء النفسية في مصر- إلى أنَّ هناك نحو 2 مليون مدمن في مصر وأنَّ البانجو يتصدر قائمة المخدرات ثمَّ الحشيش وأنَّ مليون متعاط منهم تتراوح أعمارهم بين 12 و19 عامًا؛ مؤكِّدًا ما أشار إليه الباحثون أنَّ المخدرات تفسر تزايد الجريمة في مصر سواء خطف أو قتل أو اغتصاب أو قتل آباء، كما فسَّرَ توفيق أسباب وحشية جرائم الطبقات الدنيا وهي أولاً أنَّ الشخصية المصرية أهينَّت على مدار المائة عام الأخيرة ما جعلها أقرب للوحشية؛ وثانيًا بسبب الجهل الذي يقلل سيطرة العقل على السلوك؛ وسخرَ من بعض المجرمين الذين يجيبون الصحافة التي تواجههم بجرائمهم بكلمة: "أصل الشيطان ورَّني!"⁽²⁾.

بالنسبة إلى ملمح اضطراب العلاقات الأسرية وتنامي فجوة الأجيال، ففي رواية يوتوبيا، فسَّرَ توفيق انفلات الأخلاق بأنه نتيجة لاضطراب العلاقات الأسرية باعتبار أن الأسرة نبع التربية واضطرابها -نتيجة للرفاهية أو الفقر- يؤدي إلى فساد التربية. ومن جهة أخرى، تناول الجزء الأول من الكتاب مسألة فجوة الأجيال والتي أخذها توفيق لأبعد مداها في رواية "في ممر الفئران" حيث لم يعد الفارق مبني على أن الآباء محافظون وأقل وأقل انفتاحًا على الثقافة الغربية عن الشباب، بل الفارق أصبح أعمق بين من كان يرى ومن لا يفهم الضوء والنور قط. ويمكن القول إنها نظرة تشاؤمية نحو مستقبل الشباب في مصر أنه سيأتي يومٌ لا يمكنهم التمتع ببعض الراحة والجمال الذي كان آباؤهم يتمتعون بهما إذا استمرَّت الأوضاع على ما هي عليه. أمَّا ملمح "استساغة القبح"، فيرتبط بمسألة تأكل المدينة وسيادة ثقافة القبح المذكورة في الجزء الأول من الكتاب كما أن مصر مُصنَّفة

(1) المرجع السابق نفسه، ص 52، 81-83.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 133، 132، 150.

بكونها أكثر البلاد في انتشار القمامة سواء في الأحياء الفقيرة أو الراقية⁽¹⁾. وقد ربطت الروايات بين سيادة القبح وبين الفقر الشديد والجهل – إذا اعتبرنا أن ظلام ممر الفئران يُقصد به تخلفه وجهله – وهذا بديهي إذ أن الدول المتقدمة والثرية تحافظ على نظافة شوارعها وعلى تناسق معمارها وألوان مبانيها، وهذا كله مختفٍ في الدول شديدة الفقر لغياب هذا الأمر عن الأجندة الحكومية، بل الجدير بالذكر أن المؤسسات الحكومية وغيرها تجملُ نفسها عندما يكون هناك تفتيشٌ عليها قبل أن ترجع أوضاع ترتيبها ونظافتها إلى ما كانت عليه بعد الانتهاء منه.

وبالنسبة للملح أزمات المثقف، فمن السهل ربطها بما جاء في الجزء الأول من الكتاب. فمن ناحية، فالمثقف في المجتمعات المستبدة يشعر بالغربة عن واقعه، ويعجز عن إحداث أي نوع من التغيير الحقيقي في الأوضاع المحيطة، فيُنْهك بثقافته، على غرار جابر – في رواية يوتوبيا- والشرقاوي ورامي – في رواية في ممر الفئران، أو أنه يكافح للتغيير على غرار ماهر ونجوان – في رواية في ممر الفئران- وتكتم الأوضاع المزرية آمالهم. ومن ناحية أخرى، ففي تطرق توفيق لثقافة "علاء" في رواية يوتوبيا، تذكير بثقافة القاهرة المستعمر الذي مهما فهم الأوضاع، فبداخله رغبة في استبقائها مادامت تحافظ له على موقعه المتميز، وهذا شأن الكثير من مثقفي النخب في العالم من ناحية، وثقافة العالم المتقدم الذي يعرف أن استمرار استغلال العالم المتخلف هو ما يحافظ على تقدمه. ربما هناك بعض مثقفي النخب الأثرياء ينضمون إلى الثوار مثل باكونين الذي انضم إلى أفراد الثورة الفرنسية، وفريدريك أنجل الذي رغم ثرائه كان يشارك كارل ماركس أفكاره حول استغلال الأثرياء للفقراء والعاملين، إلا أنهم ليسوا كثيرين.

(1) Jack Buggington, "How to solve Cairo's Massive Waste problem". Egyptian Streets, February, 15th, 2019. accessed on May 22, 2022, available at: <https://egyptianstreets.com/2019/02/15/how-to-solve-cairos-massive-waste-problem/>

أخيرًا فيما يخص ملمح توتر العلاقات بين الطبقات، فقد ناقشَ بها توفير علاقة الغالب -الطبقة العليا- بالمغلوب - بالمغلوب. فالغالب يمتلك الامتيازات الكاملة مما يدفعه للترفع على المغلوب بينما المغلوب لا يملك سوى الحقد على الغالب والسعى للالتحاق به. وقد فسر ابن خلدون هذا الوضع في مقدمته الشهيرة تحت عنوان "المغلوب مولع بتقليد الغالب". في رواية يوتوبيا، تخيلَ استمرار فجوة الأغنياء والفقراء التي بدأت في فترة محمد حسني مبارك، والحال إذا تفاقمت. وفي رواية "في ممر الفئران"، فالعلاقة بينَ المقيمين في ممر الفئران والمقيمين لدى القومندان، تذكرُ بعلاقة الشمال مع الجنوب. ففي الماضي قامَ الشمال (أوروبا والولايات المتحدة) باحتلال واستعمار الجنوب (أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية) وامتصاص مواردهم واستخدامهم كأسواق وأخذوا منهم العبيد الذين يخدمونهم. في الوقت الحالي ما زال الشمال مستمرًا في هذه العلاقة السامة مع الجنوب فيما يُعرف باسم "النيوكولونيализم" أو "الاستعمار الجديد" إذ منحَ المستعمرات السابقة استقلالهم السياسي ولكن حافظَ على التبعية الاقتصادية بل وتدخلوا في شئونهم الداخلية بما يجعلهم لا يتحررون منهم أبدًا. يؤمنُ توفيرُ هذه العلاقة التبعية بينَ الشمال والجنوب بصورة كبيرة، وفي روايته يجعل العالم بما فيه أوروبا يرزحونَ تحتَ الظلام مع الجنوب كسيناريو مختلف عما يحدث في الواقع. ومن جهة أخرى، فالمغلوب (الجنوب) ورغمَ الاستغلال الشديد الذي يلاقونه من الشمال، فما يزالون ينظرون إليه بحسد أو بأنه النموذج الذي ينبغي الاحتذاء به للوصول للمرتبة العليا التي بلغها، فما زالوا يحصلون على أدويتهم ويرسلون البعثات للتعلم في جامعاتهم، تمامًا وكأنهم سيحصلون على "النور" الذي يعيشون فيه، بل لقد زادت الهجرة غير الشرعية إلى الدول الأوروبية لهذا السبب، بحيث لا يتورع الشباب والفتيات عن القيام بأي شيء ليقيموا هناك. ومن هنا نشأت الدعارة الدولية والجماعات الإجرامية إذ يتم استغلال هؤلاء الشباب وطموحاتهم استغلالًا بشعًا.

وفي رواية شأبيب، في ربط علاقة المهاجرين بالأجانب تذكير بالعلاقات الداخلية ليهود دولة إسرائيل. فبعد تأسيس دولتهم على العنف، انقسموا داخلهم إلى معسكرات "السفارديم" و"الأشكناز" بحيث يتم معاملة يهود السفارديم القادم من إفريقيا والدول العربية بصورة أكثر دونية عن يهود الأشكناز القادم من أوروبا، كما أنهم يعاملون الأجناس الأخرى بداخلهم بعنف ووحشية⁽¹⁾. أيضًا فإن حديثه عن الخلافات بين المهاجرين العرب تذكر القارئ بالصراعات العربية البينية، فجامعة الدول العربية تشهد على أن مواقف العرب لا تتوحد إطلاقًا في الملفات الكبرى التي تهدد وجودهم مثل "إسرائيل" و"إيران" و"الجماعات الإرهابية" وغيرهم، لدرجة أن رآها البعض أنها ليست إلا منظمة "مُفصلة" من أجل تلبية احتياجات الأنظمة العربية الاستبدادية وليس تطلعات الشعوب العربية؛ وأنها لم تعد سوى اسم على ورق⁽²⁾.

وأخيرًا، فيما يخص روح المقاومة في الروايات، فالحق أن توفيق كان متفعلًا بثورة 25 يناير 2011، ووصف أيامها الأولى بأنها مثل "الحلم الجميل". فقد ظنّها في البدء ستكون ثورة بلطجية قبل أن يتفاجأ بتحضرها وكتب مقالته "شباب يفرح"، عندما شاهد تنظيف الشباب للشوارع في أعقاب الثورة. وكان يستعجب من أن موعد الثورة كان محددًا سلفًا أي كان بإمكان الأمن أن يوقفها لولا أنه لم يفعل، كان متيقنًا أنهم سيقطعون الإنترنت، لهذا فقد سارع بكتابة مقالته وقدمها للجريدة التي كان يرأسها إبراهيم عيسى لكي ينشرها حتى يثبت موقفه أنه مع الثورة منذ البداية، وحتى لا يقال إنه صمت طيلة الثورة ليعلم الطرف الرابع ثم تكلم. بل لقد سار في إحدى التظاهرات وكان في طليعتها لولا أنه أرهق من شدة التدافع، إلا أن موقفه تبدل بعدما وجد أن الثورة أصبحت "إدمان" أو "هواية" للبعض، وكتب عن هذا الأمر ليجد الشباب المحبين له يرسلون إليه خطابات شديدة اللهجة يخبرونه أنه لا يرى الصورة بوضوح، لقد رأى أن هناك مشكلة في هذه الثورة منذ بدايتها وهي حيرة الثوار في شكلها وما إن كان ينبغي أخذها على مسار "الثورة الفرنسية" أو أن تكون ثورة قانونية سلمية، ويشبه الثورة بالـ "مُطلقة" الحائرة في المحاكم العاجزة عن استرداد حقها بسبب تلاعب المحامين بها. وهكذا يرى الثورة تحولت إلى غليان لن يؤدي لاسترداد حق

(1) مروة محمد، "الأشكناز والسفارديم.. صراع طبقي يكشف الوجه القبيح لإسرائيل، القادمون من أوروبا يملكون الأموال والترفيه، والمهاجرون من الشرق نصيبهم الفقر"، بوابة فيتو، 19 ديسمبر 2014، تم الوصول إليه في 22 مايو 2022، الساعة 9 مساءً، متاح على: <https://www.vetogate.com/1384312>

(2) عماد عمر محمد عبد الكريم، "دور جامعة الدول العربية في حل القضايا العربية (2011-2017)"، رسالة ماجستير، (جامعة الشرق الأوسط بعمّان: كلية الآداب والعلوم، 2018)، ص 130.

الشهداء أو الأموال المنهوبة أو محاسبة أحد. لم يكن يهتم بأي تعقيدات سياسية ولا يرغب سوى في إعادة حق الشباب الذين قُتلوا بلا ذنب خلال الثورة. مع ذلك، فحتى مايو 2011 كان متفائلاً في المستقبل، ولقد كان يعتمد على شهادات الشباب الذين شاركوا في الثورة ويضيفها لمعلوماته مثل الشاب الذي راسله وأخبره أنه في أحد الأيام سمعوا من يناديهم لينقذوا مجموعة في شارع "محمد محمود" ولما ذهبوا تفاجأوا بالغاز المسيل للدموع، فأدرك الشاب أنه قد تم استدراجهم لهذه المصيدة فترجع.

ويرى توفيق أن هذا الشاب ثوري عن حق، فلقد كان يرى الثوري الحقيقي هو من يملك رؤية ثورية حقيقية، وكان على معرفة بمجموعة كتّاب وشباب في الإسكندرية يراهم ذوي رؤى ثورية واضحة، كما كان يُعدّ "محمد البرادعي" صاحب رؤية ثورية شاملة وأنه -أي البرادعي- قد نزل في جمعة "الغضب الأولى" يوم 28 يناير 2011، ويرى أن القائد الثوري لا يحتاج للنزول للثورة، بل يخطط لها. لكن بعد انتهاء الثورة، فقد رأى أن مصر أصبحت فرقاً متصارعة بحيث كتب مقالا اسمه "تحفّز" عن تحفّز عن طرف للآخرين، وكتب به أنه لو ذكر "حق الإخوان"، فسينبغي أن يلحقها بكلمة "أنا لستُ إخوانياً" أي ينبغي أن يعتذر لكل فصيل. ولقد فسر "غياب قبول الآخر" أنه بسبب تربية السابقين، وبسبب التعليم المصري القائم على "السمع والطاعة" حتى لو لم تكن المعلومات مضبوطة، إذ لا يؤهل هذا النمط التعليمي الطلاب للتفكير، بل يخرجهم مثل "جنود الأمن المركزي" الذين لا يعرفون كيفية التصرف دون أوامر؛ ولهذا ذكر أنه يعمل في رواياته وسلاسله على أن يكون بطلها هو "التفكير النقدي" و"التحليل العلمي" ويراهن على اختلاف الشباب الذين يقرأون له أنهم يتمتعون بالاتزان والعقلانية، مردداً أن "مصر بلا إصلاح في التعليم لن تجدي معها أي ثورة⁽¹⁾."

(1) "لقاء السحاب: إبراهيم عيسى يحاور د. أحمد خالد توفيق ود. نبيل فاروق"، قناة القاهرة والناس، أبريل 2015، تم الوصول إليه في 20 مارس 2022، متاح على: <https://www.youtube.com/watch?v=PZKOj41JVXI>، ملحوظة: الحوار ذاته في مايو 2011.

وبعد ذلك بعامين تقريباً، فقد انتابه التشاؤم من مصير الثورات العربية، وذكر في لقاء تلفزيوني أن الثورة فشلت في تحقيق أهدافها إذ أن النظم التالية لم تحقق طموحات الثوار. والحق أنه مثلما جيء في الجزء الأول من الكتاب، ففي أعقاب الثورة المصرية هذه، فقد زاد التضيق على حريات الأفراد السياسية والمدنية، وفي النظم الملكية العربية سيطرة تامة على الشعوب بحيث لا يستطيعون الثورة خصوصاً مع غياب البديل. ومن ناحية أخرى، فالشعوب أنفسهم كفرت بقيمة الثورة إذ سارع الناس للمطالبة بوقف التظاهرات بزعم أن خلع الرئيس قد تحقق وأن الوقت حان لاستكمال عجلة الانتاج⁽¹⁾. عنصر المقاومة في الروايات كان تشاؤمياً بسبب كونه هكذا في الواقع، بل إن رواية شأبيب شهدت تحول مكرم وسليم إلى الاستبداد ومنع الثورة، والثورة الوحيدة التي نجحت هناك انتهت بوضع مرتكبها على "خازوق" تذكيراً باغتيال سليمان الحلبي لكليبر خلال الحملة الفرنسية على مصر. بل إنه في هذه الرواية يذكر القراء ببناء دولة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية حيث تشدد الحكام على لشعوب لكيلا تنفلت خيوط الدولة الناشئة.

نأتي لآخر عنصر في ديستوبيا الروايات ألا وهي المآلات. فبالنسبة لمآل رواية يوتوبيا، فقد ناقشها أكثر من عمل أدبي مصنفًا الرواية بسببها بأنها "ديستوبيا نقدية" تتضمن نواة فنائها، وأن هذه النواة كانت "جابر"⁽²⁾. وذكر توفيق استوحاء لهذه الرواية من الحوادث التي قرأها ونبأت بدخول المجتمع المصري في عصر مبارك إلى مرحلة هائلة من توسع اقتصاد السوق الرأسمالي وتجلي لسطوة رجال الأعمال وازدياد فجوة الفقراء والأغنياء. كان في هذه الرواية متفائلاً وتمنّى ثورة الشعب قريباً لإنقاذ مجتمعهم من هذا المصير الأسود، وعندما وقعت ثورة 25 يناير 2011، سعد وقال أنه لم يتخيل أن يكون مؤلفاً عبقرياً في خياله لهذه الدرجة. فعقب الثورة وفي لقاء مع بلال فضل، ذكر تفاجؤه من نجاح روايته والتي كانت بالنسبة إليه مجرد "تجمعات صديدية" خلقه خوفه على مصر. إلا أنه في الوقت ذاته أشار آنذاك أن مع الصراعات التي وقعت بعد هذه الثورات، خصوصاً في تونس - ساعتها، فإنه بات عاجزاً عن توقع ما إن كانت الرواية ستحقق في مصر أم أنها ما زالت بعيدة⁽³⁾.

(1) "أحمد خالد توفيق ضيف نوران سلام في يوليو 2016"، برنامج بتوقيت القاهرة، يوليو 2016، تم الوصول إليه في 22 ديسمبر 2021، متاح على: <https://www.youtube.com/watch?v=m6Z3RwypIQw>

(2) Reem Resheq, Ahmad Y. Majdoub. Op. Cit., pp. 175, 190.

(3) "بلال فضل يحاور أحمد خالد توفيق في عصر الكتب"، عصر الكتب، 30 مايو 2011، تم الوصول إليه في 25 أبريل 2021، متاح على: <https://www.youtube.com/watch?v=b9Hcat1ygNM>.

على الجانب الآخر، فمآل رواية "مثل إيكاروس" في المدى البعيد حيث تطور الإنسان ليكون شبيهاً للآلة ثم تدمر البشرية والعودة للبداية، يشير إلى تأثير توفيق بالروايات الديستوبية خصوصاً رواية "آلة الزمن" لويلز الصادرة عام 1895؛ كما تعبر عن التطورات التكنولوجية المتسارعة الموجودة، والتي ليست جميعها تخدم أغراضاً سلمية وإنما أغراضاً عسكرية، فنشأة القنبلة الذرية كان تطوراً تكنولوجياً غير خريطة العالم. بل إن بعض الفلاسفة توقعوا أن الحرب العالمية الثالثة التي ستبدي البشرية ستكون نووية. وفي المدى القريب الذي يخص محمود، فتوفيق ذكر في أكثر من حوار صحفي أنه يقصد بهذه النهاية أن المعرفة الأكثر من الضرورة تهلك صاحبها⁽¹⁾. وهذا يرتبط بظاهرة اغتيال النواب وجنرالات المخابرات والجيش والتي يمكن تبريرها أحياناً أنهم عرفوا أكثر من اللازم.

وبالنسبة لمآل رواية "في ممر الفئران" على المدى البعيد حيث انقراض البشر، فكان هذا الأمر يرتبط بالنظريات التي شرحت انقراض الديناصورات، أي أنه ينبني على وقائع علمية. ومن ناحية أخرى بشرية، فالرواية تستعرض أزمة مثقف مصر وفي دول العالم الثالث عموماً المطحون تحت أنظمة مستبدة وفقر ومرض وجهل ولا يجد مخرجاً سوى بخلق يوتوبيا في غيبوبة. هذه النهاية تحاول الانتصار للمثقف في عالم لا يقدره. كما أن فشل ثورة الفئران هذه تعكس رؤية توفيق لفشل ثورة 25 يناير 2011. فقد ذكر في لقاء تلفزيوني أنها فشلت لسببين، الأول هو الحُكَّام الجدد الذين لم يحققوا أهدافها على الإطلاق، والسبب الثاني هو الشعب نفسه الذي لم يحافظ على حس الثورة عندما كان يطالب الثوار بعد فترة من الوقت بالرجوع لبيوتهم لكي تستمر عجلة الإنتاج. أيضاً، فقد كان يلاحظ استمرار فجوة العالم المتقدم - حيث نور العلم - والعالم المتخلف القابع في ظلام الحروب والقمح والفساد. فبعد صدور روايته هذه عام 2017، فقد ذكر أنه اتبع في هذه الرواية تقنية أدبية اسمها "إغلاق الدائرة" أي أنها بدأت وانتهت بالأسئلة لكن إلى حد ما تمت الإجابة عن بعض منها، فقد كان البطل يحتاج ليصبح طاغية أو أن يسيطر وينضم للظالمين لا المظلومين. وبالفعل لقد كان يعرف أن الرواية بها استقطاب بين "الأقلية المُنعمّة" و"الأكثرية المغلوبة على أمرها" تماماً كرواية "يوتوبيا" لأنه كان مدفوعاً بذات الحالة النفسية. فرغم اندلاع ثورة يناير 2011، فإنه ما يزال يجد الاستقطاب موجوداً، بل يزيد ولا يقل مثل الإعلانات التي تُذاع في شهر رمضان الفضيل حيث إعلانات

(1) "رصد: أحمد خالد توفيق: الخلاصة إذا عرف الإنسان أكثر من اللازم يحترق"، شبكة الرصد، 14 مارس 2015، تم الوصول إليه في 23 أبريل 2022، متاح على: https://www.youtube.com/watch?v=M1wzH_C4jRU.

لمجمعات سكنية شديدة الرفاهة يلحقها إعلانات التبرع للفقراء. كَانَ يشعر بأنَّ الفجوة تتسع وإن اعترف أنَّ نبرته في رواية "في ممر الفئران" كانت أكثر تشاؤماً من الرواية السابقة بسبب كثرة الإحباطات بعد "هزيمة الثورة"، بل أجابَ لما سئل إن كَانَ يرى الثورة فشلت، "مؤكد هُزِمَتْ لدرجة أنَّ حتَّى التوقيت عاد إلى ما كَانَ عليه فيما سبق الثورة، لها نقطة واحدة كسبناها وهي أن العين قد فُتِحَتْ ولن يغلقها شيء". وأكَّد أنَّ الرواية لم يكن بها تنبؤ بالثورة وإنما غضب، فوصف الرواية أنها "غاية الإحباط واليأس" بسبب انتصار الظالم، فبالنسبة إليه رواياته التي كتبها بعد الثورة هي "علاج نفسي" إذ يشعر بسواد داخلي ينبغي التخلص منه، والرواية الأخيرة كانت "صورة مضخمة تجريدية لفكرة الاستقطاب بين الفقر والغنى وأنه صار من الضعف هزيمة الموجودين على الجبال". كما كَانَ هو مثل "الشرقاوي" لا يؤمن بنجاح الثورة، مفسراً أنَّ الجموع هي التي ترفض الثوار لا الطغاة، "هذا ما رأيته بعد يناير، فكم ما تلقاه ثوار يناير من الشتم كان كبيراً.. كنت أعتبر أنَّ مع ثورة يناير فقد انتهت مشكلاتنا وأن رواية يوتوبيا قد أصبحت من التاريخ، لكن بعدها عدت لتشائمي وقلقي واعتقادي أن روح يناير قد أطفئت سريعاً". لقد اعتقد أنَّ عقب ثورة يناير 2011، حدث "غسيل عقول" إذ زانتُ المليونيات والاعتصامات وقطع الطرق حتَّى كره الناس العاديون الثورة، مثل البائعين الذين يرون أنَّ الثوار قد خربوا رزقهم وقوت يومهم، فوصف الأمر: "هناك رأي عام مشكك في الثوار بعد يناير لدرجة أن بعضهم أصبحوا يسمونها "كارثة يناير" وهو ما ناقشته رواية (في ممر الفئران) أنه يصعب القيام بثورة ما لم تغير عقلية الجماهير"⁽¹⁾.

أما بالنسبة للرواية الأخيرة، وهي شأبيب، فنهايتها استقاهها من واقع دولة إسرائيل. سابقاً تعرَّض اليهود للاضطهاد في المجتمعات الأوروبية لأسباب عدة، وبدلاً من أن يحاولوا تحقيق ذواتهم، قاموا بالاحتلال الإحلالي لفلسطين، شرعنوا وجودهم على أراضي فلسطين بأسس دينية وتاريخية واهية غير صحيحة سهلة التفنيد، حاولوا تزييف التاريخ بدس وقائع تثبت وجودهم، ولا يكفوا أيديهم عن الفلسطينيين من أجل الحصول على المزيد من المستعمرات، فيقتلون تارةً ويطردون تارةً، واستعانوا بالولايات المتحدة التي حتَّى هذه اللحظة ترعى مشروعهم، وأخيراً وليس آخراً، فهم من داخلهم مقسمون بناءً على الدول التي كانوا يقيمون فيها قبل هجرتهم لإسرائيل. أراد توفيق بروايته أن يوضِّح أنَّ الحل

(1) "أحمد خالد توفيق ضيف نوران سلَّام ففي يوليو 2016"، مرجع سبق ذكره

للاضطهاد الذي وقعَ على اليهود أنْ يردوه ويجبروا الأوروبيين على التأقلم مع وجودهم المختلف في مجتمعاتهم لا أنْ يغيروا على الأراضي المسالمة الأخرى ويلحقوا بها الضرر.

في هذا الإطار، يمكن الاستعانة بتقييمات لبعض المفكرين للتجربة الصهيونية في فلسطين. فمن ناحية تافؤلية، رأى بعض المفكرين أصلاً أنْ بالنظر إلى أهداف الحركة الصهيونية الأصلية، فنجاحها محدود. فمن ناحية الهجرة، فإنَّ من بينَ 16 مليون يهودي - حتى عام 1997 - هاجر فقط 4 مليون يهودي لفلسطين بينما استقرَّ الباقون في أوطانهم أو انتقلوا للولايات المتحدة ودول أخرى. بل إنَّ آخر عملية تهجير كانت في ظل الحرب الباردة من بعض دول أوروبا الشرقية من أنحاء الاتحاد السوفيتي السابق وإنْ كانَ لهذه الهجرة تداعياتها السلبية لضيق مساحة الدولة. ويمكن القول أنَّ الحركة حققتُ نجاحًا نسبيًا في هدف "الاستيطان والتوسع" بحيثُ قبل عام 1947 كانت تسيطر على 7% من الأراضي الفلسطينية ثمَّ بعدَ قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام 1947، حصلتُ على 54% من الأراضي، وعقب حرب 1948 - مع العرب بعد إعلان نشأة دولة إسرائيل - احتلت 79% من الأراضي، وفي نكسة 1967 حصلتُ على كل فلسطين، مع أضعاف مساحتها في هضبة الجولان وسيناء وبعض الأراضي الأردنية، ولكنها فيما بعدَ كانت قد اضطرَّت للتراجع عن بعض هذه الأراضي العربية بعدَ حرب 1973. أمَّا بالنسبة لركن "نفي الأغيار"، ففي الفترة منذ بداية القرن العشرين حتَّى عام 1993 تجاهلوا وجود الشعب الفلسطيني الرسمي تمامًا حتَّى وقع الاعتراف المتبادل بينَ حكومة إسرائيل ومنظمة "التحرير الفلسطينية" - كمثل عن الشعب - بالإضافة لاتفاقية "أوسلو" التي أعادتُ للشعب وجوده في الخريطة السياسية⁽¹⁾. ليس هذا وحسب، بل إنَّ بعض المفكرين لاحظوا مثلًا أنَّ المسؤولين عن دولة إسرائيل لم يستطيعوا - رغم الدعم الغربي - أنْ يحققوا بيئة أمنة لليهود المهاجرين⁽²⁾، وأنَّ بدأ - حتى عام 1997 - انقسام في الداخل الإسرائيلي بينَ اليهود حولَ "السلام مع الدول العربية"، وتخافتُ في حماسهم نحو الطموحات الخيالية، مع حدوث "امتزاج اجتماعي" بينَ اليهود والعرب الموجودين في إسرائيل في المهن والشركات والأحزاب. بل إنَّها دولة "علمانية" يعلنُ بعض حُكَّامها أنهم

(1) محمود عباس، مرجع سبق ذكره، ص 18-23.

(2) أحمد صدقي الدنجاني، "شهادة د. أحمد صدقي الدنجاني"، في توفيق أبو بكر. مرجع سبق ذكره، ص 27.

لا يؤمنون أصلاً، مما يجعلهم يقللون تمسكهم بالحركة الصهيونية التي تعول على التعصب الديني لتحقيق أغراضها⁽¹⁾.

ولقد شاركهم عبد الوهاب المسيري في رؤية احتمالية زوال دولة "إسرائيل" بناءً على ما قرأه من معطيات واقعية، إذ حددَ في 2008 بعض مؤشرات تدل على هذا الزوال أهمها تآكل المنظومة المجتمعية للدولة العبرية، إذ فشل ما يُعرف باسم "الصهر" الذي تمناه ديفيد بن جوريون أي حدوث انصهار للمجتمع الإسرائيلي في بوتقة الهوية القومية الموحدة البعيدة عن الهويات المتعددة التي أتى بها اليهود من أنحاء العالم، بل إنَّ هناك عوائق أمام "دمج" عرب 48 والأقليات بداخل المجتمع الإسرائيلي، مع وقوعه في عدد من الصراعات الفكرية والعرقية المستقطبة. غير هذا، يرى أنَّ هناك فشلاً في تغيير السياسات الحاكمة مما خلقَ هواجس بينَ مفكري ومثقفي إسرائيل من حدوث انهيار الداخل الحزبي والخوف من التمرد في مؤسسات الجيش والاستخبارات.

بالإضافة إلى ذلك، فهناك زيادة لعدد المهاجرين لخارج إسرائيل وهو ما سجلته السجلات الإسرائيلية إذ حتى 2008 رحلَ مليون إسرائيلي من إجمالي 6 ملايين يهودي أتاه، بل في عام 2007 خرجَ أكثر من 18 ألف إسرائيلي مع انخفاض معدلات الهجرة إليها. وقد فسر هذه الهجرة عنها أنها بسبب عدم يقينهم في المستقبل لاستمرار شعورهم بعدم انتمائهم للمنطقة، فحينما سئل الرئيس الإسرائيلي "شيمون بيريز" إذا كانت إسرائيل سوف تستمر لستين عاماً، فقد سألَ محدثه إذا كانت ستبقى أصلاً لعشر سنوات قادمة⁽²⁾.

علاوة على كل ما سبق، فقد وقعَ تداعي لنظرية "الإجماع الوطني" بسبب اتساع الفجوة بينَ المتدينين والعلمانيين، ووجود عدااء دائم بينَ الأحزاب الدينية الشرقية والغربية والوسطية. بل لقد أخفقت إسرائيل في توضيح ماهية "الدولة اليهودية" بخروج بعض الحاخامات يؤكدون أنَّ "إعلان الدولة اليهودية" سيؤدي لانهارها بناءً على معتقداتهم. كما أنَّ الشباب الإسرائيلي يعزف عن المشاركة في الحياة العسكرية لرؤيتهم ألا مبرر للاستمرار في احتلال أراضي غيرهم بل ويتساءلون إنَّ كانت حروبهم "خيار" أم "احتلال". بالإضافة إلى هذا أنَّهم -رغم بناء المستوطنات- ما زالوا عاجزين عن التخلص

(1) جمال الشاعر، مرجع سبق ذكره، ص 35.

(2) إيمان عبد النعم، "المسيري يحدد 10 علامات لزوال إسرائيل"، فلاسفة العرب، 17 مايو 2008، تم الوصول إليه في 20 مايو 2022، متاح على:

http://www.arabphilosophers.com/Arabic/aphilosophers/accontemporary/accontemporary-names/Abdul-Wahab%20Elmessiri/Material/IOL_10_Signs_Israel_Decay.htm

من السكان الأصليين إذ أن الوضع الديمغرافي ما زال لصالح الفلسطينيين، وأكّد المسيحي أن بينما نجحت الولايات المتحدة وأستراليا في التخلص من السكان الأصليين، لم تستطع إسرائيل. أخيراً، أشار المسيحي إلى أن المقاومة الفلسطينية ما زالت مستمرة وهي "جرثومة النهاية" لإسرائيل، مقتبساً قول أحد القادة الإسرائيليين أنهم لا يستطيعون رصد صواريخ "القسام" البدائية ويتأهبون لمبادلة المقاومة بإعطائهم صواريخ متطورة على أن يأخذوا هذه الصواريخ البدائية. ونهايتاً فقد انتبه إلى بعض الآراء التي كانت تتحدث في فترة 2008 عن أن إسرائيل ليست سوى بيدق في يد القوى الاستعمارية وأمريكا لتحقيق أهدافهم بحيث مع انتهاء هذه الأهداف، فلسوف تنتهي إسرائيل⁽¹⁾.

من ناحية أخرى، فهذه النهاية أيضاً يمكن النظر إليها أنها وقفة تأمل لحال العرب الذين بالفعل يقع عليهم اضطهاد في العديد من الدول من الجهات الشعبية خاصة منذ حادثة الحادي عشر من سبتمبر ومنذ ثورات الربيع العربي التي خلقت الكثير من النازحين واللاجئين إلى بلاد أوروبا. ومن ناحية أخيرة، فهي في تخيلها أن المشروع سيفشل بسبب الصراعات الأيديولوجية (الدولة الدينية في مواجهة العلمانية) والطبقية، تقوم على الواقع العربي الذي يعمه بالفعل الفشل في الوصول إلى أي توافقات داخلية تقوّي من مركز العرب في الساحة الدولية. الخلاصة أن هذه الرواية تقوم على تمني الجميع بداية جديدة يتخلصون فيها من الحكم الظالم العنصري، لكنهم لم ينجحوا لأن بداخلهم بذرة فشلهم سواء في الصراعات التي لا تنتهي أو في أن فكرة "الاحتلال الإحلالي" أصلاً فكرة فاشلة تقوم على الدمية كحال الولايات المتحدة التي لم تقم إلا لأنها قضت تماماً على الهنود الحمر، أو كحال الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الذي حتى الآن لا يصل إلى حل عادل ويموت الفلسطينيون كل يوم خاصة والولايات المتحدة بسياساتها لا تنصفهم أبداً وتوالي إسرائيل كل الدعم.

ولا يمكن للكتاب أن يُختتم بدون وضع بعض الملاحظات النهائية التي توصلت إليها الكاتبة من دراستها لموضوع الكتاب. فمن ناحية أولى، لاحظتُ الكاتبة أن توفيق صدّق حينما قال أنه توجه للرواية الأدبية بدلا من سلسله من أجل مناقشة مسائل سياسية. فكل رواية تعمقت في قضية سياسية كبرى، رواية يوتوبيا والسيناريو المحتمل لتفاقم فجوة الأثرياء والفقراء في المجتمع المصري، رواية مثل إيكاروس وإشكالية الاستبداد ومصير الثورات التشاؤمي في مصر وفي العالم قريبا وبعيدا، رواية "في ممر الفئران" ومسألة الاستبداد العالمي، وأخيرا رواية شآبيب وإشكالية الإسلاموفوبيا والاحتلال الإحلالي. رغم وجود مناحي اجتماعية واقتصادية في الروايات، فقد كانت خائفة للسياق السياسي.

من ناحية ثانية، كانت هيمنة الملامح الديستوبية في الروايات على الملامح اليوتوبية ملحوظة، فمهما بدأت الروايات بالمساعي اليوتوبية، كان تركيزها الأساسي على فسادها وتوازيها مع ملامح ديستوبية. لا يمكن الإقرار بما إذا كان توفيق مفكر يوتوبي أم ديستوبي لأنه أمر يستدعي فحص جميع أعماله وهو ما يفوق نطاق الكتاب. من ناحية ثالثة، قد تبدو رواية "شآبيب" إعادة سرد لتاريخ الدولة الصهيونية على الأراضي الفلسطينية، وهو ما قد يراه البعض نقصا في إبداع توفيق، فالحقيقة أن بالنظر إلى أن أغلب جمهور توفيق من الشباب العربي والمصري، وبالنظر إلى أن الرواية ظهرت في سياق علا فيه صبت التطبيعات مع الكيان الصهيوني، فينبغي القول أن الرواية كانت موفقة في محاولتها لأن تذكر هؤلاء الشباب بتاريخ إسرائيل وأن وجودها غير شرعي وإنما احتلال إحلالي.

من ناحية رابعة، يمكن القول أن توفيق محافظ من الناحية الدينية والاجتماعية بدليل نفيه لصفة "اللاأدرية" التي ألحقها به الكاتبة "سوزان شاندر" في كتابها "أب الثورة"، ولقد تبدت هذه النزعة الدينية المحافظة في وجود فكرة "العقاب الإلهي" في الروايات. في رواية يوتوبيا، انتهت مدينة يوتوبيا بمجونها بثورة جياح؛ وفي رواية مثل إيكاروس، انتهى الديكتاتور "مفدي الديب" بانفجار قلبه نتيجة للرياضة المفرطة. وانتهى العالم الدارويني "بروفسور بارتديج" بأن عرف مآل العالم دون أن تفيدته المعرفة ومات مفزوعا. وفي رواية شآبيب، فالدولة القائمة على دماء السكان الأصليين وعلى أسس غير شرعية انتهت بثورة بركان. ولم تكن ثورة البركان هذه مجرد نهاية للدولة وإنما كذلك كانت تذكير للمهاجرين بفجاعة مشروعهم القاتل وأن عليهم العودة لبلادهم

الأوروبية والحصول على حقهم في الحياة بدلا من الإغارة على سكان جزر أخرى وذبحهم والقضاء على حياتهم بهذا الشكل المأسوي.

من ناحية خامسة، كانَ توفيق منتمياً للطبقة الوسطى المتعلمة ميسورة الحال، وقد كانَ مخلصاً في التعبير عن أزمات هذه الطبقة في رواياته. غالبية شخصياته انتمَتْ لهذه الطبقة سواء جابر وصفية في رواية يوتوبيا، أو محمود السمنودي وأسرته وطبيبه النفسى والصيدلاني مصطفى أبو الحسن وريتشارد دواير وبروفسور بارتدج في رواية مثل إيكاروس، أو الشرقاوي ورامي وفاتن وماهر ونجوان ومها في رواية في ممر الفئران، أو محمد عدنان وأمينة وبروفسور مكرم في رواية شأبيب. من ناحية سادسة، ينبغي التنويه أنَّ توفيق لم يكن دارساً للعلوم السياسية ولم يسبق له العمل في مجال البحث السياسي وبالتالي، فلا بأس أنَّ آراءه المذكورة في رواياته كانت شعبية وليست أكاديمية استنتجها من معاصرتة للمجتمع المصري والعربي والعالمي. والحق أنَّ في بعض الأحيان تكون الآراء السياسية الشعبية أصدق من المقالات السياسية الأكاديمية الخاضعة لاعتبارات مهنية. من ناحية سابعة، كانَ هناك تركيز من توفيق على وجه الخصوص للولايات المتحدة الأمريكية وأتى على ذكرها في الروايات الأربع بصورة سلبية قاتمة.

ومن ناحية أخيرة، بدأ تأثر توفيق بالأساطير الإغريقية والأدباء والشعراء الآخرين سواء معاصريه أو سابقيه وسواء من العرب أو من الغرب. لقد سَمَّى روايته "مثل إيكاروس"، تيمناً بأسطورة "إيكاروس"، وذكر أسطورة "الليموريا" في الرواية ذاتها واصفاً أصولها وحكايتها، وفي رواية "ممر الفئران"، استعان بأسطورة "بروميثوس" الذي سرق النار من معبد الأوليمب ليهدبها للبشر فنال سخط الآلهة وعقابهم. واستعان في بداية رواية يوتوبيا باقتباس من "برتول بريخت" يقول فيه "حقاً إنني أعيشُ في زمن أسود، الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها، الجبهة الصافية تفضح الخيانة، والذي ما زال يضحك فهو لم يسمع بعد النبأ الرهيب، أي زمن هذا؟⁽¹⁾. كما اقتبس أبيات من شعر "عبد الرحمن الأنودي"، إحداها ليصف الانقسام الطبقي الفج، والأخرى ليحث على الثورة، وذكر رواية "مزرعة الحيوان" لجورج أورويل، وذكر أنَّ جابر كان يحذر المحيطين بحدوث الاستقطاب المجتمعي مستخدماً نظريات جمال حمدان وروايات ويلز وأورويل. وفي رواية "مثل إيكاروس"، شبه محمود ببطل رواية "حكايات الغريب" لجمال الغيطاني، وذكر رواية "الكرنك" لنجيب محفوظ ليصف خوف الطبيب النفسى

(1) أحمد خالد توفيق، "رواية يوتوبيا"، مرجع سبق ذكره، ص 7.

من السلطة المستبدة، واقتبس بعض الأبيات من مسرحية "مأساة الحلاج" لصالح عبد الصبور". وفي رواية "في ممر الفئران"، انشغل الشرقاوي بقراءة رواية "الشحاذ" لنجيب محفوظ، واستعان توفيق بسيرة "جان بول سارتر" في يأسه من الثورة، وذكر رواية "1984" لجورج أورويل مشبهاً القومندان بالأخ الأكبر فيها. وفي رواية شأبيب، استعان بشعر فاروق جويدة واصفاً بها شعور محمد عدنان عند خروجه من سجنه؛ وذكر رواية "ثلاثية غرناطة" كشاهد على اضطهاد المسلمين في الأندلس، وأتى على سيرة رواية "موسم الهجرة للشمال" للطيب صالح، ورواية "روبنسون كروسو" لدانيال ديفو. وأخيراً استحضر عناوين بعض الكتب التي وصفها أنها ثورية مثل رواية "كوخ العم توم" لـ "هاريت بيتشر ستاو" (1852) وكتاب "الإسلام وأصول الحكم" لـ "علي عبد الرزاق" (1925) و"رأس المال" لـ "كارل ماركس" (1867)، واقتبس شعر "محمود درويش" الذي يقول "أنا عربي، أنا اسم بلا لقب، أبا من أسرة المحراث، وجدي كان فلاحاً بلا حسب ولا نسب"⁽¹⁾ كشعار للعروبة. والمثير للتعجب هو أنَّ أغلب هذه الاقتباسات إن لم يكن جميعها كان متشائماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) نفس المرجع السابق، ص 63.

قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
7	المقدمة
15	الفصل الأول: نشأة أحمد خالد توفيق ودراسته واهتماماته وكتابه
17	أولاً: النشأة والدراسة
21	ثانياً: اهتمامات أحمد خالد توفيق
26	ثالثاً: كتابات أحمد خالد توفيق
29	رابعاً: موقفه من النقد الأدبي
30	خامساً: سمات كتابة أحمد خالد توفيق الأدبية
41	الفصل الثاني: روايات أحمد خالد توفيق بين الأدب المصري والعربي والعالمي
43	أولاً: خصائص الأدب المصري والعربي المؤثرة في روايات أحمد خالد توفيق
56	ثانياً: الاتجاهات الفكرية العالمية المؤثرة في روايات أحمد خالد توفيق
63	الفصل الثالث: السياق السياسي العالمي والإقليمي والمحلي
65	أولاً: السياق السياسي العالمي
71	ثانياً: السياق السياسي الإقليمي (العربي)
77	ثالثاً: السياق السياسي المحلي (المصري)
87	الفصل الرابع: السّياق الاقتصادي-الاجتماعي العالمي والإقليمي والمحلي
89	أولاً: السياق الاقتصادي - الاجتماعي العالمي
99	ثانياً: السياق الاقتصادي - الاجتماعي الإقليمي (العربي)
103	ثالثاً: السّياق الاقتصادي الاجتماعي المحلي (المصري)
117	الجزء الثاني: اليوتوبيا في روايات أحمد خالد توفيق
127	الفصل الأول: أسباب إنشاء اليوتوبيا في الروايات
129	العيش بعيداً عن الفقراء
130	اتقاء التّمزّ والاضطهاد والبحث عن الذات والتميز
149	الفصل الثاني: آليات الوصول إلى اليوتوبيا وملامحها في الروايات
151	أولاً: آليات الوصول إلى اليوتوبيا
163	ثانياً: ملامح اليوتوبيا

179	الفصل الثالث: التوازي بين اليوتوبيا والديستوبيا في الروايات
181	توازن نابع من عوامل بشرية خالصة
187	توازن نابع من قوى خارقة للطبيعة (أو طبيعية) خالطتها عوامل بشرية
197	الجزء الثالث: الديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق
205	الفصل الأول: ملامح الديستوبيا السياسية والقانونية في الروايات
207	مصر كابوسي للعرب والمنطقة العربية
209	الاستبداد
216	مصادر زائفة للشرعية
231	الفصل الثاني: ملامح الديستوبيا الاقتصادية والاجتماعية في الروايات
233	أزمة الطاقة
234	أزمة الفقر في مواجهة البذخ
238	أزمة في التعليم بأنواعه وفي سوق العمل
263	الفصل الثالث: محاولات المقاومة ومآلات الديستوبيا في الروايات
265	أولاً: محاولات المقاومة في الروايات
277	ثانياً: مآلات الديستوبيا في نهايات الروايات
291	الخاتمة: ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في روايات توفيق وسياقه

إنجى خالد أحمد

مدرس مساعد بقسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

المؤهلات العلمية:

- بكالوريوس الشعبة الإنجليزية، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (أولى أوائل الدفعة للسنوات الأربع)، 2018.
- ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، بعنوان "ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في روايات أحمد خالد توفيق".

الخبرات العملية:

- الحصول علي بعض الجوائز في العديد من الاعمال الادبية مثل مسابقة "حكياتنا للقصة القصيرة".
- تخصصها الدقيق هو الفكر السياسي والنظرية السياسية

نُشر لها :

- رواية ورقية بعنوان "نظرة إلى وجهك الجميل"، وكانت من الروايات الأعلى مبيعا. في معرض القاهرة الدولي، 2023 .
- العديد من المقالات السياسية والأدبية في موقع "إضاءات الالكترونية"، وفي مجلة "النخبة" الصادرة عن كلية الاقتصاد جامعة القاهرة.
- بعض القصص القصيرة المنشورة ورقيا وكترونيا.

للتواصل: ingy.khaled@feps.edu.eg

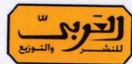
يقدم هذا الكتاب قراءة جادة ومتعمقة في أدب د. أحمد خالد توفيق، وهي دراسة تسعى إلى الوقوف على السمات التي جمعت ما بين أعمال الكاتب الراحل الروائية وخاصة ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا كخصائص أساسية رسمت وشكلت عالم أحمد خالد توفيق ومشروعه الأدبي والخيال السائد في رواياته، ويتخذ الكتاب أعمال د. أحمد خالد توفيق نموذجاً أمثل يفسر ويناقش مفاهيم اليوتوبيا والديستوبيا التي استحدثت نوع جديد من الأدب شكل مساحة كبيرة في تاريخ الأدب العالمي والعربي.

تناقش الدراسة مفهومي اليوتوبيا والديستوبيا؛ وكيف استطاع المفهوم الثاني التغلب على المفهوم الأول مع مرور الزمن؛ واكتساح الأدب الديستوبي للرواية العربية، ومن أهمها روايات أحمد خالد توفيق. والنظر في الأسباب التي دفعت مفهوم الديستوبيا إلى التراجع حتى طغى على مفهوم اليوتوبيا بصورة كبيرة في الرواية السياسية العربية عامة وروايات أحمد خالد توفيق خاصة. وهو ما يضع أعمال د. أحمد خالد توفيق تحت نظرة موضوعية ومختلفة تفسر الرؤى المتباينة حول أدبه، والأسباب المختلفة لحضوره اللافت للنظر والذي يثير التساؤلات والفضول حول الأديب المفضل للأجيال الجديدة والذي اختاروه ليكون "العرب" الذي يقدم لهم ما يبحثون عنه.

بلا محمد
تصميم الغلاف



مكتبة
t.me/soramnqraa



60 شارع النصر المعنى 11451 - القاهرة
ت: 27921943 (+202) 27954329 - فاكس: 27947566 (+202)
www.alarabipublishing.com.eg